الرواية التي كسرت الرقم القياسي في المبيعات - الجارديان

فَتَاةُ القِطَار



17.2.2016

رواية

بولا هوكينز

ترجمة: الحارث النبهان

أنتَ لا تعرِفها ... لكنّها تعرِفُك



بـولا هوكينـز

فتـاة القطار

ترجـمـة: الحـارث النبـهـان



بولا هوكينز

فتاة القطار

ترجمة: الحارث النبهان

الكتاب: فتاة القطار / رواية
المؤلف: بولا هوكينز
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 392 صفحة
الترقيم الدولي: 978-977-6483-47-7
رقم الناشر: 2015/17739
الطبعة الأولى: 2015

هذه ترجمة مرخّصة لرواية:
THE GIRL ON THE TRAIN
by **Paula Hawkins**

الناشر:



منشورات الرمل – مصر

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8–شقة 82

توزيع دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس
cairo@dar-altanweer. com
www.dar-altanweer.com

إلى كيت

إنها مدفونة تحت شجرة بتولا فضية، ناحية سكة القطار القديمة. شاهدة قبرها كومة من الحجارة... حقاً، لا أكثر من كومة صغيرة من الحجارة. ما كنت أريد لفت الانتباه إلى مكان دفنها؛ لكني لم أستطع تركها من غير ذكرى. ستنام آمنة هناك من غير أن يزعجها أحد؛ لا صوت إلا غناء الطيور وقعقعة قطارات عابرة.

واحد للأسى، اثنان للفرحة، ثلاثة لفتاة. ثلاثة لفتاة. سأبقى عند الثلاثة؛ لا أستطيع المضي أكثر من هذا. أصوات تملأ رأسي، وفمي مليء دماً. ثلاثة لفتاة. أستطيع سماع طيور العقعق، إنها تضحك، تسخر مني، بقوقأة صاخبة. إنه فأل؛ فأل سيئ. أستطيع رؤيته الآن، أسود في ضياء الشمس. لا أقصد الطيور، بل هو شيء آخر. هنالك شخص قادم. شخص يكلّمني. انظري الآن! انظري الآن ما أجبرتني على فعله!

ريتشل

الجمعة، 5 تموز\يوليو 2013

في الصباح

كومة ملابس إلى جانب سكة القطار. شيء لونه أزرق فاتح ـ لعله قميص ـ متداخل مع شيء أبيض وسخ. لعله بعض القمامة... لعله شيء سقط من حمولة قطار من القطارات في هذه الأجمة المشعثة الصغيرة على حافة الطريق. أو لعله شيء تركه المهندسون الذين يعملون على هذا الجزء من سكة القطار. كثيراً ما يأتي المهندسون إلى هنا. أو لعله يمكن أن يكون شيئاً آخر. كانت أمي تقول لي إن لديّ مخيّلة مفرطة النشاط. كان توم يقول هذا أيضاً! الأمر ليس بيدي! أرى شيئاً مهمَلاً ملقًى هنا أو هناك، قميصاً وسخاً أو فردة حذاء وحيدة، فلا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في الفردة الأخرى، وفي القدمَين اللتَين كانتا تنتعلانهما.

اهتزّ القطار، وكشطت عجلاته السكة عائدةً إلى الحركة. اختفت كومة الملابس الصغيرة عن ناظري، ورحنا نتقدم صوب لندن متحركين بسرعة عَدّاء نشيط. أطلق شخص في المقعد الذي خلفي زفرة انزعاج يائس. إن قطار الثامنة وأربع دقائق، القطار البطيء من آشبوري إلى إيستون قادر على امتحان صبر أكثر المسافرين اعتياداً عليه. من المفترض أن تستغرق الرحلة أربعاً وخمسين دقيقة، لكنها نادراً ما تكتفي

بذلك. إن هذا المقطع من السكة قديم وبالٍ تعطّله مشاكل الإشارات وأشغال هندسية لا تنتهي.

مضى القطار قُدُماً، ثم مَرّ مهتزّاً بمستودعات وخزان مياه وجسور وسقائف وبيوت متواضعة على الطراز الفيكتوري تُدير ظهورها إلى سكة القطار.

أسندت رأسي إلى نافذة العربة. ورحت أنظر إلى هذه البيوت تجري أمامي مثل صور متعاقبة في فيلم تمَّ تسريعه. أرى هذه البيوت كما لا يراها غيري؛ بل إن أصحابها أنفسهم لا يرونها من هذه الزاوية. أحظى، مرتين كل يوم، بنظرة إلى حياة أشخاص آخرين... لحظاتٍ فقط. ثمّة شيء يريح النفس في رؤية أشخاص غرباء آمنين في بيوتهم.

رُنّ هاتف أحد الأشخاص؛ صوت أغنية مندفعة مرحة مشجّعة. تباطأ صاحب الهاتف في الإجابة. وراحت تلك الأغنية تصدَح وتصدَح من حولي. أستطيع أن أشعر برفاق الرحلة المسافرين معي يتململون في مقاعدهم، يقلّبون صفحات جرائدهم، ينقرون على مفاتيح حواسيبهم المحمولة. ترنّح القطار وتمايل منعطفاً، ثم تباطأت حركته عند اقترابه من إشارة حمراء. حاولت ألّا أرفع رأسي لأنظر؛ حاولت القراءة في الجريدة المجّانية التي وزّعت علينا في المحطة؛ لكن الكلمات غامت أمام عينَيّ، ولم يفلح شيء في إثارة اهتمامي. في رأسي، لا أزال قادرة على رؤية تلك الكومة الصغيرة من الملابس راقدة عند حافة سكة القطار... متروكة وحدها.

في المساء

فار الجن الممزوج بالتونيك مندفعاً حتى فتحة العبوة عندما رفعتها إلى فمي وأخذت رشفة منها. كان بارداً لاذعاً مثل طعم أول عطلة أمضيتها مع توم في قرية صيادين على ساحل بلاد الباسك عام 2005.

كنا نسبح صباحاً مسافة نصف ميل حتى الجزيرة الصغيرة في الخليج؛ ثم نمارس الحب على شواطئ خَفية سرية. وكنا نجلس بعد الظهر في أحد البارات نشرب الجِنّ القوي اللاذع مع التونيك ونراقب جماعات من لاعبي كرة القدم على الشاطئ يلعبون ألعاباً فوضوية فوق رمال ترك المّدّ آثاره عليها.

أخذت رشفة أخرى، ثم أخرى. فرغ نصف العبوة الآن؛ لكن لا بأس! لديّ ثلاث غيرها في كيس من النايلون عند قدمَيّ. إنه يوم الجمعة... وهكذا، لست مضطرة إلى الإحساس بالذنب لأنني أشرب في القطار. الشكر لله، إنه يوم الجمعة... هنا يبدأ المرَح!

سوف تكون نهاية أسبوع لطيفة. هكذا يقولون. شمس جميلة، وسماء من غير غيوم. في سالف الأيام، كان يمكن في يوم مثل هذا أن نذهب بالسيارة إلى غابة كورلي مع بعض الطعام وبعض الجرائد؛ ثم نُمضي بعد الظهر كله مستلقين على بطانية تحت أشعّة الشمس المبرقشة، ونشرب النبيذ. أو لعلنا يمكن أن نظل هناك فنقيم حفل شواء مع الأصدقاء؛ أو نذهب إلى ذا روز ونجلس في حديقة البيرة فتتوهّج وجوهنا بفعل الشمس والكحول عند اقتراب المساء، ثم نعود إلى البيت شابكين ذراعَينا، ونغفو على الأريكة.

أشعّة شمس جميلة، وسماء من غير غيوم، ولا أحد ألعب معه، ولا شيء أفعله. يصبح العيش هكذا، مثلما أعيش الآن، أكثر صعوبة في الصيف عندما يكثر ضياء الشمس وتتراجع مساحة الظلمة... عندما يخرج الجميع، هنا وهناك... عندما يصبح كل شخص سعيداً إلى درجة هجومية فاضحة. شيء مضنٍ، شيء يجعلك حزيناً إن لم تكن جزءاً منه.

لا تزال عطلة نهاية الأسبوع ممتدة أمامي؛ ثمان وأربعون ساعة فارغة يجب أن أملأها. أرفع العبوة إلى فمي من جديد... ما عاد فيها أيّ قطرة.

الاثنين 8 تموز\يوليو 2013

في الصباح

تجعلني العودة في قطار الثامنة وأربع دقائق أشعر بانفراج. ليس الأمر أنني لا أطيق انتظار الوصول إلى لندن وبدء أسبوع العمل، بل أنا لا أريد أن أكون في لندن أصلاً. لا أريد إلا أن أجلس في مقعد القطار الطري الناعم الخفيض، وأشعر بدفء أشعة الشمس منصَبّةً عبر النافذة، وباهتزاز العربة أماماً وخلفاً، ثم أماماً وخلفاً... ذلك الإيقاع المريح لعجلات القطار على السكة. أفضّل أن أكون هنا أنظر إلى البيوت عند سكة القطار... أفضل أن أكون في هذا المكان أكثر من أي مكان آخر.

ثمة إشارة معطلة على هذا الخط، عند منتصف طريق رحلتي تقريباً. أظن أنها لا بد أن تكون معطلة لأنني أراها حمراء دائماً. نتوقف عندها معظم الأيام. نتوقف لثوانٍ معدودة أحياناً، ودقائق لا تنتهي في أحيانٍ أخرى. إذا كنت جالسة في العربة (د)، وهذا ما أفعله غالباً، ثم توقف القطار عند تلك الإشارة (هذا ما يفعله معظم الأحيان)، فإنني أحظى بمشهد ممتاز للبيت الأثير عندي، البيت رقم 15.

البيت رقم 15 يشبه البيوت الأخرى الموجودة على هذا المقطع من سكة القطار: بناء فيه بيتان متلاصقان على الطراز الفيكتوري، ارتفاعه طابقان، مطلٌ على حديقة ضيّقة معتنى بها تمتد نحو عشرين قدماً ثم تنتهي بنوع من سياج تقع خلفه بضعة أمتار من أرض لا يملكها أحد... ثم تأتي سكة القطار. أعرف هذا البيت عن ظهر قلب. أعرف كل قرميدة فيه. أعرف لون الستائر في غرفة النوم العلوية (لون بنّي فاتح عليه رسوم مطبوعة بالأزرق الغامق). وأعرف أن الطلاء متقشّر على إطار نافذة الحَمّام؛ وأن ثمة أربع قرميدات مفقودة من قسم من السقف إلى الجهة اليمنى.

وأعرف أن ساكنَيْ هذا البيت، جيسون وجِس، يخرجان في أمسيات الصيف الدافئة من النافذة الخفيضة الكبيرة ليجلسا على شرفة تمت إضافتها فوق امتداد سقف المطبخ. إنهما زوج ذهبي... رائع! رجل داكن الشعر متين البنية، قوي، لطيف، عطوف... له ضحكة رائعة. وأما هي فامرأة عصفورة صغيرة، امرأة جميلة، شاحبة الجلد، لها شعر أشقر جزَّته قصيراً. إن لعظامها بنية مناسبة لهذا النوع من الجمال؛ ولها وجنتان بارزتان مرشوشتان بالنمَش، وفكّ جميل.

رحت أبحث عنهما بينما كنا عالقين عند الإشارة الحمراء. غالباً ما تكون جس هناك، في الخارج، عند الصباح، في أوقات الصيف خاصة. تكون جالسة... تشرب قهوتها. أحياناً، عندما أراها هناك، أشعر أنها تنظر إليّ، تبادلني النظر. وأود أن ألوِّح لها بيدي. لعلي أفرط في التركيز على ذاتي! لا أرى جيسون دائماً فهو يغيب كثيراً، في العمل. لكن حتى إذا لم يكونا هنا، فإنني أفكر في ما يفعلانه الآن. لعلهما قرَّرا هذا الصباح أن يحظيا بعطلة إضافية؛ ولعلها ظلت مستلقية في السرير بينما ذهب جيسون لإعداد الفطور. أو لعلهما ذهبا للركض معاً لأن هذا ما يفعلانه كثيراً. (كنا نركض معاً أيام الأحاد، أنا وتوم. كنت أركض بأكثر من سرعتي المعتادة؛ وكان يركض بنصف سرعته تقريباً... فقط حتى نتمكن من الركض جنباً إلى جنب). أو لعل جس في الأعلى، في الغرفة الإضافية... لعلها ترسم، أو لعلهما في الحمام معاً، تحت تيار الماء المندفع... يداها مضغوطتان على الجدار، وكفّاه على ردفيها.

في المساء

كنت مستديرة صوب النافذة بعض الشيء مولية بقية العربة ظهري. فتحت واحدة من زجاجات شيمين بلاك الصغيرة التي اشتريتها من متجر ويسلستوب في إيستون. ليست باردة؛ لكنها وافية بالغرض. سكبت قليلاً في كأس بلاستيكية ثم أغلقت الزجاجة ودسستها في حقيبة يدي.

ليس الشرب في القطار مقبولاً كثيراً يوم الاثنين، إلا إذا كان المرء يشرب بصحبة أشخاص آخرين. لكنني لست كذلك!

ثمة وجوه مألوفة في هذا القطار؛ أشخاص أراهم كل أسبوع، ذاهبين وعائدين. أعرف وجوههم، ولعلهم يعرفون وجهي أيضاً. رغم هذا، لا أعرف إن كانوا يرونني، إن كانوا يرون حقيقتي.

إنها أمسية بهية... دافئة، من غير أن تكون دافئة كثيراً. بدأت الشمس انحدارها الكسول؛ وراحت الظلال تتطاول. بدأ ضياء الشمس المنكسف يصبغ الأشجار بلون الذهب. القطار ماضٍ في طريقه. مررنا سريعاً بمنزل جيسون وجس. عبرا أمامي في لمحة خاطفة من ضوء الشمس المسائي. أراهما أحياناً... ليس كثيراً... من هذا الجانب من سكة القطار. إذا لم يكن على الخط الآخر قطار يسير في الاتجاه المعاكس، وإذا كانت سرعة قطارنا منخفضة إلى الحد الكافي، فإنني أستطيع أحياناً أن ألمحهما جالسَين على شرفتهما. أما إذا لم أرهما ـ مثلما حدث اليوم ـ فإنني أستطيع تخيّلهما. ستكون جس جالسة، رافعةً قدميها على الطاولة، هناك على الشرفة... وفي يدها كأس نبيذ. وسيكون جيسون واقفاً خلفها واضعاً يديه على كتفَيها. أستطيع تخيل الشعور بهاتيْن اليدَين، الشعور بوزنهما، الشعور بهما... حانيتَيْن، تبثّان اطمئناناً في النفس. أحياناً، أضبط نفسي محاولة تذكر المرة الأخيرة التي كان لي فيها احتكاك جسدي له معنى مع شخص آخر... مجرد معانقة، أو ضغطة ودود على يدي... فينقبض قلبي.

الثلاثاء، 9 تموز\يوليو 2013

في الصباح

لا تزال كومة الثياب في مكانها منذ الأسبوع الماضي. تبدو أكثر اهتراء وتعفّراً بالتراب مما كانت قبل أيام. قرأت في مكان ما أن

القطار يمكن أن ينزع عنك ملابسك عندما يصدمك. ليس هذا أمراً غير مألوف... الموت بسبب القطار. من مئتين إلى ثلاثمئة حادثة كل سنة... هكذا يقولون. هذا يعني حادثة واحدة على الأقل كل يومين. لست واثقة من عدد الحالات التي هي حوادث فعلاً. نظرت بعناية عندما مر القطار بطيئاً بتلك الملابس؛ نظرت باحثة عن دم عليها، لكني لم أرَ دماً!

توقف القطار عند الإشارة... كالمعتاد. أرى الآن جس واقفة في الفناء أمام الأبواب الفرنسية. إنها ترتدي فستاناً متألّقاً من قماش ملوَّن. قدماها عاريتان. إنها تنظر من فوق كتفها... إلى داخل المنزل. لعلها تكلّم جيسون الذي يحضّر الإفطار. ظلت عينايَ معلقتَين بجس، ببيتها، بينما بدأ القطار حركته من جديد. ما كنت أريد رؤية البيوت الأخرى. ما كنت أريد، خاصة، أن أرى ذلك البيت، بعد أربعة بيوت من بيتها... ذلك البيت الذي كان بيتي... بيتي أنا!

كنت أعيش في البيت رقم 23 في شارع بلنهايم... خمس سنوات... كنت هانئة سعيدة. لا أستطيع النظر إلى هذا البيت الآن. كان بيتي الأول. ما كان بيت والديّ؛ وما كان بيتاً مشتركاً مع طلبة آخرين... كان بيتي أنا، بيتي الأول. لا أستطيع احتمال النظر إليه الآن؛ بل إنني أستطيع... إنني أنظر إليه... أريد أن أنظر إليه... لا أريد أن أنظر إليه... أحاول ألا أنظر إليه. أقول لنفسي كل يوم لن أنظر إليه، لكني أنظر إليه كل يوم. لا أستطيع منع نفسي رغم عدم وجود أي شيء أريد النظر إليه هناك، رغم أن كل ما أراه يؤلمني. رغم أني أذكر، بوضوح تام، كيف أحسست عندما رفعت رأسي مرة ونظرت فلاحظت أن الستارة ذات اللون الفاتح في غرفة النوم العلوية قد اختفت وحل محلها شيء ناعم وردي اللون... رغم أني لا أزال أذكر الألم الذي أحسسته عندما رأيت آنّا تسقي شجيرات الزهور قرب السياج، ورأيت قميصها مشدوداً على بطنها المنتفخة... عضضت على شفتي حتى نزفت دماً.

أغمض عينيَّ بإحكام وأعد حتى العشرة، حتى الخامسة عشرة، حتى العشرين. هكذا، لقد انقضى الأمر الآن... ولم أعد أستطيع أن أرى شيئاً. يندفع القطار داخلاً محطة ويتني ثم يخرج منها ويبدأ تزايد سرعته مع ذوبان الضواحي واندماجها بمنطقة شمال لندن المسخمة الوسخة. وتحل محل البيوت ذات الشرفات جسور عليها لوحات وبنايات فارغة بنوافذ محطمة. يزداد قلقي كلما اقتربنا من إيستون؛ ويزداد إحساسي بالضغط... كيف سيكون هذا اليوم؟ ثمة مبنى إسمنتي قذر واطئ السقف إلى الناحية اليمنى قبالة سكة القطار قبل خمسمئة متر من دخولنا إيستون. وعلى صفحة هذا البناء رسم أحدهم سهماً متّجهاً صوب المحطة. وإلى جوار ذلك السهم كلمتان: الرحلة انتهت! أفكر في كومة الملابس إلى جانب السكة فأشعر بانقباض في حلقي.

في المساء

ذلك القطار الذي ينقلني في المساء، قطار الخامسة وست وخمسين دقيقة، أبطأ قليلاً من قطار الصباح - يستغرق ساعة واحدة ودقيقة واحدة، أي سبع دقائق كاملة أكثر مما تستغرقه رحلة قطار الصباح رغم عدم توقفه في أي محطة إضافية. لا مانع عندي لأنني لا أستعجل كثيراً العودة إلى آشبري في المساء مثلما لا أكون مستعجلة كثيراً عند دخول لندن في الصباح. ليس هذا لأنها آشبري تحديداً، رغم أن المكان نفسه سيىء بما فيه الكفاية... بلدة جديدة من الستينات منتشرة مثل ورم في قلب منطقة باكينغهامشاير. ليست أحسن ولا أسوأ من عشر بلدات أخرى مثلها... يغص مركزها بالمقاهي ومحلات الهواتف المحمولة وفروع متاجر جي دي سبورتس، ويحيط بها عدد من الضواحي، يأتي بعدها مبنى سينما متعدد الصالات ومتجر تيسكو الضخم خارج البلدة. أعيش في بناية «ظريفة» «جديدة» واقعة في نقطة يبدأ عندها ذوبان قلب المدينة التجاري في ضواحيها السكَنيّة. لكن هذا ليس بيتي! بيتي هو ذلك البيت

على الطراز الفيكتوري عند سكة القطار؛ البيت الذي كنت أملكه جزئياً. وأما في آشبري، فأنا لست مالكة، ولا حتى مستأجرة ـ إنني أستأجر غرفة واحدة، أسكن غرفة نوم إضافية صغيرة في بيت كاثي اللطيف المسالم المكوَّن من طابقين.. وفيه أخضع لجَلالها وعطفها.

كنت وكاثي صديقتين في الجامعة. كنا نصف صديقتين في الحقيقة، وما كان تقاربنا أكثر من ذلك أبداً. كانت خلال سنتي الجامعية الأولى، تعيش في غرفة على الناحية الثانية من الممر، قبالة غرفتي. وكنا طالبتَين في الفرع نفسه. هذا ما جعلنا حليفتَين طبيعيتين في الأسابيع القليلة المضنية الأولى قبل أن نلتقي أشخاصاً نجد مشتركاتٍ أكثر معهم. ما كنا نتقابل كثيراً بعد السنة الأولى؛ وصارت لقاءاتنا أقل بعد الكلية فلا نلتقي إلا في حفلات زفاف عارضة. لكن كاثي، وقت حاجتي تماماً، كانت لديها غرفة خالية تريد تأجيرها. بدا لي الأمر معقولاً. وكنت واثقة تماماً من أنني لن أمضي عندها إلا شهرين اثنين... ستة شهور على الأكثر. وما كنت أعرف فعل شيء آخر غير التقاط هذه الفرصة. لم أعش وحدي أبداً من قبل: انتقلت من الوالدين إلى شركاء السكن في الجامعة، إلى توم. وهذا ما جعلني أرى فكرة السكن مع كاثي فكرة مغرية مقنعة. هذا ما جعلني أوافق. كان هذا قبل سنتين تقريباً.

الأمر ليس سيئاً! إن كاثي شخصية لطيفة... لطيفة بطريقة تفرض نفسها عليك فرضاً. إنها تجعلك تلاحظ لطفها. بل هو مكتوب عليها بأحرف كبيرة؛ إنه طبيعتها المحدِّدة لها والتي تجد حاجة إلى اعتراف الآخرين بها... في كل يوم تقريباً. يكون هذا متعباً أحياناً! لكن الأمر ليس شديد السوء لأنني أعرف خصالاً سيئة كثيرة أخرى يمكن أن تكون موجودة في شركاء السكن. لا، ليس الأمر متعلقاً بكاثي، ولا هو متعلق حتى بآشبري نفسها. ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر في وضعي الجديد هذا هو فقدان السيطرة (لا أزال أعتبره وضعاً جديداً رغم مرور سنتين). أشعر دائماً

بأنني ضيفة في بيت كاثي... أشعر بذلك حتى في طريقة ترحيبهم بي عند الباب. أحس هذا في المطبخ حيث نتزاحم عندما نطبخ وجباتنا المسائية. أحس هذا عندما أجلس إلى جانبها على الأريكة ويكون جهاز التحكّم في قبضتها. غرفة نومي الصغيرة هي الحيّز الوحيد الذي أحسّه لي أنا... وحدي. تلك الغرفة التي حُشر فيها سرير مزدوج وطاولة مكتب لا يتركان إلا فسحة صغيرةً للمرور بينهما. غرفة مريحة إلى حد معقول، لكنها ليست مكاناً يحب المرء أن يكون فيه. وهذا ما يجعلني أتأخر في غرفة المعيشة أو على طاولة المطبخ... وأكون عندها سريعة الانزعاج تائهة العزم. فقدت سيطرتي على كل شيء، حتى على تلك الأماكن في رأسي أنا.

الأربعاء، 10 تموز\يوليو 2013

في الصباح

الحرارة في ازدياد. لم تتجاوز الساعة الثامنة والنصف، لكن النهار بات قريباً. صار الهواء ثقيلاً بما فيه من رطوبة. ليت عاصفة تهب الآن! ... لكن السماء صافية إلى درجة الوقاحة... شاحبة، زرقاء مائية اللون. أمسح العرق عن شفتي العليا. أتمنى لو أنني تذكرت شراء زجاجة ماء.

لا أستطيع رؤية جيسون وجس هذا الصباح. يجعلني هذا أحس بخيبة حادةٍ. غباء... أعرف هذا! ألقي نظرة مدققة على البيت، لكنني لا أرى شيئاً. الستائر مفتوحة في الطابق السفلي، لكن الأبواب الفرنسية مغلقة ينعكس ضوء الشمس على زجاجها. وأما النافذة المنخفضة في الطابق العلوي فمغلقة أيضاً. لعل جيسون في عمله. إنه طبيب، أظن هذا! لعله يعمل مع إحدى المنظمات الناشطة في الخارج. يستدعونه دائماً. حقيبته جاهزة فوق الخزانة. ثمة زلزال في إيران أو تسونامي في آسيا... وهو يترك كل شيء. يأخذ حقيبته ويمضي إلى مطار هيثرو خلال ساعات... جاهزاً للطيران وإنقاذ الأرواح.

أما جس، بثوبها الملوَّن الجريء وحذائها الرياضي وجمالها، وهيئتها كلها، فتعمل في مجال الأزياء. أو لعلها تعمل في الموسيقى، أو الإعلان ـ لعلها مصففة شعر أو مصوّرة. إنها رسّامة جيدة أيضاً، ولديها موهبة فنية وافرة. أستطيع رؤيتها الآن، في تلك الغرفة الإضافية في الأعلى... تصدح الموسيقى صاخبة... النافذة مفتوحة، وفرشاة الرسم في يدها، ولوحة رَسم عليها قماشة ضخمة مستندة إلى الجدار. سوف تبقى هناك حتى منتصف الليل. يعرف جيسون أن عليه ألا يزعجها أثناء عملها.

لا أستطيع رؤية شيء في الحقيقة...! لا أعرف إن كانت ترسم، أو إن كانت ضحكة جيسون رائعة، أو إن كانت وجنتا جس جميلتين. لا أستطيع رؤية وجنتيها من هنا، ولم أسمع صوت جيسون أبداً. ما رأيتهما عن قرب لأنهما ما كانا يعيشان في هذا البيت عندما عشت أنا في هذا الشارع. انتقلا إلى هنا بعد ذهابي بسنتَين... عليّ أن أعرف متى انتقلا على وجه التحديد. أظن أنني بدأت ألاحظهما منذ سنة تقريباً. ثم... شيئاً بعد شيء، على مر الشهور... صارا شخصين مهمَّين عندي.

لا أعرف اسمَيهما أيضاً! أطلقت عليهما هذين الاسمين بنفسي. سمّيته جيسون لأنه وسيم مثل نجوم السينما البريطانيين؛ ليس مثل جوني ديب أو براد بيت، بل مثل فيرث أو جيسون إيزاكس. كما أن اسم جس مناسب لاسم جيسون. جيسون يناسب جس أيضاً! إن اسمها مناسب لجمالها وخلوّ بالها. إنهما منسجمان، خُلقا ليكونا معاً. وهما سعيدان أيضاً... أستطيع أن أقول هذا. إنهما مثلما اعتدت أن أكون؛ إنهما توم وأنا قبل خمس سنوات. إنهما ما فقدته... إنهما كل ما أريد أن أكونه.

في المساء

قميصي ضيق إلى حد مزعج: كانت أزراره ضاغطة على صدري. وكان متسخاً بعض الشيء، مع بقعتين رطبتين تحت الإبطين. أشعر

بحكة في حلقي وفي عيني. لا أريد أن تطول الرحلة هذا المساء. إنني توّاقة إلى الوصول إلى البيت، توّاقة إلى خلع ملابسي وإلى الاستحمام، توّاقة إلى أن أكون حيث لا ينظر أحد إليّ.

أنظر إلى الرجل في المقعد المقابل. إنه في مثل سني تقريباً، أوائل الثلاثينيات... أو أواسطها. له شعر داكن بدأ يشيب عند الصدغين. إنه شاحب الجلد يرتدي بدلة، لكنه علّق السترة على المقعد المجاور له. بين يديه جهاز ماك بوك، رقيق كأنه ورقة، مفتوح أمامه. إنه بطيء في الطباعة على الجهاز. في معصمه الأيمن ساعة فضّية كبيرة ـ تبدو فاخرة، لعلها من طراز بيرتلينغ. إنه يمصّ خده من الداخل. لعله متوتر... أو لعله يفكر بعمق! لعله يكتب رسالة مهمّة إلى أحد الزملاء في مكتب الشركة في نيويورك... أو لعله منهمك في اختيار الكلمات المناسبة لرسالة انفصال عن صديقته. يرفع رأسه وينظر إليّ على نحو مفاجئ فتلتقي عيوننا. تنتقل نظراته فوقي، ثم إلى زجاجة النبيذ الصغيرة على الطاولة أمامي. يشيح بوجهه بعيداً. ثمة شيء في إطباقة فكّيه يوحي بالنفور. إنه يجدني منفِّرة!

أنا لست الفتاة التي كنتها من قبل. لم أعد مرغوبة. إنني منفِّرة على نحو ما. ليس هذا لأن وزني ازداد، أو لأن وجهي منتفخ نتيجة الشرب وقلة النوم. لا... المسألة هي أن الناس كأنهم... كأنهم يستطيعون رؤية الخراب الذي أصابني. يستطيعون رؤيته في وجهي، في طريقة تصرّفي، وفي حركتي.

ذات ليلة في الأسبوع الماضي، عندما خرجت من غرفتي لأجلب كأساً من الماء، سمعت كاثي تتحدّث إلى صديقها داميين في غرفة المعيشة. وقفت في الممر وأصغيت. كانت كاثي تقول: «إنها وحيدة. وأنا قلقة عليها حقاً. ليس حسناً أن تكون وحدها هكذا طيلة الوقت». ثم أضافت: «أليس لديك أحد في العمل... ربما... أو في نادي الركبي؟».

قال داميين: «من أجل ريتشل؟ لا أقصد السخرية يا كاثي، لكنني لست واثقاً من أنني أعرف رجلاً بلغ هذه الدرجة من اليأس».

الخميس، 11 تموز\يوليو 2013

في الصباح

إنني أعبث بالشريط الطبي اللاصق على سبابتي. الشريط رطب... تبلل عندما كنت أغسل فنجان القهوة هذا الصباح. يبدو الآن رطباً، وسخاً، رغم أنه كان نظيفاً هذا الصباح! لا أريد نزعه لأن الجرح عميق. كانت كاثي خارج البيت عندما عدت. وهكذا فقد ذهبت إلى المتجر واشتريت زجاجتَيْ نبيذ. شربت الأولى ثم فكرت في الاستفادة من غياب كاثي لكي أعدَّ لنفسي شريحة لحم مع صلصة البصل الأحمر وطبق من السلطة الخضراء. وجبة صحيّة لذيذة! جرحت قمة إصبعي عندما كنت أقطع البصل. لا بد أنني ذهبت إلى الحمّام لتنظيف الجرح، ثم مضيت لأستلقي قليلاً، ثم نسيت كل شيء عن المطبخ لأنني استيقظت قرابة الساعة الثامنة فسمعت صوت كاثي ودامیین يتحدثان. كان يقول إنه شيء مقزِّز أن أترك المكان على تلك الحالة. صعدت كاثي إلى الطابق العلوي لتراني. قرعت الباب بلطف ثم فتحته قليلاً. مالت برأسها جانباً ثم سألتني إن كنت بخير. اعتذرت من غير أن أعرف عمَّ كنت أعتذر. قالت كاثي إن كل شيء على ما يرام، لكن يجب أن أقوم بشيء من التنظيف. كان على لوح التقطيع قطرات من الدم. وكانت الغرفة تفوح برائحة اللحم النيء. لا تزال شريحة اللحم موجودة على طاولة المطبخ... بدأ لونها يصير رمادياً. بل إن دامیین لم يشأ تحيّتي... اكتفى بهز رأسه عندما رآني، ثم صعد إلى غرفة كاثي.

وبعد أن ذهبا إلى الفراش تذكرت أنني لم أشرب الزجاجة الثانية، ففتحتها. جلست على الأريكة أشاهد التلفزيون بعد أن جعلت الصوت

شديد الانخفاض حتى لا يستطيعان سماعه. لا أستطيع تذكّر ما كنت أشاهده. لكن، لا بدّ أنني شعرت بوحدة شديدة في لحظة ما... أو بسعادة... أو بشيء ما... لأنني أردت أن أكلم أحداً. لا بدّ أن حاجتي إلى التواصل كانت طاغية... ما كان عندي أحد أستطيع الاتصال به إلا توم.

ما كان عندي أحد أرغب في الكلام معه إلا توم. تقول قائمة المكالمات على هاتفي إنني اتصلت به أربع مرات: عند الحادية عشرة ودقيقتين، وعند الحادية عشرة واثنتي عشرة دقيقة، وعند الحادية عشرة وأربع وخمسين دقيقة، وعند الثانية عشرة وتسع دقائق. عندما نظرت إلى مدة كل مكالمة من المكالمات رأيت أنني تركت له رسالتين. بل لعله أجاب على اتصالي، لكنني لا أذكر أنني تكلمت معه. أذكرت أنني تركت الرسالة الأولى. أظنني طلبت منه أن يعاود الاتصال بي... فقط. لعل هذا ما قلته في الرسالتين... هذا ليس سيئاً كثيراً.

تباطأ القطار حتى وقف عند الإشـارة الحمراء فرفعت رأسي ونظرت. رأيت جس جالسة في مدخل بيتها تشرب القهوة من فنجان. كانت قد رفعت قدميها على الطاولة ومالت برأسها إلى الخلف... كانت تتشمس. ومن خلفها أظن أنني رأيت ظلاً، شخصاً يتحرك: إنه جيسون. أتوق إلى رؤيته، إلى إلقاء نظرة على وجهه الوسيم. أريد أن يخرج من البيت وأن يقف خلفها، مثلما اعتاد أن يفعل... أن يقبّل قمّة رأسها.

لم يخرج جيسون... انحنى رأس جس إلى الأمام. ثمة شيء في طريقة حركتها اليوم يبدو لي مختلفاً. إنها أثقل من ذي قبل... تبدو متثاقلة. أريده أن يخرج إليها، لكن القطار يتحرك ويندفع إلى الأمام قبل أن يظهر جيسون. إنها وحيدة. والآن، من غير تفكير، وجدت نفسي أنظر مباشرة داخل بيتي... لا أستطيع تحويل نظراتي عنه. الأبواب الفرنسية مفتوحة، والضياء ينصب في المطبخ. لا أستطيع التحديد، حقاً... لا أستطيع، لا أستطيع تحديد إن كنت أرى هذا أو أتخيله ـ إنها هناك، عند

المجلى، تغسل الصحون؟ هل هنالك طفلة صغيرة جالسة في كرسي هزاز من كراسي الأطفال فوق طاولة المطبخ؟

أغمض عيني وأترك الظلمة تنمو وتتمدد حتى تتحول من إحساس بالحزن إلى شيء أسوأ منه: ذكرى، لمحة خاطفة إلى الخلف. لم أطلب منه أن يعاود الاتصال بي. أتذكر الآن أنني كنت أبكي. قلت له إنني لا أزال أحبه، وإنني سأحبه دائماً. أرجوك يا توم، *أرجوك، أريد أن أتحدث إليك. إنني مشتاقة إليه*. لا!!!!!!!!!

لقد قبلت الأمر! لا معنى لمحاولتي إبعاد هذا عني. سوف أكون منزعجة طيلة النهار. سيأتي ذلك على شكل موجات ـ موجة قوية، ثم أضعف، ثم أقوى ـ ستأتي تلك القرصة في قمة معدتي. وسيأتي شعور الإحساس بالخجل... بالعار. تصعد الحرارة إلى وجهي فأغمض عينَيّ، أشدّ عليهما كما لو أنني أستطيع أن أجعل ذلك كله يختفي. وسوف أمضي النهار كله أقول لنفسي إن هذا ليس أسوأ الأشياء، أليس كذلك؟ ليس هذا أسوأ شيء فعلته. إنه ليس مثل أن أسقط أرضاً أمام الناس، أو أن أصرخ على شخص غريب في الشارع. ليس هذا مثل إهانة زوجي في حفل شواء في الصيف عندما أطلقت شتائم صارخة على زوجة أحد أصدقائه. ليس هذا مثل أن نتشاجر ذات ليلة في البيت فأمضي صوبه حاملة مضرب الغولف، ملوِّحة به، وأكسر قطعة من الجص في جدار الممر أمام غرفة النوم. ليس هذا مثل العودة إلى العمل بعد غداء استمر ثلاث ساعات... أعود مترنّحة إلى المكتب فينظر الجميع إليّ. ويقول لي مارتن مايلز بعد أن يأخذني جانباً إنه يظن أن عليَّ أن أذهب إلى البيت. قرأت ذات مرة كتاباً كتبَته مدمنة سابقة على الكحول. وصفَت فيه كيف مارست الجنس الفموي مع رجلين مختلفَين... رجلين التقت بهما مصادفة في مطعم في شارع لندني مزدحم. قرأت الكتاب وقلت في نفسي، حسنًا أنا لست على هذه الدرجة من السوء. هكذا صارت معاييري!

في المساء

أمضيت اليوم كله أفكّر في جس، غير قادرة على التركيز على أي شيء آخر غير ما رأيته هذا الصباح. ما الذي جعلني أظن أن هنالك شيئاً ليس على ما يرام؟ لم أكن قادرة على رؤية تعبير وجهها من تلك المسافة. لكني أحسست عندما نظرت إليها أنها كانت وحيدة، بل أكثر من وحيدة... كانت تعاني الوحدة! لعلها كانت ـ لعله بعيد عنها... لعله ذهب إلى واحدة من تلك البلاد الحارة التي يطير إليها لإنقاذ الأرواح. هي مشتاقة إليه، وقلقة عليه، رغم إدراكها أن من واجبه أن يذهب.

إنها مشتاقة إليه طبعاً، مثلما أنا مشتاقة إليه! إنه لطيف، وقوي... لديه كل ما يجب أن يكون لدى الزوج. إنهما شريكان. أستطيع رؤية هذا. أعرف كيف هما. قوته، وذلك الشعور بالحماية الذي يشعّ منه... هذا لا يعني أنها ضعيفة. هي قوية بطرق أخرى. إنها قادرة على قفزات عقلية تتركه فاغر الفم معجباً بذكائها. وهي قادرة على النفاذ إلى لبّ المشكلة، على تشريحها وتحليلها خلال الوقت الذي يستغرقه الناس الآخرون لقول عبارة صباح الخير. وهو يمسك بيدها في الحفلات رغم أنهما معاً منذ سنين. يحترم كل منهما الآخر، ولا يخذل أحدهما الآخر أبداً.

أحس أنني مستَنْفَدَة هذا المساء. أحسّ أنني صاحية، باردة مثل حجر. أشعر بالسوء بعض الأيام إلى درجة تجعل من المحتَّم عليّ أن أشرب. وأشعر بالسوء بعض الأيام إلى درجة تجعلني لا أستطيع الشرب. اليوم، تجعلني فكرة الكحول أشعر بالغثيان في معدتي. لكن الصحو عندما يكون المرء في قطار المساء أمر صعب، الآن خاصة، في هذا الحر. تغطي كل بقعة من جلدي طبقة من العرق، أشعر بوخز داخل فمي، تحكّني عيناي... يتجمع الكحل في زواياهما.

يرن هاتفي في حقيبتي فيجعلني أقفز في مكاني. تنظر فتاتان في الناحية الأخرى من العربة صوبي ثم تتبادلان النظرات... وتتبادلان ابتسامتين خفيفتين. لا أعرف ماذا تريان في شكلي، لكنني أعرف أنه ليس شيئاً جيداً. يقفز قلبي بين أضلاعي عندما أمد يدي إلى هاتفي. أعرف أن هذا لن يكون جيداً أيضاً: ستكون كاثي... لعلها تريد، بلطفها الأبدي، أن تسألني ألّا أشرب هذا المساء! أو لعلها أمي تريد إخباري أنها ستكون في لندن الأسبوع القادم: سوف تزورني في المكتب. وعندها نستطيع أن نذهب ونتعشى معاً. أنظر إلى شاشة الهاتف. إنه توم! أتردد ثانية واحدة ثم أجيب.

«ريتشيل؟».

لم أكن ريتشيل أبداً خلال السنوات الخمس الأولى من علاقتنا. كان يدعوني راتش دائماً. وكان يدعوني باسم شيلي أحياناً لأنه يعرف مقدار كرهي لهذا الاسم. وهذا ما كان يجعله يضحك عندما يراني منزعجة ثم أضحك بدوري لأنني لا أستطيع عدم مشاركته الضحك. «ريتشيل، هذا أنا!»، صوته رصاصي. يبدو مرهَقاً. «اسمعيني! عليك أن تتوقفي عن هذا! هل اتفقنا؟»، لا أقول شيئاً. يتباطأ القطار. نكاد نصبح قبالة البيت... بيتي القديم. أود أن أقول له: «تعال إلى الخارج. اذهب وقف على المرج. دعني أراك».

«أرجـوك يا ريتشيل... لا يمكنك أن تواصلي الاتصال بي طيلة الوقت. عليك أن ترتّبي أمورك». في حلقي غصة صلبة كأنها حجر... ناعمة... معاندة. لا أستطيع ابتلاع ريقي. لا أستطيع الكلام. «ريتشيل... هل أنت على الخط؟ أعرف أن أوضاعك ليست جيدة. يؤسفني هذا، يؤسفني حقاً، لكن... لكني لا أستطيع مساعدتك. وهذه الاتصالات المستمرة تزعج آنّا. هل تفهمين؟ لا أستطيع مساعدتك بعد الآن. اذهبي إلى جمعية الكحوليين... أو إلى مكان

ما. أرجوك يا ريتشيل. اذهبي إلى لقاء جمعية الكحوليين اليوم، بعد العمل».

أنتزع اللصاقة القذرة عن طرف إصبعي وأنظر إلى اللحم الشاحب المتجعِّد تحتها وإلى الدم المتجمد عند حافة ظفري. أضغط ظفر إبهامي الأيمن في قلب ذلك الجرح. أشعر بالجرح ينفتح. ألم حاد... حار. أحبس أنفاسي. يبدأ تدفق الدم من الجرح. الفتاتان في الناحية الأخرى من العربة تراقبان ما أفعله بوجهَين خاليَيْن من أي تعبير.

ميغان

قبل سنة واحدة

الأربعاء، 16 أيار\مايو 2012

في الصباح

أستطيع سماع القطار قادماً. أعرف إيقاع حركته عن ظهر قلب. تزداد سرعته عندما يخرج من محطة نورثكوت، ثم يبطئ من جديد مقعقعًا عندما يجتاز المنعطف. وينقلب الصوت هديراً. وأحياناً تزعق المكابح عندما يتوقف القطار عند الإشارة قبل مئتي متر من البيت. قهوتي باردة على الطاولة. لكني أشعر بدفء وكسل لذيذين يجعلانني غير عابئة بالنهوض لتحضير فنجان آخر من القهوة.

بل إني لا أراقب القطارات المارّة أحياناً... أصغي إليها فقط. وعندما أجلس هنا في الصباح بعينين مغلقتَيْن وشمس برتقالية خلف أجفاني، أستطيع أن أكون في أي مكان. أستطيع أن أكون في جنوب إسبانيا، على الشاطئ؛ وأستطيع أن أكون في إيطاليا، في سانكتير، مع كل تلك البيوت الملوَّنة الجميلة والقطارات التي تنقل السيّاح، آتين وذاهبين. أستطيع أن أعود إلى هولكام فتملأ صيحات النوارس أذنيَّ وأشعر بالملح على لساني وتمر قطارات شبحية على السكة الصدئة على مسافة نصف ميل.

لا يتوقف القطار اليوم. إنه يمرّ بي بطيئاً. أستطيع سماع عجلاته تقرقع فوق فواصل السكة. لا أستطيع رؤية وجوه المسافرين. أعرف أنهم مجرد مسافرين يوميين منطلقين إلى إيستون ليجلسوا خلف مكاتبهم. لكني أستطيع الحلم: أحلم برحلات أكثر إثارة، بمغامرات عند نهاية خط القطار... وما بعد ذلك. وفي ذهني، أظل مسافرة عائدة إلى هولكام. غريب أنني مستمرة في التفكير بها، في صباحات كهذا الصباح، بهذه العاطفة كلها، وبهذا التَوْق... لكني أفعل هذا! ريح تتخلل العشب؛ سماء صافية واسعة كبيرة فوق الكثبان. والبيت الذي تغزوه الفئران... البيت المتداعي... البيت المليء بشموع وتراب وموسيقى. يبدو لي الآن مثل حلم.

أحس بقلبي يخفق أسرع قليلاً.

أستطيع سماع وقع أقدامه على الدرجات... يهتف باسمي.

«أتريدين قهوة أخرى يا ميغز؟».

ينكسر السحر! ... وأستيقظ.

في المساء

يجعلني النسيم أحس ببرودة منعشة. وأشعر بالدفء بعد إصبعين من الفودكا في كأس المارتيني. إنني في الخارج، على الشرفة، أنتظر عودة سكوت إلى البيت. سوف أقنعه بأن يصطحبني إلى العشاء في الخارج... في ذلك المطعم الإيطالي في طريق كينغلي. لم نخرج معاً منذ زمن طويل.

لم أفعل الكثير اليوم. كان من المفترض أن أحضّر الطلب من أجل دورة الخياطة في سان مارتينز. لقد بدأت تحضير الطلب. كنت أعمل في الأسفل، في المطبخ، عندما سمعت امرأة تصرخ... تصدر صوتاً مخيفاً. ظننت أن أحداً يتعرّض للقتل. جريت إلى الخارج، إلى الحديقة، لكني لم أرَ شيئاً.

لا أزال أستطيع سماع صراخها. صراخ بشع. صراخ يخترقني. صوتها يائس، حاد حقاً: «ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين بها؟ أعطني إياها... أعطني إياها». بدا ذلك مستمراً... مستمراً... لكنه لم يستمر أكثر من ثوانٍ قليلة، على الأرجح.

جريت إلى الطابق العلوي، وخرجت إلى الشرفة فاستطعت أن أرى عبر الأشجار امرأتين واقفتين في الأسفل عند السياج على مسافة بضع حدائق من هنا. كانت واحدة منهما تبكي ـ لعلهما كانتا تبكيان كلتاهما ـ ورأيت طفلة تصرخ أيضاً.

فكرت في طلب الشرطة. لكن الوضع كله بدا هادئاً هناك. ركضت المرأة التي كانت تصرخ فدخلت البيت حاملة الطفلة. ظلت المرأة الأخرى هناك، في الخارج. ركضت صوب البيت ثم تعثرت، ثم نهضت على قدميها، ثم راحت تتجول في دوائر عبر الحديقة. غريب حقاً! الربّ وحده يعرف ماذا كان يجري. لكنها أكثر اللحظات إثارة منذ أسابيع.

تتساقط أيامي فارغة الآن بعد أن لم يعد لديّ صالة عرض أذهب إليها. إنني أفتقد صالة العرض حقاً. أفتقد الكلام مع الفنّانين. بل حتى أفتقد التعامل مع كل هؤلاء الأشخاص المملّين، الثرثارين، الأذكياء، الذين كانوا يدخلون صالة العرض حاملين أكواب القهوة في أيديهم لينظروا إلى اللوحات ويقولوا لأصدقائهم إن جيسي الصغيرة أنجزت لوحات أفضل من تلك التي في دار الحضانة.

أشعر أحياناً برغبة في محاولة اقتفاء أثر شخص ما من تلك الأيام القديمة. لكني أسأل نفسي عما يمكن أن أحدّثهم الآن؟ لن يستطيعوا حتى أن يجدوا فيّ ميغان، فتاة الضواحي السعيدة بزواجها. في حالتي أنا، لا أستطيع المغامرة بالنظر إلى الخلف. هذه فكرة سيئة دائماً. سأنتظر انتهاء الصيف، ثم أبحث عن عمل. يبدو لي مخجلاً أن أضيّع

أيام الصيف الطويلة هذه. سأجد شيئاً، هنا أو في مكان آخر... أعرف أنني سأجد شيئاً.

الثلاثاء، 14 آب\أغسطس 2012

في الصباح

أجد نفسي واقفة أمام خزانة ملابسي محدقة، للمرة المئة، في صف من الملابس الجميلة. خزانة ملابس مثالية بالنسبة لمديرة معرض فنّي صغير، لكنه متميّز. لا شيء في هذه الملابس يوحي بجليسة أطفال. يا إلهي... هذه الكلمة نفسها تجعلني أرغب في التقيؤ. أرتدي بنطلون جينز وقميصاً قصير الأكمام، ثم أربط شعري إلى الخلف. لا أهتم حتى بإضافة شيء من مواد التجميل. لا معنى لأن أجعل نفسي أجمل من أجل قضاء اليوم كله مع طفلة رضيعة... هل لذلك معنى؟

أهبط الدرجات متعثرة كأنني ماضية إلى قتال. سكوت يحضّر القهوة في المطبخ. إنه يستدير صوبي مبتسماً فيتغيّر مزاجي فوراً. يتغيّر عبوسي إلى ابتسامة. يناولني سكوت فنجان القهوة ثم يقبّلني.

لا معنى للومه على هذا... لقد كانت الفكرة فكرتي. لقد تطوّعت للقيام بذلك... تطوّعت أن أرعى طفلة أشخاص يعيشون في شارعنا. ظننت وقتها أن الأمر يمكن أن يكون ممتعاً. هذا جنون مطبق، فعلاً، لا بد أنني كنت مجنونة. كنت أشعر بالملل، كنت غاضبة... فضولية. أردت أن أرى. أظن أن الفكرة جاءتني عندما سمعتها تصرخ في الحديقة. وأردت أن أعرف ما يجري. لم أسأل عن الأمر... طبعاً. لا يستطيع المرء أن يسأل، لا يستطيع!

لقد شجّعني سكوت ـ كان في غاية السعادة عندما طرحت الأمر

عليه. يظن سكوت بأن قضائي الوقت مع الأطفال الرضّع يمكن أن يجعلني راغبة في الأمومة. لكن الحقيقة أن ذلك يجعلني أشعر عكس هذا تماماً. أعود جرياً إلى البيت عندما أغادر بيتهم. ولا أطيق الانتظار ريثما أخلع ملابسي وأدخل الحمام لأغسل رائحة الطفلة الرضيعة عني.

أتوق إلى أيامي في المعرض الفني... متجمّلة، معتنية بشعري، أتحدث مع أشخاص راشدين عن الفن أو الأفلام... أو عن لا شيء على الإطلاق. لا شيء أبداً يمكن أن يكون أسوأ من أحاديثي مع آنّا. يا إلهي! إنها بليدة! قد يشعر المرء أن لديها شيئاً يمكن أن تقوله لنفسها من حين لآخر، لكن كل شيء يدور حول طفلتها الآن: هل تشعر بالدفء؟ أليس الدفء زائداً هكذا؟ كم تناولت من الحليب؟ ثم إنها موجودة هناك، دائماً. وهذا ما يجعلني أشعر معظم الوقت أنني شيء زائد، احتياطي. عملي أن أراقب الطفلة عندما ترتاح آنّا، أن أمنحها فسحة لترتاح. ترتاح من ماذا... من ماذا تحديداً؟ إنها عصبية على نحو غريب أيضاً. أشعر بها دائماً تحوم حولي... متضايقة. وهي تجفل كلما مر قطار، وتقفز في مكانها عندما يرن الهاتف. تقول لي: «الأطفال حسّاسون كثيراً، أليس كذلك؟». لا أستطيع أن أخالفها في هذا.

أخرج من البيت، وأمشي بساقَين كأنهما من رصاص. أجتاز مسافة خمسين ياردا في شارع بلنهايم رود إلى بيتهم. لا يختلف عدد خطواتي أبداً. ليست آنّا من يفتح الباب لي اليوم. إنه هو، زوجها. إنه توم مرتدياً بدلته وحذاءه، متحضّرًا ليذهب إلى العمل. يبدو وسيماً في تلك البدلة ـ ليس وسيماً مثل سكوت، فهو أقصر منه وأكثر شحوباً. كما أن عينيه تبدوان متقاربتَيْن قليلاً عندما ينظر إليه المرء من مسافة قريبة ـ لكنه ليس سيئَ الشكل. يبتسم لي ابتسامة عريضة مثل ابتسامة توم كروز، ثم يمضي وأظل وحدي معها ومع الطفلة.

الخميس، 16 آب\أغسطس 2012

بعد الظهر

تركت ذلك العمل!

أشعر أنني أفضل حالاً بكثير... إن كان أمراً ممكناً حقاً أن أشعر بأنني أفضل حالاً. إنني حرة!

أجلس في الشرفة أنتظر المطر.

السماء سوداء من فوقي.

طيور السنونو تدور وتنقَضّ. الهواء مثقل بالرطوبة. سيعود سكوت إلى البيت بعد ساعة، أو نحو ذلك. وسيكون عليّ إخباره أنني تركت العمل. سوف ينزعج دقيقة أو دقيقتين؛ لكنني سأعوّضه عن هذا. لن أظل جالسة في البيت طيلة النهار: إنني أرسم خططاً. أستطيع الانتساب إلى دورة في التصوير الضوئي؛ أو يمكن أن أفتح كشكاً في السوق وأبيع المجوهرات. يمكن أن أتعلم الطبخ أيضاً.

كان في مدرستي معلّم قال لي مرة إنني سيدة إعادة اختراع الذات. لم أدرك قصده ذلك الوقت. ظننت أنه كان يحاول التودّد إلي. لكنني صرت أحب تلك الفكرة بعد ذلك. هاربة، عاشقة، زوجة، نادلة، مديرة صالة عرض، جليسة أطفال، وعدة أشياء أخرى بين هذا وذاك. إذن ... من أريد أن أكون غداً؟

لم أقصد أن أترك ذلك العمل حقاً! خرجت الكلمات من فمي تلقائياً. كنا جالسين هناك، حول طاولة المطبخ. آنّا جالسة تحمل الطفلة في حجرها. وكان توم قد عاد إلى البيت ليأخذ شيئاً. وهكذا، فقد كان هناك هو أيضاً... يشرب معنا فنجاناً من القهوة. بدا الأمر سخيفاً. لم أجد معنى على الإطلاق لوجودي هناك، معهم. بل كان ثمة ما هو أسوأ من ذلك... أحسست بالانزعاج، كأنني متطفّلة عليهم.

قلت: «لقد وجدت عملاً آخر». قلتها من غير أن أفكر في الأمر حقاً. «وهكذا لن أكون قادرة على رعاية الطفلة بعد الآن». نظرت آنّا إلي ـ لا أظن أنها صدقتني. لم تقل إلا: «أوه! خسارة». أعرف أنها لم تكن تعني ذلك. بدا عليها الارتياح! بل إنها لم تسألني عن ذلك العمل الذي قلت إنني وجدته. أراحني هذا لأنني لم أكن قد فكرت في كذبة مقنعة.

بدا شيء من المفاجأة على توم. قال: «سوف نفتقدك». لكن تلك كانت كذبة أيضاً.

سكوت هو الشخص الوحيد الذي سيزعجه هذا. لذا فإن عليَّ أن أفكر في شيء أقوله له. قد أقول له إن توم حاول التودّد إليّ. سيكون هذا كفيلاً بإنهاء الأمر كله.

الخميس، 20 أيلول\سبتمبر 2012

في الصباح

تجاوزت الساعة السابعة. الطقس بارد في الخارج الآن. لكنه جميل جداً هكذا... كل هذه الحدائق الممتدة مثل شرائط، واحدة بعد الأخرى، خضراء باردة تنتظر أن تزحف أصابع ضياء الشمس إليها من الدروب وتجعل الحياة تدب فيها. أنا مستيقظة منذ ساعات؛ لا أستطيع النوم. لم أنم منذ أيام. أكره هذا. أكره الأرق أكثر من أي شيء آخر. أكره أن أظل مستلقية هناك، وذهني يدور في كل مكان ... تك تك تك تك. أشعر بالوخز في جسمي كله. أود أن أحلق شعر رأسي كله.

أود أن أركض. أود أن أذهب في رحلة في سيارة ذات سقف متحرك... وأن يكون السقف مفتوحاً. أود أن أقود السيارة إلى الساحل ـ أي ساحل. أود أن أمشي على الشاطئ. كنا نخطط، أنا وأخي الأكبر، أن نصبح جوّالين على الطرقات. كانت لدينا خططنا، بن وأنا. لا بأس،

كان أكثرها خطط بن ـ كان شخصاً حالماً. كنا نعتزم قيادة الدرّاجات من باريس إلى الشاطئ اللازوردي؛ أو على امتداد ساحل الولايات المتحدة على المحيط الهادي من سياتل إلى لوس أنجلوس. كنا نعتزم سلوك الدروب التي سلكها تشي غيفارا من بيونس آيريس إلى كاراكاس. لو فعلت ذلك، فربما ما كنت لأنتهي هنا... غير عارفة ما يجب أن أفعله في الخطوة اللاحقة. أو لعلّي، لو فعلت ذلك كله، كنت لأنتهي هنا أيضاً، تماماً حيث أنا الآن، ولعلي أكون راضية تماماً عند ذلك. لكني لم أفعل ذلك كله بالطبع، لأن بن لم يذهب حتى إلى باريس، ولم يصل حتى إلى كامبردج. لقد مات على الطريق رقم آ 10. سُحقت جمجمته تحت عجلات شاحنة ثقيلة.

أفتقد بن كل يوم. أفتقده أكثر من أي شخص آخر... هكذا أظن. إنه الثقب الكبير في حياتي، في منتصف روحي. أو لعله بداية ذلك الثقب فحسب. لست أدري! لست أدري حتى إن كان هذا كله متعلقاً ببن، أو إذا كان متعلقاً بكل شيء حدث بعد ذلك ... بكل شيء حدث منذ ذلك الوقت. كل ما أعرفه هو أنني أكون في لحظة ما على أحسن حال... أكون حلوة حية لا أحتاج شيئاً؛ ثم في اللحظة التالية لا أطيق الانتظار قبل أن أذهب بعيداً... أكون في أرجاء المكان كله... متعثرة منزلقة من جديد.

إذن، سأذهب لاستشارة معالِج نفسي! يمكن أن يكون هذا غريباً، لكنه يمكن أن يكون مضحكاً أيضاً. كنت أظن دائماً أن كون المرء كاثوليكياً أمراً ظريفاً... أن يتمكن من الذهاب إلى الاعتراف ليتخفَّف من أحماله ويجد أحداً يقول له إنه يسامحه ويمسح عنه خطاياه كلها... فيعود اللوح نظيفاً من جديد.

لكن هذا ليس هو الأمر نفسه بطبيعة الحال. إنني متوترة قليلاً، لكني صرت غير قادرة على النوم في الآونة الأخيرة. سكوت يشجعني على الذهاب إلى معالج نفسي. قلت له إنني أجد صعوبة غير قليلة في

التحدث في هذه الأمور مع أشخاص أعرفهم... بل إنني لا أكاد أستطيع التحدث معك أنت أيضاً. قال لي إن هذا ما يقصده بالضبط: يستطيع المرء قول أي شيء للغرباء. لكن هذا ليس صحيحاً تماماً. لا تستطيع أن تقول أي شيء! مسكين سكوت! لا يعرف نصف الأمر. إنه يحبني كثيراً إلى درجة تجعلني أتألم. لا أعرف كيف يفعل هذا. سأقود نفسي إلى الجنون.

لكن يجب أن أفعل شيئاً. ذهابي إلى المعالج النفسي يستطيع، على الأقل، أن يجعلني أحس أنني أفعل شيئاً. كل تلك الخطط التي كانت عندي ـ دورات التصوير، ودروس الطبخ ـ تبدو عديمة المعنى عندما أدقّق فيها... كأنني ألعب بالحياة الحقيقية بدلاً من أن أعيشها فعلاً. إنني في حاجة للعثور على شيء يجب أن أفعله، شيء لا يمكن إنكاره. لا أستطيع أن أفعل هذا. لا أستطيع أن أكون زوجة فقط. لا أفهم كيف يمكن لأي أحد أن يفعل هذا ـ لا شيء تفعله المرأة أبداً... إلا الانتظار. انتظار عودة الرجل إلى البيت حتى يحبك. إما ذلك... وإما أن تنظري من حولك بحثاً عن شيء يشغل اهتمامك.

في المساء

لقد جعلوني أنتظر. كان الموعد منذ نصف ساعة. وأنا لا أزال هنا، جالسة في غرفة الانتظار أتصفّح مجلة «فوغ» أفكّر في النهوض والذهاب. أعرف أن مواعيد الأطباء تتأخر، لكن ماذا عن المعالجين النفسيين؟ تجعلني الأفلام أظن دائماً أنهم يطردون المرء فور انتهاء دقائقه الخمسين. أظن أن هوليوود لا تتحدث حقاً عن ذلك النوع من المعالجين النفسيين الذي تتم إحالتنا إليهم وفق النظام الصحي الوطني لدينا.

إنني على وشك النهوض والذهاب إلى موظفة الاستقبال لأقول لها

إنني انتظرت أكثر مما يجب وإنني ذاهبة؛ لكن باب غرفة الطبيب ينفتح ويظهر هذا الرجل النحيل الطويل مادّاً يده لمصافحتي وعلى وجهه نظرة اعتذار.

يقول لي: «آسف جداً يا سيدة هيبويل لأنني جعلتك تنتظرين». فأبتسم وأقول له إن لا مشكلة في ذلك. أشعر في هذه اللحظة أن كل شيء سيكون على خير ما يرام لأنني صرت أشعر بالراحة رغم أني أقف معه منذ دقيقة أو دقيقتين فقط.

أظن أن السبب صوته. صوتٌ ناعمٌ منخفض. فيه لكنة خفيفة كنت أتوقّعها لأن اسمه كان الدكتور كمال أبديك. أظن أنه يجب أن يكون في أواسط الثلاثينات رغم أنه يبدو شاباً تماماً بسبب جلده العسلي الداكن الجميل. لديه يدان أستطيع تخيّلهما على جسدي... أصابع طويلة دقيقة... أكاد أشعر بها على جسدي.

لا نتحدث عن أيّ شيء مهم. إنها جلسة البداية فحسب! جلسة التعارف! يسألني عن مشكلتي فأخبره عن نوبات الذعر، وعن الأرق، وعن حقيقة أنني أرقد مستيقظة في الليل خائفة إلى حد يمنعني من النوم. يريد مني أن أحدّثه أكثر عن ذلك، لكنني لست جاهزة بعد. يسألني إن كنت أتعاطى المخدرات، أو أشرب الكحول. فأقول له إن لديّ خطايا أخرى هذه الأيام... ألتقط نظرته وأظن أنه يفهم ما أعنيه. عندها أشعر أن عليّ أن آخذ الأمر بجدية أكبر. وهكذا أخبره عن إغلاق المعرض الفني. أخبره بأنني أشعر بالضياع طيلة الوقت، وبفقدان الاتجاه، وبحقيقة أنني أمضي وقتاً طويلاً جداً داخل رأسي. إنه لا يتكلم كثيراً، لا يتكلم إلا بالمقدار الضروري لدفعي إلى الكلام. لكنني أود أن أسمعه يتكلم. وعندما أهمّ بالمغادرة، أسأله من أين هو.

يقول لي: «أنا من ميدستون في منطقة كنت. لكنني انتقلت إلى كورلي منذ بضع سنوات». يعرف أن سؤالي كان غير هذا. يمنحني ابتسامة ذئبية.

أجد سكوت ينتظرني عندما أعود إلى البيت. يضع كأس شراب في يدي. يريد أن يعرف كل ما جرى. أقول له إن الأمر على ما يرام. يسألني عن المعالج النفسي: هل أعجبني، هل بدا لي لطيفاً؟ لا بأس، أقولها مجدداً... لأنني لا أريد أن أبدو متحمّسةً أكثر مما يجب. يسألني إن كنا قد تحدثنا عن بن، أخي. يظن سكوت أن كل شيء متعلق ببن. قد يكون محقّاً! لعله يعرفني أكثر مما أظن أنه يعرفني.

الثلاثاء، 25 أيلول\سبتمبر 2012

في الصباح

أستيقظ باكراً هذا الصباح، لكني نمت بضع ساعات. هذا أحسن مقارنة مع بالأسبوع الماضي. أشعر أنني منتعشة بعض الشيء عندما أنهض من السرير. وهكذا أقرر أن أذهب في نزهة على الأقدام بدلاً من الجلوس على الشرفة.

إنني أعزل نفسي، لكن ... من غير أن أدرك هذا تقريباً. يبدو أن الأماكن الوحيدة التي أذهب إليها هذه الأيام مقتصرة على المحلات التجارية، ودروس الرياضة، والمعالج النفسي. أذهب أحياناً إلى بيت تارا. وأما بقية الوقت، ففي البيت. ليس غريباً أن أصبح مضطربة.

أخرج من البيت. أستدير يميناً ثم شمالاً في شارع كينغلي رود. أتجاوز الحانة، حانة ذا روز. اعتدنا سابقاً أن نذهب إليها معظم الوقت. لا أذكر سبب توقفنا عن الذهاب إليها. ما كنت أحبها كثيراً. فيها كثير من الأزواج الذين بلغوا مشارف الأربعين... يشربون كثيراً ويتلفّتون من حولهم بحثاً عن شيء أفضل متسائلين إن كانوا يملكون شجاعة كافية من أجل ذلك. لعل ذلك هو السبب الذي جعلنا نكف عن الذهاب إليها... ما كنت أحبها. بعد الحانة، وبعد المحلات التجارية؛ ما عدت راغبة في المضي أبعد من ذلك. مجرد دورة صغيرة حتى أحرك ساقيَّ.

لطيف أن يخرج المرء في وقت مبكر قبل بدء حركة المدارس وقبل ذهاب الناس إلى أعمالهم. تكون الشوارع خاوية نظيفة. وتكون الاحتمالات ملء النهار. أنعطف يساراً من جديد وأمشي منحدرة صوب حديقة الألعاب الصغيرة. حديقة الألعاب: إنها السبب البسيط الوحيد لكي تكون لدينا مساحة خضراء من هذا النوع. الحديقة خالية الآن. لكنها ستعجّ بعد ساعات قليلة بالأطفال والأمهات والأزواج أيضاً. سيكون نصف فتيات صف الرياضة هنا... منهمكات في تمارينهنّ... يتنافسن في الأداء... ممسكات أكواب القهوة بأصابعهن المعتنى بها جيداً.

أتابع السير فأجتاز المتنزّه وأنحدر صوب جادة روزبـري. إذا استدرت يميناً هنا فسوف أصعد وأمر أمام معرضي الفني ـ أمام ما كان معرضي الفني. أمام ما صار الآن واجهة خاوية ـ لكنني لا أريد رؤيته لأن الأمر لا يزال يؤلمني بعض الشيء. حاولت جاهدة أن أجعل المعرض ناجحاً. المكان الخاطئ، والزمان الخاطئ ـ لا طلب على الفن في مناطق الضواحي، ليس في ظل حالة الاقتصاد هذه. أنعطف يميناً بدلاً من ذلك، أمرّ أمام متجر تيسكو إكسبرس، وأمام الحانة الأخرى، الحانة التي يذهب إليها أهل العزبات؛ ثم أستدير عائدة إلى البيت. أشعر بالفراشات الآن. بدأت أصبح عصبية. إنني خائفة من مصادفة آل واتسون لأن الأمر يبدو غريباً دائماً عندما أصادفهم. من الواضح تماماً أنني لم أحصل على عملٍ جديد. ومن الواضح أنني كذبت عليهم لأنني لم أكن راغبة في العمل لديهم.

أو لعل الأمر يكون غريباً عندما ألتقيها هي. توم يتجاهلني فحسب. أما آنا فتبدو كأنها تأخذ الأمر على محمل شخصي. من الواضح أنها تظن أن عملي تلك المدة القصيرة لديهم انتهى بسببها هي أو بسبب طفلتها. لم يكن ذلك بسبب طفلتها على الإطلاق، رغم حقيقة أن كونها

لا تتوقف عن التذمّر يجعل من الصعب عليّ أن أحبها. إن الأمر أكثر تعقيداً من هذا بكثير. لكنني لا أستطيع أن أشرحه لها بالطبع. على أي حال، لا بأس! أظن أن هذا واحد من الأسباب التي كانت تجعلني أعزل نفسي... لأنني لا أرغب في رؤية آل واتسون. يرغب جزء مني في أن ينتقلوا من هنا. أعرف أنها لا تحب أن تعيش هنا: إنها تكره ذلك البيت، وتكره العيش وسط أشياء زوجته السابقة. قبّعاتها، وملابسها الداخلية.

أتوقف عند الزاوية وأسترق النظر عبر الممر السفلي، عبر النفق. إن تلك الرائحة، رائحة البرد والرطوبة، تجعل قشعريرة تسري في ظهري... دائماً. إنها مثلما يقلب المرء حجراً ليرى ما تحته: الطحالب والديدان والتراب. تذكّرني باللعب في الحديقة عندما كنت طفلة، بالبحث عن الضفادع عند البركة مع أخي بن. أتابع السير. الشارع خاوٍ تماماً ـ لا شيء يشير إلى وجود توم أو آنا ـ وأما ذلك الجزء مني الذي لا يستطيع مقاومة المشاعر الدرامية، فيصاب بإحباط حقيقي.

في المساء

اتصل سكوت قبل قليل ليقول إنه سيتأخر في العمل. ليس هذا خبراً أريد سماعه. أشعر بالتوتر... شعرت بالتوتر طيلة اليوم. لا أستطيع المحافظة على هدوئي. لا أستطيع البقاء هادئة. إني في حاجة إلى عودته إلى البيت لكي يهدِّئني. وأما الآن، فسوف تمر ساعات قبل أن يكون هنا، وسوف يواصل دماغي الجري هنا وهناك... هنا وهناك... وأعرف أن ليلتي ستكون من غير نوم. لا أستطيع أن أظل جالسة هنا، أراقب القطارات. إنني عصبية منزعجة. أحس بضربات قلبي مثل رفرفة في صدري، مثل عصفور يحاول أن يفلت من قفص. أنتعل حذائي الخفيف وأنزل إلى الأسفل. أخرج من الباب الأمامي وأسير في شارع بلنهايم. الساعة السابعة والنصف تقريباً ـ بعض الناس عائدين إلى بيوتهم بعد

العمل. لا أرى أحداً غيرهم من حولي، رغم أنني أستطيع سماع صيحات الأطفال يلعبون في حدائق بيوتهم الخلفية... يستفيدون من آخر أشعة الشمس الصيفية قبل أن ينادوهم من أجل العشاء.

أسير في الشارع صوب المحطة. أتوقف لحظة قبالة البيت رقم 23. أفكر في قرع جرس الباب. ماذا أقول لهم؟ أأقول لهم إن السكّر قد نفد من عندي؟ أأقول لهم إنني أرغب في الحديث فقط؟ شبابيكهم نصف مفتوحة، لكنني لا أستطيع رؤية أحد في الداخل. أتابع السير، صوب الزاوية. ومن غير أن أفكر في الأمر حقاً، أتابع السير فأنزل إلى النفق تحت سكة القطار. أبلغ منتصف ذلك النفق عندما يمر قطار من فوقي... شيء رائع: شيء مثل هزة أرضية... شيء تستطيع أن تحسه... تماماً في مركز جسدك... شيء يحرّك دمك. أنظر إلى الأسفل وألاحظ شيئاً مرمياً على الأرض. إنه رباط شعر قرمزي ممطوط... بالٍ من كثرة الاستخدام. لعله سقط من فتاة تمارس الركض. لكن شيئاً في ذلك الرباط يجعلني أرتجف، يجعلني أرغب في الخروج من هنا سريعاً، والعودة إلى ضوء الشمس.

وعندما كنت عائدة، أسير في الشارع، مرَّ بي في سيارته. تلتقي أعيننا ثانية واحدة... ويبتسم لي.

ريتشيل

الجمعة، 12 تموز\يوليو 2013

في الصباح

مرهقة أنا! النعاس يثقل رأسي. لا أكاد أنام على الإطلاق عندما أشرب. أغيب عن الوعي ساعة أو ساعتين ثم أستيقظ مع ذعر يصيبني بالغثيان... غثيان من نفسي. وإذا مرَّ بي يوم من غير شرب، فإنني أغرق تلك الليلة في نوم عميق، فقدان وعي عميق... ثم يصعُبُ عليّ أن أستيقظ في الصباح التالي؛ لا أستطيع نفض النعاس عني. يلازمني هذا النعاس ساعات كثيرة. يلازمني طيلة اليوم أحياناً.

ليس في عربتي اليوم غير حفنة من الناس. لا أحد منهم جالساً بالقرب مني. لا أحد يراقبني. أسند رأسي إلى حافة النافذة وأغمض عينَيّ.

يوقظني زعيق مكابح القطار. لقد بلغنا الإشارة الضوئية. في هذا الوقت من الصباح، في هذا الوقت من السنة، تشعّ الشمس مباشرة على أسطح تلك البيوت عند خط القطار فيغرقها ضياؤها. أكاد أشعر بها... أكاد أشعر بدفء أشعّة الشمس ذلك الصباح على وجهي وعلى ذراعيَّ وأنا جالسة إلى طاولة الإفطار. توم جالس قبالتي. قدماي العاريتان مستقرتان فوق قدميه لأنهما أدفأ من قدمَيَّ دائماً. عيناي منكبّتان على الجريدة. أستطيع الشعور به يبتسم لي فيشع الاحمرار من صدري إلى وجنتي مثلما يحدث دائماً عندما ينظر توم إليّ بطريقة معينة.

ترمش عيناي رمشاً قوياً فيختفي توم. لا نزال واقفين عند الإشارة. أستطيع رؤية جس في حديقتها، ومن خلفها رجل يسير خارجاً من البيت. إنه يحمل شيئاً ـ لعله يحمل القهوة ـ أنظر إليه فأدرك أنه ليس جيسون. هذا الرجل أكثر طولاً، وأكثر نحولاً... أكثر سمرة من جيسون. إنه من أصدقاء العائلة. لا بد أنه شقيقها أو شقيق جيسون. ينحني الرجل واضعاً كوبَيْ القهوة على الطاولة المعدنية عند مدخل البيت. إنه ابن عم قادم من أوستراليا ليمكث عندهم أسبوعين. إنه أقدم أصدقاء جيسون، الرجل الأول في زفافهما. تسير جس نحوه... تلف ذراعيها حول وسطه ثم تقبله قبلة طويلة عميقة. يتحرك القطار.

لا أستطيع تصديق هذا. تختطف رئتاي الهواء اختطافاً حتى أتنفّس. أدرك أنني كنت أحبس أنفاسي. لماذا تفعل هذا؟ جيسون يحبها... أستطيع رؤية هذا... إنهما سعيدان. لا أستطيع تصديق أنها تفعل هذا به. هو لا يستحق هذا. أشعر بانزعاج حقيقي. أشعر أنني تعرّضت للخيانة. يملأ صدري ألم أعرفه جيداً. جاءني هذا الإحساس من قبل واستمرَّ زمناً أطول، وكان أكثر شدة بطبيعة الحال... لكنني أذكر طبيعة ذلك الألم. لا يستطيع المرء نسيانه.

لقد اكتشفت الأمر مثلما يبدو أن الناس كلها تكتشفه هذه الأيام: رسالة إلكترونية! تكون رسالة نصّية أحياناً، أو رسالة صوتية. كانت بريداً إلكترونياً في حالتي أنا. هذه هي النسخة المعاصرة لأثر أحمر الشفاه على ياقة القميص. حدث الأمر مصادفة... حقاً! لم أكن أتلصّص. ما كان مفترضاً بي أن أقترب من حاسوب توم لأنه كان قلقاً دائماً من أن أحذف شيئاً مهماً عن طريق الخطأ، أو أن أنقر على مفتاح لا يجوز أن أنقر عليه فأسمح بدخول فيروس أو تروجان، أو شيء ما.

«ليست التكنولوجيا واحدة من نقاط قوّتك يا راتش، أليس كذلك؟» قال لي هذا بعد تلك المرة التي حذفت فيها كل محتويات قوائم الاتصال

في حاسوبه من غير أن أقصد هذا. وهكذا، كان مفترَضاً بي ألّا ألمس الجهاز. لكنني كنت أفعل شيئاً طيباً في واقع الأمر! كنت أحاول تعويضه عن كوني بائسة وصعبة بعض الشيء. كنت أخطط لرحلة نقوم بها في الذكرى الرابعة لزواجنا. رحلة تجعلنا نتذكر كيف كنا. أردتها مفاجأة له. وهذا ما جعلني أحاول إلقاء نظرة على برنامج عمله... سراً... كان عليَّ أن ألقي هذه النظرة.

ما كنت أتلصّص عليه! ما كنت أحاول الإمساك به، أو أي شيء. كنت أعقل من ذلك! ما أردت أن أكون واحدة من تلك الزوجات الشَكّاكات الفظيعات اللواتي ينقّبن في جيوب أزواجهن. ذات مرة أجبت على هاتفه عندما كان في الحمام فانزعج كثيراً واتهمني بأنني لا أثق به. كان إحساسي فظيعاً لأنه بدا لي مجروحاً حقاً.

كنت في حاجة إلى النظر إلى برنامج عمله. ترك حاسوبه مفتوحاً لأنه كان يعتزم الخروج في وقت متأخر... إلى اجتماع. كانت تلك فرصة ممتازة... وكنت أريد أن أنظر إلى برنامج عمله، وأن أسجّل بعض التواريخ. عندما أغلقت نافذة المتصفّح الذي يحتوي على برنامج عمله ظهر بريده الإلكتروني، مفتوحاً... عارياً. كانت في قمته رسالة من dyoba@cinamon.com. نقرت عليها. xxxxx. هكذا كانت الرسالة، مجرد سطر من حرف x يتكرّر. ظننتها في البداية بريداً غير مرغوب فيه... إلى أن أدركت أن تلك الأحرف كانت قُبَلاً.

كانت رداً على رسالة أرسلها قبل بضع ساعات، بعد السابعة تماماً... أي عندما كنت لا أزال أغالب النعاس في الفراش.

غفوتُ الليلة السابقة مفكراً فيكِ. كنت أحلم بتقبيل فمكِ، بتقبيل ثدييك، بتقبيل باطن فخذيكِ. استيقظت هذا الصباح فكان رأسي مليئاً بك. كنت توّاقاً إلى لمسك. لا تتوقعي أن أكون عاقلاً... لا أستطيع أن أكون عاقلاً... ليس معك أنتِ.

مضيت أقرأ رسائله: وجدت عشرات منها... مخبَّأة في ملف يحمل اسم «آدمن». اكتشفت أن اسمها آنّا بويد، وأن زوجي واقع في غرامها. هكذا كان يخبرها في رسائله... كثيراً. قال لها إنه لم يعِشْ هذه المشاعر من قبل، وإنه غير قادر على الانتظار حتى يكون معها، وأن الأمر لن يستغرق طويلاً حتى يتمكنا من أن يكونا معاً.

لا كلمات عندي تصف ما شعرت به ذلك اليوم. أما الآن، وأنا جالسة في القطار، فإنني في غاية الغضب... أظافري منغرسة في راحتَيْ يدي، والدموع تحرق عيني. أحسست لفحة من غضب عاصف. أشعر كأن شيئاً قد انتُزع مني... مني أنا. كيف استطاعت فعل هذا؟ كيف استطاعت جس فعل هذا؟ ما مشكلتها؟ انظروا إلى الحياة التي يعيشانها! انظروا إلى جمال تلك الحياة! لا أفهم أبداً كيف يستطيع الناس التغاضي بلا مبالاة عن الأذى الذي يتسبّبون به عندما يتبعون قلوبهم. من الذي قال إن اتباع القلب أمر جيد؟ بل هو أنانية محضة، أنانية تحمل المرء على قهر الجميع. غمرتني الكراهية. لو رأيت تلك المرأة الآن... لو رأيت جس... لبصقت في وجهها. سأنتزع عينيها بأظافري.

في المساء

هنالك مشكلة في الخط. تم إلغاء قطار الساعة الخامسة وست وخمسين دقيقة السريع الذاهب إلى ستوك. وهكذا غزا مسافروه قطاري فامتلأت العربة بهم، جلوساً ووقوفاً. كان عندي مقعد من حسن حظي. لكنه كان من ناحية الممر لا من ناحية النافذة. وكانت أجساد المسافرين ضاغطة على كتفي، وعلى ركبتي، كانت تقتحم حيّزي الخاص. أحسست بشيء يدعوني إلى دفعهم عني، إلى النهوض وإزاحتهم. كانت الحرارة في تزايد طيلة اليوم. كانت مطبقة عليّ الآن. أحسست كما لو أنني أتنفس عبر قناع. كانت النوافذ مفتوحة كلها، لكن العربة بدت لي من غير هواء

رغم حركة القطار... أحسست أني في علبة معدنية مغلقة. لا تستطيع رئتاي الحصول على كفايتهما من الأكسجين. أشعر بالغثيان. لا أستطيع إيقاف تكرار تذكّر ذلك المشهد في المقهى هذا الصباح. لا أستطيع الكف عن إحساسي بأنني لا أزال هناك. لا أستطيع أن أكف عن رؤية تلك النظرات على وجوههم. جس هي الملومة في هذا. كنت مسكونة بها وبجيسون هذا الصباح، وبما فعلته، وبما سيشعر به، وبالمواجهة التي ستحدث بينهما عندما يكتشف الأمر... عندما يتمزَّق عالمه مثلما تمزّق عالمي أنا. كنت أتجول هائمة غير مركّزة على مساري. ومن غير تفكير دخلت المقهى الذي يقصده جميع من في هنتينغدون وايتلي. دخلت، وعبرت الباب قبل أن أراهم. وعندما رأيتهم كان وقت الاستدارة والعودة قد فات. نظروا إليّ بأعين متّسعة للحظة قبل أن يتذكروا رسم ابتسامات على وجوههم. كان مارتن مايلز جالساً مع ساشا وهارييت، كانوا مجموعة ثلاثية خرقاء، تومئ إليَّ... وتلوّح لي من بعيد.

صاح مارتن: «ريتشل!»، ومدَّ ذراعيه صوبي وشدَّني فعانقني. لم أكن أتوقع هذا. صارت يداي محصورتين بيننا، مضغوطتين على جسده. ابتسمت ساشا وهارييت ومنحتني كل منهما قبلة مترددة في الهواء محاولتَين عدم الاقتراب أكثر من ذلك. عاد مارتن يسأل: «ماذا تفعلين هنا؟».

مرت لحظة طويلة كان ذهني خلالها خاوياً من كل شيء. نظرت إلى الأرض وأحسست أنني بدأت أحمَرّ. وعندما أدركت أن هذا يجعل الأمر أكثر سوءاً أطلقت ضحكة زائفة ثم قلت: «مقابلة. مقابلة».

لم يستطع مارتن إخفاء دهشته. وأما ساشا وهارييت فهزتا رأسيهما وابتسمتا. قال مارتن: «أوه! مع من؟»

لم أستطع أن أتذكر اسم شركة علاقات عامة واحدة. ولا واحدة. لم أستطع أن أفكر في اسم شركة عقارية أيضاً. ولم أستطع أن أتذكر اسم

شركة يمكن أن تكون بصدد تعيين موظفين جدد. ظللت واقفة فحسب، أفرك شفتي السفلى بإصبعي، وأهزّ رأسي. قال مارتن أخيراً: «هذا سرّي جداً، أليس كذلك؟ هنالك شركات غريبة تفعل ذلك. لا يريدون منك أن تقولي أي شيء قبل أن يجري توقيع العقود ويصبح الأمر كله رسمياً». كان هذا كلاماً فارغاً. وكان مارتن يعرف ذلك. لقد قال هذا لينقذني. لكن كلامه لم يقنع أحداً. تظاهر الجميع بالاقتناع. وهزّ كل منهم رأسه موافقاً على الكلام. كانت هارييت وساشا تنظران من فوق كتفي صوب الباب. كانتا تشعران بالإحراج من أجلي. كانتا تريدان الخروج من هذه الحالة بأي طريقة.

قلت: «من الأفضل أن أذهب لأجلب قهوتي. لا أريد أن أتأخر». وضع مارتن يده على ساعدي وقال: «رائع أن أراكِ يا ريتشل». كانت شفقته واضحة. لم أدرك من قبل، لم أدرك إلا في السنة الماضية أو السنتين الماضيتين من حياتي، كم هو مخجل أن يكون المرء موضع شفقة.

كانت خطتي أن أذهب إلى مكتبة هولبورن في طريق ثيوبالدز؛ لكنني لم أستطع مواجهة الأمر. فمضيت إلى منتزه ريجنت بدلاً من ذلك. مضيت حتى نهايته، بالقرب من حديقة الحيوانات. جلست في الظل تحت شجرة دلب مفكرة في الساعات الخاوية التي لا تزال أمامي... جلست مستعيدة ذلك الحديث في المقهى، متذكرة النظرة في وجه مارتن عندما ودَّعني.

لا بد أن نصف ساعة قد مرّت على جلوسي عندما رن هاتفي. كان ذلك توم من جديد. كان يتصل من رقم البيت. حاولت أن أتخيله وهو يعمل على حاسوبه المحمول في مطبخه المشمس. لكن الصورة تشوّهت بفعل تدخلات زوجته الجديدة. لا بد أنها موجودة هناك، في مكان ما، في الخلفية. تعِدّ الشاي أو تطعم طفلتها الصغيرة... ويسقط ظلها عليه.

تركت الهاتف يرن حتى تحوَّلت المكالمة إلى البريد الصوتي. أعدت الهاتف إلى حقيبتي وحاولت تجاهله. ما عدت أريد سماع المزيد... ليس اليوم! كان يومي حتى الآن فظيعاً بما فيه الكفاية... ولم تبلغ الساعة العاشرة والنصف صباحاً بعد. انتظرت نحو ثلاث دقائق قبل أن أستعيد هاتفي من حقيبتي لأستمع إلى الرسالة الصوتية. جهّزت نفسي لعذاب سماع صوته ـ ذلك الصوت الذي كان يحدّثني ضاحكاً خفيفاً فصار الآن موبّخاً، أو مواسياً، أو مشفِقاً ـ لكن الصوت لم يكن صوته!

«ريتشل، هذه آنا تكلمك». أغلقت الهاتف.

لم أستطع التنفس. لم أستطع منع ذهني من الذهاب هنا وهناك. ولم أستطع منع الوخز في جلدي. نهضت واقفة ومضيت إلى المتجر عند زاوية شارع تيتشفيلد واشتريت أربع عبوات من الجن مع التونيك. عدت إلى مكاني في الحديقة. فتحت العبوة الأولى وشربتها بأسرع ما استطعت. ثم فتحت الثانية. أدرت ظهري صوب الممر حتى لا أرى من يمارسون الجري في الحديقة، حتى لا أرى الأمهات يدفعن عربات الأطفال، حتى لا أرى السائحين. عندما لا أراهم أستطيع أن أتظاهر بأنهم لا يستطيعون رؤيتي أيضاً ـ كما يفعل الأطفال. استمعت إلى الرسالة المسجَّلة من جديد.

«ريتشل، هذه آنا». توقف طويل. «يجب أن أتحدث معك عن مكالماتك الهاتفية». توقف طويل آخر ـ إنها تكلمني وتفعل شيئاً آخر... تفعل أشياء كثيرة في الوقت نفسه، مثلما تفعل الزوجات المشغولات ومثلما تفعل الأمهات... يرتّبن البيت، ويضعن الملابس في الغسالة. «انظري، أعرف أنك تمرّين بوقت عصيب». هكذا قالت، كأن لا علاقة لها بألمي، «لكنك لا يجوز أن تتصلي بنا في الليل طيلة الوقت». كان صوتها متكسّراً، مزعجاً. «أمر سيئ أن توقظينا عندما تتصلين، لكنك توقظين إيفي أيضاً. وهذا أمر غير مقبول أيضاً. إننا نتعب كثيراً حتى

نجعلها تنام في هذه الفترة». *ماذا؟ ... نتعب كثيراً حتى نجعلها تنام! نعم، نتعب، نحن! أسرتنا الصغيرة... مع كل مشاكلنا وبرامجنا اليومية*. عاهرة ملعونة. إنها دجاجة تضع بيضها في عشّي أنا. لقد أخذت كل شيء مني. أخذت كل شيء، ثم تتصل بي الآن لتقول إن ألمي لا يناسبها... لتقول إنه يزعجها!

أنهيت العبوة الثانية وفتحت الثالثة. لم يستمر أثر الكحول الطيب في دمي أكثر من دقائق معدودة ثم شعرت بالغثيان. إنني أشرب أسرع مما يُفترَض، حتى بالنسبة لي أنا. يجب أن أبطئ. وإذا لم أبطئ فسوف يحدث لي أمر سيئ. سأفعل شيئاً أندم عليه. سأتصل بها وأقول لها إنني لا أبالي بها ولا أبالي بأسرتها ولا أبالي بأن تحظى ابنتها أبداً بنوم هانئ في الليل طيلة ما بقي من حياتها. سأقول لها العبارة التي استخدمها هو عندما خاطبها ـ *لا تتوقعي مني أن أكون عاقلاً* ـ استخدم تلك العبارة معي أيضاً في أول تعارفنا. كتبها في رسالة لي كاشَفَني فيها بعاطفته المتّقدة، بل إنها ليست عبارته أصلاً: لقد سرقها من هنري ميلر. ليس لديها إلا أشياء مستعمَلة. أود أن أعرف كيف تشعر حيال ذلك. أود أن أتصل بها وأسألها: كيف تشعرين يا آنّا عندما تعيشين في بيتي محاطة بالأثاث الذي اشتريته أنا. كيف تشعرين عندما تنامين في سريري الذي شاركني إياه سنوات كثيرة. كيف تشعرين عندما تطعمين طفلتك على طاولة المطبخ التي ضاجَعَني فوقها؟

ما زلت لا أفهم كيف قررا أن يظلا هناك، في ذلك البيت، في بيتي أنا! لم أصدّق عندما أخبرني. كنت أحب ذلك البيت. كنت أنا من أصَرَّ على شرائه، رغم موقعه. أحببت أن أكون هناك قرب خط القطار. أحببت النظر إلى القطارات ماضية على ذلك الخط. كنت أستمتع بصوتها الذي لا يشبه زعيق القطار السريع داخل المدينة بل يبدو شبيهاً بالقرقعة التقليدية التي تصدرها القطارات القديمة. قال لي توم إن الأمر لن يبقى كذلك

لأنهم سوف يقومون بتحديث ذلك الخط وسوف تسير عليه قطارات حديثة زاعقة. لكنني لم أستطع تصديق أن هذا سوف يحدث حقاً. كان من الممكن أن أبقى هناك. كان من الممكن أن أسدد ثمن حصته في البيت لو كان لديّ نقود. لكن، ما كان لديَّ نقود. ولم نستطع أن نجد مشترياً يدفع سعراً مقبولاً عندما افترقنا. وهكذا، قال لي توم إنه سيشتري حصتي ويبقى في ذلك البيت حتى يحصل على سعر مناسب له. لكنه لم يجد المشتري المناسب أبداً. لقد جعلها تسكن في البيت. أحبت آنّا ذلك البيت مثلما أحببته أنا وقرَّرَت البقاء فيه. لا بد أنها امرأة تشعر بأمان كبير في داخلها... هكذا أظن... أظن هذا لأن عيشها هناك لا يزعجها. لا يزعجها أن تمشي حيث مشت امرأة أخرى قبلها. من الواضح أنها لا تعتبرني خطراً عليها. أفكر في تيد هيوز عندما جعل آسيا ويفيل تنتقل إلى البيت الذي عاش فيه مع سيلفيا كلاف قبل ذلك. تذكرت كيف كانت ترتدي ثياب سيلفيا، وكيف كانت تمشط شعرها بالفرشاة نفسها. أود أن أتصل بآنّا وأذكّرها بأن رأس آسيا انتهى إلى الفرن، مثلما حدث لرأس سيلفيا أيضاً.

لا بد أنني غفوت. نعست بسبب الجن والشمس الحارة. استيقظت مجفلة ورحت أنظر من حولي مذعورة... باحثة عن حقيبتي. لا تزال الحقيبة موجودة. كان جلدي يحكّني، ويخِزني. عليه نمل كثير. كان النمل في شعري وعلى رقبتي وفي صدري، فقفزت واقفة على قدميَّ ورحت أنتزع النمل عني. كان صبيّان مراهقان يتقاذفان كرة قدم بينهما على مسافة عشرين متراً مني. توقفا عن اللعب وراحا ينظران إليَّ غارقَين من الضحك.

يتوقف القطار. وصلنا تقريباً قبالة بيت جس وجيسون. لكنني جالسة في الناحية الأخرى. لا أستطيع الرؤية عبر العربة، وعبر سكة القطار. هنالك بشر كثيرون يعترضون النظر. لست أدري إن كانا هناك،

لست أدري إن كان قد عرف. لست أدري إن كان قد ترك البيت. أو لعله لا يزال يعيش حياة سيكتشف أنها ليست إلا كذبة.

السبت 13 تموز\يوليو 2013

في الصباح

أعرف أنها بين الثامنة إلا ربع والثامنة والربع من غير أن أنظر إلى الساعة. أعرف هذا من ضوء النهار، ومن الأصوات التي في الشارع خارج نافذتي، ومن صوت مكنسة كاثي الكهربائية في الرواق خارج باب غرفتي. تستيقظ كاثي باكراً لتنظف البيت، كل سبت... مهما يكن الحال. حتى لو كان السبت يوم ميلادها. وحتى لو كان يوم انفصالها عن صديقها ـ لا يهم: تنهض كاثي باكراً صباح السبت لتنظف البيت. تقول إن هذا يمنحها بداية يوم طيبة، وإنه يجعل نهاية الأسبوع كلها حسنة. وبما أنها تنظف البيت تنظيفاً رياضياً، فهذا يعني أنها ليست في حاجة إلى الذهاب لتمارس الرياضة في الصالة.

هذا لا يزعجني حقاً! لا يزعجني هذا التنظيف بالمكنسة الكهربائية في الصباح الباكر... لأنني لا أكون نائمة في ذلك الوقت أصلاً. لا أستطيع النوم في الصباح. لا أستطيع أن أغفو بسلام قبل منتصف النهار. أستيقظ فوراً، أنفاسي مقطوعة وقلبي يخفق سريعاً، وطعم مزعجٌ في فمي... فأدرك الأمر على الفور. إنني مستيقظة! كلما ازددت رغبة في النسيان كلما صرت أقل قدرة عليه. لن تسمح لي الحياة ولن يسمح لي الضوء بالنسيان. أظل راقدة هناك، مصغية إلى صوت مشاغل كاثي العجولة المبتهجة. وأفكر في كومة الملابس إلى جانب سكة القطار. أفكّر في جس عندما قبّلت عشيقها تحت ضوء شمس الصباح.

يمتد النهار طويلاً أمامي... ليس فيه دقيقة واحدة مشغولة بأي شيء.

أستطيع أن أذهب إلى سوق الفلاحين في مركز برود. أستطيع أن أشتري لحماً، وأن أمضي اليوم في الطبخ.

أستطيع أن أجلس على الأريكة فأشرب فنجاناً من الشاي وأضع برنامج «مطبخ السبت» على التلفزيون.

أستطيع الذهاب إلى صالة الرياضة.

أستطيع أن أعيد كتابة سيرتي الذاتية.

أستطيع أن أنتظر ريثما تفرغ كاثي من تنظيف البيت فأذهب إلى المتجر وأشتري زجاجتين من نبيذ سوفنيون الأبيض.

في حياتي الأخرى، كنت أستيقظ باكراً أيضاً. يوقظني صوت قطار الثامنة والأربع دقائق مقعقعاً عندما يمر قرب البيت. فتحت عينيّ ورحت أصغي إلى صوت المطر على النافذة. أحسست به من خلفي، نعساً، دافئاً، صلباً. وبعد ذلك، كان يمضي لإحضار الجرائد. وكنت أعدّ بيضاً مقلياً، فنجلس في المطبخ ونشرب الشاي. كنا نذهب إلى الحانة لتناول عشاء متأخر. وكنا نسقط نائمَيْن، متشابكين معاً أمام التلفزيون. أتخيل أن الأمر مختلف بالنسبة إليه الآن... لا ممارسة جنس كسول في يوم سبت، ولا بيض مقلياً... لديه الآن متعة مختلفة: طفلة صغيرة مزروعة بينه وبين زوجته... تثرثر من غير توقف. لا بد أنها بدأت تتعلم الكلام الآن... دادي وماما وتلك اللغة السرية التي لا يفهمها إلا الوالدان.

الألم قاسٍ ثقيل... إنه في وسط صدري. لا أطيق انتظار خروج كاثي من البيت.

في المساء

سوف أذهب لرؤية جيسون.

أمضيت اليوم كله في غرفتي أنتظر خروج كاثي من البيت حتى

أستطيع أن أشرب شيئاً. لكنها لم تترك البيت. جلست صامدة، لم تتحرّك... جلستْ في غرفة المعيشة «لإنجاز بعض الأمور المتعلّقة بالعمل». وفي وقت متأخر من بعد الظهر، لم أعد أستطيع احتمال الحبس في غرفتي فقلت لها إنني سأخرج لأتمشّى قليلاً. ذهبت إلى ويتشيف... تلك الحانة الكبيرة التي لا يعرف أحد فيها أحداً... تلك الحانة بالقرب من هاي ستريت. شربت فيها ثلاث كؤوس كبيرة من النبيذ. ثم شربت قدحين من ويسكي جاك دانييلز. ثم مشيت حتى المحطة واشتريت عبوتين من الجن مع التونيك... وصعدت إلى القطار.

إنني ذاهبة لرؤية جيسون.

لست ذاهبة لأزوره. لن أذهب إلى باب بيته وأقرع الجرس. لا شيء من هذا! لا شيء من ذلك الجنون! لا أريد إلا أن أمر بجانب المنزل... أمرّ بجانبه وأنا في القطار. ليس عندي شيء آخر أفعله. ولا أشعر برغبة في الذهاب إلى البيت. أريد أن أراه فحسب. أريد أن أراهما.

هذه ليست فكرة حسنة. أعرف أنها ليست فكرة حسنة.

لكن... ما ضررها؟

سوف أذهب إلى إيستون، ثم أعود. (أحب القطارات... ما العيب في هذا؟ القطارات رائعة).

منذ زمن، عندما كنت ما أزال على طبيعتي، كنت أحلم برحلات قطار رومانسية مع توم. (خط بيرغن في ذكرى زواجنا الخامسة، والقطار الأزرق في يوم ميلاده الأربعين).

انتظري! نوشك أن نمرّ بهما الآن.

الضوء ساطع؛ لكنني لا أستطيع أن أرى جيداً. (نظري مشوَّش. أغمض إحدى عينيّ. هكذا أفضل).

ها هما! هل هذا هو؟ إنهما واقفان على الشرفة، أليس كذلك؟ هل هذا جيسون؟ وهل هذه جس؟

أريد أن أقترب أكثر... لا أستطيع الرؤية. أريد أن أقترب منهما أكثر.

لن أتابع رحلتي إلى إيستون. سوف أترك القطار في ويتني. (لا يجوز أن أترك القطار في ويتني. هذا خطير جداً... ماذا لو رآني توم... وماذا لو رأتني آنّا؟)

سوف أترك القطار في ويتني.

ليست هذه فكرة حسنة.

هذه فكرة سيئة جداً.

هنالك رجل بالقرب مني، إلى الناحية الأخرى من عربة القطار. شعره أشقر بلون الرمل لكنه ضارب إلى البني بعض الشيء. إنه يبتسم لي. أود أن أقول له شيئاً، لكن الكلمات تتبخّر مني، تختفي عن لساني قبل أن أستطيع قولها. أشعر بطعم تلك الكلمات، لكني لا أعرف إن كانت حلوة أو مرة.

هل يبتسم لي، أم أنه مكشّر؟ لا أستطيع التحديد.

الأحد، 14 تموز\يوليو 2013

في الصباح

أشعر بنبضات قلبي كأنها في أسفل حلقي... مزعجة، مرتفعة الصوت. فمي جاف. البلع يؤلمني. أنقلب إلى جانبي فيصير وجهي قبالة النافذة. الستائر مسدَلة، لكن الضوء القليل القادم منها يؤلم عينيّ. أرفع يدي إلى وجهي، وأضغط بأصابعي على أجفاني محاولة مسح الألم. أظافري وسخة.

هنالك شيء خاطئ. أشعر... لحظة... أنني أسقط، كأن السرير

قد اختفى من تحت جسدي. الليلة الماضية... حدث شيء ما. أنفاسي تدخل رئتيّ بعنف فأجلس... أجلس سريعاً، فيزداد خفقان قلبي وينبض الألم في رأسي.

أنتظر مجيء الذكرى. يستغرق الأمر بعض الوقت أحياناً. تصبح الذكرى ماثلة هنا، أمام عيني، في بضع ثوانٍ، أحياناً. وفي أحيان أخرى، لا تأتيني الذكرى أبداً.

حدث شيء ما، شيء سيّئ. كانت هنالك مشاجَرة. أصوات مرتفعة. قبضات؟ لست أدري... لا أستطيع تذكر هذا. ذهبت إلى الحانة؛ وصعدت إلى القطار؛ كنت في المحطة؛ كنت في الشارع. شارع بلنهايم رود. لقد ذهبت إلى شارع بلنهايم رود. يجتاحني هذا مثل موجة، مثل ذعر أسود.

حدث شيء ما... أعرف أنه حدث. لا أستطيع استعادة الصورة، لكني أستطيع أن أشعر بالأمر. يؤلمني باطن فمي، كأنني عضضت على وجنتي من الداخل. لذعة طعم الدم المعدنية على لساني. أشعر بالغثيان، بالدوار. أضع يدي في شعري، على جمجمتي. أنتفض مجفلة. في رأسي كتلة ناتئة مؤلمة... على الجانب الأيمن من رأسي. شعري ملطخ بالدم.

لقد تعثّرت وسقطت؛ هكذا هو الأمر. تعثّرت على درجات السلم... في محطة ويتني. هل أصيب رأسي عندما سقطت؟ أذكر أنني كنت في القطار؛ وأما بعد ذلك فلا أجد إلا هوَّة من السواد... فراغاً فقط. أتنفس عميقاً؛ أحاول تهدئة ضربات قلبي... أحاول لجم الذعر المتصاعد في صدري. أقول لنفسي: فكّري! ماذا فعلتِ؟ ذهبت إلى الحانة، وركبت القطار. كان هنالك رجل ـ أتذكّره الآن... رجل أحمر الشعر. ابتسم لي. أظن أنه كلّمني، لكني لا أذكر ما قاله لي. هنالك شيء آخر يتعلّق بهذا الرجل، شيء أكثر من مجرد أنني أتذكره. لكني لا أستطيع بلوغ ذلك الشيء، لا أستطيع العثور عليه في تلك الظلمة.

إنني خائفة؛ لكنني لا أعرف من أي شيء خائفة أنا. وهذا يزيد ذعري. لا أعرف حتى إن كان هنالك شيء مخيف أم لا. أنظر في الغرفة من حولي. لا أجد هاتفي على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. لا أجد حقيبة يدي على الأرض. وهي ليست معلَّقة على ظهر الكرسي حيث أضعها عادة. لا بد أنها كانت معي لأنني في البيت الآن. هذا يعني أن مفاتيحي معي أيضاً.

أنهض من السرير. إنني عارية! ألمح نفسي في المرآة الطويلة على الخزانة. يداي مرتجفتان، ووجنتاي ملطختان بالكحل. وهنالك جرح في شفتي السفلى وعلى ساقيّ كدمات. أشعر بالغثيان. أعود فأجلس على السرير وأضع رأسي بين ركبتيَّ منتظرة مرور موجة الغثيان. أنهض واقفة على قدميَّ. ألتقط ثوبي المنزلي وأفتح باب الغرفة، أشقّه قليلاً فقط. البيت هادئ. إنني واثقة، لسبب ما، أن كاثي ليست هنا. هل أخبرتني أنها ستمضي الليل عند دامين؟ أحس أنها قالت لي ذلك، لكني لا أستطيع أن أتذكّر متى أخبرتني. أكان هذا قبل خروجي؟ أو لعليّ تكلّمت معها بالهاتف بعد ذلك! أسير خارجة من الغرفة إلى الصالة بأهدأ ما أستطيع. أرى الآن أن باب غرفة نوم كاثي مفتوح. ألقي نظرة على الغرفة. سريرها مرتَّب. من المحتمل أنها نهضت قبل قليل فرتبته. لكنّي لا أظن أنها باتت هنا ليلة أمس. يمنحني هذا بعض الراحة. إذا لم تكن هنا، فإنها لم تَرَني، ولم تسمعني أدخل البيت الليلة الماضية. وهذا يعني أنها لا تعرف مدى سوء حالتي في تلك اللحظة. لا يجب أن يكون لهذا أهمية. لكنه مهم: يكون إحساسي بالخجل من حادثة ما متناسباً مع عدد الأشخاص الذين شهدوها، لا مع طبيعة الوضع فحسب.

يداهمني الدوار من جديد عندما أقف عند أعلى السلم، فأطبق كفّي بإحكام على الدرابزين. هذا واحد من أكبر مخاوفي (إلى جانب خوفي من النزف في بطني عندما يفشل كبدي أخيراً)... أخاف من السقوط

على السلم وكسر رقبتي. يجعلني التفكير في هذا الأمر أشعر بالإعياء من جديد. أريد أن أستلقي. لكن عليَّ أن أجد حقيبتي، وأن أتفقد هاتفي. أريد أن أتأكد، على الأقل، من أنني لم أفقد بطاقات الائتمان. أريد أن أعرف من اتصل بي، ومتى. وجدت حقيبتي ملقاة عند مدخل البيت، تماماً داخل الباب الرئيسي. ووجدت بنطلوني الجينز ولباسي الداخلي بالقرب منها، كومة مجعلكة. أستطيع أن أشم رائحة البول تأتيني من أسفل السلم. ألتقط حقيبتي لأبحث فيها عن الهاتف ـ إنه موجود، الحمد لله، ومعه مجموعة مكرمشة من الأوراق النقدية والمناديل الورقية الملطخة بالدم. يأتيني الغثيان من جديد... يأتي أقوى هذه المرة. أشعر بطعم الحموضة في أسفل حلقي... فأجري، لكنني لا أفلح في الوصول إلى الحمام... أتقيأ على السجادة عند منتصف السلم.

يجب أن أستلقي. سوف أفقد الوعي إذا لم أستلقِ الآن. إنني موشكة على السقوط. سوف أنظّف ذلك في وقت لاحق.

وفي الأعلى، أصل هاتفي بالكهرباء وأستلقي على السرير. أرفع أطرافي، بهدوء، بحذر شديد، حتى أتفقّدها. أرى كدمات على ساقيّ، فوق الركبتين. هذا شيء معتاد ناتج عن كثرة الشراب... يشبه الكدمات التي تصيب المرء عندما يصطدم بالأشياء في سَيره. في أعلى ذراعي علامات تدعو لقلق أكبر... آثار قاتمة بيضوية الشكل تبدو كأنها آثار أصابع. ليس هذا أمراً سيئاً بالضرورة. ظهرت لدي هذه الكدمات من قبل. كانت تظهر عادة عندما أسقط فيلتقطني أحد ما ليساعدني في الوقوف. تؤلمني كثيراً تلك الإصابة في رأسي. لكنها يمكن أن تكون نتيجة شيء غير مؤذ... كالاصطدام بسيارة مثلاً. هل عدت إلى البيت بسيارة أجرة؟

ألتقط هاتفي. فيه رسالتان. الأولى من كاثي ـ جاءت بعد الخامسة تماماً ـ تسألني أين ذهبت. تقول إنها ذاهبة لقضاء الليل عند داميين

وأنها سوف تراني غداً. تأمل ألّا أشرب وحدي. كانت الرسالة الثانية من توم... وصلتني في العاشرة والربع. يكاد الهاتف يسقط من يدي... لذعري... عندما سمعت صوته. إنه يصرخ!

«بحق يسوع المسيح يا ريتشل! ما مشكلتك؟ لقد شبعت من هذا، هل تفهمين؟ أمضيت ساعة تقريباً أقود السيارة في المنطقة باحثاً عنك. لقد أخفتِ آنّا حقاً. هل تعرفين هذا؟ ظنت أنك كنت سوف... ظنت... هذا كل ما استطعت فعله حتى لا تتصل بالشرطة. اتركينا وحدنا! كفّي عن الاتصال بنا! كفّي عن التجول حول بيتنا! اتركينا فقط! لا أريد الكلام معك. هل تفهمين ما أقول؟ لا أريد الكلام معك، ولا أريد رؤيتك، ولا أريد أن تقتربي من أسرتي. تستطيعين أن تدمّري حياتك كما تشائين، لكني لا أسمح لك بتدمير حياتي. لن أسمح لك بتدميرها بعد الآن. لن أستمر في حمايتك. هل تفهمين؟ ابتعدي عنا؛ ابتعدي فقط!».

لا أعرف ماذا فعلت! ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بين الخامسة والعاشرة والربع؟ لماذا كان توم يبحث عني؟ ماذا فعلت لآنّا؟ أسحب اللحاف فوق رأسي. أغمض عينيَّ بإحكام. أتخيل نفسي ذاهبة إلى البيت... ماضية في ذلك الممشى الصغير بين حديقتهم وحديقة الجيران ثم متسلّقة السياج. أفكر في فتح باب الحديقة الزجاجي المنزلق والتسلل خلسة إلى المطبخ. آنّا جالسة عند الطاولة. أمسك بها من الخلف. أضع يدي في شعرها الأشقر الطويل. أنتر رأسها إلى الأسفل. أشدها إلى الأرض ثم أضرب رأسها بالبلاطات الزرقاء الباردة.

في المساء

هنالك شخص يصرخ. أعرف من زاوية سقوط شعاع الضوء عبر نافذة غرفتي أنني نمت وقتاً طويلاً. لا بد أن الوقت قد بلغ آخر فترة

بعد الظهر، بداية المساء. رأسي يؤلمني. أرى دماً على وسادتي. أسمع شخصاً يصرخ في الأسفل.

«لا أستطيع تصديق هذا! بحق الرب! يا ريتشل! ريتشل!».

أسقط نائمة من جديد. يا ربّي... لم أنظف السلم حيث تقيّأت. ولا تزال ثيابي في مدخل البيت. يا ربي... يا ربي! أرتدي بنطلوناً وقميصاً قصير الكُمَّين. وعندما أفتح باب غرفتي، أرى كاثي واقفة عنده تماماً. يبدو عليها الذعر عندما تراني.

تسألني: «ماذا أصابك بحق الله؟». ثم ترفع يدها وتقول: «إنني آسفة بالفعل يا ريتشل، لكني لا أريد أن أعرف. لا أقبل أن يحدث هذا في بيتي. لا أقبل أن...». تكفّ عن الكلام، لكنها تعود إلى النظر إلى الأسفل، صوب الصالة، صوب السلم.

أقول لها: «إنني آسفة! إنني آسفة! كنت مريضة حقاً. وسوف أنظّف كل شيء...».

«لم تكوني مريضة! أليس هذا صحيحاً؟ كنت سكرانة. كنت ميتة من كثرة الشرب. إنني آسفة يا ريتشل. لا أستطيع أن أقبل هذا. لا أستطيع أن أعيش هكذا. عليك أن تذهبي، هل تفهمين؟ سوف أمهلك أربعة أسابيع ريثما تجدين مكاناً آخر. لكن عليك أن تذهبي بعد ذلك». تستدير ثم تمضي صوب غرفتها... «حباً بالله يا ريتشل... هل تستطيعين تنظيف تلك القذارة؟». تطبق باب غرفتها بعنف من خلفها.

عدت إلى غرفتي بعد أن انتهيت من التنظيف. لا يزال باب غرفة كاثي مغلَقاً، لكني أستطيع أن أحس غضباً هادئاً يشعّ من الغرفة متخللاً ذلك الباب. لا أستطيع لَوْمها! سأكون في غاية الغضب إذا عدت إلى البيت لأجد ثياباً تفوح برائحة البول وبركة من القيء على السلم. أجلس على السرير وأفتح حاسوبي المحمول. أدخل إلى بريدي الإلكتروني وأبدأ كتابة رسالة إلى أمي. أقول في نفسي إن الوقت قد جاء... أخيراً. عليّ أن

أطلب مساعدتها. إذا انتقلت لأعيش عندها فلن أعود قادرة على مواصلة المضي على هذا النحو. سأكون مضطرة إلى التغير. سأكون مضطرة إلى أن أصبح أفضل. لكني لا أستطيع التفكير في الكلمات الآن... لا أستطيع الاهتداء إلى طريقة لأشرح الأمر لها. أستطيع أن أتخيل وجهها عندما تقرأ مناشدتي، عندما تقرأ توسّلي طالبةً مساعدتها... أستطيع تخيّل الخيبة المُرّة... أستطيع تخيّل غضبها. أكاد أسمع زفراتها.

يصدر هاتفي طنيناً. لقد تلقّى رسالة، منذ ساعة. إنه توم من جديد. لا أريد أن أسمع ما يود قوله، لكن عليَّ أن أسمع... لا أستطيع تجاهله. تتسارع ضربات قلبي عندما أفتح البريد الصوتي؛ وأستعد لتلقّي ما هو أسوأ.

«ريتشل! هلّا تتصلين بي من فضلك؟». لا يبدو غاضباً كثيراً الآن. تتباطأ ضربات قلبي بعض الشيء. «أريد أن أتأكد من أنك عدت إلى البيت سالمة. كنتِ في حالة فظيعة ليلة أمس». أسمعه يطلق زفرة طويلة، من قلبه. «انظري! يؤسفني أنني صرخت عليك الليلة الماضية. لقد مضت الأمور أكثر مما يجب... بعض الشيء. إنني آسف من أجلك يا ريتشل! إنني آسف حقاً... لكن، يجب أن يتوقف هذا».

أعيد الاستماع إلى الرسالة مرة ثانية. أصغي إلى الرِقّة في صوته. فتداهمني الدموع. يمر وقت طويل قبل أن أتوقّف عن البكاء، قبل أن أصبح قادرة على كتابة رسالة نصية أقول فيها إنني في غاية الأسف وإنني في البيت الآن. لا أستطيع أن أقول شيئاً آخر لأنني لا أعرف عن أي شيء أعتذر. لا أعرف ماذا فعلت لآنّا، ولا كيف أخفتها. في الحقيقة، لا أبالي بها كثيراً؛ لكن يهمّني ألّا أسبّب تعاسة لتوم. فهو يستحق أن يكون سعيداً بعد كل ما مَرَّ به. لن أحسده على سعادته أبداً؛ لكني، فقط... كنت أتمنى أن تكون سعادته معي أنا. أستلقي على الفراش ثم أزحف تحت اللحاف. أريد أن أعرف ما حدث. ليتني كنت أعرف ذلك الشيء

الذي يجب أن أكون آسفة كَوْني فعلته. أحاول يائسة الخروج بشيء من المعنى من هذه الذاكرة المراوغة. أحس أنني واثقة من أن شجاراً جرى، أو من أنني شهدت شجاراً. أكان ذلك الشجار مع آنا؟ تمضي أصابعي إلى ذلك الجرح في رأسي، وإلى ذلك الجرح في شفتي. أكاد أستطيع رؤية الأمر، أكاد أستطيع سماع الكلمات. لكنها تهرب بعيداً عني مرة أخرى. لا أستطيع وضع يدي عليها. كلما ظننت أنني موشكة على القبض على تلك اللحظة... أراها تبتعد عني مجدَّداً لتختفي في الظل بعيداً عن متناولي.

ميغان

الثلاثاء، 2 تشرين الأول\اكتوبر 2012

في الصباح

سوف يهطل المطر قريباً. أستطيع الإحساس بقدومه. أسناني تصطَكّ في فمي، وأطراف أصابعي مبيضّة... فيها شيء من الزرقة أيضاً. لن أدخل البيت. أحب هذا الجو في الخارج. إنه يشفيني، يجعلني نظيفة، مثل حَمّام جليد. سوف يأتي سكوت ويصيح طالباً مني الدخول على أي حال. سوف يلفّني بالبطانيات، مثل طفل.

أصابتني موجة ذعر عندما كنت عائدة إلى البيت الليلة الماضية. كانت في الشارع دراجة آلية يعلو صوت محرّكها ثم يعلو ثم يعلو. وكانت في الشارع سيارة حمراء تسير بطيئة كأنها تبحث عن امرأة ممن يتصيَّدن السيارات في الشارع. وكانت في الشارع امرأتان تدفعان عربتَيْ أطفال فتعترضان طريقي. لم أستطع المرور بجانبهما على الرصيف فنزلت إلى الشارع وكادت تصدمني سيارة جاءت من الجهة الأخرى... لم أرها أبداً. أطلق السائق بوق السيارة وزعق بشيء نحوي. لم أستطع التقاط أنفاسي. كان قلبي يخفق سريعاً. أحسست بذلك الانقباض في معدتي مثلما يحدث عندما يتناول المرء قرص دواء ويكون موشكاً على التقيؤ... هجمة الأدرينالين التي تجعل المرء يشعر بالغثيان والإثارة والخوف معاً.

جريت إلى المنزل فعبرته وهبطت صوب سكة القطار. ثم جلست هناك منتظرة مجيء القطار حتى يقرقع هادراً فيزيل مني الأصوات الأخرى. انتظرت أن يعود سكوت ويهدّئني، لكنه لم يكن في البيت. حاولت تسلّق السياج. وددت أن أجلس إلى الناحية الأخرى من خط القطار... برهة من الزمن، حيث لا يذهب أحد غيري. جرحت يدي، فدخلت المنزل، ثم عاد سكوت وسألني عما حدث. قلت له إنني كنت أغسل الأطباق والكؤوس فأسقطت كأساً. لم يصدّقني... انزعج كثيراً.

نهضت في الليل. تركت سكوت نائماً وتسللت إلى الشرفة. طلبت رقمه في الهاتف وأصغيت إلى صوته عندما أجاب. ناعم منخفض بفعل النوم، ثم أقوى، ثم صار متحفّظاً، ثم قلقاً، ثم مستاءً. أغلقت الخط وانتظرت لأرى إن كان سيعيد الاتصال بي. لم أخفِ رقمي. وهذا ما جعلني مقتنعة بأنه سيتصل. لم يتصل... فطلبت الرقم من جديد، ثم طلبته من جديد، ثم طلبته من جديد. جاءني بعدها بريد صوتي... لطيف... بنبرة مهنية. وعدني أن يعيد الاتصال بي في أقرب وقت ممكن. فكرت في الاتصال بعيادته لكي آخذ موعداً. لكني لا أظن أن نظامهم الآلي يعمل في منتصف الليل. وهكذا... عدت إلى السرير. ولم أنَم أبداً.

قد أذهب إلى غابة كورلي هذا الصباح لألتقط بعض الصور. سوف أجد هناك ضباباً رقيقاً، وظلمة، وجواً أثيرياً. لا بدّ أنني سأكون قادرة على التقاط بعض الصور الجيّدة. كنت أفكر في أن أصنع منها بطاقات صغيرة لأرى إن كنت أستطيع بيعها في متجر الهدايا في شارع كينغلي رود. يقول لي سكوت دائماً إنني لا يجوز أن أقلق بخصوص العمل، وإن عليّ أن أستريح فقط... أستريح! كأنني عاجزة. الراحة آخر ما أحتاج إليه. إنني في حاجة إلى العثور على شيء يملأ أيامي. أعرف ماذا سيحدث إن لم أفعل هذا.

في المساء

اقترح الدكتور آبديك ـ كمال... هكذا طلب مني مخاطبته ـ في هذه الجلسة المسائية أن أبدأ تدوين يومياتي. كدت أقول له إنني لا أستطيع فعل هذا، لأنني لا أستطيع الاطمئنان إلى أن زوجي لن يقرأها. لم أقل هذا لأنه سيبدو قلة ثقة مخيفة بسكوت. لكنها الحقيقة! لا أستطيع أبداً أن أكتب الأشياء التي أحسّها فعلاً، أو التي أفكّر فيها، أو التي أفعلها. هذا مثال: عندما عدت إلى البيت هذا المساء، كان حاسوبي المحمول دافئاً. يعرف سكوت كيف يحذف التاريخ في متصفّح الإنترنت... يعرف كل هذه الأشياء. يستطيع أن يخفي آثاره بشكل ممتاز. لكنني كنت أعرف أنني أغلقت الجهاز قبل أن أترك البيت. لقد كان يقرأ بريدي من جديد.

لست أعترض على هذا حقاً. لا شيء لقراءته هناك. (كثير من الرسائل غير المرغوب فيها التي تردني من شركات التنظيف. ورسائل من جيني من مركز التدريبات الرياضية تسألني إن كنت أود الانضمام إلى «نادي عشاء ليلة الخميس» حيث تجتمع مع أصدقائها فيتناوبون إعداد العشاء. أفضّل الموت على ذلك). لا تزعجني قراءة رسائلي لأن هذا يطمئنه على أن لا شيء يجري من خلفه... إلّا أنني لا أفعل شيئاً. هذا شيء جيد بالنسبة لي ـ بل هو جيد لي وله ـ حتى إذا لم يكن حقيقياً. لا أستطيع أن أغضب منه حقاً لأن لديه سبباً يدعوه إلى الشك. لقد أعطيته في الماضي سبباً للشك؛ والأرجح أنني سوف أفعلها من جديد. لست زوجة نموذجية! لا أستطيع أن أكون زوجة نموذجية! لا علاقة للأمر بمقدار حبي له، فهذا لن يكون كافياً.

السبت، 13 تشرين الأول\أكتوبر 2012

في المساء

نمت خمس ساعات تلك الليلة. هذه مدة أطول من أي مدة نوم

منذ زمن طويل. والأمر غير المفهوم هو أنني شعرت بغرابة شديدة عندما عدت إلى البيت مساء الأمس... ظننت أنني سأظل أرتطم بالجدران عدة ساعات. قلت لنفسي إنني لن أفعلها مرة ثانية... ليس بعد المرة الأخيرة! لكنني رأيته عند ذلك، وأردته... وقلت في نفسي: لمَ لا؟ لا أرى السبب الذي يجعل من واجبي أن أمنع نفسي. كثير من الناس لا يمنعون أنفسهم. الرجال لا يفعلون ذلك. لا أريد أن أجرح أحداً. لكن عليك أن تكون صادقاً مع نفسك، أليس كذلك؟ هذا كل ما أفعله... أكون صادقة مع نفسي الحقيقية، تلك النفس التي لا يعرفها أحد غيري - لا كمال، ولا سكوت... لا أحد.

بعد حصة التمرينات الرياضية الليلة الماضية، سألت تارا إن كانت راغبة في الذهاب معي إلى السينما في إحدى الليالي خلال الأسبوع القادم. وسألتها بعد ذلك إن كانت مستعدة للتستّر عليّ.

«إذا اتصل، هل تستطيعين القول له إنني معك. وإنني ذهبت إلى الحمام، وسوف أعاود الاتصال به على الفور؟ وعند ذلك اتصلي بي حتى أتصل به. فيكون كل شيء على ما يرام».

ابتسمت ورفعت رأسها قائلة: «لا بأس». لم تسألني حتى عن المكان الذي سأذهب إليه، أو مع مَنْ. إنها تريد حقاً أن تكون صديقتي.

قابلته في فندق سوان في كورلي. كان قد حجز غرفة لنا. علينا أن نكون حذرين... لا يجوز أن يفتضح أمرنا. سيكون ذلك سيئاً له، مدمراً لحياته. وسيكون كارثة لي أنا أيضاً. لا أريد حتى أن أفكر في ما سيفعله سكوت.

أرادني أن أتكلم بعد ذلك، أن أتكلم عمَّ حدث عندما كنت صغيرة أعيش في نورويتش. كنت قد أشرت إلى هذا من قبل. لكنه أراد أن يستمع إلى التفاصيل الليلة الماضية. قلت له أشياء، لكن ما قلته لم يكن حقيقة. لقد كذبت، واختلقت أشياء، وقلت له كل تلك الأمور السخيفة

التي أراد أن يسمعها. كان الأمر مسلياً. لا أشعر بالسوء لأنني كذبت؛ بل إنني أشك في أنه صدَّق معظم ما قلته أصلاً. إنني واثقة تماماً من أنه يكذب... هو أيضاً.

استلقى على السرير ناظراً إليَّ عندما ارتديت ملابسي. قال لي: «لا يمكن أن يحدث هذا مرة ثانية يا ميغان. تعرفين أنه غير ممكن. لا نستطيع مواصلة فعل هذا». كان محقاً. أعرف أننا لا نستطيع. لا يجوز أن نواصل فعل ذلك؛ يجب أن نتوقّف عن فعل ذلك... لكننا سنفعله. لن تكون تلك المرة الأخيرة. لن يرفضني. كنت أفكر في ذلك خلال عودتي إلى البيت. هذا أكثر ما أحبه في الأمر كله: أن تكون لي سلطة على أحد ما. هذا هو الشيء المدوّخ... الشيء المسكِر.

في المساء

إننيٍ في المطبخ أفتح زجاجة من النبيذ. يأتي سكوت من خلفي ويضع كفّيه على كتفيّ. يضغط عليهما ثم يقول: «كيف تجري الأمور مع المعالج النفسي؟». قلت له إن كل شيء على ما يرام، وإننا نحرز تقدماً. صار معتاداً الآن على عدم الحصول على أي تفاصيل مني. ثم قال: «هل استمتعت بصحبة تارا الليلة الماضية؟».

كان خلف ظهري، فكنت غير قادرة على معرفة ما إذا كان يسألني حقاً أو أنه يشك في شيء ما. لا أستطيع تخمين أي شيء من صوته.

قلت له: «إنها لطيفة فعلاً. سوف تنسجم معها، وسوف تنسجم معك. إننا ذاهبتان إلى السينما الأسبوع القادم. ربما يجب أن أدعوها إلى بيتنا لتناول الطعام بعد ذلك!».

سألني: «ألست مدعوّاً إلى السينما معكما؟».

قلت له: «أنت مرحَّب بك»... استدرت نحوه وقبّلته على فمه... «لكنها تريد أن ترى ذلك الشيء مع ساندرا بولوك، لذا...».

«لا تضيفي شيئاً! اتفقنا، أحضريها معك لتناول العشاء بعد ذلك». هكذا قال لي ضاغطاً بكفيه ضغطاً خفيفاً على أسفل ظهري.

أصبُّ النبيذ ونمضي إلى الخارج. نجلس جنباً إلى جنب على حافة مدخل البيت واضعَين أصابع أقدامنا في العشب.

يسألني: «هل هي متزوجة؟»

«تارا؟ لا... إنها عازبة».

«أليس لها صديق؟».

«لا أظن هذا».

يسألني رافعاً حاجبه: «ولا صديقة؟»... فأضحك.

«كم عمرها إذاً؟».

أقول: «لست أدري. في حدود الأربعين عاماً».

«أوه! وهي وحيدة تماماً. هذا محزن بعض الشيء».

«إمم. أظن أنها تشعر بالوحدة».

«إنهنَّ ينجذبن إليكِ دائماً، الفتيات اللواتي يشعرن بالوحدة، أليس كذلك؟ يطرن إليك مثل النحل».

«هل هذا صحيح؟».

يسألني: «ليس لديها أطفال إذن؟»... لا أعرف إن كنت أتخيل هذا تخيلاً، لكنني أستطيع أن أميز نبرة عصبية في صوته في الثانية نفسها التي يرد فيها ذكر الأطفال، فأشعر أننا على وشك الشجار. لا أريد هذا... لا أستطيع التعامل مع هذا... أنهض واقفة وأمضي لأدخل البيت. عليه أن يجلب كؤوس النبيذ لأننا ماضيان إلى غرفة النوم.

يتبعني فأبدأ خلع ملابسي خلال صعودي السلم. وعندما نصل إلى غرفة النوم يدفعني، ووجهي إلى الأسفل، فوق السرير. إنني لا أفكر فيه... لكن هذا غير مهم لأنه لا يعرف هذا. إنني ماهرة أستطيع جعله يصدق أن الأمر كله متعلّق به.

ريتشل

الاثنين، 15 تموز\يوليو 2013

في الصباح

نادتني كاثي عندما كنت على وشك مغادرة البيت هذا الصباح ومنحَتني عناقاً قصيراً متيبّساً. ظننتها ستقول لي إنها لن تطردني بعد كل شيء؛ لكنها دسَّت في يدي ورقة مطبوعة. كانت تلك الورقة إشعاراً رسمياً بالإخلاء. وكان تاريخ المغادرة مذكوراً أيضاً. لم تستطع كاثي النظر في عينيّ. شعرت بالأسف صدقاً، رغم أنه لم يكن بمقدار أسفي على نفسي. ابتسمت لي ابتسامة حزينة ثم قالت: «أكره أن أفعل هذا بك يا ريتشل... صدقاً، أكره هذا». بدا الموقف كله شديد الغرابة. كنا واقفتين في مدخل البيت الذي لا يزال يفوح بشيء من رائحة القيء رغم الجهد الكبير الذي بذلته في تنظيفه. أحسست بأنني موشكة على البكاء، لكنني لم أشأ أن أجعلها أسوأ حالاً مما كانت بالفعل، وهكذا فقد ابتسمت لها ابتسامة مشرقة وقلت: «لا مشكلة أبداً. صدقاً، لا مشكلة»... قلت لها هذا كما لو أنها تطلب مني معروفاً.

وفي القطار، جاءتني الدموع. لم أعبأ بأن ينظر الناس إليّ. لن يظنوا إلا أن سيارة يمكن أن تكون قد دهست كلبي. وقد يظنون أن الأطباء شخَّصوا إصابتي بمرض قاتل. قد أكون مدمنة، كحولية مهجورة، مطلَّقة، موشكة على أن تكون من غير مأوى أيضاً.

عندما أفكر في الأمر، أرى أنه سخيف مضحك. كيف وجدت نفسي هنا؟ أتساءل... أين بدأ ذلك، أين بدأ انحداري؟ أتساءل عن النقطة التي كنت قادرة عندها على إيقاف هذا. أين قمت بانعطاف خاطئ؟ ليس عندما التقيت توم، توم الذي أنقذني من الأسى بعد وفاة أبي. ليس عندما تزوجت، عندما كنت خالية البال غارقة في الهناء في يوم شتويّ على نحو غريب من أيام شهر أيار قبل سبع سنوات. كنت سعيدة، موسرة، ناجحة. لم يبدأ ذلك عندما انتقلنا إلى البيت ذي الرقم 23، ذلك البيت الذي كان اتساعه ولطفه أكثر من أي مكان تخيلت أن أسكنه في سن السادسة والعشرين الغَضّ. أذكر تلك الأيام الأولى... أذكرها بوضوح شديد... أذكر كيف كنت أتجول في البيت حافية، أشعر بدفء ألواح الأرضية الخشبية تحت قدمَيّ، أستمتع بفسحة البيت، بخواء كل تلك الغرف التي تنتظر امتلاءها. كنا نضع الخطط، توم وأنا: ما سنزرعه في الحديقة، وما سنعلّقه على الجدران، واللون الذي سنطلي به الغرفة الإضافية ـ الغرفة التي اعتبرتها في ذهني، حتى منذ ذلك الوقت، غرفة الطفل.

لعل الأمر بدأ في ذلك الوقت. لعلها كانت هي اللحظة التي شهدت بداية سير كل شيء في اتجاه خاطئ، لحظة تخيلت أننا لم نعد حبيبَيْن، بل صرنا أسرة. وبعد ذلك، بعد أن صارت تلك الصورة في رأسي، لم يعد وجودنا نحن الاثنين، فقط، كافياً أبداً. هل كانت تلك هي اللحظة التي بدأ فيها توم ينظر إليَّ نظرة مختلفة... نظرة الخيبة التي تعكس خيبتي أنا؟ بعد كل ما أعطاني، بعد كل ما تخلّى عنه من أجلي، بعد كل ما فعله حتى نكون معاً... بعد هذا كله... أجعله يظن أنه ليس كافياً.

تركت دموعي تجري حتى وصلت نورثكورت، ثم استجمعت شتات نفسي ومسحت عينيَّ وبدأت أكتب قائمة بالأشياء التي يجب أن أفعلها اليوم. كتبتها على ظهر إشعار الإخلاء الذي استلمته من كاثي:

مكتبة هولبورن

رسالة بالبريد الإلكتروني إلى أمي

رسالة إلى مارتن، هل أطلب توصية؟؟؟

السؤال عن اللقاءات العلاجية لمدمني الكحول ـ وسط لندن/ آشبوري

هل أسأل كاثي عن وظيفة؟

عندما وقف القطار عند الإشارة، رفعت رأسي فرأيت جيسون واقفاً على الشرفة ناظراً إلى الأسفل... صوب سكة القطار. أحسست أنه ينظر إليّ مباشرة فانتابني شعور غريب ـ أحسست أنه نظر إليَّ هذه النظرة من قبل. أحسست أنه يراني حقاً. أتخيله مبتسماً لي فأشعر بالفزع... لسبب ما.

يستدير جيسون، ويتحرّك القطار.

في المساء:

إنني جالسة في قسم الإسعاف والحوادث في مستشفى يونفرستي كولوج. صدمتني سيارة أجرة عندما كنت أجتاز شارع غرايز إن. كنت صاحية تماماً، مثل قاضٍ. أحب أن أشير إلى هذا رغم أنني كنت في حالة... كنت مشتَّتة الانتباه، مذعورة تقريباً. لدي جرح طوله أكثر من سنتيمترين فوق عيني اليمنى أغلقه بغرزات جراحية لطبيب شاب بالغ الوسامة، لكنه فَظّ مهني إلى درجة مخيّبة. وعندما أنهى الغرزات لاحظ الضربة في رأسي.

قلت له: «هذه ليست جديدة».

قال: «تبدو جديدة تماماً».

أجبته: «طيب، لم تحدث اليوم».

«كنا في الحرب، أليس كذلك؟».

«اصطدم رأسي عندما كنت أركب السيارة».

ظل لحظات طويلة يفحص رأسي ثم قال: «هل هذا صحيح؟». وقف وتراجع قليلاً ثم نظر في عينيَّ: «لا يبدو الأمر مثلما تقولين. بل يبدو الأمر كأن أحداً ضربك بشيء». قال هذا فأحسست بالبرد. تذكّرت كيف خفضت رأسي لأتفادى ضربة، كيف رفعت يدي. هل هي ذكرى حقيقية؟ اقترب الطبيب من جديد وألقى على الجرح نظرة أكثر تمعّناً: «إنه شيء حاد... لعله شيء مسنن أيضاً...».

قلت له: «لا! كنت أركب السيارة. اصطدم رأسي عندما كنت أركب السيارة». إنني أحاول إقناع نفسي بقدر ما أحاول إقناعه هو.

«لا بأس». ابتسم لي ثم تراجع من جديد مقرفصاً بعض الشيء حتى تصبح عيناه في مستوى عينيَّ... «هل تشعرين بأنكِ على ما يرام...». نظر في أوراقه... «يا ريتشل».

«أجل».

ينظر إليّ زمناً طويلاً. إنه لا يصدقني! يبدو قلقاً. لعله يظن أنني زوجة تعرضت للضرب. «طيّب! سوف أنظف هذه الإصابة لأنها تبدو في حال سيئة. هل لديك أحد يمكن أن نتصل به من أجلك؟ زوجك مثلاً؟».

قلت له: «إنني مطلَّقة».

«أحد آخر إذاً؟» ... إنه لا يبالي بأنني مطلَّقة.

«صديقتي، من فضلك، سوف تكون قلقة عليّ». أعطيته اسم كاثي ورقم هاتفها. لم تكن كاثي قلقة على الإطلاق ـ لم أتأخر على العودة إلى البيت بعد ـ لكني آمل أن هذا النبأ... أن سيارة أجرة صطدمتني... يمكن أن يجعلها تشفق عليَّ فتسامحني على ما حدث أمس. سوف تظن

على الأرجح أن سبب هذا الحادث هو أنني كنت ثملة. لا أعرف إن كنت أستطيع أن أطلب من الطبيب إجراء فحص للدم، أو شيء ما، حتى أستطيع أن أثبت لها بالدليل القاطع أنني كنت صاحية. أبتسم له، لكنه لا ينظر إليَّ. إنه يسجل ملاحظاته. فكرتي سخيفة على أي حال.

كان الذنب ذنبي. ليس ذنب سائق السيارة. لقد سرت أمامه مباشرة ـ بل ركضت أمامه في الواقع ـ أمام سيارة الأجرة. لا أعرف إلى أين كنت أظن أنني أركض. لم أكن أفكر على الإطلاق، هكذا أعتقد... لم أكن أفكر في نفسي على الأقل. كنت أفكر في جس. وهي ليست جس. إنها ميغان هيبويل... وهي مفقودة أيضاً.

كنت في المكتبة، في طريق ثيوبالدز. كنت قد فرغت من رسالتي التي بعثتها إلى أمي عبر حساب بريدي الإلكتروني في ياهو (لم أخبرها بأي شيء مهم. كانت تلك رسالة لسبر المياه فحسب، لأعرف مقدار مشاعرها الأمومية نحوي في تلك اللحظة). وفي صفحة ياهو الرئيسية كانت هنالك بعض الأخبار... يختارونها بحيث تتناسب مع رقمك البريدي، أو مع شيء ما ـ الرب وحده يعرف كيف يعرفون رقمي البريدي... لكنهم يعرفونه! كانت هنالك صورة لها، صورة جس، جس نفسها، تلك الشقراء الرائعة... وإلى جانبها عنوان يقول: «قلق على امرأة مفقودة من ويتني».

لم أكن واثقة أول الأمر. بدت تشبهها. بدت تماماً مثلما تبدو لي، في رأسي، لكنني شككت في نفسي. ثم قرأت القصة فرأيت اسم الشارع، وعرفت.

تتزايد مخاوف شرطة باكينغهامشاير في ما يتعلق بمصير امرأة مفقودة في التاسعة والعشرين. اسمها ميغان هيبويل، من طريق بلينهايم، ويتني. شوهدت السيدة هيبويل آخر مرة من قبل زوجها، سكوت هيبويل، ليلة السبت عندما غادرت منزلهما لتزور أحد الأصدقاء نحو

الساعة السابعة. قال زوجها السيد هيبويل إن اختفاءها «غريب تماماً». كانت السيدة هيبويل مرتدية بنطلون جينز وقميصاً أحمر قصير الكمّين. يبلغ طولها مئة وسبعة وستين سنتيمتراً؛ رشيقة، شعرها أشقر، عيناها زرقاوان. على من لديه معلومات في ما يتعلّق بالسيدة هيبويل أن يتصل بشرطة باكينغهامشاير.

إنها مفقودة. جس مفقودة. ميغان مفقودة. منذ يوم السبت. بحثت عن اسمها في غوغل ـ ظهرت القصة في صحيفة ويتني آرغوس. لكنها لم تكن تحتوي على أيّ معلومات إضافية. فكرت في مشاهدتي جيسون ـ سكوت ـ هذا الصباح، واقفاً على الشرفة، ناظراً صوبي، مبتسماً لي. أمسكت بحقيبتي ونهضت على قدمَيَّ ثم جريت خارجة من المكتبة، إلى الشارع... صرت أمام سيارة أجرة سوداء.

«ريتشل؟ ريتشل؟»... كان الطبيب الوسيم يحاول لفت انتباهي. «صديقتك هنا. جاءت لتأخذك».

ميغان

الخميس، 10 كانون الثاني\يناير 2013

في الصباح

أحياناً، لا أحب الذهاب إلى أيّ مكان. وأفكر في أنني سأكون سعيدة إذا لم يكن عليَّ أن أضع قدمي خارج البيت مرة أخرى. بل إنني لا أشتاق إلى العمل أيضاً. لا أريد إلا أن أظل آمنة دافئة في مأواي مع سكوت... من غير أن يزعجني شيء.

يساعد في هذا الإحساس أن الجو مظلمٌ الآن، وبارد أيضاً... طقسٌ قذر. يساعد أيضاً أن المطر لم يتوقف منذ أسابيع ـ مطر متواصل، مزعج، شديد البرودة، تصحبه هبّات من ريح تعوي في الشوارع بصوت مرتفع يبتلع صوت القطارات. لا أستطيع سماع القطار ماضياً في طريقه... لا أستطيع الآن سماعه يحرّضني، يغريني بالسفر إلى مكان آخر.

اليوم، لا أريد الذهاب إلى أي مكان. لا أريد الهرب، ولست أرغب حتى في الخروج للسير في الشارع. أريد أن أظل هنا، أن أظل ثابتة هنا مع زوجي، نشاهد التلفزيون ونتناول الآيس كريم بعد أن اتصلت به وطلبت منه العودة من عمله باكراً حتى نستطيع ممارسة الجنس في وسط بعد الظهيرة.

سوف يكون عليَّ أن أخرج في ما بعد، بطبيعة الحال، لأنه يوم موعدي مع كمال. كنت أتحدث معه عن سكوت في الآونة الأخيرة،

وعن كل ما فعلته من أشياء خاطئة، عن فشلي في أن أكون زوجة. يقول كمال إن عليَّ أن أجد طريقة لأجعل نفسي سعيدة، وإن عليَّ أن أكف عن البحث عن السعادة في أماكن أخرى. هذا صحيح، أفعل هذا... أعرف أنني أفعل هذا... ثم أجد نفسي في تلك اللحظة، وأقول في نفسي: إلى الجحيم، الحياة قصيرة جداً.

أفكر في ذلك الوقت عندما ذهبنا في عطلة عائلية إلى سانتا مارغريتا خلال عطلة الفصح المدرسية. كنت قد بلغت الخامسة عشرة... وقابلت ذلك الشخص على الشاطئ. كان أكبر مني كثيراً ـ لعله كان في الثلاثينات، بل لعله كان في أوائل الأربعينات. وقد دعاني إلى رحلة بالقارب الشراعي في اليوم التالي. كان بن معي، وكان مدعوّاً أيضاً. لكنه قال -كان أخي الأكبر الذي يحميني دائماً- إن علينا عدم الذهاب لأنه لا يثق بذلك الرجل. قال إنه وغد قليل الأخلاق. لقد كان كذلك بالطبع! لكني غضبت كثيراً، فمتى تسنح لنا فرصة أخرى للذهاب في رحلة بقارب شراعي في البحر الليغوري في يخت خاص يملكه أحد الأشخاص؟ قال لي بن إننا سنحظى بفرص كثيرة لفعل ذلك؛ وإن حياتنا ستكون كلها مغامرات. لم نذهب في نهاية الأمر. وفي ذلك الصيف، فقد بن السيطرة على دراجته الآلية على الطريق 10 آ. لم يتح له، ولم يتح لي، بعد ذلك الذهاب في رحلة بقارب شراعي.

أفتقد عيشنا معاً... عندما كنا معاً، بن وأنا. كنا لا نخاف شيئاً.

لقد أخبرت كمال كل ما يتعلق ببن؛ لكننا صرنا الآن أكثر قرباً من الأشياء الأخرى، من الحقيقة، من الحقيقة الكاملة ـ ما حدث مع ماك، وما قبل، وما بعد. أشعر بالأمان عندما أتحدث مع كمال لأنه لا يستطيع أن يخبر أحداً أبداً، لأن عليه المحافظة على أسرار المرضى.

لكن، حتى إذا كان قادراً على إخبار أحد ما، فلست أظن أنه سيفعل ذلك. إنني أثق به، إنني أثق به حقاً. أمر غريب... لأن ما يمنعني من إخباره

كل شيء ليس الخوف مما يمكن أن يفعله بتلك المعلومات، وليس الخوف من حكمه عليّ... الأمر متعلّق بسكوت. أشعر كأنني أخون سكوت إذا أخبرت كمال شيئاً لم أقله له. عندما أفكر في كل الأشياء الأخرى التي فعلتها، في الخيانات الأخرى، تبدو هذه الخيانة أمراً هيناً، لكنها ليست كذلك! يبدو هذا أسوأ، على نحو ما، لأنه متعلق بالحياة الحقيقية... إنه في داخلي... وأنا لا أطلِع سكوت على ما في داخلي.

لا أزال مترددة، متمنّعة، لأن من الواضح أنني لا أستطيع قول كل ما أشعر به. أعرف أن فكرة المعالجة النفسية قائمة كلها على أن أقول ما أشعر به، لكنني لا أستطيع. عليَّ أن أحرص على بقاء الأشياء غائمة، وأن أخلط بين الرجال، العشاق والأصدقاء السابقين والأزواج السابقين... لكني أقول لنفسي إن هذا ليس مشكلة لأن هويات هؤلاء الأشخاص ليست مهمة، المهم هو ما يجعلونني أحسه: مختنقة، مضطربة، جائعة. لماذا لا أستطيع أن أحصل على ما أريد؟ لماذا لا يستطيعون إعطائي ما أريد؟

نعم... إنهم يعطونني ما أريد أحياناً. سكوت هو كل ما أريده أحياناً. فقط... لو كنت أستطيع أن أبقي على هذا الشعور، هذا الشعور الذي أعيشه الآن ـ لو كنت أستطيع فقط أن أكتشف كيف أركّز على هذه السعادة، كيف أستمتع باللحظة من غير أن أتساءل من أين ستأتي اللحظة الرائعة الأخرى ـ لو تحقَّق لي هذا لصار كل شيء بخير.

في المساء

علي أن أحافظ على تركيزي عندما أكون مع كمال. يصعب علي أن ألّا أترك عقلي يتجول، هنا وهناك، عندما ينظر إليّ بتلك العينين الأسديَّتين، عندما يضم كفّيه معاً في حجره، وعندما يصالب ساقيه عند الركبتين. يصعب عليَّ ألّا أفكر في الأشياء التي يمكن أن نفعلها معاً.

علي أن أحافظ على تركيزي. كنا نتحدث، حتى الآن، عما حدث بعد جنازة بن، بعد هربي. عشت في إبسويتش فترة من الزمن؛ لم تكن فترة طويلة. قابلت ماك هناك، أول مرة. كان يعمل في حانة، أو ما شابه. التقطني في طريق عودته إلى بيته. أشفق عليّ.

«لم يكن راغباً حتى فيَّ... أنت تفهم هذا». بدأت أضحك... «عدنا إلى شقته وطلبت منه نقوداً، فراح ينظر إليّ كما لو أنني مجنونة. قلت له إنني كبيرة بما يكفي، لكنه لم يصدقني. وقد انتظرني! نعم... انتظرني... انتظرني حتى يوم ميلادي السادس عشر. كان قد غيّر شقته بحلول ذلك الوقت؛ انتقل إلى بيت قديم بالقرب من هولكام. كان كوخاً حجرياً قديماً في نهاية درب مفضية إلى لا مكان. ومن حوله قطعة أرض... على مسافة نصف ميل من الشاطئ تقريباً. كان هنالك خط قديم لسكة الحديد يمرّ على امتداد أحد طرفَيْ تلك الأرض. كنت أستلقي يقِظة في الليل ـ كنا نشرب كثيراً في ذلك الوقت، وندخن كثيراً ـ كنت أتخيل أنني أسمع أصوات القطارات. كنت واثقة جداً من أنني يمكن أن أنهض وأخرج من البيت وأنظر باحثة عن أضواء تلك القطارات».

تحرك كمال في مقعده وأومأ برأسه... بطيئاً. لم يقل شيئاً. يعني هذا أن عليَّ أن أستمر، أن أواصل الكلام.

«في الحقيقة، كنت سعيدة هناك، مع ماك. عشت معه مدة... يا إلهي، كان ذلك نحو ثلاث سنوات كما أظن... بلغت المدة ثلاث سنوات في النهاية. لقد كنت... كنت في الثامنة عشرة عندما تركته... نعم... كان عمري ثمانية عشر عاماً».

يسألني كمال: «لماذا تركته إن كنت سعيدة هناك؟.» نعم... لقد بلغنا تلك النقطة. بلغناها بأسرع مما ظننت. لم أحظ بالوقت الكافي للمرور عبر ذلك كله، للاستعداد من أجله. لا أستطيع أن أفعل هذا. لا يزال الوقت أبكر مما يجب.

«تركني ماك. لقد حطّم قلبي». هكذا قلت. كانت تلك هي الحقيقة، لكنها كانت كذبة أيضاً. لست جاهزة بعد لكي أقول الحقيقة كلها.

أعود إلى البيت فلا أجد سكوت. وهكذا، أفتح حاسوبي وأبحث عنه في غوغل... هذه أول مرة أبحث عنه في غوغل. هذه أول مرة، منذ عشر سنوات، أبحث عن ماك. لكني لا أستطيع العثور عليه. إن في العالم مئات الأشخاص الذين يحملون اسم غريغ ماكينزي، ولا يبدو أن أحداً منهم هو الذي يخصّني أنا.

الجمعة، 8 شباط\فبراير 2013

في الصباح

أمشي في الغابات. خرجت قبل أن يلوح الضياء. إنها بداية الفجر الآن، صمت كالموت لا تقطعه إلا اندفاعات عارضة لاصطفاق أجنحة الغربان في الأشجار فوق رأسي. أستطيع أن أشعر بها تراقبني، بعيونها الخَرَزية، تحاول تقييم وضعي. سيل من الغربان. واحد للحزن، اثنان للفرحة، ثلاثة لفتاة، أربعة لولد، خمسة للفضة، ستة للذهب، سبعة لسرٍّ لن يُحكى أبداً.

إن لديّ بعضاً من هذه الأسرار.

سكوت ليس هنا. إنه في دورة دراسية في مكان ما من ساسكس. ذهب صباح الأمس، ولن يعود قبل هذه الليلة. أستطيع أن أفعل ما أريد.

أخبرت سكوت قبل أن يسافر إنني ذاهبة إلى السينما مع تارا بعد جلستي مع المعالج النفسي. قلت له إن هاتفي سيكون مقفلاً. وتحدثت معها أيضاً. نبّهتها إلى أنه يمكن أن يتصل بها. يمكن أن يتفقّدني. سألتني تارا هذه المرة عما كنت أعتزم فعله. لم أقل لها شيئاً... غمزت بعيني

وابتسمت. فضحكت. أظن أنها تشعر بالوحدة، وأن حياتها يمكن أن تستوعب مؤامرات من هذا النوع.

في جلستي مع كمال، كنا نتحدث عن سكوت، وعن ذلك الأمر المتعلّق بالحاسوب. حدث ذلك منذ أسبوع تقريباً. كنت أبحث عن ماك ـ أجريت هذا البحث مرات عدة قبل ذلك. أردت فقط أن أعرف مكانه، وأن أعرف ما يفعله. يبدو لي أن في الإنترنت صوراً لكل الناس هذه الأيام؛ وقد أردت أن أرى وجهه. لم أستطع العثور عليه. أويت إلى الفراش في وقت مبكر تلك الليلة. ظل سكوت يشاهد التلفزيون. نسيت أن أحذف سجل تاريخ التصفّح في حاسوبي. غلطة غبية ـ يكون ذلك عادة آخر ما أفعله قبل أن أغلق حاسوبي مهما يكن الشيء الذي أبحث عنه. أعرف أن لدى سكوت طرقاً لاكتشاف ما كنت أفعله على أي حال، فهو ماهر في التكنولوجيا. لكن الأمر يستغرق وقتاً في تلك الحالة. وهذا ما يجعله يصرف نظره عن تلك المحاولة، معظم الأحيان.

لكني نسيت. وقد تشاجرنا في اليوم التالي. كان شجاراً من أسوأ الشجارات بيننا. أراد أن يعرف من هو غريغ، ومتى كنت أراه، وأين كنا نلتقي، وما الأشياء التي فعلها لي ولم يفعلها سكوت. وبكل غباء، قلت لسكوت إنه صديق من أصدقاء الماضي. لكن هذا لم يفعل إلا أن زاد الأمر سوءاً. سألني كمال إن كنت خائفة من سكوت، فانزعجت كثيراً.

قلت زاعقة: «إنه زوجي! لست خائفة منه طبعاً».

بدا لي كمال مصدوماً تماماً. لقد صدمت نفسي في الحقيقة أيضاً. لم أكن أتوقّع قوّة غضبي، وعمق إحساسي بضرورة حماية سكوت. فاجأني هذا، أنا أيضاً.

«أخشى أن هنالك نساء كثيرات يخفن أزواجهن يا ميغان». حاولت أن أقول شيئاً، لكنه رفع يده ليسكتني، وقال: «إن هذا السلوك الذي وصفته ـ قراءة رسائلك، والتفتيش في تاريخ التصفح في الإنترنت ـ لقد وصفت

هذا كله كأنه أمر عادي، كأنه شيء طبيعي. إنه ليس كذلك يا ميغان. ليس من الطبيعي أن يعتدي أحد على خصوصية شخص آخر إلى هذه الدرجة. يعتبر هذا عادة شكلاً من أشكال الإساءة إلى مشاعر الآخرين».

ضحكت عند ذلك... ضحكت لأنه جعل الأمر يبدو مأساوياً إلى هذه الدرجة. قلت له: «إنه ليس إساءة! ليس إساءة إذا كنت لا أمانع في ذلك. وأنا لا أمانع في الحقيقة. لا مانع عندي».

ابتسم لي عند ذلك... ابتسامة حزينة بعض الشيء، ثم سألني: «ألا تعتقدين أنك يجب أن تمانعي حدوث ذلك؟».

رفعت كتفي: «قد يكون عليَّ أن أمانع، لكن الحقيقة هي أنني لا أمانع. إنه غَيور، بَلْ استحواذي. هكذا هو. وهذا لا يجعلني لا أحبه. ثم إن هناك معارك لا تستحق خوضها. إنني حذرة... عادة. وأنا أخفي آثاري. وهكذا فإن الأمر لا يسبب مشكلة في العادة».

هزّ رأسه هزة خفيفة،تكاد لا تُرى.

قلت له: «لم أكن أظن أن عملك هو إطلاق الأحكام عليّ!».

وعندما انتهت الجلسة، سألته إن كان يحب أن يشرب كأساً معي. قال إنه لا يريد ذلك، لا يستطيع، لأن ذلك لن يكون أمراً مناسباً. وهكذا تبعته حتى بيته. إنه يعيش في شقة على طريق عودتي إلى بيتي من عيادته. قرعت بابه. وعندما فتح الباب سألته: «هل الأمر مناسب هكذا؟»... دسست يدي خلف عنقه ووقفت على أطراف أصابعي وقبّلته على فمه.

فقال لي بصوت مثل المخمل: «ميغان! لا تفعلي هذا. أنا لا أستطيع أن أفعل هذا. لا تفعلي هذا».

كان شيئاً رائعاً، ذلك الدفع والجذب، الرغبة والتمنّع. لم أرد أن أترك هذا الإحساس يذهب عني، أردت كثيراً أن أتمكن من المحافظة عليه.

نهضت في ساعات الصباح الأولى... رأسي يدور، والذكريات تملأه. لم أستطع أن أظل راقدة هناك، مستيقظة، وحدي... وذهني يتنقل بين تلك الفرص كلها التي كنت أستطيع فيها أن أذهب، أن أغادر. وهكذا نهضت فلبست ثيابي وخرجت أمشي. وجدت نفسي هنا. إنني أمشي هنا وهناك وأستعيد كل شيء في رأسي ـ قال... قالت... إغراء... راحة. لو أنني أستطيع الاستقرار على شيء ما، لو أنني أستطيع اختيار الثبات... لو أستطيع ألّا أكون متغيّرة المزاج هكذا. ماذا لو أن الشيء الذي أبحث عنه لا يمكن العثور عليه؟ ماذا لو كان شيئاً مستحيلاً؟ الهواء بارد في رئتي. بدأت الزرقة تظهر على أطراف أصابعي. كان جزء مني راغباً في الاستلقاء هنا فقط، بين أوراق الأشجار، في أن يترك البرد يأخذني. لكنني لا أستطيع. حان وقت الذهاب.

كانت الساعة تقارب التاسعة عندما وصلت إلى شارع بلنهايم رود. وعندما انعطفت حول زاوية الشارع رأيتها آتية صوبي. كانت تدفع عربة الأطفال أمامها. وكانت الطفلة صامتة... هذه المرة. نظرت إليّ وأومأت برأسها ومنحتني واحدة من تلك الابتسامات الواهنة... ابتسامة لم أقابلها بمثلها. أتظاهر عادة أنني لطيفة. لكنني أشعر بأنني حقيقية هذا الصباح، أشعر أنني أشبه نفسي. إنني في مزاج مرتفع، كما لو أني في رحلة. ولن أستطيع التظاهر كذباً بأني لطيفة، حتى إذا حاولت.

بعد الظهر

سقطت نائمة بعد الظهر. استيقظت محمومة، مذعورة. أشعر بالذنب. أشعر بالذنب فعلاً. لا، لا أشعر بالذنب إلى الحد الكافي.

فكرت فيه، في مغادرته عند منتصف الليل قائلاً لي، مرة أخرى، إن تلك هي المرة الأخيرة، المرة الأخيرة فعلاً، لا نستطيع أن نفعل هذا من جديد. كان قد بدأ ارتداء ثيابه، كان يلبس بنطلونه الجينز. كنت مستلقية

على السرير فضحكت لأنه قال الشيء نفسه في المرة الماضية، وفي المرة التي قبلها، وفي المرة التي قبل ذلك أيضاً. نظر إليّ تلك النظرة. لا أعرف كيف أصفها. لم تكن غاضبة تماماً، ولم تكن احتقاراً ـ كانت إنذاراً.

أشعر بانزعاج. أمشي حول البيت. لا أستطيع الاستقرار. أحس أن أحداً كان هنا بينما كنت نائمة. لم يضطرب شيء في البيت. لكن البيت نفسه يبدو مختلفاً، كما لو أن الأشياء فيه قد تعرضت للمَسّ، كأنها تحركت من أماكنها قليلاً. وعندما رحت أتجول في البيت، أحسست بأن أحداً آخر كان هنا، لكنه خارج مرمى عينيَّ دائماً. تفقدت النوافذ المطلة على الحديقة، ثلاث مرات، لكنها كانت مقفلة. لا أطيق انتظار عودة سكوت إلى البيت. إنني في حاجة إليه.

ريتشل

الثلاثاء، 16 تموز\يوليو 2013

في الصباح

أنا في قطار الثامنة وأربع دقائق. لكنني لست ذاهبة إلى لندن. إنني ذاهبة إلى ويتني بدلاً من ذلك. آمل أن يساعدني وجودي هناك في تنشيط ذاكرتي... آمل أن أصل إلى المحطة فأرى كل شيء بوضوح... سوف أعرف. لست أحمل أملاً كبيراً، لكن ما من شيء آخر أستطيع فعله. لا أستطيع أن أتصل بتوم. أخجل من ذلك؛ ثم إنه جعل الأمر واضحاً تماماً على أي حال: لا يريد أي صلة معي.

لا تزال ميغان مفقودة. إنها غائبة منذ أكثر من ستين ساعة. صارت قصتها متداوَلة في وسائل الإعلام الوطنية. لقد كانت على موقع بي بي سي وعلى موقع ميل أون لاين هذا الصباح؛ ثم ظهر عدد من الأخبار القصيرة التي تشير إليها في مواقع أخرى أيضاً.

طبعتُ قصة البي بي سي وقصة الميل. إنهما موجودتان معي. فهمت منهما ما يلي:

حدثت مشادة بين ميغان وسكوت مساء السبت. أفاد أحد الجيران أنه سمع أصواتاً مرتفعة. أقرَّ سكوت بأنهما تجادلا. وقال إنه ظن أن زوجته ذهبت لتمضي الليل لدى صديقة لها... تارا إبشتاين... صديقة تعيش في كورلي.

لم تذهب ميغان إلى بيت تارا. تقول تارا إنها رأت ميغان آخر مرة بعد ظهر يوم الجمعة في درس التمرينات الرياضية. (كنت أعرف أن ميغان تمارس الرياضة). وبحسب الآنسة إبشتاين، «بدت ميغان في حالة جيدة، عادية. كان مزاجها طيباً. وكانت تتحدث عن اعتزامها تحضير شيء خاص من أجل ذكرى ميلادها الثلاثين، الشهر المقبل.

رأى أحد الشهود ميغان ماشية صوب محطة قطارات ويتني نحو الساعة السابعة والربع مساء السبت. ليس لميغان أقارب في تلك المنطقة. ووالديها متوفيان.

ميغان عاطلة عن العمل. كانت تدير معرضاً فنياً صغيراً في ويتني، لكنه مغلق منذ نيسان العام الماضي. (كنت أعرف أن لدى ميغان اهتمامات فنّية).

سكوت يعمل لحسابه في مجال الاستشارات المعلوماتية. (لا أصدق أبداً أن سكوت استشاري في المعلوماتية).

ميغان وسكوت متزوجان منذ ثلاث سنوات. وهما يعيشان في ذلك البيت في شارع بلنهايم رود منذ كانون الثاني\يناير 2012.

تقول الديلي ميل إن قيمة بيتهما تبلغ أربعمئة ألف باوند.

عندما قرأت هذا كله، عرفت أن الأمور تبدو سيئة بالنسبة لسكوت. ليس بسبب تلك المشادّة وحدها. هكذا تكون الأمور عادة، عندما يحدث شيء سيء لامرأة، تنظر الشرطة إلى زوجها أو إلى صديقها أولاً. لكن الشرطة لا تعرف الحقائق كلها في هذه الحالة. إنهم ينظرون إلى الزوج فقط. وأفترض أن ذلك لأنهم لا يعرفون شيئاً عن صديقها.

قد أكون الشخص الوحيد الذي يعرف أن لها صديقاً.

رحت أفتّش في حقيبتي عن قصاصة ورق. وعلى ظهر بطاقة لشراء

زجاجتين من النبيذ، دوّنت قائمة من التفسيرات الأكثر احتمالاً لاختفاء ميغان هيبويل:

1- هربت مع صديقها الذي سوف أشير إليه من الآن فصاعداً بالحرف ب.

2- أوقع ب الأذى بها.

3- سكوت هو الذي أوقع الأذى بها.

4- لقد تركت زوجها بكل بساطة ومضت لتعيش في مكان آخر.

5- شخص آخر، غير ب أو سكوت، أوقع بها الأذى.

أظن أن الإمكانية الأولى هي الأكثر ترجيحاً. كما أن الرابعة احتمال قوي أيضاً لأن ميغان شخصية مستقلة، امرأة ذات إرادة، إنني واثقة من هذا. وإذا كانت لها علاقة غرامية بأحد ما، فقد تكون بحاجة إلى الابتعاد حتى يصفو رأسها، أليس كذلك؟ لا يبدو الاحتمال الخامس مرجَّحاً، لأن ارتكاب جرائم قتل من قبل أشخاص غرباء ليس أمراً شائعاً أبداً.

تؤلمني تلك الحدبة في رأسي... تنبض ألماً... لا أستطيع أن أكف عن التفكير في تلك المشاجرة التي رأيتها، أو تخيلتها، أو حلمت بها، ليلة السبت. وعندما نمر ببيت ميغان وسكوت، أرفع رأسي وأنظر. أستطيع سماع جريان الدم صاخباً في رأسي. أشعر بإثارة قصوى. أشعر بالخوف. أرى نوافذ البيت رقم 15 تعكس ضياء شمس الصباح... تبدو مثل عيون لا ترى.

في المساء

ما إن أجلس في مقعدي حتى يرن الهاتف. إنها كاثي. أترك الهاتف حتى ينتقل إلى البريد الصوتي. تسجل كاثي رسالة لي: «مرحباً يا ريتشل! إنني أتصل للتأكد فقط من أنك بخير». إنها قلقة عليّ بسبب

حادث السيارة. «أردت أن أقول فقط إنني آسفة، تعرفين هذا، بشأن ذلك اليوم... بشأن ما قلته عن انتقالك من البيت. ما كان يجب أن أقول هذا. لقد بالغت في ردة فعلي. تستطيعين البقاء قدر ما تريدين». صمت طويل بعد ذلك، ثم تقول بعد ذلك: «اتصلي بي! وعودي مباشرة إلى البيت يا راتش. لا تذهبي إلى الحانة».

لم أكن أعتزم الذهاب إلى الحانة. كنت أريد أن أشرب على الغداء. كنت في حاجة شديدة إلى الشراب بعد الذي حدث في ويتني هذا الصباح. لكني لم أشرب شيئاً لأن عليّ أن أحافظ على صفاء ذهني. مر زمن طويل منذ أن كان لديّ شيء يستحق أن أحتفظ بذهني صافياً من أجله.

كان الأمر شديد الغرابة هذا الصباح... رحلتي إلى ويتني. أحسست أنني لم أذهب إليها منذ زمن بعيد رغم أن ذلك الزمن لم يكن إلا أياماً قليلة في واقع الأمر. يمكن أيضاً أن يكون مكاناً مختلفاً تماماً... محطة أخرى في بلدة أخرى. وقد كنت شخصاً مختلفاً عن ذلك الشخص الذي ذهب إلى هناك مساء السبت. أنا متيبّسة وصاحية اليوم... متنبّهة تماماً للأصوات وللضوء ولخوف الاكتشاف.

كنت كمن يعتدي على ملكية الغير. هكذا أحسست هذا الصباح... لأنها منطقتهم الآن... إنها منطقة توم وآنّا وسكوت وميغان. أنا الطرف الدخيل... لست أنتمي إلى هنا... لكن كل شيء مألوف كثيراً بالنسبة لي... رغم ذلك. هبطت الدرجات الإسمنتية في المحطة، ومضيت بجانب كشك الجرائد فدخلت جادة روزبري، ثم مضيت مسافة نصف بناء حتى بلغت نهاية التقاطع، وحتى بلغت القنطرة الواقعة إلى يميني، القنطرة المفضية إلى نفق شديد الرطوبة يمضي من تحت خط القطار، ثم إلى شارع بلنهايم رود الأيسر، الطريق الضيق ذو المسارب الثلاثة، الطريق الذي تشرف عليه شرفات فكتورية جميلة. أحسست كما يحس

العائد إلى بيته: ليس إلى أيّ بيت... إلى بيت الطفولة، إلى مكان تركته منذ عمر كامل. إنها ألفة صعود السلم ومعرفة الدرجة التي ستصدر عنها طقطقة عندما تدوس عليها.

هذه الألفة ليست موجودة في رأسي فقط. إنها في عظامي؛ في ذاكرة العضلات. مشيت هذا الصباح بجانب فم النفق المظلم، مدخل النفق، فتسارعت خطواتي. لم يكن عليّ أن أفكر في الأمر حتى أسرع الخطو لأن سرعتي تزداد قليلاً كلما عبرت ذلك المقطع. كل ليلة، عندما أعود إلى البيت، في الشتاء خاصة، تزداد سرعتي هنا، وألقي نظرة خاطفة نحو اليمين، للتأكد فحسب. لم أرَ يوماً أي شخص هناك ـ لا في أي ليلة من تلك الليالي، ولا اليوم ـ لكنني توقفت جامدة عندما نظرت إلى الظلمة هذا الصباح لأنني استطعت أن أرى نفسي فجأة. استطعت أن أرى نفسي على مسافة أمتار قليلة مني، متهاوية، مستندة إلى الجدار، رأسي بين كفيَّ... والدماء تلطخ رأسي ويدَيّ.

صار قلبي يخفق عاصفاً في صدري. وقفت هناك بينما راح الماضون إلى أعمالهم في ذلك الصباح يمرّون من حولي متابعين سيرهم باتجاه المحطة. التفت واحد أو اثنان منهم خلال عبورهم، بينما بقيت واقفة، ساكنة مثل عصا مغروسة في الأرض. لم أعرف ـ لا أعرف ـ إن كان هذا حقيقياً. ما الذي جعلني أدخل ذلك النفق؟ أي سبب يمكن أن يكون قد حملني على النزول إليه، إلى تلك الظلمة والرطوبة ورائحة البول؟

استدرت، ثم عدت إلى المحطة. ما عدت راغبة في أن أكون هناك. ما عدت راغبة في الذهاب إلى باب سكوت وميغان. رغبت في الابتعاد عن ذلك المكان. حدث شيء سيئ هناك، أعرف أن شيئاً سيئاً قد حدث هناك.

دفعت ثمن تذكرتي وارتقيت مسرعة درجات المحطة ووصلت إلى الجانب الآخر من رصيف القطار. وبينما كنت أسير عاودني ذلك الأمر من جديد، مثل لمحة خاطفة: ليس النفق هذه المرة، بل الدرجات. تعثرت على الدرجات فأمسك رجل بذراعي وساعدني على النهوض. إنه الرجل من القطار، صاحب الشعر الأحمر. أستطيع أن أراه... صورة غامضة لكن من غير حوار. أتذكر أنني ضحكت ـ ضحكت على نفسي، أو على شيء قاله. كان لطيفاً معي... إنني واثقة من هذا. شبه واثقة! حدث شيء ما، لكنني لا أظن أن له علاقة به.

صعدت إلى القطار ومضيت إلى لندن. ذهبت إلى المكتبة وجلست في صالة الحاسوب باحثة عن قصص تتحدث عن ميغان. وجدت خبرًا قصيراً في موقع صحيفة تلغراف قال إن رجلاً في الثلاثينات يساعد الشرطة في البحث. لعله سكوت. لا أستطيع تصديق أنه ألحق بها الأذى. أعرف أنه لا يمكن أن يفعل ذلك. لقد رأيتهما معاً. أعرف كيف يبدوان عندما يكونان معاً. ورد في الصحيفة رقم هاتف إحدى وحدات مكافحة الجريمة أيضاً... رقم هاتف يمكن الاتصال به إذا كانت لدى المرء معلومات. سوف أتصل بهذا الرقم في طريق عودتي إلى البيت، من هاتف مدفوع في الشارع. سوف أخبرهم عن ب، سأخبرهم ما رأيت.

يرن هاتفي عندما نكون موشكين على دخول آشبوري. إنها كاثي من جديد. يا للفتاة المسكينة! إنها مشغولة البال عليّ حقاً.

«راتش؟ هل أنت في القطار؟ هل أنت عائدة إلى البيت؟»... بدا صوتها قلقاً.

قلت لها: «نعم! إنني في الطريق. أصل بعد ربع ساعة».

«إن الشرطة هنا يا ريتشل». قالت هذا فأحسست أن جسدي صار بارداً كله. «يريدون التحدث معك».

الأربعاء، 17 تموز\يوليو 2013

في الصباح

لا تزال ميغان مختفية. وعليّ أن أكذب على الشرطة ـ مرة بعد أُخرى.

انتابني الذعر عندما عدت إلى البيت الليلة الماضية. حاولت إقناع نفسي بأنهم أتوا ليروني لأمر يتعلّق بحادث السيارة، سيارة الأجرة... لكن هذا أمر لا معنى له. لقد تحدثت مع الشرطة في موقع الحادث نفسه ـ كان من الواضح أنني أنا المخطئة. لا بد أن للأمر علاقة بليلة السبت. لا بد أنني فعلت شيئاً. لا بد أنني ارتكبت فعلة فظيعة ثم أخفيتها في ذاكرتي وعتّمت عليها.

أعرف أن هذا يبدو بعيد الاحتمال. ماذا يمكن أن أكون قد فعلت؟ هل ذهبت إلى طريق بلنهايم، وهاجمت ميغان هيبويل، ثم تخلّصت من جثتها، ونسيت كل شيء عن الأمر بعد ذلك؟ يبدو هذا سخيفاً. إنه سخيف. لكني أعرف أن شيئاً قد حدث يوم السبت. عرفت ذلك عندما نظرت إلى ذلك النفق المظلم تحت خط القطار فتحول دمي إلى ماء جليدي يجري في عروقي.

تحدث حالات من التعتيم في الذاكرة. والأمر ليس مقتصراً فقط على كون المرء ثملاً قليلاً عندما يعود إلى البيت من الحانة. لا يشبه هذا أن يعجز المرء عن تذكّر ما وجده طريفاً في ثرثرة جرت في الحانة. هذا شيء مختلف. سواد مطبق. ساعات مفقودة، لا يمكن أن تُستعاد أبداً.

اشترى لي توم كتاباً عن هذا. لم يكن ذلك أمراً رومانسياً، لكنه كان قد تعب من الإصغاء إليّ أخبره بمقدار أسفي في الصباح عندما لم أكن قادرة حتى على معرفة الشيء الذي كنت أعتذر بسببه. أظن أنه أراد مني إدراك الضرر الذي كنت أسببه، وإدراك ما قد أكون قادرة على فعله. كان

مؤلف الكتاب طبيباً؛ لكنني لا أعرف أبداً إن كان كلامه صائباً: زعم الكاتب أن هذا التعتيم في الذاكرة ليس مسألة نسيان ما حدث فحسب، بل هو انعدام وجود ذكريات يمكن أن ينساها الإنسان أصلاً. قامت نظريته على أنك يمكن أن تكون في حالة يتوقف فيها دماغك عن إنتاج ذكريات على المدى القصير. وعندما تكون في هذه الحالة، في تلك الظلمة العميقة، فإنك لا تتصرّف مثلما تتصرف عادة لأنك تستجيب إلى آخر شيء تظن أنه حدث ولأنك (طالما أنك لا تنتج أي ذكريات) يمكن ألا تعرف أبداً الشيء الأخير الذي حدث حقاً. كانت في الكتاب قصص أيضاً... قصص تحذيرية لشاربي الكحول الذين تصيبهم حالات التعتيم هذه: كان هنالك شخص في نيوجيرسي ثَملَ في حفلة الرابع من تموز. وبعد ذلك، مضى إلى سيارته فقادها عدة أميال في اتجاه خاطئ على الطريق السريع ثم اصطدم بحافلة تحمل سبعة أشخاص. اشتعلت النار في الحافلة فقتل ستة من ركابها. وأما الشخص المخمور فلم يصبه سوء. لا يصيبهم السوء أبداً. لم تكن لديه أي ذكرى تتعلّق بقيادته للسيارة.

كان هناك رجل آخر أيضاً، في نيويورك هذه المرة، غادر هذا الرجل البار وقاد السيارة إلى البيت الذي ترعرع فيه، وطعن ساكني البيت حتى الموت. ثم خلع ثيابه كلها. وعاد إلى سيارته وقادها إلى البيت وآوى إلى فراشه. استيقظ في الصباح التالي مذعوراً، متسائلاً عن ثيابه... أين هي! لم يعرف كيف وصل إلى بيته. ولم يكتشف أنه ذبح شخصين بوحشية من غير سبب ظاهر على الإطلاق إلا عندما جاءت الشرطة في أثره.

إذاً، يبدو الأمر سخيفاً... لكنه ليست مستحيلاً. ومع وصولي إلى البيت الليلة الماضية كنت قد توصلت إلى إقناع نفسي بأن لي علاقة، على نحو ما، باختفاء ميغان.

كان رجلا شرطة جالسَيْن على الأريكة في غرفة المعيشة. واحد في الأربعينات بملابس مدنية، وواحد أصغر منه في ملابس الشرطة

الرسمية، ولديه حَبّ الشباب على رقبته. كانت كاثي واقفة عند النافذة تعصر كفَّيْها. بدت مذعورة. نهض الشرطيان. صافحني ذو الملابس المدنية الذي كان طويلاً جداً... منحنياً بعض الشيء؛ ثم قدّم نفسه باسم المحقق غاسغيل. وقال لي اسم الشرطي الذي معه أيضاً، لكنني لا أتذكره. لم يكن انتباهي مركّزاً. كنت أتنفس بصعوبة.

سألتهما بصوت عاوٍ: «ما الأمر؟ هل حدث شيء؟ هل هي أمي؟ هل هو توم؟».

«كل شيء على ما يرام يا آنسة واتسون. إننا في حاجة فقط إلى التحدّث معك عَمَّ كنت تفعلينه مساء السبت؟». هكذا قال غاسغيل. هكذا يقولون في التلفزيون. لم يبدُ لي الأمر حقيقياً. إنهم يريدون معرفة ما فعلته مساء السبت. ماذا فعلت مساء السبت بحق الجحيم؟

قلت: «إنني في حاجة إلى الجلوس»، فأشار المحقق لي أن أجلس مكانه على الأريكة، إلى جانب حب الشباب. كانت كاثي واقفة تنقل ثقل جسمها من قدم إلى أخرى وتعض شفتها السفلى. بدت محمومة.

سألني غاسغيل: «هل أنت بخير يا آنسة واتسون؟»... قال هذا مشيراً إلى الجرح فوق عيني.

قلت له: «لقد صدمتني سيارة أجرة بعد ظهر البارحة، في لندن. ذهبت إلى المستشفى. تستطيع التحقّق من هذا».

قال هازّاً رأسه هزة خفيفة: «لا بأس! إذاً... مساء السبت؟».

قلت: «ذهبت إلى ويتني»... قلت هذا وأنا أحاول إبعاد الرجفة عن صوتي.

«لتفعلي ماذا؟».

أخرج حب الشباب دفتر ملاحظات ورفع قلمه.

قلت: «أردت أن أرى زوجي».

قالت كاثي: «أوه، يا ريتشل».

تجاهلها المحقق، وقال: «زوجك؟ هل تقصدين زوجك السابق؟ توم واتسون؟»... نعم، لا أزال أحمل اسمه. كان الأمر أكثر سهولة. هكذا لا أكون مضطرة إلى تغيير بطاقات الائتمان، وعنوان البريد الإلكتروني، والحصول على جواز سفر جديد، وأشياء من هذا القبيل.

«هذا صحيح. أردت أن أراه، لكني قررت أن تلك لم تكن فكرة جيدة... فعدت إلى البيت».

«وفي أي وقت حدث هذا؟».

كان صوت غاسغيل مستوياً مستقرّاً؛ وكان وجهه من غير تعبير على الإطلاق. وعندما يتكلّم، كانت شفتاه لا تتحرّكان إلا قليلاً. كنت قادرة على سماع خربشة قلم حب الشباب على الورقة. وكنت قادرة على سماع جريان الدم مرعداً في أذنيَّ.

«كان ذلك... أمممم... أظن أن ذلك كان قرابة الساعة السادسة. أقصد، أظن أنني ركبت القطار قرابة الساعة الثالثة»...

«وقد عدت إلى البيت في الساعة...؟».

«ربما في السابعة والنصف!»... رفعت رأسي فالتقت نظراتي بعيني كاثي واستطعت أن أرى من تعبير وجهها أنها أدركت كذبي: «ربما كان ذلك بعد السابعة والنصف بقليل. لعلها كانت أقرب إلى الثامنة. نعم، في الواقع... أتذكر الآن... أظن أنني وصلت إلى البيت بعد الثامنة».

أشعر الآن باللون يعود إلى وجنتيَّ. إذا لم يستطع هذا الرجل إدراك أنني كاذبة، فهو لا يستحق أن يكون رجل شرطة.

استدار المحقق، أمسك بأحد الكراسي عند زاوية الطاولة وشدّها صوبه بحركة سريعة تكاد تكون عنيفة. وضع الكرسي قبالتي مباشرة على مسافة قدمَيْن مني. جلس عليها واضعاً يديه على ركبتيه مائلاً برأسه على

أحد الجانبَين، ثم قال: «طيب! غادرتِ البيت قرابة السادسة. وهذا يعني أنك وصلت إلى ويتني في السادسة والنصف. ثم عدت إلى هنا قرابة الثامنة. هذا يعني أنك يجب أن تكوني قد غادرتِ ويتني قرابة السابعة والنصف. هل يبدو هذا حساباً صحيحاً؟».

قلت: «نعم، يبدو هذا صحيحاً». عادت اللجلجة إلى صوتي... فضحَتني. سوف يسألني بعد ثانية أو ثانيتين عمَّ كنت أفعله طيلة ساعة كاملة. وليست لدي إجابة على ذلك أقدمها له.

«وأنت لم تذهبي في الواقع لرؤية زوجك السابق. فماذا كنت تفعلين خلال تلك الساعة في ويتني؟».

«تجوّلت هناك قليلاً». انتظر المحقق ليرى إن كنت سأضيف شيئاً. فكرت في القول له إنني ذهبت إلى حانة لكن من شأن هذا أن يكون سخيفاً ـ هذا أمر يمكن التحقّق منه. سيسألني عن اسم الحانة، وسيسألني إن كنت تحدثت فيها مع أحد ما. وبينما كنت أفكر بما يجب أن أقول له، أدركت أنني لم أفكر حقاً في أن أطلب منه شرح سبب رغبته في معرفة مكان وجودي مساء السبت. لا بد أن عدم سؤالي يبدو أمراً غريباً في حد ذاته. ولا بد أن هذا يجعلني أبدو مذنبة على نحو ما.

سألني كأنه يقرأ أفكاري: «هل تحدثت مع أحد ما؟ هل ذهبت إلى أحد المتاجر، أو البارات...؟»

«تحدثت مع رجل في المحطة!»... قلت هذا بصوت مندفع مرتفع، شبه منتصر... كأن له معنى... «لكن لماذا تريد أن تعرف هذا؟ ما الذي يجري؟».

مال المحقق غاسغيل إلى الخلف في كرسيه: «لعلك سمعت أن امرأة من ويتني قد اختفت. امرأة تعيش في طريق بلنهايم على مسافة بيوت معدودة من بيت زوجك السابق. لقد مضينا هناك من باب إلى باب نسأل الناس إن كانوا يتذكّرون رؤيتها تلك الليلة، أو إن كانوا يتذكّرون

رؤية أو سماع أي شيء غير طبيعي. وخلال استقصاءاتنا هذه، ورد اسمك». سكت المحقق برهة... تاركاً لي وقتاً حتى أستوعب ما قال. «لقد شوهدت في طريق بلنهايم ذلك المساء، قرابة الوقت الذي غادرت فيه المرأة المختفية، السيدة هيبويل، بيتها. أخبرتنا السيدة آنّا واتسون أنها رأتك في الشارع بالقرب من بيت السيدة هيبويل، غير بعيد عن بيتها هي. وقالت إنك كنت تتصرفين على نحو غريب، وإنها أحسّت بالقلق كثيراً في واقع الأمر... إلى حد جعلها تفكر بالاتصال بالشرطة. كان قلبي يرفرف مثل عصفور أطبق عليه فَخّ. لم أستطع الكلام لأنني لم أستطع أن أرى في تلك اللحظة... لم أستطع أن أرى غير نفسي، مستلقية في ذلك النفق... والدم على كفّي. دم على كفي! كفي أنا، هل هذا أكيد؟ لا بد أن تلك التي رأيتها كانت أنا نفسي. رفعت رأسي ناظرة إلى غاسغيل فرأيت عينيه تنظران في عينيّ وعرفت أن عليَّ أن أقول شيئاً، أن أقوله سريعاً، حتى أمنعه من قراءة أفكاري. قلت له: «لم أفعل شيئاً. لم أفعل شيئاً. فقط... فقط أردت أن أرى زوجي».

صحّح غاسغيل كلامي مرة ثانية: «زوجك السابق». أخرج صورة فوتوغرافية من جيب سترته وجعلني أراها. كانت صورة ميغان. سألني هل رأيت هذه المرأة ليلة السبت؟ حدّقت في الصورة زمناً طويلاً. بدا أمراً غير واقعي أن تُقَدَّم لي هذه الصورة على هذا النحو... الشقراء الجميلة التي كنت أراقبها... تلك التي أنشأتُ حياتها وفكّكتها في رأسي. كانت صورة قريبة للوجه... صورة احترافية. وكانت ملامح وجهها أثقل قليلاً مما تخيّلت؛ لم تكن دقيقة مثل ملامح جس التي في خيالي. «هذه هي السيدة واتسون؟ هل شاهدتها؟»

لم أعرف إن كنت قد شاهدتها. صدقاً لم أكن أعرف. لا أزال لا أعرف. قلت له: «لا أظن ذلك».

«أنت لا تظنين ذلك! إذاً، من الممكن أن تكوني قد رأيتيها؟».

«أنا... لست متأكدة».

سألني: «هل كنت تشربين مساء السبت؟ قبل أن تذهبي إلى ويتني... هل كنت تشربين؟».

صعدت الحرارة مندفعة من جديد إلى وجهي. قلت: «نعم».

«قالت السيدة واتسون ـ آنّا واتسون ـ إنها تظن أنك كنت ثملة عندما رأتك قربَ بيتها. هل كنتِ ثملة؟».

قلت: «لا». أبقيت عينيّ ثابتتين على المحقق حتى لا أرى نظرة كاثي... «كنت قد شربت كأسين بعد الظهر. لكني لم أكن ثملة».

تنهّد المحقق غاسغيل. بدا خائب الظن. التفت إلى حب الشباب، ثم نظر إليّ من جديد. نهض واقفاً على قدميه، بطيئاً، متمهّلاً، ثم دفع الكرسي فأعاده إلى موضعه تحت الطاولة. قال لي: «إذا تذكرت أي شيء عن ليلة السبت، أي شيء يمكن أن يكون مفيداً لنا، فهل تتصلين بي من فضلك؟». ثم ناولني بطاقة عليها رقم هاتفه.

وبينما أومأ غاسغيل برأسه صوب كاثي مستعداً للمغادرة، استرخيت في جلستي على الأريكة. أستطيع أن أشعر بنبض قلبي يتباطأ من جديد، ثم يسرع من جديد عندما سمعته يسألني: «أنت تعملين في العلاقات العامة، أليس كذلك؟ في شركة هنتينغدون وايتلي؟».

قلت: «هذا صحيح. لدى هنتينغدون وايتلي».

سوف يتحقّق من ذلك. وسيعرف عندها أنني كذبت. لا أستطيع أن أتركه يكتشف الحقيقة بنفسه. عليّ أن أخبره.

إذاً، ذلك ما سوف أفعله هذا الصباح. سوف أذهب إلى قسم الشرطة حتى أبرئ ساحتي. سوف أقول له كل شيء: سأقول له إنني فقدت عملي منذ شهور؛ وإنني كنت في غاية الثمالة ليلة السبت؛ وإنني لا أعرف في أي ساعة عدت إلى البيت. سأقول ما كان يجب أن أقوله ليلة أمس: إنه

ينظر في الاتجاه الخاطئ. سأقول له إنني أعتقد أن لميغان هيبويل علاقة غرامية سرية.

في المساء

تظن الشرطة أنني أتهرّب. تظن أنني مختلّة... غير مستقرة عقلياً. ما كان يجب أبداً أن أذهب إلى قسم الشرطة. لقد جعلت وضعي أسوأ، ولا أظن أنني ساعدت سكوت، وهذا كان السبب الذي جعلني أذهب إلى الشرطة في المقام الأول. إنه في حاجة إلى مساعدتي لأن من الواضح أن الشرطة سوف تشتبه به. وأنا أعرف أن هذا غير صحيح، لأنني أعرفه. أشعر بذلك حقاً... مهما بدا الأمر مجنوناً. لقد رأيته معه. لا يمكن أن يكون قد ألحق بها أيّ أذى.

لا بأس، لم تكن مساعدة سكوت السبب الوحيد لذهابي إلى الشرطة. كانت هناك مسألة الكذبة أيضاً، الكذبة التي كانت في حاجة إلى تصحيح. تلك الكذبة عن عملي في شركة هنتينغدون وايتلي.

لزمني وقت طويل حتى أستجمع من الشجاعة ما يكفي لجعلي أدخل إلى القسم. كنت على وشك الاستدارة والعودة إلى البيت، عشرات المرات؛ لكنني دخلت آخر الأمر. سألت الرقيب على تلك الطاولة إن كنت أستطيع التحدث مع المحقق غاسغيل. فأرشدني إلى غرفة انتظار مزدحمة جلست فيها أكثر من ساعة قبل أن يأتي أحد إليّ. كنت أتعرَّق طيلة ذلك الوقت وأرتجف مثل امرأة يسوقونها إلى خشبة الإعدام. أخذوني إلى غرفة أخرى، أصغر من الأولى وأكثر اختناقاً. غرفة من غير هواء ولا نوافذ. تركوني هناك نحو عشر دقائق أخرى قبل أن يأتي غاسغيل ومعه امرأة في ملابس مدنية أيضاً. حيّاني غاسغيل بأدب. لم تبدُ عليه الدهشة لرؤيتي. قدم لي مرافقته باسم المحقِّقة الرقيب رايلي.

إنها أصغر مني سناً، طويلة، رشيقة، سوداء الشعر، جميلة ذات ملامح حادة... ثعلبية على نحو ما. لم تردّ على ابتسامتي.

جلسنا جميعاً ولم يقل أحد منا شيئاً. كانا ينظران إليّ منتظرَين ما أريد قوله.

قلت: «تذكرت الرجل. قلت لك إنني تحدثت مع رجل في المحطة. أستطيع أن أصفه الآن». رفعت رايلي حاجبيها بشكل خفيف جداً ثم تململت في مقعدها. «كان متوسط الطول، متوسط البنية، أحمر الشعر. انزلقت على درجات السلم فأمسك بذراعي». انحنى غاسغيل إلى الأمام مسنداً مرفقيه إلى الطاولة وواضعاً يديه أمام فمه. «كان يرتدي... أظن أنه كان يرتدي قميصاً أزرق».

ليس هذا صحيحاً في الواقع. إنني أتذكر رجلاً. وأنا واثقة تماماً من أن شعره كان أحمر اللون. وأظن أنه ابتسم لي، أو تظاهر بالابتسام لي، عندما كنا في القطار. وأظن أنه نزل من القطار في ويتني. وأظن أنني يمكن أن أكون قد تحدثت معه. من الممكن أن أكون قد انزلقت على السلم. إنني أذكر هذا؛ لكنني لا أستطيع أن أحدّد إن كانت تلك الذكرى عائدة إلى ليلة السبت أو إلى وقت آخر. لقد انزلقت مرات كثيرة، على سلالم كثيرة. وليست لديّ فكرة أبداً عن ملابسه في ذلك الوقت.

لم تُحدِث قصتي انطباعاً لدى المحققين. هزّت رايلي رأسها هزّة لا تكاد تُرى. فك غاسغيل تشابك كفيه ثم فتحهما أمامه على الطاولة، الراحتان إلى الأعلى. سألني: «لا بأس! هل هذا ما جئت تخبرينا به حقاً يا آنسة واتسون؟». ما كان في نبرة صوته أيّ غضب... بدا كأنه يشجّعني. تمنيت لو تخرج رايلي من الغرفة. لو خرجت، لاستطعت التحدث معه... لاستطعت الثقة به.

قلت: «لم أعد أعمل لدى شركة هنتينغدون وايتلي».

«أوه!» ... ارتدّ إلى الخلف مستنداً في مقعده وبدا عليه اهتمام أكثر من قبل.

«تركت العمل منذ ثلاثة أشهر. إن شريكتي في السكن ـ نعم إنها صاحبة المنزل في الحقيقة ـ لم أخبرها عن ذلك أحاول العثور على وظيفة أخرى. لم أحب أن أخبرها بالأمر لأنني ظننت أنها يمكن أن تقلق بخصوص دفع الإيجار. لديّ بعض النقود. أستطيع أن أدفع الإيجار، لكن... على أي حال، لقد كذبت عليكَ البارحة في ما يتعلّق بعملي. وأنا أعتذر عن تلك الكذبة».

انحنت رايلي صوب الطاولة ومنحتني ابتسامة غير صادقة: «أرى إذاً أنك ما عدتِ تعملين في شركة هنتينغدون وايتلي. وأنت لا تعملين في أي مكان آخر أيضاً، هل هذا صحيح؟ أنت عاطلة عن العمل؟»... أومأت برأسي... فأضافت: «لا بأس!... أنت لا توقّعين الآن على سجل الوصول إلى العمل... لا شيء من هذا القبيل؟».

«لا».

«كما أن... شريكتك في السكن... لم تلاحظ أنك لا تذهبين إلى العمل كل يوم؟».

«إنني أذهب! لا أقصد أنني أذهب إلى المكتب، لكنني أذهب إلى لندن، مثلما اعتدت أن أذهب سابقاً، في الوقت نفسه وكل شيء... وذلك حتى لا... حتى لا تعرف». ألقت رايلي نظرة على غاسغيل. لكنَّ عينيه ظلتا مثبتتين على وجهي. بدا بين عينيه أثر للعبوس. قلت: «يبدو هذا غريباً، أعرف ذلك»... لكنني سكتت لأن الأمر لا يبدو غريباً فحسب... يبدو جنوناً عندما تقوله بصوت مرتفع.

«نعم! كنت تتظاهرين إذاً بالذهاب إلى العمل كل يوم؟». هكذا سألتني رايلي وقد انعقد حاجباها أيضاً كأنها قلقة عليّ... كأنها تظنّني مختلة تماماً. لم أنطق، ولم أومئ برأسي، ولم أفعل شيئاً...

بقيت صامتة. «هل أستطيع أن أسألك عن سبب تركك العمل يا آنسة واتسون؟».

لا معنى للكذب. إن كانوا لم يقرروا التحقّق من سجلّي الوظيفي قبل هذا الحديث، فسوف يتحقّقون منه الآن. قلت لها: «لقد طردوني».

قالت رايلي وقد بدت في صوتها نبرة الرضا: «لقد فُصلت من العمل إذاً». كان من الواضح أنها توقّعت هذه الإجابة... «وما سبب ذلك؟» أطلقتُ زفرة صغيرة ثم استنجدت بغاسغيل: «هل هذا مهم حقاً؟ هل يهمكم سبب تركي العمل؟»

لم يقل غاسغيل شيئاً، كان ينظر في بعض الملاحظات التي سجلتها رايلي ودفعتها أمامه. لكنه لم يهزّ رأسه، ولو قليلاً. غيرت رايلي وجهة كلامها.

«آنسة واتسون! كنت أريد أن أسألك عن ليلة السبت». التفتّ إلى غاسغيل ـ لقد جرى بيننا هذا الحديث ـ لكنه لم يكن ينظر إليّ. قلت: «لا بأس». كنت أرفع يدي صوب رأسي باستمرار... ألمس مكان الإصابة فيه. لم أستطع التوقف عن ذلك.

«أخبريني... لماذا ذهبت إلى شارع بلنهايم ليلة السبت. لماذا أردت الحديث مع زوجك السابق؟».

قلت: «لا أظن حقاً أن هذا من شأنك»، ثم قلت سريعاً قبل أن يتاح لها الوقت لأن تقول شيئاً آخر: «هل من الممكن أن أحصل على كأس من الماء؟».

نهض غاسغيل واقفاً وغادر الغرفة. لم تكن هذه النتيجة التي أردتها. لم تنطق رايلي بكلمة. ظلت تنظر إليّ. لا يزال على شفتيها ظل ابتسامة. لم أستطع تحمل تحديقها، فنظرت إلى الطاولة. تركت عينيّ تتجولان في أرجاء الغرفة. أعرف أن هذا أسلوب تكتيكي: هي تظل صامتة حتى يصبح الوضع مزعجاً فأضطر لقول شيء ما، حتى إذا كنت لا أريد قوله

حقاً. قلت لها: «كان عندي أشياء أردت مناقشتها معه، أشياء خاصة». بدت نبرتي متكبّرة، وسخيفة.

تنهدت رايلي. عضضت على شفتي وقررت ألا أقول شيئاً آخر قبل أن يعود غاسغيل إلى الغرفة. وعندما عاد ووضع أمامي كأساً فيها ماء غائم اللون، تكلّمَت رايلي.

قالت تستحثني على الكلام: «أشياء خاصة؟»

«هذا صحيح».

تبادل رايلي وغاسغيل نظرة سريعة. لم أعرف إن كانت نظرة انزعاج أو سخرية. كنت قادرة على الإحساس بملوحة العرق على شفتي العليا. رشفت جرعة من الماء. بدا طعمه بائتاً. قلب غاسغيل الأوراق أمامه ثم دفعها جانباً كما لو أنه انتهى منها، أو كما لو أن ما فيها لم يثر اهتمامه كثيراً.

«أنسة واتسون... قالت... آآآ... قالت زوجة زوجك السابق، السيدة آنّا واتسون إنها قلقة بسببك. أخبرَتنا أنك تزعجينها، وتزعجين زوجها. وإنك أتيت إلى البيت من غير دعوة، وأنك... ذات مرة...»، ألقى غاسغيل نظرة على ملاحظاته لكن رايلي قاطعته ومضت تقول:

«ذات مرة، اقتحمتِ بيت السيد والسيدة واتسون وأخذت طفلتهما الرضيعة».

انفتح ثقب أسود في وسط الغرفة فابتلعني. قلت: «هذا غير صحيح! لم آخذ... لم يحدث الأمر هكذا، هذا غير صحيح. لم أفعل ذلك... لم آخذها».

استولى عليّ الاضطراب في تلك اللحظة، وبدأت أهتز وأصرخ. قلت إنني أريد الذهاب. دفعت رايلي مقعدها إلى الخلف ونهضت واقفة. ثم رفعت كتفيها ناظرة إلى غاسغيل وغادرت الغرفة. ناولني غاسغيل منديلاً ورقياً.

«تستطيعين الذهاب في أي وقت تريدين يا آنسة واتسون. أنت أتيت إلى هنا حتى تتحدثي معنا». ابتسم لي عند ذلك... كأنها ابتسامة اعتذار. أحببته في تلك اللحظة، ووددت أن أمسك يده وأضغط عليها. لكني لم أفعل ذلك لأن من شأن هذا أن يبدو غريباً، غير طبيعي. قال لي: «أظن أن لديك المزيد مما يمكن أن تقوليه لي»... أحببته أكثر لأنه قال «لي» بدلاً من أن يقول «لنا». قال وهو ينهض ويقودني صوب الباب: «قد تكونين في حاجة إلى استراحة، إلى تحريك ساقيك أو إلى تناول بعض الطعام. عند ذلك، عندما تصبحين مستعدة، عودي... تستطيعين إخباري أي شيء تريدين».

كنت أعتزم نسيان الأمر كله والذهاب إلى البيت. وكنت ماشية في طريق عودتي إلى محطة القطار مستعدة لإدارة ظهري وترك كل شيء ورائي. لكنني فكرت في رحلة القطار، في المجيء والذهاب على ذلك الخط، من أمام بيت ميغان وسكوت... كل يوم. ماذا لو لم يعثروا عليها أبداً؟ سوف أظل أتساءل إلى الأبد ـ رغم أنني أعتقد أن ذلك بعيد الاحتمال. لكن رغم ذلك سوف أظل أتساءل عما إذا كان قولي أي شيء يمكن أن يساعدها. ماذا لو اتهموا سكوت بإيذائها لأنهم لا يعرفون شيئاً عن ب؟ ماذا لو كانت في بيت ب الآن، في هذه اللحظة، مقيَّدة في القبو، مضروبة، نازفة... أو مدفونة في الحديقة؟

فعلت مثلما قال لي غاسغيل. اشتريت سندويشاً بالجبن واللحم وزجاجة ماء من المتجر عند الزاوية، ثم ذهبت إلى حديقة ويتني الوحيدة: بقعة صغيرة، شبه بائسة، من الأرض تحيط بها بيوت من الثلاثينات ويغطيها، كلها تقريباً، ملعب أسفلتي.

جلست على مقعد عند طرف تلك البقعة ورحت أنظر إلى الأمَّهات والنساء اللواتي تعتنين بالأطفال وهن يوبّخنهم لأنهم يأكلون الرمل. كنت أحلم بهذا في ما مضى، قبل بضع سنين. حلمت بالمجيء إلى هنا،

بالطبع، ليس لأكل اللحم والجبن بين مقابلتين مع الشرطة. حلمت أن آتي إلى هنا مع طفلي أنا. فكرت وقتها بعربة الأطفال التي سأشتريها، وبذلك الوقت كله الذي سوف أمضيه قي متجر تروترز وفي متجر إيرلي ليرنينغ سنتر... أبحث عن مقاسات مناسبة لملابس أطفال رائعة وعن ألعاب تعليمية. كنت أفكر وقتها أنني سأجلس هنا أهزّ لفافة الفرحة، لفافتي أنا، أهزها في حضني. لم يحدث هذا. لم يستطع أي طبيب أن يفسر لي السبب الذي يجعلني غير قادرة على الحبل. إنني صغيرة السن إلى حد كافٍ، ولائقة جسدياً إلى حد كافٍ. لم أكن أشرب كثيراً عندما كنا نحاول الإنجاب. كانت نطاف زوجي نشطة، ووافرة. لكن الأمر لم يحدث. لم أعاني عذاب الإجهاض... لم أحبل أبداً... هكذا فقط. لقد جرّبنا طفل الأنبوب مرة واحدة... كان هذا كل ما استطعنا تحمّل تكلفته. كانت تجربة غير سارّة ـ مثلما حذّرنا الجميع ـ كانت غير ناجحة. لكنَّ أحداً لم يحذّرني من أنها سوف تحطّمنا. لكنها حطمتنا حقاً. أو، لعلها على الأصح حطمتني أنا، ثم حطمتنا.

المشكلة في العقم هو أن المرء لا يستطيع الابتعاد عنه، لا يستطيع نسيانه. ليس عندما تكون في الثلاثينات من عمرك. كانت صديقاتي تنجبن الأطفال، وكانت صديقات صديقاتي تنجبن الأطفال، وكان الحبل والولادة وحفلات عيد الميلاد الأول في كل مكان من حولي. كانوا يسألونني عن هذا، طيلة الوقت. أمي، صديقاتي، زميلاتي في العمل. كانوا يسألون... متى سيأتي دوري؟ وفي لحظة ما، صار عدم إنجابنا موضوعاً مقبولاً في الأحاديث التي تجري من حول عشاء يوم الأحد، ليس فقط بيني وبين توم، بل بشكل عام. كانوا يسألون عن المحاولات التي نجريها، ويقولون لنا ما يجب أن نفعله... هل تظنين حقاً أن من الملائم أن تشربي كأساً ثانية من النبيذ؟ كنت لا أزال شابة، وكان لا يزال أمامي وقت كثير، لكنّ الفشل أحاط بي، مثل عباءة... طغى

عليَّ، وشدّني إلى الأسفل... فتخلّيت عن كل أمل. في ذلك الوقت، كرهت حقيقة أنهم جميعاً يعتبرون ذلك غلطتي أنا... إنني أنا سبب الفشل. لكن، وبالنظر إلى السرعة التي تمكّن بها توم من جعل آنّا تحبل، فمن الواضح أن رجولته لم تكن تعاني أي مشكلة. لم يكن صحيحاً ظنّي أننا يجب أن نتقاسم اللوم. كان الفشل كله فشلي أنا.

أنجبت لارا، صديقتي الأولى منذ الجامعة، طفلين خلال سنتَيْن: صبي أولاً ثم بنت. لم أحب طفلَيْها. لم أكن راغبة في سماع أي شيء عنهما. لم أرغب في أن أكون قريبة منهما. كفّت لارا عن الحديث معي بعد فترة. وكانت معي في العمل فتاة أخبرتني - أخبرتني عرضاً، كأنها كانت تتحدث عن استئصال الزائدة الدودية أو عن قلع ضرس العقل - بأنها أجرت إجهاضاً قبل فترة، إجهاضاً طبّياً، وقالت إن ذلك الإجهاض كان أقل إزعاجاً من الإجهاض الجراحي الذي أجرته عندما كانت في الجامعة. لم أستطع التكلم معها بعد ذلك... صرت لا أكاد أطيق النظر إليها. صار الوضع غريباً في المكتب... فالناس يلاحظون.

لم تكن مشاعر توم مثل مشاعري. لم يكن الفشل فشله أصلاً؛ ثم إنه لم يكن في حاجة حقيقية إلى طفل... ليس بقدر حاجتي أنا. لقد أراد أن يصبح أباً، أراد ذلك فعلاً - أنا واثقة من أنه كان يحلم بتقاذف الكرة في الحديقة مع ابنه، أو بحمل ابنته على كتفيه في الحديقة- لكنه رأى أيضاً أن حياتنا يمكن أن تكون عظيمة من غير أطفال. نحن سعيدان... هكذا كان يقول لي... فلماذا لا نستطيع أن نستمر كذلك ونظل سعيدَيْن؟ أصابه القنوط بسببي. لم يستطع أبداً فهم أن من الممكن أن يفتقد المرء شيئاً لم يكن لديه من قبل، وأن يقيم حداداً عليه.

أحسست بالعزلة في بؤسي. صرت وحيدة فرحت أشرب، بعض الشيء. ثم رحت أشرب أكثر قليلاً. ثم شعرت بوحدة أكبر لأن أحداً لا يحب أن يكون بالقرب من شخص مخمور. خسرت وشربت، وشربت

وخسرت. كنت أحبّ عملي، لكني لم أكن متألقة فيه. وحتى لو كنت متألقة... لنكن صادقين: لا تزال المرأة تحظى بالتقدير لأمرين اثنين ـ شكلها، وأمومتها. أنا لست جميلة؛ ولا أستطيع إنجاب الأطفال... فماذا يجعلني هذا؟... عديمة القيمة.

لا أستطيع إلقاء اللوم في هذا كله على أنني أشرب. لا أستطيع إلقاء اللوم على والديّ، ولا على طفولتي، ولا على عمٍّ كان يسيء معاملتي، ولا على مأساة مرعبة ما. أنا المخطئة. لقد كنت أشرب على أيّ حال... لقد أحببت الشرب دائماً. لكني صرت أكثر حزناً، وصار الحزن مضجراً بعد فترة... يصير الحزن مضجراً للشخص الحزين نفسه، ولكل من حوله. وعند ذلك تحولت من امرأة تشرب إلى امرأة ثملة... لا شيء أكثر إضجاراً من هذا.

إنني في وضع أفضل الآن... في ما يتعلق بمسألة الأطفال. تحسّنت أحوالي منذ أن صرت وحدي. كان عليّ أن أصير وحدي. قرأت كتباً ومقالات فأدركت أنني يجب أن أتصالح مع هذه الحقيقة. هنالك استراتيجيات، وهنالك أمل. إذا أصلحت أموري، وصحوت قليلاً، فإن أمامي احتمال أن أنجح في تبنّي طفل. ثم إنني لم أبلغ الرابعة والثلاثين بعد. لم يفت الأوان. إنني الآن أحسن حالاً مما كنت عليه قبل بضع سنوات... عندما كنت أترك الحافلة أو متجر البقالة إذا رأيت المكان مكتظاً بالأمهات والأطفال. في ذلك الوقت، لم أكن قادرة على المجيء إلى حديقة مثل هذه الحديقة. لم أكن قادرة على الجلوس قرب ملعب الأطفال ومشاهدة أطفال محبوبين ينزلقون على درّاجاتهم الصغيرة. مرت بي أوقات، عندما كنت في أسوأ أحوالي، عندما كان الجوع على أشده، كنت أظن فيها أنني سأفقد عقلي.

لعلي فقدت عقلي... حيناً من الزمن. عندما سألوني عن ذلك في قسم الشرطة... لعلي كنت مجنونة في تلك اللحظة. كان ثمة شيء

قاله توم مرة، شيء جعل الكيل يفيض بي... جعلني أنزلق بعيداً. بل هو شيء كتبه: قرأته في فيس بوك ذلك الصباح. لم يكن الأمر صدمة ـ كنت أعرف أنها على وشك الإنجاب، فقد أخبرني توم. كما أنني رأيتها، ورأيت الستارة الوردية في نافذة غرفة الطفل في البيت. إذاً، كنت أعرف ما سيأتي. لكنني اعتبرت الطفل طفلها هي. بقيت كذلك حتى ذلك اليوم، عندما رأيت صورته حاملاً طفلته المولودة حديثاً، ناظراً إليها، مبتسماً. كتب تحت الصورة: «هكذا... هذه هي سبب تلك الضجة كلها! لم أعرف حبّاً مثل هذا من قبل! إنه أسعد يوم في حياتي!»... فكرّت فيه وهو يكتب ذلك. عارفاً أنني سوف أقرأه، سوف أقرأ تلك الكلمات، وأنها ستقتلني... لكنه كتبها. لم يكن يبالي. لا يبالي الأهل بشيء أبداً، إلا بأطفالهم. إنهم مركز الكون كله. إنهم كل ما يهمهم. لا أهمية لأيّ شخص آخر، لا أهمية لأيّ شخص يعاني أو يفرح... فلا شيء حقيقياً في ذلك كله.

كنت غاضبة. مذهولة. بل ربما كنت توّاقة إلى الانتقام. ربما... فكرّت في جعلهم يرون أن عذابي حقيقي. لست أدري. لقد فعلت فعلة غبية.

عدت إلى قسم الشرطة بعد ساعتين. وسألت إن كنت أستطيع مقابلة غاسغيل وحده. لكنه قال إنه يريد وجود رايلي. صرت أحبه أقل من ذي قبل، قليلاً.

قلت: «لم أقتحم بيتهما. لقد ذهبت إلى البيت، وأردت الكلام مع توم. لم يُجِب أحد عندما قرعت جرس الباب».

سألتني رايلي: «إذاً، هل دخلتِ البيت؟».

«كان الباب مفتوحاً».

«هل كان باب البيتِ مفتوحاً؟».

ثم أردفت: «هل كان الباب الأمامي مفتوحاً؟».

تنهّدت: «لا، لم يكن مفتوحاً بالطبع؟ كان الباب المفتوح هو الباب الذي في الجهة الخلفية من البيت، الباب المفضي إلى الحديقة».

«وكيف وصلتِ إلى الحديقة الخلفية؟».

«عبرت من فوق السياج. إنني أعرف طريق الدخول...».

«إذن، فقد تسلقت السياج حتى تصلي إلى بيت زوجك السابق، أليس كذلك؟».

«صحيح. كنا معتادين أن... هنالك دائماً مفتاح احتياطي خلف البيت. لدينا مكان نخبّئ المفتاح فيه... إذا فقد أحد منا مفاتيحه، أو نسيها، أو أي شيء. لكني لم أكن أحاول اقتحام البيت. لم أقتحم البيت. أردت فقط أن أتحدث مع توم. ظننت أنه ربما... ربما لم يكن الجرس يعمل، أو شيء من هذا القبيل».

سألتني رايلي: «كان الوقت منتصف النهار، خلال أيام العمل، أليس كذلك؟ ما الذي جعلك تظنين أن زوجك السابق سيكون في البيت. هل اتصلت للسؤال عن ذلك؟».

«يا ربي! لماذا لا تتركيني أتكلم؟»... قلت هذا صائحة فهزت رأسها ومنحتني تلك الابتسامة من جديد، كما لو أنها كانت تعرفني، كما لو أنها كانت تستطيع قراءة أفكاري. قلت لها محاولة أن أضبط ارتفاع صوتي: «عبرت من فوق السياج. ودققت بيدي على الباب الزجاجي الذي كان مفتوحاً قليلاً. لم أسمع إجابة. أدخلت رأسي من الباب وناديت توم. لا إجابة، من جديد... لكنني كنت أسمع بكاء الطفلة. دخلت ورأيت أن آنا...».

«تقصدين السيدة واتسون، أليس كذلك؟».

«نعم، كانت السيدة واتسون نائمة على الأريكة. وكانت الطفلة في كرسيّها تبكي، بل تزعق في الواقع... كان وجهها محمراً، وكان من

الواضح أنها تبكي منذ فترة». عندما قلت تلك الكلمات، فاجأني تماماً أنني كان يجب أن أخبرهما بأنني سمعت الطفلة تبكي من الشارع، وأن هذا هو السبب الذي جعلني أدور حول البيت لأصل إلى الباب الخلفي. كان من شأن هذا أن يجعلني أبدو أقل جنوناً.

سألتني رايلي: «إذن، كانت الطفلة تزعق، وكانت أمها هناك، لكنها لم تستيقظ؟»

«صحيح». كانت رايلي متكئة بمرفقيها على الطاولة... يداها عند فمها... لا أستطيع قراءة تعبير وجهها بشكل واضح. لكنني أعرف أنها تظنني كاذبة. «حملت الطفلة لكي أهدِّئها. هذا كل ما في الأمر. حملتها حتى تهدأ».

«لكن هذا ليس كل شيء، صحيح؟... لأن آنّا استيقظت ولم تجدك هناك، أليس كذلك؟ كنت في الأسفل عند السياج، بالقرب من خط القطار».

قلت: «لم تتوقف الطفلة عن البكاء فوراً. كنت أهزّها، لكنها كانت ماضية في البكاء. وهكذا خرجت بها».

«حتى خط القطار؟».

«ضمن الحديقة».

«هل كنت تعتزمين إلحاق الأذى بطفلة واتسون؟».

قفزت واقفة على قدميَّ عندما سمعت هذه الكلمة. كانت هذه حركة مبالَغاً فيها، أعرف ذلك، لكنني أردت أن أجعلهما يريان ـ أن أجعل غاسغيل يرى مدى فظاعة ذلك الإيحاء. «لست مضطرة إلى الاستماع إلى هذا! جئت إلى هنا حتى أخبركما عن الرجل! جئت هنا حتى أساعدكما! وماذا الآن؟... بماذا تتهمونني على وجه التحديد؟ بماذا تتهمونني؟»

ظل غاسغيل ساكناً، غير متأثر. أشار إليَّ بأن أجلس من جديد، وقال: «آنسة واتسون! إن الأخرى... أقصد السيدة واتسون ـ آنّا ـ ذكرت اسمك أمامنا خلال استقصاءاتنا في ما يتعلق بميغان هيبويل. قالت لنا إن تصرفاتك كانت غير منطقية، وإنك كنت في حالة غير مستقرّة، في الماضي. وقد ذكرت هذه الحادثة مع الطفلة، وقالت إنك تزعجينها وتزعجين زوجها، وإنك تواصلين الاتصال ببيتهما دائماً». نظر في الملاحظات المكتوبة أمامه لحظة ثم قال: «تقريباً كل ليلة، في الحقيقة. قالت إنك ترفضين قبول أن زواجك قد انتهى».

«هذا غير صحيح أبداً!»... قلت هذا مصرّة... وهو لم يكن صحيحاً أيضاً ـ نعم إنني أتصل بتوم من وقت لآخر، لكن ليس كل ليلة. هذه مبالغة محض. لكني صرت أشعر الآن أن غاسغيل ليس واقفاً في صفي في الحقيقة. بدأت، من جديد أشعر أنني موشكة على البكاء.

سألتني رايلي: «لماذا لم تغيّري اسمك؟».

«عفواً!».

«لازلت تستخدمين اسم زوجك السابق. لماذا؟ إذا تركني رجل وذهب مع امرأة أخرى، فأظن أنني سأكون راغبة في التخلص من ذلك الاسم. لن أكون بالتأكيد راغبة في أن أحمل الاسم الذي صارت تحمله امرأة حَلّت محلّي...».

«طيب... قد لا أكون تافهة ضيّقة الأفق إلى هذا الحد». إنني ضيقة الأفق. أكره كونها تحمل اسم آنّا واتسون.

«نعم! والخاتم ـ الخاتم المعلّق في سلسلة حول رقبتك. هل هو خاتم الزواج؟».

قلت كاذبة: «لا! إنه... إنه خاتم جدتي».

«هل هذا صحيح؟ طيب... لا بأس. عليّ أن أقول إن سلوكك

يوحي، بالنسبة لي... مثلما أشارت السيدة واتسون... بأنك غير راغبة في التحرك إلى الأمام، وبأنك ترفضين قبول أن زوجك السابق صارت لديه أسرة جديدة».

«لست أرى...».

وأكملت رايلي جملتي: «العلاقة بين هذا ومسألة ميغان هيبويل! لا بأس! لدينا تقارير تفيد أنك شوهدت ليلة اختفاء ميغان -أنت امرأة غير مستقرة تشرب كثيراً ـ في شارعها نفسه. وعندما نتذكر أن هنالك نقاط تشابه بين مظهر ميغان ومظهر السيدة واتسون...».

«لا تشبه إحداهما الأخرى أبداً!»... أغضبتني هذه الفكرة كثيراً. جس لا تشبه آنّا أبداً. ميغان لا تشبه آنّا أبداً.

«كلتاهما شقراء، رشيقة، قصيرة، شاحبة الجلد...».

«أنت تظنين إذاً بأنني هاجمت ميغان هيبويل ظانّة أنها آنّا؟ هذا أغبى شيء أسمعه في حياتي كلها». قلت هذا، لكن الحدبة في رأسي بدأت تنبض من جديد... لا يزال كل شيء منذ ليلة السبت تلك غارقاً في ظلمة عميقة.

سألني غاسغيل فأحسست فمي ينفتح دهشة: «هل كنت تعرفين أن آنّا واتسون تعرف ميغان هيبويل؟»

«إنني... ماذا؟ لا... لا، لا تعرف إحداهما الأخرى».

ابتسمت رايلي لحظة ثم استعادت خلوّ وجهها من التعبير: «نعم، تعرف إحداهما الأخرى. كانت ميغان تعتني بطفلة الزوجين واتسون...» ألقت نظرة على الملاحظات التي أمامها... «كان ذلك في شهرَيْ آب وأيلول من العام الماضي». لم أعرف ما أقول. لا أستطيع أن أتخيل هذا: ميغان في بيتي، معها هي! مع طفلتها!

سألني غاسغيل: «هذا الجرح في شفتك، هل هو بسبب حادث السيارة في ذلك اليوم؟».

«صحيح. أظن أنني عضضت على شفتي عندما سقطت».

«أين وقع ذلك الحادث؟».

« في لندن، في طريق ثيوبالدز رود. بالقرب من هولبورن».

«وماذا كنت تفعلين هناك؟»

«ماذا تقصد؟».

«لماذا كنتِ في وسط لندن؟».

رفعت كتفي وقلت بصوت بارد: «لقد أخبرتك من قبل. لا تعرف شريكتي في السكن أنني فقدت عملي. ولذلك أذهب إلى لندن كالمعتاد. أذهب إلى المكتبات، إلى مكاتب التشغيل، وأعمل على سيرتي الذاتية أيضاً».

هزت رايلي رأسها... لعلها لا تصدقني، أو لعلها تَعجَب لحالي. كيف يمكن أن يصل أي إنسان إلى هذه النقطة.

دفعت الكرسي إلى الخلف مستعدة للمغادرة. لقد اكتفيت من هذا الحديث مع أناس ينظرون إليّ من فوق... اكتفيت من هذه الحالة التي تجعلني أبدو كأنني مخبولة، كأنني امرأة مجنونة. جاء وقت لعب ورقتي القوية. قلت لهما: «لا أعرف حقاً السبب الذي يجعلنا نتكلم في هذا. كنت أظن أن لديكما شيئاً أفضل تفعلانه، كالتحقيق في اختفاء ميغان هيبويل. أظنكما تحدثتما مع حبيبها؟». لم يقل أيّ منهما شيئاً. راحا يحدّقان في وجهي. لم يتوقّعا هذا. إنهما لا يعرفان شيئاً عنه. قلت: «ربما لا تعرفان. كانت ميغان هيبويل على علاقة غرامية». ثم بدأت السير صوب الباب. أوقفني غاسغيل. تحرك بهدوء وبسرعة مدهشة. وقبل أن أضع يدي على مقبض الباب، كان قد انتصب واقفاً أمامي.

سألني: «ظننت أنك لا تعرفين ميغان هيبويل!»

قلت: «لا أعرفها»... ثم حاولت تجاوزه.

قال لي وهو يعترض طريقي: «اجلسي».

أخبرتهما بما شاهدته من القطار. أخبرتهما أنني كنت كثيراً ما أرى ميغان جالسة على شرفتها، أو مستلقية في شمس بعد الظهر، أو أراها تشرب القهوة في الصباح. أخبرتهما كيف رأيتها الأسبوع الماضي مع شخص آخر من الواضح أنه ليس زوجها. أخبرتهما أنني رأيتهما يتبادلان القُبَل على المرج.

قال غاسغيل بصوت حاد: «متى كان هذا؟» بدا منزعجاً مني. لعله منزعج لأنني كان يجب أخبره بهذا الأمر مباشرة بدلاً من قضاء اليوم كله متحدّثة عن نفسي.

«يوم الجمعة، كان ذلك صباح يوم الجمعة».

«إذاً في اليوم الذي سبق اختفاءها شاهدتِها مع رجل آخر؟»... سألتني رايلي وهي تطلق زفرة انزعاج. أغلقت الملف الذي أمامها. استرخى غاسغيل مستنداً إلى مقعده وراح يحدّق في وجهي. من الواضح أنها تظنني أكذب، أختلق هذا. أما هو فلم يستقرّ على رأي.

سألني غاسغيل: «هل تستطيعين وصف الرجل؟».

«طويل، أسمر...».

قاطعتني رايلي: «هل كان وسيماً؟».

نفخت خدّيَّ تبرماً: «أطول من سكوت هيبويل. إنني أعرف هذا لأنني رأيتهما معاً ـ جس وـ آسفة، ميغان وسكوت هيبويل. أما هذا الرجل فكان مختلفاً. إنه أكثر رشاقة وأنحل جسماً وأكثر سمرة. لعله رجل آسيوي».

قالت رايلي: «وهل استطعت تحديد أصله العرقي من القطار؟ هذا مدهش! وبالمناسبة، من هي جس؟»

«عفواً، ماذا تقصدين؟».

«لقد ذكرت اسم جس قبل لحظة واحدة».

شعرت بالاحمرار يعود إلى وجهي من جديد. هززت رأسي وقلت: «لا، لم أفعل هذا».

نهض غاسغيل ومد يده ليصافحني: «أظن أن هذا يكفي». هززت يده وتجاهلت رايلي ثم استدرت لأذهب. قال غاسغيل: «لا تقتربي من شارع بلنهايم رود يا آنسة واتسون. ولا تتصلي بزوجك السابق إلا إذا كان لديك شيء مهمّ حقاً. ولا تقتربي أبداً من آنا واتسون أو طفلتها».

في القطار، في طريق عودتي إلى البيت، عندما كنت أستعيد كل الأشياء التي مضت بشكل خاطئ اليوم، أدهشتني حقيقة أنني لم أكن أشعر بذلك الشعور المزعج... مثلما اعتدت. وعندما فكرت في الأمر، عرفت السبب: لم أتناول شراباً الليلة الماضية، ولست راغبة في تناول الشراب الآن. إنني مهتمة، للمرة الأولى منذ زمن بعيد، بشيء غير بؤسي الشخصي. إن لديّ غاية. أو... لديّ ما يشغلني، على الأقل.

الخميس، 18 تموز\يوليو 2013

في الصباح

اشتريت ثلاث جرائد قبل ركوب القطار هذا الصباح: ميغان مفقودة منذ أربعة أيام وخمس ليالٍ. تحظى قصتها بكثير من التغطية الصحافية. أفلحت صحيفة ديلي ميل، وهذا متوقَّع، في العثور على صور لميغان في البكيني. لكنهم قدموا لقصتها وصفاً أكثر تفصيلاً من أي شيء رأيته حتى الآن.

ولدت باسم ميغان ميلز في روتشستر عام 1983. ثم انتقلت مع والديها إلى كينغز لايم في نورفويك عندما بلغت العاشرة. كانت طفلة لامعة، شديدة الانطلاق، فنّانة موهوبة، ومغنّية موهوبة أيضاً. تقول إحدى زميلاتها في المدرسة إنها كانت ذات «ضحكة جميلة؛ وكانت شديدة الحُسن... جامحة جداً». ويبدو أن جموحها قد ازداد بعد موت شقيقها بن الذي كانت تربطها به علاقة وثيقة جداً. قُتل بن في حادث دراجة عندما كان في التاسعة عشرة، وكانت هي في الخامسة عشرة. وقد هربت من البيت بعد ثلاثة أيام من جنازته. اعتُقلت مرتين ـ مرة بسبب السرقة، ومرة بسبب الدعارة. تحطمت علاقتها بوالديها... هكذا تقول ديلي ميل... تحطماً تاماً. توفي والداها منذ سنوات قليلة من غير مصالحة بينهما وبين ابنتهما. (عندما قرأت هذا، أحسست بحزن يائس تجاه ميغان. أدركت أنها، لعلها، رغم كل شيء، ليست مختلفة عني كثيراً. إنها معزولة، ووحيدة أيضاً).

عندما كانت في السادسة عشرة، انتقلت لتسكن مع صديق لها كان يملك بيتاً بالقرب من قرية هولكام في شمال منطقة نورفولك. وتقول زميلتها في المدرسة: «كان رجلاً أكبر منها... وكان موسيقياً، أو شيئاً من هذا القبيل. كان يتعاطى المخدرات. لم نرَ ميغان كثيراً بعد بدء علاقتهما». لا تذكر الجريدة اسم صديقها الذي عاشت معه. وهذا يوحي بأنها لم تعثر عليه. لعله ليس موجوداً أصلاً! ولعل زميلة المدرسة تختلق هذه القصص حتى تنشر الصحف اسمها.

تقفز قصة الصحيفة عدة سنوات بعد تلك النقطة: فجأة، تبلغ ميغان الرابعة والعشرين. وتعيش في لندن. تعمل نادلة في مطعم في شمال لندن. وهناك تلتقي سكوت هيبويل الذي يعمل مقاولاً مستقلاً في مجال تكنولوجيا المعلومات. وهو صديق لمدير المطعم. تبدأ علاقة بين الاثنين. وبعد «مرحلة غزل مكثّف»، يتزوج سكوت وميغان. هي في السادسة والعشرين، وهو في الثلاثين.

في الصحيفة مقتطفات من أقوال أشخاص آخرين. ومن بين هذه المقتطفات ما قالته تارا إبشتاين، الصديقة التي كان من المفترض أن تكون ميغان عندها ليلة اختفائها. تقول تارا إن ميغان «فتاة لطيفة، خالية البال» وإنها كانت تبدو لها «سعيدة جداً». تقول تارا أيضاً إن «سكوت لا يمكن أن يؤذيها. إنه يحبّها حباً شديداً». لا تقول تارا شيئاً يتجاوز العبارات المكرورة. وأما المقتطف الذي أثار انتباهي فكان لواحد من الفنانين الذين عرضوا أعمالهم في المعرض الذي كانت ميغان تديره. اسمه راجيش غوجرال؛ وهو يقول: «إن ميغان امرأة رائعة، حادّة الذكاء، مرحة، جميلة، شخصية خاصة كثيراً تتمتّع بقلب دافئ». يبدو لي أن راجيش هذا كان شديد الانجذاب إليها. هنالك مقتطف آخر من أقوال رجل اسمه ديفيد كلارك. وهو «زميل سابق» من زملاء سكوت. يقول ديفيد: «إن ميغان وسكوت ثنائي رائع. وهما في غاية السعادة معاً... وغارقان في الحب».

ثمة أخبار عن سير التحقيق أيضاً. لكن تصريحات الشرطة لا تكاد تقدّم شيئاً: تحدثوا مع «عدد من الشهود». وهم «يتابعون خطوطاً متعددة في التحقيق». تأتي الملاحظة المهمة الوحيدة من المحقق غاسغيل الذي يؤكد أن هناك رجلَين يساعدان الشرطة في تحقيقاتها. وأنا واثقة تماماً من أن هذا يعني أن الشرطة لديها شكوك في هذين الرجلين. أحدهما سيكون سكوت. فهل يمكن أن يكون «ب» الرجل الآخر؟ هل يمكن أن يكون «ب» هو راجيش نفسه؟

كنت غارقة في قراءة الصحف إلى حد جعلني لا أولي الرحلة الاهتمام المعتاد. والظاهر أنني جلست عندما بدأ القطار يبطئ سيره كالمعتاد قبل الإشارة الحمراء. هناك أشخاص في حديقة سكوت ـ أرى رجلَيْن في ملابس الشرطة قرب الباب الخلفي. تعصف الأفكار برأسي. هل وجدوا شيئاً؟ هل وجدوها؟ هل وجدوا جثة مدفونة في

الحديقة أو ملقاة تحت ألواح السقف الخشبية؟ لا أستطيع الكفّ عن التفكير في الملابس التي رأيتها إلى جانب خط القطار... لكن هذا غباء لأنني رأيتها هناك قبل اختفاء ميغان. وإذا كان قد أصابها أذى، فهو ليس من فعل سكوت... لا يمكن أن يكون من فعل سكوت... إنه مجنون بحبها... هكذا يقول الجميع. الضياء سيىء اليوم. تغيّرَ الطقس، والسماء تبدو رصاصية، متوعّدة. لا أستطيع الرؤية داخل البيت. لا أستطيع رؤية ما يجري. أشعر بيأس وقنوط كاملَيْن. لا أستطيع احتمال أن أكون خارج الأمر ـ مهما يكن... فأنا جزء منه الآن. يجب أن أعرف ما يجري.

إن لديّ خطة أخيراً! عليّ في البداية معرفة إن كانت هنالك طريقة لجعلي أتذكر ما حدث ليلة السبت. سوف أذهب إلى المكتبة لأجري بعض الأبحاث وأكتشف إن كان التنويم المغناطيسي يمكن أن يجعلني أتذكر، إن كانت استعادة ذلك الزمن المفقود أمراً ممكناً حقاً. والأمر الثاني هو أنه لا بدّ لي من التواصل مع سكوت هيبويل. أعتقد بأن هذا مهم لأنني لا أظن الشرطة صدَّقَتني عندما أخبرتهم عن حبيب ميغان. يجب أن أخبر سكوت بهذا؛ يستحق أن يعرف.

في المساء

القطار يغصّ بأشخاص بلّلهم المطر. يتصاعد البخار من ملابسهم فيتكثّف على النوافذ. تخيّم غيمة من روائح الأجساد والعطور ومواد غسل الملابس... رائحة مزعجة... تخيّم فوق الرؤوس المبتلة المغطاة. وأما الغيوم التي كانت تحجب السماء متوعّدة بالمطر منذ الصباح فقد استمرت على حالها طيلة اليوم، ثم ازدادت ثقلاً وسواداً إلى أن انفجرت هذا المساء مطراً غزيراً يشبه الأمطار الموسمية، حدث ذلك تماماً عندما خرج الموظفون من مكاتبهم وبدأت فترة الازدحام في الطرقات،

فاكتظت الشوارع واختنقت مداخل محطات المترو بأشخاص يفتحون مظلاتهم ويغلقونها.

ليست لديّ مظلة. وأنا مبتلّة بالكامل. أحس كأن أحداً سكب فوقي دلواً من الماء. يلتصق بنطلوني القطني بفخذيّ. صار قميصي الأزرق الفاتح شفافاً إلى حد مُحرج. ركضت طيلة الطريق من المكتبة حتى محطة المترو ضاغطة حقيبة يدي فوق صدري لأخبئ ما أستطيع تخبئته. ولسبب من الأسباب، وجدت هذا كله مضحكاً ـ ثمة شيء سخيف في أن يعلق المرء تحت المطر- كنت أضحك ضحكاً شديداً جعلني أصل مبهورة الأنفاس إلى نهاية شارع غرايز إن. لا أذكر آخر مرة ضحكت فيها كما أضحك الآن.

لم أعد أضحك الآن! فتحت هاتفي، وتفقدت آخر أخبار قضية ميغان فور عثوري على مقعد في القطار. إنها الأخبار نفسها التي قرأتها من قبل. «يجري استجواب رجل في الخامسة والثلاثين من العمر استجواباً مكثَّفاً في قسم شرطة ويتني حول اختفاء ميغان هيبويل التي غابت عن بيتها منذ مساء السبت». إنه سكوت! أنا واثقة من هذا. آمل فقط أن يكون قد قرأ رسالتي الإلكترونية قبل أن يقبضوا عليه؛ لأن الاستجواب المكثّف مسألة جدية، خطيرة. يعني هذا أنهم مَيّالون إلى الظن بأنه هو من فعلها. لكن لا بد أيضاً، بطبيعة الحال، من تعريف الفِعْلَة المقصودة. لعل تلك الفعلة لم تحدث أصلاً. ولعل ميغان بخير الآن. هنالك شيء يقول لي، مرة بعد مرة، إنها حيّة وفي أحسن حال؛ وهي جالسة على شرفة أحد الفنادق... شرفة مطلة على البحر... واضعة قدميها على حافة الشرفة، وكأس شراب بارد في متناولها.

إن تفكيري فيها هناك يبهجني ويحبطني في الوقت نفسه... ثم أشعر بالانزعاج لأنني محبَطة. لا أريد أن يصيب ميغان أي سوء ... لا أريد هذا مهما كنت غاضبة منها لأنها خانت سكوت ولأنها حطمت أوهامي عن

هذا الثنائي المثالي. لا أريد هذا أبداً! المسألة هي أنني أحس نفسي جزءاً من هذا اللغز، إنني مرتبطة به. لم أعد مجرد فتاة في القطار، تأتي وتذهب من غير هدف أو غاية. أريد أن تظهر ميغان سالمة معافاة. أريد هذا.. لكن الأوان لم يحِنْ بعد.

أرسلت بريداً إلكترونياً إلى سكوت هذا الصباح. كان العثور على عنوانه سهلاً. بحثت عنه في غوغل فوجدت موقع الإنترنت (www.shipwellconsulting.co.uk). إنه الموقع الذي يعلن سكوت من خلاله عن "مجموعة من الخدمات الاستشارية، والخدمات من خلال الإنترنت، مقدَّمة للشركات والمنظمات غير الربحية". عرفت أنه هو لأن عنوان العمل المذكور في ذلك الموقع كان عنوان بيته نفسه.

كتبت هذه الرسالة القصيرة إلى عنوان البريد الالكتروني الوارد في ذلك الموقع:

عزيزي سكوت،

اسمي ريتشل واتسون. أنت لا تعرفني. أود أن أتكلم معك في ما يخص زوجتك. ليست لدي أي معلومات عن مكان وجودها. ولا أعرف ما حدث لها. لكني أعتقد أن لديّ معلومات قد تكون مفيدة لك.

قد لا ترغب في التحدث معي. سوف أفهم هذا. لكن، إذا أردت التحدث، يمكنك أن تراسلني على هذا العنوان.

المخلصة

ريتشل

لا أعرف إن كان قد اتصل بي ـ لو كنت مكانه لما اتصلت على الأرجح. سوف يظن، مثلما ظنت الشرطة، أنني ثرثارة غريبة الأطوار قرأت القصة في الصحف. والآن، لن أعرف شيئاً أبداً ـ إذا كان قد اعتُقل، فقد لا تسنح له فرصة رؤية رسالتي. إذا كان قد اعتُقل، فلن يرى

إلا الشرطة بعد ذلك. ولن يكون هذا خبراً طيباً بالنسبة لي. لكن، كان عليَّ أن أحاول.

الآن... أشعر بالقنوط، والإحباط. لا أستطيع الرؤية عبر زحام الأشخاص في العربة، لا أستطيع الرؤية حتى الجانب الآخر من خط القطار. جانب بيتي أنا. وحتى لو استطعت، فلن يتمكن نظري من تجاوز سياج سكة الحديد نتيجة غزارة المطر المنهمر. لا أعرف إن كان المطر قد ضيّع الأدلّة. لا أعرف إن كانت أدلة مهمة تختفي في هذه اللحظة، وإلى الأبد: بقع من الدم، وآثار أقدام، وأعقاب سجائر عليها آثار من الحمض النووي. أرغب في الشراب الآن رغبة شديدة تجعلني أكاد أحس طعم النبيذ على لساني. أستطيع أن أتخيل تماماً كيف سأشعر عندما يصل الكحول إلى دمي فيجعل رأسي يطير.

أريد كأساً من الشراب، ولا أريدها أيضاً... إذا لم أشرب اليوم فسوف تكتمل ثلاثة أيام من غير شرب. لا أستطيع تذكر آخر مرة بقيت فيها ثلاثة أيام متواصلة من غير شرب. هنالك طعم شيء آخر في فمي أيضاً... طعم عناد قديم. مرَّ عليَّ زمن كانت إرادتي قوية فيه. كنت أستطيع الجري عشرة كيلومترات قبل الإفطار؛ وأستطيع أن ألتزم، أسابيع كاملة، بنظام غذائي يعطي 1300 سعرة حرارية في اليوم. كان هذا العناد من الأشياء التي كان توم يقول إنه يحبها في شخصيتي: عنادي، وقوّتي. أذكر مشادّة جرت بيننا، عند نهاية مشوارنا معاً، عندما ساءت الأمور إلى أقصى حد ممكن. فقد أعصابه، وسألني: «ماذا أصابك يا ريتشل؟ متى صرت ضعيفة هكذا؟».

لست أدري! لا أعرف أين ذهبت تلك القوة. لا أذكر كيف فقدتها. أظن أنها تآكلت مع مرور الزمن، نتفة بعد نتفة، بفعل الحياة، بفعل عيش هذه الحياة.

توقف القطار توقفاً مفاجئاً، وزعقت الفرامل زعيقاً مرتفعاً عند

الإشارة في بداية محطة ويتني من ناحية لندن. امتلأت عربة القطار بتمتمات الاعتذار بعد أن ترنّح المسافرون الواقفون واصطدم أحدهم بالآخر، وداس بعضهم على أقدام بعض. رفعت رأسي فوجدت نفسي أنظر مباشرة في عيني الرجل الذي كان معي في القطار ليلة السبت ـ الرجل ذو الشعر الأحمر... الرجل الذي ساعدني عندما سقطت. إنه يحدق في وجهي تحديقاً مباشراً. كانت عيناه الزرقاوان إلى حد مفزع تنظران في عينيَّ مباشرة فشعرت بخوف جعلني أسقط هاتفي من يدي. استعدت الهاتف عن الأرض ورفعت رأسي من جديد، بطيئة متردّدة هذه المرة، من غير أن أنظر إليه مباشرة. تجوَّلت عيناي في العربة، ثم مسحت النافذة المضببة بمرفقي ونظرت إلى الخارج. أخيراً، عدت ونظرت إليه فابتسم لي. كان رأسه مائلاً قليلاً.

أحسّ وجهي يحترق. لا أعرف كيف أردّ على هذه الابتسامة لأنني لا أعرف معناها. هل هي «أوه، مرحباً! أتذكرك منذ تلك الليلة»، أم هي «آه! إنها تلك الفتاة الثملة التي سقطت على السلم وقالت لي كلمات بذيئة في تلك الليلة»، أم لعله شيء آخر؟ لست أدري، لكنني عندما أفكر في ذلك الآن أظن أنني استعدت مقطعاً صوتياً صغيراً يرافق صورة انزلاقي على السلم. سمعته يقول لي: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟» أشحت بوجهي ونظرت خارج النافذة من جديد. أستطيع أن أشعر بعينيه عليّ. لا أريد إلّا أن أختبئ، أن أختفي. يسير القطار من جديد؛ وبعد لحظات قليلة ندخل محطة ويتني فيبدأ التدافع بين الناس المتجهين صوب الباب، طاوين صحفهم ومعيدين هواتفهم وأجهزة الكيندل إلى جيوبهم وحقائبهم استعداداً للنزول. أرفع رأسي من جديد فتغمرني الراحة ـ لقد استدار مبتعداً عني. إنه يغادر القطار.

فاجأتني فكرة في تلك اللحظة: كم أنا حمقاء! عليَّ أن أنهض، وأن

أتبعه، وأن أكلمه. إنه يستطيع إخباري ما حدث، أو ما لم يحدث. وقد يكون قادراً على ملء بعض الفراغات في رأسي، على الأقل. نهضت واقفة. تردّدت ـ أعرف أن الوقت قد تأخر. سوف تغلق أبواب القطار الآن. إنني في وسط العربة، ولا أستطيع أن أشقّ طريقي عبر الزحام لأصل إلى الباب في الوقت المناسب. تصدر الأبواب إشارة تنبيه، ثم تغلق. لا أزال واقفة. أستدير وأنظر من النافذة مع بدء حركة القطار. أراه واقفاً على حافّة رصيف المحطة، تحت المطر، ذلك الرجل من ليلة السبت، ينظر إليّ وأنا أمرُّ أمامه.

كلما اقتربت من البيت كلما ازداد انزعاجي من نفسي. أكاد أستسلم لإغراء تبديل القطار في نورثكورت والعودة إلى ويتني للبحث عنه. فكرة سخيفة... هذا واضح! ثم إنها فكرة خطيرة إلى حد الغباء أيضاً. لأن غاسغيل حذَّرني بالأمس فقط من الاقتراب من هذه المنطقة. لكنّي أحس برغبة يائسة في تذكّر ما حدث يوم السبت. لقد أكّدت لي بضع ساعات من البحث في الإنترنت صحة شكوكي: (أعرف أنه ليس بحثاً شاملاً) لا يكون التنويم المغناطيسي مفيداً عادة في استعادة الساعات المفقودة خلال فترة تعتيم الذاكرة. وذلك لأننا، مثلما أشارت قراءاتي السابقة، لا ننتج ذكريات خلال تلك الفترة. لا يوجد شيء نستطيع أن نتذكره. إنه ثقب أسود في مسار حياتي، وسيظل دائماً ثقباً أسود.

ميغان

الخميس، 7 آذار\مارس 2013

بعد الظهر

الغرفة مظلمة، والهواء مكتوم... تنعشه رائحتنا. إننا في فندق سوان من جديد، في الغرفة التي تحت الحافّة. لكن الوضع مختلف، رغم ذلك، لأنه لا يزال هنا... ينظر إليّ.

يسألني: «أين تريدين أن نذهب؟».

أجيبه: «إلى بيت على شاطئ كوستا ديلالوز».

يبتسم لي: «وماذا نفعل هناك؟».

أضحك وأقول: «تقصد إضافة إلى هذا؟».

تسير أصابعه بطيئة فوق بطني ويكرّر: «إضافة إلى هذا».

«سوف نفتح مقهى، ومعرضاً فنياً، ونتعلم ركوب الأمواج».

يقبّل عظم حوضي، ويقول: «ما رأيك في الذهاب إلى تايلاند؟».

أكشّر قليلاً، وأقول: «فيها أناس كثيرون من لندن. صقلية! جزر إيغادي! نفتح باراً على الشاطئ، ونذهب لصيد الأسماك...».

يضحك من جديد ثم يصير جسده فوقي... يقبّلني، ثم يتمتم: «لا أستطيع مقاومتكِ... مقاومتكِ غير ممكنة».

أود أن أضحك... أود أن أقولها بصوت مرتفع: «هل ترى؟ لقد

فزت! قلت لك إنها لن تكون المرة الأخيرة، وإنها لن تكون المرة الأخيرة أبداً». أعضّ على شفتي ثم أغمض عينيّ. لقد كنت على حق... كنت أعرف أنني على حق، لكن لا يفيدني شيئاً أن أقولها الآن. أستمتع بنصري صامتة. أستمتع بنصري بقدر ما أستمتع بلمساته، تقريباً.

بعد ذلك، حدَّثني بطريقة لم يحدثني بها من قبل.

عادة، أكون أنا من يبدأ الكلام. أما هذه المرة فقد بدأه هو. حدثني عن إحساسه بالخواء، وعن الأسرة التي تركها خلفه، وعن المرأة التي كانت قبلي والمرأة التي كانت قبلها. عن المرأة التي حطّمت رأسه وتركته خاوياً. لا أؤمن بما يُقال عن شقيق الروح؛ لكن هناك تفاهم بيننا لم أحسّه مع غيره من قبل، أو... لم أحسّه مع أحد، أو لم أحسّه منذ زمن طويل على أقل تقدير. إنه شعور آت من التجربة المشتركة، من معرفة كيف يكون شعور المرء عندما يتحطَّم.

الخواء: هذا ما أفهمه! بدأت أقتنع أن ما من شيء يمكن أن يفعله المرء لإصلاحه، مهما حاول. هذا ما تعلمته من جلسات المعالَجة النفسية: إن الفجوات في حياتك أمر دائم. عليك أن تنمو من حولها مثلما تنمو جذور الشجرة من حول الإسمنت. عليك أن تعيد تشكيل نفسك من خلالها. هذه أشياء أعرفها كلها، لكنني لا أقولها بصوت مرتفع... ليس الآن.

أسأله: «متى نذهب؟». لكنه لا يجيبني، فأغرق في النوم. وعندما أستيقظ، لا أجده... لقد ذهب.

الجمعة، 8 آذار\مارس 2013

في الصباح

يأتيني سكوت بالقهوة إلى الشرفة.

يقول: «لقد نمتِ الليلة الماضية»، ثم ينحني ليقبّل رأسي. إنه واقف خلفي، يداه على كتفيّ، حارّتان صلبتان. أميل برأسي إلى الخلف، صوب جسده، وأغمض عينيَّ وأصغي إلى قعقعة القطار على السكة إلى أن يتوقف أمام بيتنا تماماً. عندما انتقلنا إلى هنا، كان سكوت يلوِّح بيده للمسافرين؛ وكان هذا يجعلني أضحك دائماً. اشتدت قليلاً قبضتا كفّيه على كتفيّ. انحنى وقبَّل رقبتي.

قال مرة أخرى: «لقد نمت. لا بد أنك تشعرين بأنك صرت أحسن حالاً».

أقول له: «إنني أحسن حالاً».

يسألني: «هل تظنين أن الأمر نجح إذاً؟... المعالجة النفسية؟».

«هل تقصد أن تسألني إن كنت أظنّهم نجحوا في إصلاحي؟».

يقول لي... وأسمع جرحاً في صوته: «ليس إصلاحك... لم أقصد...».

«أعرف هذا». أرفع كفّي لأضغط على كفّه.

«كنت أمزح فحسب. أظن أنها عملية مستمرة طويلة. وهي ليست بسيطة، كما تعرف. لست أدري إن كان سيأتي وقت أستطيع القول عنده إن المعالجة نجحت... أن أقول إنني صرت أفضل».

فترة من الصمت، ثم تغدو قبضتاه على كتفيّ أقوى. «إذاً، أنت تريدين مواصلة الذهاب؟»، فأجيبه بأنني أريد مواصلة الذهاب.

كان هناك زمن ظننت فيه أن سكوت يمكن أن يكون كل شيء، يمكن أن يكون كافياً. هكذا فكّرت طيلة سنوات. أحببته حباً كاملاً. ولا أزال أحبه. لكنني لا أريد هذا بعد الآن. الوقت الوحيد الذي أحسّ فيه أنني على طبيعتي هو في تلك اللقاءات السرية المحمومة بعد الظهر، مثل لقاء أمس، عندما تعود حية فيَّ تلك الحرارة كلها... من يستطيع

القول إنني، عندما أهرب، سأجد أن ذلك ليس كافياً أيضاً؟ من يستطيع القول إنني لن أنتهي إلى لحظة أشعر فيها مثلما أشعر الآن تماماً ـ لا أشعر بالأمان، ولا بالاختناق؟ ربما أرغب في الهرب من جديد، ثم من جديد، ثم أنتهي آخر الأمر عائدة إلى سكة القطار القديمة هذه... عندما لا يعود لي مكان آخر أذهب إليه. ربما يحدث هذا. وربما لا يحدث. لكن على المرء أن يخاطر، أليس كذلك؟

أمضي إلى الطابق السفلي لأودّعه قبل ذهابه إلى العمل. يدس ذراعيه حول وسطي ويقبل قمة رأسي.

يتمتم قائلاً: «أحبك يا ميغز»، فينتابني شعور مخيف... كأنني أسوأ شخص في العالم. لا أطيق انتظاره ريثما يغلق الباب لأنني أعرف أنني سوف أبكي.

ريتشل

الجمعة، 19 تموز\يوليو 2013

في الصباح

قطار الثامنة وأربع دقائق يكاد يكون خالياً من الناس. النوافذ مفتوحة. والهواء عليل بعد عاصفة الأمس. ميغان مفقودة منذ مئة وثلاث وثلاثين ساعة؛ وأنا أحسّ نفسي أفضل مما أحسست منذ شهور. عندما نظرت إلى صورتي في المرآة هذا الصباح، رأيت اختلافاً في وجهي: صار جلدي أكثر نقاءً، وصارت عيناي أكثر التماعاً. أشعر أنني أخَفّ. إنني واثقة من أن وزني لم ينخفض أبداً، لكنني لا أشعر بالثقل. أشعر أنني... أنا نفسي... نفسي التي اعتدت أن أكون.

لم تردني أي كلمة من سكوت. فتشت في الإنترنت فلم أجد أخباراً عن أي اعتقال أيضاً. وهكذا تصوّرت أنه تجاهل رسالتي فحسب. خاب ظني بعض الشيء، لكنني أظن أن هذا كان متوقَعاً. اتصل بي غاسغيل هذا الصباح عندما كنت على وشك مغادرة هذا البيت. سألني إن كنت قادرة على المرور عليه في قسم الشرطة اليوم. انتابني الذعر للحظة، لكنني سمعت صوته يقول بنبرة لطيفة هادئة إنه لا يريد مني إلا النظر إلى بعض الصور.

سألته إن كان سكوت هيبويل قد اعتقل.

قال لي: «لم يعتقل أحد يا آنسة واتسون».

«لكن، ذلك الرجل، الرجل الذي يخضع للاستجواب...».

«ليس من حقّي أن أخبركِ شيئاً».

كان أسلوبه في الكلام مريحاً جداً، مطمئناً... وجعلني أحبه من جديد.

أمضيت أمسية الأمس جالسة على الأريكة في بنطلون الركض وقميص قصير الكمّين. كنت أضع قوائم بأشياء أريد أن أفعلها، باستراتيجيات ممكنة. مثلاً، يمكن أن أتجوّل حول محطة ويتني في ساعة الازدحام وأنتظر حتى أرى من جديد الرجل ذا الشعر الأحمر... رجل ليلة السبت. يمكنني أن أدعوه إلى شراب لأرى ما يمكن أن ينتج عن ذلك، لأعرف إن كان رأى شيئاً، أو لأكتشف ما يعرفه عن تلك الليلة. لكن هناك خطراً في أن أصادف آنا أو توم. سوف يبلغان الشرطة، وسوف أقع في مشاكل مع الشرطة (مشاكل أكثر من الآن). الخطر الآخر هو أنني يمكن أن أجعل نفسي عرضة للخطر. لا يزال في ذاكرتي أثر من مشاجرة ـ وقد يكون لديّ أثر جسدي من تلك المشاجرة، على رأسي وشفتي. ماذا لو كان هو الرجل الذي ضربني؟ صحيح أنه ابتسم ولوَّح لي، لكن هذا لا يعني شيئاً ـ يمكن أن يكون شخصاً مختلاً مثلاً. لكنني لا أستطيع اعتباره شخصاً مختلاً. لا أستطيع أن أشرح الأمر، لكنني أحس دفئاً تجاهه.

يمكنني أن أتصل بسكوت من جديد. لكن عليَّ أن أقدّم له سبباً يجعله يتحدث معي. يقلقني احتمال أن أبدو في نظره امرأة مجنونة، مهما يكن ما أقوله له. بل يمكن أن يظن أيضاً أن لي علاقة باختفاء ميغان. قد يبلّغ الشرطة عني. وقد ينتهي الأمر بورطة حقيقية بالنسبة لي.

ربما أستطيع تجريب التنويم المغناطيسي. إنني واثقة من أنه لن يفيدني في تذكّر أي شيء؛ لكن عندي فضول على أي حال. لا يمكن أن يكون التنويم المغناطيسي مؤذياً، أليس كذلك؟

كنت ما أزال جالسة هناك أكتب الملاحظات وأراجع الأخبار التي طبعتها. عند ذلك عادت كاثي إلى البيت. كانت في السينما مع دامين. من الواضح أنها فوجئت برؤيتي صاحية. من الواضح أن ذلك سَرَّها، لكنها كانت قلقة لأننا لم نتبادل فعلاً أي كلام منذ أن جاءت الشرطة إلى البيت يوم الثلاثاء. قلت لها إنني لم أتناول شراباً منذ ثلاثة أيام، فاحتضنتني.

قالت مبتهجة: «إنني سعيدة جداً لأنك تعودين إلى طبيعتك»... كأنها تعرف إلى أيّ حد يمكن أن يتدهور وضعي.

قلت لها: «تلك المسألة مع الشرطة... كانت مجرد سوء تفاهم. لا وجود لأي مشكلة بيني وبين توم. ولا أعرف شيئاً عن تلك الفتاة المختفية. لا حاجة إلى القلق بشأن ذلك». احتضنتني من جديد، ثم أعدَّت فنجاناً من الشاي لكل منّا. فكرت في الاستفادة من حالة حُسن النوايا ومن المشاعر الطيبة التي نشأت بيننا لأخبرها عن وضعي في العمل. لكنني لم أرغب في إفساد مسائها.

كانت لا تزال في مزاج طيب معي عند الصباح. احتضنتني من جديد عندما كنت أتأهّب لمغادرة البيت.

قالت لي: «إنني مسرورة جداً من أجلك يا راتش. أنت تستعيدين ترتيب أمورك. لقد جعلتني قلقة عليك». وبعد ذلك أخبرتني أنها ستمضي نهاية الأسبوع في بيت دامين. وكان أول ما فكرت فيه أنني سأعود إلى البيت الليلة وأحتسي شراباً من غير رقابة من أحد.

في المساء

طعم الكينا المر... هذا ما أحبّه عندما أشرب الجن البارد مع التونيك. يجب أن يكون ماء التونيك من نوع شويبز. ويجب صبّه من عبوة زجاجية، لا بلاستيكية. إن تلك الأشياء المخلوطة مسبقاً غير جيدة

أبداً، لكن الحاجة توجبها أحياناً. أعرف أنني لا يجوز أن أفعل هذا، لكنني كنت أستعدّ له طيلة اليوم. ليس الأمر مقتصراً على أنني أتوقّع أن أكون وحدي فحسب... إنها الإثارة، الأدرينالين. رأسي يدور، وأحس بالنخز في جلدي. لقد أمضيت يوماً طيباً.

أمضيت هذا الصباح ساعة مع المحقق غاسغيل، وحدنا. أخذوني لمقابلته فور وصولي إلى قسم الشرطة. جلسنا في مكتبه هذه المرة، لا في غرفة المقابلات التي وضعوني فيها المرة الماضية. اقترح عليَّ فنجاناً من القهوة. وعندما قبلت فاجأني أن أراه ينهض لإعداد القهوة بنفسه. كانت لديه غلّاية صغيرة وبعض النسكافيه فوق البراد في زاوية مكتبه. اعتذر مني لعدم وجود السكر. أحب أن أكون برفقته.

أحب رؤية يديه تتحركان ـ لا يعبّر عن نفسه كثيراً، لكنه يكثر من تحريك الأشياء من حوله. لم ألاحظ هذا من قبل لأن غرفة المقابلات لم يكن فيها أشياء كثيرة يمكن أن يحركها. أما هنا، في مكتبه، فكان يعدِّل وضع فنجانه باستمرار، ويغير موضع المثقاب، وعلبة الأقلام، ويرتّب الأوراق في أكداس أكثر تناسقاً. إن له يدين كبيرتين وأصابع طويلة لها أظافر معتنى بها جيداً. ليس فيها خواتم.

كان شعوري مختلفاً هذا الصباح. لم أشعر أنني متَّهمة، أو أنني شخص يحاول الإفلات من مطارديه. أحسست أن لي فائدة. ازداد هذا الإحساس عندما تناول أحد الملفات ووضعه أمامي فأراني سلسلة صور. سكوت هيبويل، وثلاثة رجال لم أرهم من قبل. وبعدهم صورة ب.

لم أكن واثقة في البداية. حدّقت في تلك الصور محاولة تمييز ملامح الشخص الذي رأيته معها ذلك اليوم، الشخص الذي كان رأسه محنياً إلى أسفل عندما مال ليعانقها.

قلت: «هذا هو. أظن أنه هو».

«ألست واثقة؟»

«أظن أنه هو».

سحب الصور من أمامي وراح يدقّق فيها بنفسه برهة من الزمن. «رأيتِهما يتبادلان القُبل، أليس هذا ما قلته لنا؟ ألم يكن ذلك يوم الجمعة الماضي؟ قبل أسبوع؟».

«صحيح... تلك الليلة. صباح يوم الجمعة. كانا في الخارج، في الحديقة».

«ألا يوجد أي احتمال بأن تكوني قد أسأت تفسير ما شاهدته؟ ألا يمكن أن يكون ذلك احتضاناً مثلاً، أو... نوعاً من قُبلة أفلاطونية؟».

«لا، لم تكن كذلك. كانت قبلة حقيقية. كانت قبلة... رومانسية».

أظن أنني رأيت شفتيه ترتعشان عند ذلك، كما لو أنه موشك على الابتسام.

سألت غاسغيل: «من هو؟ هل هو... هل تظن أنها معه؟» لم يجبني... اكتفى بهزّ رأسه قليلاً... «هل هذا... هل كان هذا مفيداً؟ هل تجد أن لي فائدة، على نحوٍ ما».

«بالطبع يا آنسة واتسون. لقد كنت مفيدة. شكراً لأنك أتيتِ».

تصافحنا؛ ثم وضع يده اليسرى على كتفي اليمنى، ثانية واحدة... وددت أن أستدير لأقبّل تلك اليد. مرَّ وقت طويل منذ أن لمسني أحد بشيء من الرقة. نعم... ما عدا كاثي.

رافقني غاسغيل فخرجنا من الباب ووصلنا إلى الجزء الرئيسي المفتوح في ذلك المكتب. كان فيه أكثر من عشرة عناصر شرطة. ألقى واحد أو اثنان منهم نظرات جانبية في اتجاهي... لعل فيها لمحة من اهتمام أو ازدراء... لست واثقة. سرنا عبر المكتب فخرجنا إلى الممر ثم رأيته ماشياً صوبي، مع رايلي إلى جانبه: إنه سكوت هيبويل. كان قادماً

عبر المدخل الرئيسي. كان رأسه محنياً، لكنني عرفته على الفور. نظر إلينا وهز رأسه لغاسغيل بنوع من التحية، ثم ألقى نظرة صوبي. التقت أعيننا لحظة واحدة... أستطيع أن أقسم أنه عرفني. فكرت في ذلك الصباح عندما رأيته واقفاً على الشرفة، عندما كان ينظر إلى الأسفل، صوب سكة القطار، عندما أحسست أنه ينظر إليّ. مر بجانبي في الممر. كان قريباً منّي... كنت أستطيع لمسْه ـ كان جميل الشكل، مفرغاً، مضغوطاً كأنه نابض... وطاقة عصبية تشعّ منه. وعندما وصلت إلى المدخل الرئيسي، استدرت لأنظر إليه... كنت واثقة أنني أحسست بعينيه تنظران صوبي، لكنني رأيت رايلي تراقبني عندما استدرت.

ركبت القطار إلى لندن، ومضيت إلى المكتبة. قرأت كل مقالة استطعت أن أجدها عن تلك القضية؛ لكنني لم أعرف شيئاً جديداً. بحثت عن ممارسي التنويم المغناطيسي في آشبري، لكنني لم أتابع الأمر. إنه مرتفع التكلفة؛ وليس واضحاً ما إذا كان يمكن حقاً أن يكون مفيداً في استعادة الذاكرة. لكن قراءة القصص عن أولئك الأشخاص الذين يزعمون إنهم استعادوا ذكريات من خلال التنويم المغناطيسي جعلتني أدرك أنني كنت خائفة من النجاح أكثر من الفشل. لست خائفة مما يمكن أن أعرفه عن ليلة السبت فحسب، بل خائفة من أشياء أكثر من ذلك. لست واثقة من أنني أستطيع تحمّل عيش ذلك الأمر من جديد... تلك الأشياء الحمقاء الفظيعة التي قمت بها... أن أسمع الكلمات التي قلتها غاضبة... أن أتذكر النظرة على وجه توم عندما قلتها. إنني خائفة إلى حد يجعلني لا أجرؤ على الخوض في تلك الظلمة.

فكرت في أن أكتب رسالة إلكترونية إلى سكوت. لكن، لا حاجة لذلك حقاً. اقتنعت من مقابلة المحقّق غاسغيل هذا الصباح أن الشرطة تأخذني على محمل الجد. لم يعد لديّ دور ألعبه في الأمر. عليَّ أن أقبل هذا الآن. وأستطيع أن أشعر، على الأقل، أنني ربما كنت مفيدة... لأنني

لا أستطيع تصديق أن اختفاء ميغان في اليوم الذي أعقب رؤيتي لها مع ذلك الرجل كان مصادفة فقط.

بفرقعة مفرحة، وفوران، فتحت عبوة الجن والتونيك الثانية وأدركت فجأة أنني لم أفكر في توم طيلة النهار. لم أفكر فيه قبل هذه اللحظة. كنت أفكر في سكوت، وفي غاسغيل، وفي ب، وفي ذلك الرجل في القطار. أما توم فتراجع إلى المرتبة الخامسة. أرتشف شرابًا وأشعر أن لدي شيئاً أحتفل به، على الأقل. أعرف أنني سأصبح أفضل حالاً، وأنني سأكون سعيدة. لن يطول الأمر.

السبت، 20 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

إنني لا أتعلّم أبداًا! استيقظت مع ذلك الإحساس الساحق بأنني فعلت شيئاً خاطئاً، ذلك الإحساس بالعار، فعرفت على الفور أنني فعلت شيئاً غبياً. مضيت في ذلك الطقس الفظيع، الطقس المألوف إلى حد مؤلم، طقس محاولة تذكر ما فعلته بالضبط. لقد كتبت رسالة إلكترونية. هذا ما فعلته.

في لحظة من اللحظات، الليلة الماضية، عاد توم فتصدر قائمة الرجال الذين أفكّر فيهم، فكتبت له رسالة إلكترونية. لا يزال حاسوبي المحمول على الأرض بالقرب من فراشي. إنه جاثم هناك... إنه دليل اتهامي. عبرت من فوقه عندما نهضت لأذهب إلى الحمام. شربت الماء من الصنبور مباشرة، وألقيتُ على نفسي نظرة سريعة في المرآة.

لا أبدو بخير. ومع ذلك، فإن ثلاثة أيام ليست بالأمر السيىء. سوف أبدأ من جديد، اليوم. وقفت لفترة طويلة تحت الدوش، ورحت أقلل حرارة الماء تدريجاً فأجعله أكثر برودة ثم أكثر برودة إلى أن صار بارداً

تماماً. لا يستطيع المرء أن يدخل مباشرة تحت تيار الماء البارد... هذا صادم كثيراً، قاسٍ كثيراً؛ أما إذا جاء الماء البارد متدرِّجاً، فإن المرء لا يكاد يشعر به. يشبه الأمر تجربة غلي الضفدع في المدرسة، لكنها تجربة معكوسة الآن. الماء البارد يريح جسدي، ويهدّئ ذلك الألم الحارق في الجرحين، على رأسي وفوق عيني.

آخذ حاسوبي المحمول إلى الطابق السفلي، وأعِدّ لنفسي فنجاناً من الشاي. هناك فرصة، فرصة ضعيفة، لأن أكون قد كتبت تلك الرسالة إلى توم من غير أن أرسلها.

أستنشق نفساً عميقاً ثم أفتح بريدي على جي ميل. أشعر براحة عندما أرى أنني لم أتلقَّ أي رسائل. لكنني أجد تلك الرسالة عندما أنقر على مجلد الرسائل الصادرة: لقد كتبت له، لكنه لم يرد. لم يرد بعد. الرسالة صادرة بعد الحادية عشرة تماماً، الليلة الماضية. كنت أشرب منذ بضع ساعات عند ذلك الوقت. وأما الأدرينالين ونشوة الشراب التي أحسستها قبل ذلك فقد اختفيا منذ زمن طويل. أنقر على الرسالة.

هل يمكنك، من فضلك، إخبار زوجتك بأن تكف عن الكذب على الشرطة في ما يتعلق بي؟ ألا تظن أن من الوضيع حقاً أن تحاول زوجتك زجّي في المتاعب؟ أن تخبر الشرطة بأنني موسوسة تجاهها وتجاه ابنتها المزعجة البشعة؟ عليها أن تعود إلى رشدها. قل لها أن تتركني وشأني!

أغمض عينيَّ، وأغلق الحاسوب بعنف. إنني أنكمش... حرفياً... جسدي كله يتجمع على نفسه، من الداخل. أريد أن أكون أصغر حجماً؛ أريد أن أختفي. إنني مذعورة أيضاً... إذا قرر توم أن يجعل الشرطة ترى هذه الرسالة، فسوف أقع في مشكلة حقيقية. وإذا كانت آنا تجمع أدلة تثبت أنني أهجس بها وأريد الانتقام منها، فإن هذا يمكن أن يكون دليلاً مهمّاً في الملف. ولماذا ذكرت الطفلة الصغيرة؟ أي نوع من الأشخاص يفعل ذلك؟ أي نوع من الأشخاص يفكر على هذا النحو؟ لا أحمل تجاه

الطفلة أي ضغينة. لا أكاد أستطيع أن أنظر نظرة سلبية إلى طفل، إلى أي طفل، بل إلى طفلة توم خاصة. لست أفهم نفسي. لست أفهم الشخص الذي صرته. يا إلهي، لا بد أنه يكرهني الآن. أنا أكره نفسي ـ أكره هذه النسخة مني على الأقل، النسخة التي كتبت تلك الرسالة الليلة الماضية. إنها لا تشعر مثلما أشعر أنا، فأنا لست كذلك. أنا أعرف الكراهية.

ألا أعرف الكراهية؟ أحاول عدم التفكير في الأيام الأكثر سوءاً؛ لكن الذكريات تتجمع في رأسي في أوقات كهذه. مشاجرة أخرى... قبل النهاية بقليل: كنا ذاهبَين بعد إحدى الحفلات، بعد إطفاء الأنوار؛ وكان توم يخبرني كيف كنت الليلة التي قبلها، كيف أحرجته عندما أهنت زوجة أحد زملائه وصرخت عليها متهمة إياها بأنها تغازل زوجي. قال لي: «لا أريد الذهاب معك إلى أي مكان بعد الآن. إنك تسألينني عما يجعلني أمتنع عن دعوة الأصدقاء إلى بيتنا، وعما يجعلني لا أحب الذهاب إلى المقهى معك. أتريدين معرفة السبب حقاً؟ إنه أنت، بسببك أنت. لأنني أشعر بالخجل من وجودك».

ألتقط حقيبتي ومفاتيحي. إنني ذاهبة إلى محل لونديز في أسفل الشارع. لست أبالي إن كانت الساعة لم تبلغ التاسعة صباحاً... إنني مذعورة، وأنا لا أريد أن أضطر إلى التفكير. لا حاجة إلّا إلى بعض المسكنات وكأس من الشراب الآن. أستطيع استجماع نفسي بعد ذلك، وأستطيع أن أنام طيلة اليوم. سوف أواجه الأمر في ما بعد. أصل إلى باب البيت، وأضع يدي على مقبضه، ثم أتوقف. أستطيع أن أعتذر. إذا اعتذرت الآن، فقد أكون قادرة على إنقاذ شيء ما. قد أتمكن من إقناعه بعدم إطلاع آنّا على الرسالة، أو بعدم إطلاع الشرطة عليها. لن تكون هذه أول مرة يحميني منها.

ذلك اليوم، في الصيف الماضي، عندما ذهبت إلى بيت توم وآنّا... لم يحدث الأمر مثلما أخبرت الشرطة بالضبط. قبل كل شيء، لم أقرع

الجرس. لم أكن واثقة مما أردته ـ ولا أزال غير واثقة مما كنت أعتزم فعله حقاً. سرت عبر الممر، ثم عبرت السياج. كان كل شيء هادئاً. لم أستطع سماع أي صوت. مضيت إلى الباب المنزلق، ونظرت إلى الداخل. صحيح أن آنّا كانت نائمة على الأريكة، لكني لم أنادها... لم أنادها ولم أنادِ توم. لم أشأ إيقاظها. لم تكن الطفلة تبكي أيضاً. كانت غارقة في النوم في كرسيّها المحمول، بالقرب من أمها. حملتها وأخذتها إلى الخارج بأسرع ما استطعت. أذكر أنني جريت بها صوب السياج. بدأت الطفلة تستيقظ وتصدر بعض الأصوات. لا أعرف ما كنت أظن أنني فاعلة. لم أكن أريد إيذاءها. وصلت إلى السياج حاملة الطفلة بإحكام على صدري. كانت تبكي الآن... بدأت تزعق. كنت أهزها وأحاول تهدئتها، ثم سمعت صوتاً آخر... قطار قادم... أدرت ظهري إلى السياج فرأيتها ـ آنّا ـ مندفعة صوبي... فمها مفتوح مثل جرح فاغر، وشفتاها تتحركان. لكنني لم أستطع سماع ما كانت تقول.

أخذت الطفلة مني. أما أنا فحاولت الهرب، لكنني تعثرت ووقعت. كانت واقفة فوقي، تصرخ عليّ. قالت لي أن أظل كما أنا وإلا فإنها ستطلب الشرطة. اتصلت بتوم فجاء إلى البيت وجلس معها في غرفة المعيشة. كانت تبكي بكاء هستيرياً؛ وكانت لا تزال راغبة في الاتصال بالشرطة. أرادت أن يعتقلوني بتهمة الخطف. هدّأ توم من روْعها، ورجاها أن تتجاوز الأمر، وأن تتركني أذهب. لقد أنقذني منها. وبعد ذلك أخذني بسيارته إلى البيت. وعندما أنزلني، أمسك بيدي. ظننت أن ذلك كان إيماءة لطف، إيماءة أراد بها أن أطمئن. لكن ضغطه على يدي ازداد، ثم ازداد... ثم ازداد إلى أن صرخت. كان محمرّ الوجه عندما قال لي إنه سيقتلني إذا فعلتُ أي شيء لإيذاء ابنته.

لا أعرف ما كنت أنوي فعله ذلك اليوم. لا أزال لا أعرف ذلك. تردَّدت عند الباب. التفّت أصابعي حول المقبض. عضضتُ على شفتي

بقوة. أعرف أنني إذا بدأت الشرب الآن فسوف أشعر أنني أفضل، ساعة أو ساعتين، ثم أسوأ، ست ساعات أو سبع ساعات. تركت مقبض الباب وعدت إلى غرفة الجلوس. فتحت حاسوبي من جديد. عليّ أن أعتذر، عليّ أن أطلب المغفرة. أدخل إلى بريدي من جديد فأرى أن لديّ رسالة جديدة الآن. إنها ليست من توم. إنها من سكوت هيبويل.

عزيزتي ريتشل،

أشكر اتصالك بي. لا أذكر أن ميغان ذكرت اسمك أمامي. لكنَّ أشخاصاً كثيرين كانوا يترددون على معرضها الفني. إنني أنسى الأسماء كثيراً. أود أن أتحدث معك عن المعلومات التي لديك. أرجو أن تتصلي بي على الرقم 07583123657 بأسرع ما تستطيعين.

مع التحية

سكوت هيبويل

مرّت لحظة تخيلت فيها أنه بعث بتلك الرسالة إلى عنوان خاطئ. إنها رسالة موجَّهة إلى شخص آخر. كان ذلك للحظة قصيرة فحسب تذكرت بعدها كل شيء. نعم، أتذكَّر. أتذكَّر أنني كنت جالسة على الأريكة وقد وصلت زجاجتي الثاني إلى منتصفها... عندما أدركت أنني لا أريد أن ينتهي دوري. أردت أن أكون في قلب الحدث.

وهكذا، كتبت له رداً.

أنظر في أسفل الصفحة، ثم أنتقل من رسالته إلى رسالتي.

عزيزي سكوت،

آسفة لأنني أتصل بك من جديد؛ لكنني أشعر بأن من المهم أن نتحدث. لست واثقة من أن ميغان ذكرتْ اسمي أمامك - إنني صديقة لها من المعرض الفني. كنت أعيش في ويتني. أظن أن لدي معلومات مهمّة بالنسبة لك. أرجو أن تراسلني على هذا العنوان.

ريتشل واتسون

أحس بالحرارة تعود إلى وجهي، وأحس بقرصة الحموضة في معدتي. البارحة ـ عندما كنت عاقلة، صافية الرأس، سليمة التفكير ـ قررت أن عليَّ أن أقبل انتهاء دوري في هذه القصة. لكن الملائكة التي تحرسني ضاعت من جديد، هزمها الشراب... أضاعها الشخص الذي أكونه عندما أشرب. لا ترى ريتشل الثملة أي عواقب... إما أن تكون مقبلة متفائلة إلى حد الإفراط، أو أن تكون غارقة في الكراهية. ليس لديها ماضٍ، ولا مستقبل. إنها موجودة في اللحظة الحاضرة، فحسب. لقد كذبت ريتشل الثملة... أرادت أن تكون جزءاً من القصة، واحتاجت إلى طريقة من أجل إقناع سكوت بالحديث معها... لقد كذبت ريتشل.

أنا التي كذبت.

أود لو أجرحُ جلدي بالسكاكين... فقط حتى أستطيع الشعور بشيء آخر غير الخجل والعار. لكنني لا أملك حتى الشجاعة الكافية لفعل ذلك. بدأت الكتابة إلى توم، أكتب ثم أمحو، أكتب ثم أمحو، أحاول العثور على طرق لطلب المغفرة عن الأشياء التي قلتها الليلة الماضية. لو كان عليَّ أن أسجل كل إثم يجب أن أعتذر عنه أمام توم، لاستطعت ملء كتاب كامل.

في المساء

منذ أسبوع بالضبط، تقريباً منذ أسبوع، خرجت ميغان هيبويل من البيت رقم خمسة عشر في بلنهايم رود، ثم اختفت. لم يرها أحد بعد ذلك. لم يُستخدم هاتفها، ولا بطاقاتها المصرفية، منذ يوم السبت. عندما قرأت ذلك في أخبار الصحف صباح اليوم، بدأت أبكي. إنني خجلة اليوم من الأفكار السرية التي كانت عندي. ليست ميغان لغزاً يجب حلّه، وهي ليست شخصية نراها في افتتاحية أحد الأفلام... جميلة، أثيرية، غير ملموسة. هي ليست رقماً. إنها حقيقية.

إنني في القطار، وأنا ذاهبة إلى بيتها. أنا ذاهبة لألتقي زوجها.

كان عليّ أن أتصل به. لقد وقع الضرر. لم أعد أستطيع الاكتفاء بتجاهل رسالته الإلكترونية ـ سيجعله ذلك يتصل بالشرطة... ألن يفعل ذلك؟ لو كنت مكانه لأخبرت الشرطة إن اتصل بي شخص غريب زاعماً أن لديه معلومات، ثم اختفى. لعله اتصل بالشرطة؛ وقد أجدهم في انتظاري عندما أصل.

جالسة هنا، في مقعدي المعتاد، وإن يكن في غير يومي المعتاد، أشعر أنني أندفع بالسيارة من فوق جرف مرتفع. جاءني الشعور نفسه هذا الصباح عندما اتصلت برقمه، كأنني أسقط في الظلام من غير أن أعرف متى أصطدم بالأرض. تحدث معي بصوت خفيض كما لو أن معه في الغرفة شخصاً آخر... شخص لم يرد أن يسترق السمع إلى كلامنا.

سألني: «هل نستطيع التحدث شخصياً؟».

«أنا... لا! لا أظن هكذا...».

«أرجوك!».

تردّدت لحظة واحدة، ثم وافقت.

«هل تستطيعين القدوم إلى البيت؟»

«ليس الآن».

«إنني...هناك أشخاص آخرون هنا. هل تأتين هذا المساء؟».

ثم أعطاني العنوان. تظاهرت أنني أكتبه.

قال لي: «شكراً لاتصالك بي»، ثم أغلق الخط.

عرفت، وأنا أوافق، أنها لم تكن فكرة حسنة. ما أعرفه عن سكوت، من الصحف، لا يكاد يكون شيئاً. وأما ما أعرفه من مشاهداتي، فأنا لا أعرف شيئاً أبداً في الحقيقة. لا أعرف أي شيء عن سكوت. أعرف أشياء عن جيسون ـ جيسون الذي كان عليَّ أن أذكّر نفسي باستمرار بأنه غير موجود. كل ما أعرفه، كل ما أنا واثقة منه ثقة مطلقة هو أن زوجة

سكوت مختفية منذ أسبوع. أعرف أنه قد يكون شخصاً مشكوكاً فيه. وأعرف... لأنني رأيت تلك القبلة... أن لديه الدافع لقتلها. قد لا يعرف طبعاً أن لديه ذلك الدافع، لكن... أوف... لقد جعلت نفسي أعلق في عقد كثيرة وأنا أفكر في هذا؛ لكن كيف يمكن أن أضيّع الفرصة التي سنحت لي، فرصة الاقتراب من ذلك البيت... البيت الذي راقبته مئات المرات من سكة القطار، ومن الشارع؟ أن أصعد الدرجات أمام باب البيت، وأن أدخل، وأن أجلس في مطبخه، في شرفته... حيث جلسا... حيث كنت أنظر إليهما. كان الأمر شديد الإغراء. أجلس في القطار الآن... ألفّ نفسي بذراعيَّ، وأضغط بكفّي على خاصرتي حتى أمنعهما من الارتعاش... مثل طفل مستثار أمسكوا به في مغامرة من مغامراته. كنت سعيدة جداً بأن لي هدفاً الآن... سعيدة إلى حد جعلني أكفّ عن التفكير في الواقع. توقفت عن التفكير في ميغان! إنني أفكر فيها الآن. عليّ أن أقنع سكوت بأنني أعرفها... لا أعرفها كثيراً، قليلاً فقط. إن استطعت ذلك، فسوف يصدّقني عندما أخبره أنني رأيتها مع رجل آخر. أما إذا اعترفت منذ البداية بأنني كنت أكذب، فلن يثق بي أبداً. سأحاول الآن أن أتخيل كيف يكون الذهاب إلى ذلك المعرض الفنّي... كيف تحدَّث معها ونحن نشرب القهوة. هل تشرب ميغان القهوة؟ كنا نتحدث عن الفن... ربما... أو اليوغا، أو عن زوجَيْنا. لا أعرف شيئاً عن الفن، ولم أمارس اليوغا أبداً. ليس لي زوج أيضاً... وهي خانت زوجها.

أفكر في الأشياء التي قالها عنها أصدقاؤها الحقيقيون: *رائعة، مرحة، جميلة، دافئة القلب، محبوبة*. لقد ارتكبت ميغان غلطة. يحدث هذا أحياناً. لا أحد كاملاً بيننا.

آنّا

السبت 20 تموز/ يوليو 2013

في الصباحْ

استيقظتْ إيفي قبيل السادسة صباحاً. نهضت من سريري وذهبت إلى غرفتها فحملتها. أطعمتها، ثم أخذتها إلى السرير معي.

لم يكن توم إلى جانبي عندما استيقظت من جديد. لكنني سمعت وقع خطواته على السلم. إنه يغنّي بصوت خفيض، غير منغّم... عيد ميلاد سعيد، عيد ميلاد سعيد... لم أكن قد فكرت في الأمر قبل هذا... نسيت تماماً. لم أفكر في شيء إلا في إحضار ابنتي الصغيرة والعودة إلى فراشي. أما الآن، فإنني أضحك حتى قبل أن أستيقظ تماماً. أفتح عيني فأرى إيفي مبتسمة أيضاً. وعندما أرفع رأسي أرى توم واقفاً عند حافة السرير، حاملاً صينية بين يديه. أراه مرتدياً مريلتي الخاصة بالمطبخ، مريلة من تصميم أورلا كايلي، ولا شيء غيرها.

يقول لي: «إفطار في السرير يا فتاة عيد الميلاد». يضع الصينية على طرف السرير ثم يستدير ليقبّلني.

أفتح الهدايا. سوار فضيّ جميل مع حجر من الجاد. إنه من إيفي. ولدي قميص داخلي من الحرير الأسود، وسروال داخلي متناسب معه... من توم. لا أستطيع التوقف عن الابتسام. يعود توم إلى السرير ونستلقي مع إيفي بيننا نحن الاثنين. إنها تلف أصابعها بإحكام حول

إصبع أبيها. أما أنا فأمسك بقدمها الوردية الرائعة. أحس كأن ألعاباً نارية تنطلق في صدري. هذا غير ممكن... هذا الحب كله.

بعد برهة، عندما تضجر إيفي من الاستلقاء هناك، أحملها وننزل لنترك توم في قيلولة. إنه يستحق قيلولة. أتجول هنا وهناك في البيت... بعض الترتيب. أشرب قهوتي في الخارج، في المدخل. وأراقب القطارات نصف الفارغة تقعقع عابرة؛ وأفكر في الغداء. الجو حار ـ أكثر حرارة مما هو مناسب لإعداد اللحم في الفرن. لكنني سأعد بعض ذلك اللحم على أي حال لأن توم يحب اللحم بالفرن. نستطيع أن نتناول الآيس كريم بعد ذلك لنشعر بشيء من البرودة. لكن عليَّ أن أخرج لأشتري نبيذ ميرلو الذي يحبه. وهكذا، أُلبس إيفي ثيابها، وأضعها في عربتها، ثم أدفعها في الشارع صوب المتاجر.

قال لي الجميع إنني كنت مجنونة حتى أوافق على الانتقال إلى بيت توم. لكنهم ظنوا، قبل ذلك، أنني مجنونة لأنني ارتبطت برجل متزوج... فضلاً عن أنه رجل متزوج من امرأة غير مستقرة إلى حد كبير. لقد أثبتّ أنهم مخطئون في ما يتعلق بتلك النقطة. مهما يكن مقدار المتاعب التي تسببها تلك المرأة، فإن توم وإيفي يستحقان ذلك. لكنهم كانوا محِقّين في ما يتعلق بالبيت نفسه. في يوم مثل هذا اليوم، وفي الشمس المشرقة، يمكن أن يكون الأمر رائعاً عندما تمشي في شارعنا الصغير المرتَّب الذي تحفّ به الأشجار من الجانبين... ليس مثل كول دي ساك في روما، لكنه يعطي الإحساس نفسه.... الأرصفة مزدحمة بأمهات مثلي، وكلاب يقودها أصحابها، وأطفال صغار على درّاجاتهم. يمكن أن يكون شارعاً مثالياً. يمكن أن يكون كذلك لو لم تكن قادراً على سماع زعيق فرامل القطارات. يمكن أن يكون كذلك طالما أنك لا تستدير لتنظر خلفك صوب البيت رقم 15.

عندما أعود أجد توم جالساً إلى طاولة الطعام ينظر إلى شيء ما

في حاسوبه. إنه يرتدي بنطلوناً قصيراً من غير قميص. أستطيع رؤية العضلات تتحرك تحت جلده عندما يأتي بأي حركة. لا يزال النظر إليه يجعلني أشعر بالفراشات تطير في رأسي. أقول له مرحباً، لكنه في عالمه الخاص. أمرِّر أطراف أصابعي على كتفه فيجفل. ينطفئ الحاسوب فوراً.

يقول لي وهو ينهض واقفاً: «مرحباً». إنه يبتسم، لكنه يبدو متعباً، قلقاً. يأخذ مني إيفي من غير أن ينظر في عينيّ.

أسأله: «ماذا؟ ما الأمر؟».

يقول لي: «لا شيء». ثم يستدير مبتعداً صوب النافذة حاملاً إيفي فوق وركه.

«ماذا يا توم؟».

«إنه لا شيء». يستدير وينظر إليَّ نظرة أعرف منها ما يريد قوله قبل أن يقول شيئاً. «إنها ريتشل. رسالة أخرى منها». يهز رأسه... إنه يبدو مجروحاً، منزعجاً... أكره هذا، لا أستطيع احتماله. أود أحياناً أن أقتل تلك المرأة.

«ماذا تقول؟».

يهز رأسه من جديد. «لا أهمية للأمر. إنه مجرد... الأشياء المعتادة. تلك السخافات».

أقول له: «إنني آسفة». لا أسأله عن طبيعة تلك السخافات بالضبط لأنني أعرف أنه لن يكون راغباً في إخباري. إنه يكره إزعاجي بهذه الأشياء.

«لا بأس. هذا لا شيء. الكلام الفارغ المعتاد نفسه».

«يا ربي! ألن تبتعد تلك المرأة عنا؟ هل ستتركنا نكون سعداء يوماً ما؟».

يقترب توم مني، ويقبّلني، وابنتنا بيننا. يقول لي: «إننا سعداء. نحن سعداء».

إننا سعداء. تناولنا طعام الغداء، ثم استلقينا في الخارج على المرج. وعندما صار الجو شديد الحرارة عدنا إلى البيت وتناولنا الآيس كريم بينما راح توم يشاهد سباق السيارات في التلفزيون. صنعنا عجيناً للعب، إيفي وأنا. لقد أكلت إيفي قسماً غير قليل منه أيضاً. أفكر في ما سيحدث. وأفكر في روعة حظي... كيف حصلت على كل ما أريد. عندما أنظر إلى توم، أشكر الله على أنه وجدني أيضاً. أشكر الله على أنني كنت موجودة لإنقاذه من تلك المرأة. لقد دفعَته إلى الجنون في النهاية. أظن حقاً أنها فعلت ذلك ـ لقد طحنته طحناً... جعلته على غير طبيعته.

أخذ توم إيفي إلى الأعلى ليحمّمها. أستطيع سماع زعقاتها الفرحة من هناك. إنني أبتسم من جديد ـ لم تفارق الابتسامة شفتي طيلة النهار. أغسل الأطباق، وأرتّب غرفة المعيشة. أفكّر في طعام العشاء. شيء خفيف. هذا غريب لأنني كنت، قبل سنوات قليلة فقط، أكره فكرة البقاء في البيت والطبخ في يوم عيد ميلادي. أما الآن فهذا رائع. هذا ما يجب أن يكون. نحن الثلاثة فقط.

ألملم ألعاب إيفي المبعثرة في أرجاء غرفة المعيشة، وأعيدها إلى صندوقها. سأجعلها تنام باكراً هذه الليلة. سأرتدي ذلك القميص الداخلي الذي اشتراه لي توم. لن يحل الظلام قبل ساعات، لكني أشعل الشموع فوق الموقد، وأفتح زجاجة النبيذ الثانية حتى تتنفس. أنحني فوق الأريكة لأغلق الستائر فأرى امرأة في الشارع. رأسها منكس إلى صدرها. تسير على الرصيف المقابل. لا ترفع المرأة رأسها، لكنها هي نفسها. لا بد أنها هي. أنحني أكثر صوب النافذة. يدقّ قلبي في صدري كأنه مطرقة. أحاول أن أنظر إليها بشكل أفضل. لكنها ليست الزاوية المناسبة للنظر... لا أستطيع أن أراها الآن.

أستدير... مستعدة للاندفاع من باب البيت حتى ألاحقها في

الشارع. لكني أجد توم واقفاً هناك، عند باب الغرفة. أرى إيفي ملفوفة في منشفة بين ذراعيه.

يسألني: «ماذا بك؟ ما الأمر؟».

أقول: «لا شيء». أضع يديَّ في جيوبي حتى لا يستطيع رؤية ارتجافهما... «لا شيء على غير ما يرام. لا شيء أبداً».

ريتشل

الأحد، 21 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

استيقظت ورأسي مليء به. لم يبدُ هذا حقيقياً... لا شيء من هذا يبدو حقيقياً. أحس وخزاً في جلدي. ليتني أستطيع أن أتناول كأساً؛ لكني لا أستطيع. يجب أن أحافظ على صفاء ذهني. من أجل ميغان. من أجل سكوت.

بذلت بعض الجهد البارحة. غسلت شعري ووضعت بعض مستحضرات التجميل. ارتديت بنطلون الجينز الوحيد الذي لا يزال مقاسه مناسباً لي، ومعه قميص قطن ملوَّن وصندل منخفض الكعبين. يبدو مظهري مقبولاً. ظللت أقول لنفسي إنَّ من السخف أن أهتم بمظهري لأنه آخر ما يمكن أن يلتفت إليه سكوت. لكني لم أستطع منْع نفسي. إنها المرة الأولى التي أذهب لرؤيته... الأمر مهم لي أنا. مهم أكثر مما يجب... بكثير.

ركبت القطار وغادرت آشبري قرابة الساعة السادسة فوصلت إلى ويتني بعد السابعة مباشرة. أخذت طريق روزبري آفينيو، فمررت قرب المعبر الذي تحت سكة القطار. لم أنظر صوبه هذه المرة، لم أستطع تحمل ذلك. أسرعت عندما صرت قبالة البيت رقم 23، بيت توم وآنا. سرتُ دافنةً ذقني في صدري، واضعةً نظارتي الشمسية، راجية ألا يراني

أحد منهما. كان الشارع هادئاً، لا أحد من حولي، وسيارتان تسيران بحذر وسط الشارع بين صفَّين من السيارات المركونة على الجانبين. كان شارعاً صغيراً ناعساً، أنيقاً موسراً، فيه أسر شابة كثيرة. يتناولون العشاء كلهم نحو الساعة السابعة، أو يجلسون على الأريكة، الأم والأب والأطفال الصغار محشورين بينهما... يشاهدون برنامج إكس فاكتور... كلهم.

لا يمكن أن تكون المسافة من المنزل 23 إلى المنزل 15 أكثر من خمسين أو ستين خطوة. لكن تلك الرحلة امتدت وطالت فبدا لي أنها دامت دهراً. كانت ساقاي مثل الرصاص، وخطواتي غير ثابتة. كما لو أنني ثملة، كما لو أنني موشكة على الانزلاق عن الرصيف.

طرقت الباب ففتحه سكوت بمجرّد أن طرقت أوّل طرقة. كانت يدي الراجفة لا تزال مرفوعة عندما ظهر في الباب، عالياً فوق رأسي، مالئاً الحيّز كله.

سألني: «ريتشل؟» وهو ينظر إليَّ من فوق... من غير ابتسام. أومأت برأسي. مدّ يده، فصافحتها. أشار إليّ بأن أدخل. لكن لحظة مرت من غير أن أتحرك. كنت خائفة منه. إنه مخيف عندما ينظر إليه المرء عن قرب إلى هذه الدرجة... طويل، عريض الكتفين، وعضلاته بارزة في ذراعيه وصدره، ويداه ضخمتان. خطر في ذهني أنه يستطيع أن يسحقني - يسحق رقبتي وأضلاعي - من غير أيّ عناء.

عبرت من جانبه صوب المدخل فمسّت ذراعي ذراعه عندما تحركت. شعرت بالحرارة ترتفع إلى وجهي. فاحت منه رائحة عرق قديم. وكان شعره الداكن ملبَّداً ملتصقاً برأسه كما لو أنه لم يغتسل منذ فترة.

في غرفة الجلوس،.فاجأني المشهد المألوف. فاجأني مفاجأة قوية إلى درجة جعلتني أشعر بالذعر. رأيت الموقد عند الجدار الذي في آخر

الغرفة، محاطاً بكوّات صغيرة. ورأيت انصباب الضوء عليه من الشارع عبر مصاريع النوافذ المغلقة. كنت أعرف أنني إذا استدرت يساراً فسوف أرى زجاجاً وخضرة، ومن خلفهما خط القطار. استدرت فرأيت طاولة المطبخ، والنوافذ الفرنسية الطويلة من خلفها، ورقعة المرج الخضراء اليانعة. كنت أعرف هذا البيت. أحسست بالدوار، وأردت أن أجلس. فكرت في ذلك الثقب الأسود ليلة السبت الماضي... تلك الساعات المفقودة كلها.

لم يكن هذا يعني شيئاً، بطبيعة الحال. إنني أعرف ذلك البيت، لكن ليس لأني كنت فيه من قبل. أعرفه لأنه تماماً مثل البيت رقم 23: ردهة في المدخل تفضي إلى السلم. وعلى يمينها غرفة المعيشة متصلة بالمطبخ. مدخل البيت وحديقته مألوفان لي لأنني كنت أراهما من القطار. لم أصعد إلى الأعلى. لكنني أعرف أنني إذا صعدت فسوف أجد فسحة صغيرة لها نافذة عريضة منخفضة. وإذا خرجت من تلك النافذة فسوف تجد نفسك على شرفة مضافة إلى البيت، على حافة السطح. أعرف أن في الأعلى غرفتَي نوم: رئيسية لها نافذتان كبيرتان مطلتان على الشارع، وأخرى صغيرة في الخلف تطل على الحديقة. لا تعني معرفتي هذا البيت من الداخل والخارج أنني كنت فيه من قبل.

لكنني كنت أرتعد عندما أشار إليّ سكوت بالدخول إلى المطبخ. عرض عليّ فنجاناً من الشاي. جلست إلى طاولة المطبخ بينما راح يغلي الماء. وضع كيساً من الشاي في فنجان خزف كبير، وأراق بعض الماء المغلي على نضد المطبخ مدمدماً لنفسه بشيء غير مسموع. كانت تفوح في المطبخ رائحة مواد مطهرة، رائحة حادة. لكن سكوت نفسه كان في حالة مزرية... بقعة من العرق على ظهر قميصه، وبنطلون متهدل مرتخ على وركيه كأنه أكبر من مقاسه. تساءلت في سري عن آخر وجبة تناولها.

وضع فنجان الشاي أمامي ثم جلس إلى الجهة المقابلة من طاولة المطبخ. كانت يداه مطويتين أمامه. امتد الصمت، وامتد، مالئاً الفراغ بيننا، مالئاً الغرفة كلها. صار الصمت يطنّ في أذنيَّ فشعرت بالحر وبعدم الراحة. وفجأة، صار ذهني خاوياً من كل شيء. لم أعرف ما كنت أفعله هناك. لماذا أتيت أصلاً؟ ومن البعيد، سمعت زمجرة خفيضة. القطار قادم. أحسست أن صوته مريحاً، ذلك الصوت المألوف القديم.

قال لي أخيراً: «أنت من صديقات ميغان؟».

سمعت اسمها من شفتيه فأحسست بغُصّة في حلقي. حدّقت في الطاولة... كفّاي محيطان بفنجاني... بإحكام.

قلت: «نعم! أعرفها... قليلاً. من المعرض الفني».

نظر إليّ منتظراً، مترقباً. رأيت عضلة تتقلص في فكه عندما كزَّ على أسنانه. فتشت عن كلمات لم تأتني. كان يجب أن أستعد على نحوٍ أفضل.

سألته: «هل لديك أي أخبار؟» تعلّقت عيناه بعينيّ فشعرت بالخوف لحظة. لقد قلت شيئاً خاطئاً. لا شأن لي إن كانت لديه أخبار أو لم تكن لديه أخبار. سوف يغضب؛ وسوف يطلب مني المغادرة.

قال لي: «لا! ما الذي أردت إخباري به أنت؟».

مر القطار بطيئاً فنظرت إلى السكة. أحسستُ بالدوْخة... كما لو أنني خارج جسمي... كأنني أنظر إلى نفسي من الخارج.

رفع نبرة صوته قليلاً. وقال: «قلتِ لي في رسالتك إنك تريدين إخباري أمراً عن ميغان؟».

أخذت نفساً عميقاً. كان إحساسي فظيعاً. كنت مدركة، على نحو حاد، أن ما سأقوله سيجعل كل شيء أسوأ... سيجرحه.

قلت: «رأيتها مع شخص». قذفت هذه الكلمات، واضحة، مرتفعة، من غير استعداد، من غير سياق.

نظر إليَّ: «متى؟ هل رأيتِها ليلة السبت؟ هل أخبرت الشرطة؟».

قلت: «لا! كان ذلك صباح الجمعة». تهدّلت كتفاه.

«لكنها... لكنها كانت بخير يوم الجمعة. ما الذي يجعل هذا مهمًّا؟» رأيت تلك النبضة في فكه من جديد. لقد بدأ يغضب... «قلتِ إنك رأيتِها مع... مع مَنْ رأيتها؟ هل كانت مع رجل؟»

«نعم، أنا...».

«كيف كان شكله؟»سألني ونهض واقفاً فحجب جسده الضوء. ثم سألني من جديد: «هل أخبرتِ الشرطة؟».

قلت له: «أخبرتهم. لكنني لست واثقة من أنهم يأخذون كلامي على محمل الجد».

«لماذا؟»

«إنني فقط... لا أدري... ظننت أنك يجب أن تعرف».

انحنى صوبي وكفّاه على الطاولة... وقبضتاه مشدودتان.

«ماذا تقولين؟ أين رأيتها؟ ماذا كانت تفعل؟».

أخذت نفساً عميقاً آخر: «لقد كانت... في الخارج على المرج. هناك». قلت هذا مشيرة صوب الحديقة. «إنها... رأيتها من القطار». كانت نظرة عدم التصديق على وجهه واضحة لا تخطئها العين... «أذهب بالقطار من آشبري إلى لندن كل يوم. أمرّ من هنا تماماً. لقد رأيتها. كانت مع أحد ما. لم يكن... لم يكن أنت».

«وكيف تعرفين هذا؟... صباح الجمعة؟ الجمعة ـ اليوم الذي سبق اختفاءها؟».

«نعم».

قال: «لم أكن هنا. كنت مسافراً. كنت في مؤتمر في برمنغهام. عدتُ مساء الجمعة». بدأت بقع حمر تظهر في أعلى خديه. تراجع مفسحاً المجال لشيء آخر... «إذن، أنتِ رأيتها على المرجة مع أحد ما؟ ثم...».

قلت له: «كانت تقبّله». كان عليَّ أن أقول هذا آخر الأمر. كان يجب أن أخبره... «كانا يتبادلان القبل».

انتصب واقفاً. كانت يداه... قبضتاه مشدودتين... متدليتين على الجانبين. اتسعت البقع الحمر على خدَّيه، وازداد غضبه.

قلت له: «إنني آسفة! إنني آسفة كثيراً! أعرف أن سماع هذا أمر بالغ السوء». رفع يده فأسكتني... بحركة ازدراء. ما كان مهتماً بتعاطفي.

أعرف كيف يكون هذا الشعور. كنت جالسة هناك، وتذكرت بوضوح كامل تقريباً كيف أحسست عندما جلست في مطبخي أنا، على مسافة خمسة بيوت من هنا، بينما راحت لارا، أفضل صديقاتي في ما مضى... كانت جالسة هناك وطفلها الصغير السمين يتلوى في حجرها... تذكرت كيف قالت لي إنها آسفة لأن زواجي انتهى. تذكرت كيف فقدت أعصابي أمام تفاهة كلامها وابتذاله. لم تكن تعرف شيئاً عن ألمي. قلت لها أن تذهب. قلتها بطريقة سيئة، بكلمات بذيئة، فطلبت مني ألا أقول كلمات من هذا النوع أمام طفلها. لم أرها بعد ذلك.

سألني سكوت: «كيف كان شكله... هذا الرجل الذي رأيتها معه؟». كان واقفاً يدير ظهره لي. كان ينظر إلى الخارج، صوب المرج.

«كان طويلاً ـ لعله أطول منك. وكان داكن البشرة. أظن أنه قد يكون آسيوياً. لعله هنديّ، أو شيء من هذا القبيل».

«وهل كانا يتبادلان القُبل هناك في الحديقة؟».

«نعم».

أطلق زفرة عميقة: «يا إلهي! إنني في حاجة إلى شراب». استدار فواجهني: «هل تريدين بيرة؟».

كنت أريد أن أشرب البيرة... كثيراً، لكنني قلت لا. رحت أنظر إليه بينما أحضر لنفسه زجاجة من البراد، ثم فتحها، وشرب جرعة طويلة. أكاد أشعر بانسياب السائل البارد في حلقي عندما كنت أنظر إليه. تاقت يدي إلى كأس تحملها. استند سكوت إلى طاولة المطبخ. كان رأسه منكّساً يكاد يلامس صدره.

أحسستُ بالبؤس عند ذلك. لم أكن أساعده؛ بل جعلته أسوأ حالاً، وزدتُ ألمه. إنني أعتدي على حزنه... كان هذا خاطئاً. ما كان يجوز لي أن أذهب لرؤيته. ما كان يجوز لي أن أكذب عليه أبداً. من الواضح أنني ما كان يجوز أن أكذب أبداً.

كنت على وشك النهوض عندما تكلم: «يمكن أن... لست أدري... يمكن أن يكون هذا أمراً حسناً، أليس كذلك؟ قد يعني هذا أنها بخير. إنها، فقط...» أطلق ضحكة قصيرة، خاوية... «هربت فقط، مع شخص ما». مسح بظهر يده دمعة عن خده فانكمش قلبي، صار مثل كرة صغيرة... «لكني لا أستطيع... لا أستطيع تصديق أنها لا تتصل بي». نظر إليّ كأن الإجابات عندي، كأنني أعرف... «كان يجب أن تكلمني، بالتأكيد، أليس كذلك؟ يجب أن تعرف كم خفت عليها... كم أشعر باليأس. إنها ليست من ذلك النوع الذي يحب الانتقام... ليست كذلك».

كان يكلمني كأنني شخص يمكنه الثقة به ـ كأنني صديقة لميغان ـ عرفت أن هذا أمر خاطئ، لكن إحساسي به كان طيباً. أخذ جرعة جديدة من زجاجته ثم استدار صوب الحديقة. تابعت نظراته صوب كومة صغيرة من الحجارة قرب السور. كانت تشكيلاً حجرياً بدأ إنشاؤه منذ زمن، لكنه لم يكتمل. رفع الزجاجة نحو شفتيه من جديد، نصف المسافة فقط، ثم توقف. استدار فواجهني.

سألني: «هل تقولين إنك رأيت ميغان من القطار؟ إذن أنت... كنت تنظرين فقط من نافذة القطار فرأيتها... امرأة تصادف أنك تعرفينها، أليس كذلك؟». تغيّر الجو في الغرفة. ما عاد واثقاً أبداً... ما عاد واثقاً إن كنت حليفةً له، أو إن كان يستطيع الثقة بي. طغى الشك على وجهه، كأنه ظل.

قلت: «نعم، أنا... أعرف أين تعيش». ثم ندمت على كلماتي هذه لحظة خروجها من فمي... «أقصد أين تعيشان. لقد كنت هنا من قبل. منذ زمن بعيد. وهذا ما كان يجعلني أنظر بحثاً عنها عندما أمر من هنا». كان يحدّق بي. أستطيع الإحساس بالحرارة تصعد إلى وجهه... «كنت أراها في الخارج هناك، معظم الوقت».

وضع زجاجته الفارغة على الطاولة، وسار خطوتين صوْبي، ثم جلس على الكرسي القريب مني، إلى الطاولة.

«إذن، فأنت تعرفين ميغان جيداً. أقصد أنك تعرفينها إلى حدٍّ كافٍ لأن تستطيعي الوصول إلى البيت، أليس كذلك؟».

أحسست بالدم نابضاً في رقبتي، وبالعرق أسفل ظهري، وباندفاعة الأدرينالين المدوّخة. ما كان يجب أن أقول هذا؛ وما كان يجوز لي تعقيد الكذبة إلى هذا الحد.

«لم أذهب إليها إلّا مرة واحدة. لكني... لكني أعرف مكان البيت لأنني كنت أعيش قريباً من هنا». ارتفع حاجباه دهشة... «أسفل الطريق، في البيت رقم 23».

أومأ برأسه بطيئاً ثم قال: «واتسون! إذًا، فأنت... ماذا... زوجة توم السابقة؟».

«صحيح. تركت البيت منذ سنتين».

«لكنك بقيتِ تزورين معرض ميغان، أليس كذلك؟».

«أحياناً».

«وعندما كنت ترينها، ماذا كنتما... هل كانت تتحدث عن أشياء شخصية؟ عني أنا؟» صار صوته مبحوحاً... «أو عن أي شيء آخر؟».

هززت رأسي نفياً: «لا! لا! كان ذلك عادة مجرد... أحاديث لقضاء الوقت، أنت تعرف». ساد صمت امتد زمناً طويلاً. بدا لي أن حرارة الغرفة راحت تتزايد فجأة، وأن رائحة المطهرات بدأت تفوح من كل سطح في المطبخ. أحسست أنني على وشك الإغماء. كانت إلى جانبي طاولة عليها صور فوتوغرافية في إطارات. كانت ميغان تبتسم لي من تلك الصور، مبتهجة... متهِمة.

قلت: «عليّ أن أذهب الآن. لقد أخذت من وقتك الكثير». بدأت أنهض، لكنه مد يده فوضعها فوق معصمي. ولم تفارق عيناه وجهي.

قال لي بصوت رقيق: «لا تذهبي الآن». لم أنهض، لكني سحبتُ يدي من تحت يده. كان إحساساً غير مريح... كأنه يحتجزني. قال لي: «هذا الرجل... هذا الرجل الذي رأيتها معه ـ أتظنين أنك قادرة على التعرف إليه إذا رأيته؟... إذا رأيته؟».

لم أستطع القول له إنني تعرفت على صورة الرجل لدى الشرطة. كانت حجَّتي الوحيدة من أجل التواصل معه هي أن الشرطة لم تأخذ قصتي على محمل الجد. فإذا اعترفت له بالحقيقة، فإن الثقة ستزول. وهكذا، كذبت مرة أخرى.

قلت: «لست واثقة! لكني أظن أنني أستطيع التعرف عليه». انتظر لحظة، ثم تابعت: «ورد في الصحف قول لأحد أصدقاء ميغان. كان اسمه راجيش. وكنت أتساءل ما إذا...» رأيت سكوت يهز رأسه: «راجيش غوجرال؟ لا أستطيع تصديق هذا. إنه واحد من الفنانين الذين كانوا يعرضون أعمالهم لديها. إنه رجل لطيف حقاً، لكن... إنه متزوج، ولديه أولاد». وكأن هذا يمكن أن يعني شيئاً... قال: «انتظري لحظة»،

ثم هب واقفاً على قدميه... «أظن أنني يمكن أن أعثر على صورة له في مكان ما هنا».

اختفى في الطابق العلوي. أحسست بكتفيَّ يسقطان، فأدركت أنني كنت جالسة متيبسة بفعل توتري، منذ وصولي. رحت أنظر إلى الصور من جديد. ميغان في ثوب البحر على الشاطئ. لقطة قريبة لوجهها، عيناها زرقاوان ساطعتان. ميغان فقط. لا صور لهما معاً.

ظهر سكوت حاملاً كتيّباً قدمه لي. كان كتيّباً دعائياً يعلن عن عرض لوحات في معرضها الفني. فتحه سكوت، ثم قال: «هذا هو... هذا هو راجيش». كان الرجل واقفاً إلى جانب لوحة تجريدية كثيرة الألوان: كان أكبر سناً، قصيراً، ممتلئاً، ملتحياً. لم يكن هو الرجل الذي رأيته، الرجل الذي تعرفت على صورته لدى الشرطة. قلت له: «ليس هو». وقف سكوت إلى جانبي محدّقاً في الكتيب قبل أن يجري فجأة فيخرج من الغرفة ويصعد إلى الطابق العلوي من جديد. عاد بعد لحظات حاملاً حاسوبه المحمول وجلس إلى طاولة المطبخ.

قال لي وهو يفتح الحاسوب ويشغله: «أظن، أظن أنني يمكن...» صمت فجأة؛ ورحت أنظر إليه: كان وجهه تجسيداً للتركيز. كانت عضلات فكَّيه مشدودة. قال أخيراً: «كانت ميغان ترى معالجاً نفسياً. كان اسمه أبديك. كمال أبديك. ليس آسيوياً، بل هو من صربيا، أو من البوسنة، شيء من هذا. لكنه داكن البشرة. يمكن أن يظنه المرء هندياً إذا رآه عن بعد. راح يبحث في الجهاز قائلاً: «هنالك موقع على الإنترنت... في ما أظن. إنني واثق من وجوده. وأظن أن فيه صورة...». أدار الشاشة صوبي حتى أتمكن من رؤيتها. انحنيت حتى ألقي نظرة أقرب. قلت له: «هذا هو! بالتأكيد... هذا هو». أغلق سكوت الحاسوب بعنف. ظل زمناً طويلاً من غير أن يقول شيئاً. كان جالساً، واضعاً مرفقيه على الطاولة، مسنداً جبهته على أطراف أصابعه. كانت ذراعاه ترتجفان.

قال أخيراً: «كانت تصيبها نوبات من القلق، ومشكلات في النوم، وأشياء من هذا القبيل. بدأ الأمر في وقت ما من السنة الماضية. لا أذكر متى بدأ ذلك على وجه التحديد. كان يتكلم من غير أن ينظر نحوي، كما لو أنه يكلم نفسه، كأنه نسي أنني موجودة أصلاً... «أنا من اقترح عليها أن تتحدث مع شخص ما. أنا من شجعها على الذهاب لأنني لم أرَ نفسي قادراً على مساعدتها». تكسّر صوته قليلاً عند ذلك... «لم أستطع مساعدتها. قالت لي إنها مَرّت بمشكلات مثل هذه في الماضي، وإنها ستزول آخر الأمر. لكنني جعلتها... أقنعتها أن... تذهب إلى الطبيب. وقد نصحوها بذلك الرجل». تنحنح قليلاً حتى يستطيع متابعة الكلام... «بدا لي أن المعالجة تفيدها. بدت لي أكثر سعادة». أطلق ضحكة قصيرة، حزينة: «أعرف السبب الآن».

مددت يدي لأربّت على ذراعه؛ حركة مريحة. ابتعد فجأة ثم هبّ واقفاً. قال مستعجلاً: «عليك الذهاب. سوف تأتي أمي قريباً ـ إنها لا تتركني أكثر من ساعة أو ساعتين». وعند الباب، عندما كنت أهم بالمغادرة، أمسك بذراعي. سألني: «هل رأيتك في مكان ما قبل اليوم؟».

فكرت، لحظة واحدة، في أن أقول له: *ربما رأيتني. لعلك رأيتني في قسم الشرطة، أو في الشارع هنا. كنت هنا ليلة السبت*. هززت رأسي: «لا. لا أظن هذا».

سرت مبتعدة نحو محطة القطار بأسرع ما استطعت. وعندما صرت في منتصف ذلك الشارع تقريباً، استدرت لأنظر خلفي، رأيته لا يزال واقفاً بالباب، يراقبني.

في المساء

إنني الآن موسوسة بتفقد بريدي الإلكتروني. لكني لم أسمع شيئاً من توم. كم كانت الحياة سهلة على السكارى الغيورين قبل وجود

الرسائل الإلكترونية والرسائل النصية والهواتف المحمولة... قبل هذه الإلكترونيات كلها، وقبل الآثار التي تخلفها!

لا شيء جديدًا اليوم في الصحف عن ميغان. لقد تغيرت مواضيعها. الصفحات الأولى مكرسة للأزمة السياسية في تركيا، وللطفلة ذات السنوات الأربع التي مزقتها الكلاب في ويغان، ولهزيمة فريق كرة القدم الإنكليزي المذلّة أمام فريق الجبل الأسود. لقد نسوا ميغان مع أنها مختفية منذ أقل من أسبوع.

دعتني كاثي إلى تناول الغداء في الخارج. كانت غير مرتاحة لأن داميين ذهب لزيارة أمه في برمنغهام. لم تكن كاثي مدعوّة. إنهما على علاقة منذ سنتين تقريباً الآن، لكنها لم ترَ أمه بعد. ذهبنا إلى مطعم جيراف في هاي ستريت... مكان أكرهه! جلسنا في وسط صالة مليئة بزعيق أطفال دون الخامسة. راحت كاثي تسألني عما كنت أفعله. كان لديها فضول لمعرفة أين كنت الليلة الماضية.

سألتني بعينين مشتعلتين أملاً: «هل قابلت شخصاً ما؟»... كان سؤالها هذا مؤثراً حقاً.

كدت أقول لها نعم، لأن تلك هي الحقيقة. لكن الكذب كان أكثر سهولة. قلت لها إنني كنت في لقاء في ويتني لمعالجة الإدمان على الكحول.

«أوه!» ... قالتها محرَجة ثم خفضت عينيها صوب صحن السلطة اليونانية أمامها... «ظننت أنك قد انزلقت قليلاً... وشربت يوم الجمعة».

قلت: «هذا صحيح. لن يكون هذا الأمر إبحاراً سهلاً يا كاثي». أحسست بالخجل لأنني أظنها مهتمة حقاً بأن أظل صاحية... «لكني أبذل كل جهدي».

«إذا كنت محتاجة إلي، أنت تعرفين، إلى ذهابي معك...».

قلت: «ليس في هذه المرحلة. لكن أشكرك».

قالت: «لا بأس! قد نستطيع أن نفعل شيئاً آخر معاً. ما رأيك في الذهاب إلى النادي الرياضي؟».

ضحكت أول الأمر. لكنني أدركت أنها كانت جادة، فقلت لها إنني سأفكر في الأمر.

ذهبت كاثي منذ قليل ـ اتصل بها داميين قائلاً إنه عاد من عند أمه؛ فذهبت إلى بيته. فكرت في أن أقول لها شيئاً ـ لماذا تركضين إليه كلما اتصل بك؟ لكني... في الحقيقة... لست في ذلك الموقع العظيم الذي يسمح لي بتقديم النصائح في ما يخص العلاقات، أو في ما يخص أي شيء في الحقيقة ـ ثم إنني كنت راغبة في الشراب أيضاً. (كنت أفكر في الشراب منذ جلوسنا في هذا المطعم. وعندما سألتنا النادلة الصغيرة ذات الوجه المنقّط إن كنا راغبتين في كأس من النبيذ، قالت لها كاثي بنبرة حاسمة: «لا! شكراً لك»). وهكذا ودعت كاثي وأنا أشعر بذلك التنميل يسري في جلدي ترقّباً للشراب، ودفعت عني الأفكار الطيبة كلها (*لا تفعلي هذا، إنك تتقدمين جيداً*). أهم بانتعال حذائي لأذهب إلى متجر الكحول فيرن هاتفي. إنه توم. سوف يكون المتصل توم. أخرج الهاتف من حقيبتي وأنظر إلى الشاشة فتغدو ضربات قلبي مثل الطبل.

«مرحباً». صمت... ثم أسأل: «هل كل شيء بخير؟».

بعد صمت قصير يقول لي سكوت: «نعم، بخير. إنني بخير. اتصلت بك فقط لأقول لك شكراً، شكراً لمجيئك البارحة. أشكرك لأنك تكرّمت عليَّ بوقتك حتى تخبريني».

«أوه! لا بأس. لم تكن في حاجة إلى...».

«هل أزعجك باتصالي؟».

«لا! لا بأس». ساد صمت قصير على الطرف الآخر من الخط؛ وهكذا قلت من جديد: «لا بأس! هل... هل حدث شيء؟ هل تحدثت إلى الشرطة؟».

قال: «كانت ضابطة الاتصال هنا بعد الظهر». تسارعت نبضات قلبي... «إنها المحققة رايلي. ذكرت لها اسم كمال أبديك. وقلت لها إن الأمر قد يستحق التحدث معه».

صار فمي جافاً تماماً: «هل أخبرتَها... هل أخبرتها أنك تحدّثت معي؟».

«لا! لم أقل لها. ظننت، ربما... لا أعرف. ظننت أنه قد يكون من الأفضل إذا ورد اسمه على لساني أنا. قلت لها... كانت كذبة، أعرف هذا... لكني قلت إنني كنت أعصر ذهني مفكراً في أي شيء يمكن أن يكون له معنى. وقلت إنني أظن أنه قد يكون مفيداً أن يتحدثوا مع المعالج النفسي. وقلت إنني كنت أشعر ببعض القلق في ما يتصل بالعلاقة بينهما، في الماضي».

أستطيع الآن أن أتنفس من جديد. سألته: «وماذا قالت؟».

«قالت إنهم تحدثوا معه، لكنهم سيتحدثون معه من جديد. طرحت عليّ أسئلة كثيرة عمّا جعلني أمتنع عن ذكر الطبيب النفسي من قبل. إنها... لست أدري. لا أشعر بالثقة تجاه هذه المرأة. من المفترض أن تكون في صفّي أنا؛ لكني أشعر طيلة الوقت كما لو أنها تتجسّس عليّ، تتصيّدني، كأنها تحاول أن توقع بي».

أحسّ بسرور أحمق لأنني لا أحبها أنا أيضاً. هذا شيء آخر يجمعنا، خيط آخر يوحّدنا معاً.

«لكني أردت أن أشكرك على أي حال. أشكرك على مجيئك. كان ذلك فعلاً... يبدو الأمر غريباً... لكنه كان شيئاً طيباً أن أتحدث مع شخص... شخص لا أعرفه معرفة قريبة. أحسست أنني صرت قادراً

على التفكير على نحو أكثر منطقية. فبعد ذهابك، جلست أفكّر في المرة الأولى التي ذهبت فيها ميغان لرؤيته ـ لرؤية أبديك ـ وفي الحال التي كانت عليها عندما عادت. كان فيها شيء ما... كأنها صارت أخف». أطلق زفرة مرتفعة ثم تابع يقول: «لست أدري. لعلّي أتخيل هذا».

كان لديّ الشعور نفسه الذي أحسسته أمس ـ لم يعد يتحدث معي أنا... إنه يتحدث، فحسب. صرت كأنني شيئاً أتلقى كلامه فحسب؛ وهذا يسعدني. يسعدني أن أكون مفيدة له.

قال: «أمضيت النهار كله أفتّش في أشياء ميغان من جديد. لقد فتشت غرفتها، والبيت كله، عدة مرات... باحثاً عن شيء ما، عن أي شيء يمكن أن يعطيني إشارة إلى مكان وجودها. ربما شيء منه. لكني لم أجد شيئاً. لا رسائل إلكترونية، ولا رسائل ورقية، لا شيء. فكرت في محاولة الاتصال به؛ لكن العيادة مغلقة اليوم. ولا أستطيع العثور على رقم هاتفه المحمول».

سألته: «وهل تظن أن هذه فكرة حسنة؟ أقصد... ألا تظن أن من الأفضل أن تترك أمره للشرطة؟». لم أكن أريد أن أقولها بصوت مرتفع؛ لكن... لا بد أننا نفكر في الأمر نفسه: إنه شخص خطِر. أو يمكن أن يكون خطراً، على أقل تقدير.

«لا أدري... لا أدري حقاً». هناك نبرة يأس في صوته، نبرة من المؤلم سماعها. لكني لا أستطيع أن أقدّم له ما يريحه. يمكنني سماع صوت تنفسه عند النهاية الأخرى من الخط. أسمعه قصيراً، متسارعاً، كما لو أنه خائف. أود أن أسأله إن كان معه أحد ما، لكني لا أستطيع: سيبدو هذا سؤالاً خاطئاً، كأنه توددٌ في غير محله.

قال لي: «رأيت زوجك السابق اليوم». أحسست بشعر ذراعيَّ ينتصب.

«أوه!».

«نعم! كنت في طريقي إلى كشك الجرائد فرأيته في الشارع. سألني إن كنت بخير، وإن كانت هنالك أي أخبار جديدة».

«أوه!» ... كرّرتها لأنها كانت كل ما أستطيع قوله. أفلح أخيراً في صياغة بضع كلمات. لا أريد أن يتحدث مع توم. يعرف توم أنني لا أعرف ميغان هيبويل. يعرف توم أنني كنت في بلينهايم رود ليلة اختفائها.

«لم أذكر اسمك. لم أفعل... تدركين ذلك. لم أكن واثقاً إن كان من المستحسن أن أقول له إنني قابلتكِ».

«معك حق. أظن من الأفضل ألا تقول له. لا أعرف. قد يبدو ذلك أمراً غريباً».

قال: «لا بأس إذًا».

حلَّ صمت طويل بعد ذلك. كنت أنتظر نبضات قلبي حتى تبطئ قليلاً. ظننت أنه سيُنهي المكالمة، لكنه قال: «ألم تتحدثي عني حقاً؟».

قلت: «بالطبع... بالطبع تحدثت. أقصد... لم نكن نتحدث كثيراً، لكن...».

«لكنك أتيت إلى البيت. نادراً ما تدعو ميغان أحداً إلى البيت. إنها شديدة التمسك بخصوصيتها، تحرص على حماية حيّزها الخاص من الناس».

إنني أفتش عن سبب. أتمنى لو أني لم أقل له إنني ذهبت إلى البيت من قبل.

«أتيت لأستعير كتاباً».

«حقاً؟» ... يبدو أنه لا يصدّقني. إنها ليست قارئة -أعود بذاكرتي إلى بيتها ـ لم أرَ كتباً على الرفوف. «ماذا كانت تقول؟ عني أنا؟».

أقول له: «كانت سعيدة جداً. أقصد، معك. علاقتكما». عندما قلت هذا أدركت كم كان يبدو غريباً، لكني لا أستطيع التحديد... وهكذا

فإنني أحاول إنقاذ نفسي... «سأكون صادقة معك. كنت أمرّ بمرحلة عصيبة فعلاً في زواجي. وهذا ما يجعلني أظن الآن أن حديثنا كان نوعاً من المقارنة بين الحالتين. كانت تضيء عندما تتحدث عنك». يا للعبارة المبتذلة المكرورة!

«حقاً؟» ... يبدو أنه لم يلاحظ ... ثمة أسى في صوته... «لطيف أن أسمع هذا». يصمت قليلاً فأسمع صوت تنفّسه، سريعاً، ضحلاً، عند النهاية الأخرى من الخط. يقول: «جرى بيننا... جرت بيننا مشاجرة مخيفة... ليلة اختفائها. تؤلمني فكرة أنها كانت غاضبة مني عندما...». يتوقف عن الكلام.

أقول له: «أنا واثقة من أن غضبها منك لم يستمر طويلاً. الأزواج يتشاجرون. الأزواج يتشاجرون طيلة الوقت».

«لكن ذلك الشجار كان سيئاً، كان مخيفاً، ولا أستطيع... أحس أنني لا أستطيع إخبار أحد، لأنهم سينظرون إليَّ كأنني مذنب إن أخبرتهم».

هنالك نبرة جديدة في صوته الآن: مسكون بالهواجس، مشبع بالذنب.

يقول: «لا أذكر كيف بدأ الأمر». لكني لا أصدقه، على الفور... ثم أعضّ على لساني عندما أتذكر كل المشاجرات التي نسيتها... «كانت مشاجرة حامية. كنت شديدًا... لم أكن لطيفاً. كنت ملعوناً تماماً. وكانت منزعجة. حزينة. صعدتْ إلى الأعلى فوضعت بعض الأشياء في حقيبة. لا أعرف ما وضعته فيها على وجه التحديد، لكني لاحظت بعد ذلك أن فرشاة أسنانها غير موجودة. عرفت بعد ذلك أنها لم تكن تعتزم العودة إلى البيت تلك الليلة. افترضت... ظننت أنها لا بد ستمضي ليلتها عند تارا. حدث هذا مرة من قبل. مرة واحدة فقط. لم تكن هذه الأشياء تحدث طيلة الوقت.

تابع يقول: «بل إنني حتى لم أذهب وراءها». فاجأني، مجدداً، أنه لم يكن يتحدث معي حقاً... إنه يعترف. إنه جالس إلى أحد جانبَيْ نافذة الاعتراف، وأنا على النافذة الأخرى، عديمة الوجه، غير مرئية... «لقد تركتها تذهب».

«هل حدث هذا ليلة السبت؟».

«نعم! كانت تلك آخر مرة أراها».

كان هناك شاهد رآها ـ أو رأى امرأة تطابق أوصافها ـ رآها ماشية صوب محطة ويتني قرابة السابعة والربع. أعرف هذا من تقارير الصحف. كانت تلك آخر مشاهدة لها. لم يتذكر أحد رؤيتها على رصيف المحطة، أو في القطار نفسه. ليس في محطة ويتني كاميرات مراقبة تلفزيونية. ولم تلتقط صورتها كاميرات المراقبة في كورلي. لكن التقارير الصحفية قالت إن هذا لا يُثبِت أنها لم تكن هناك، لأن في تلك المحطة «نقاطاً عمياء كثيرة لا ترصدها الكاميرات».

أسأله: «متى حاولت الاتصال بها؟»... صمت طويل آخر.

«أنا... لقد ذهبت إلى الحانة. إلى حانة ذا روز، هل تعرفينها، عند الزاوية، على شارع كينغلي رود؟ كنت في حاجة إلى تهدئة نفسي... حتى أستطيع التفكير بشكل صحيح. شربت كأسين. ثم عدت إلى البيت. عدت قبل العاشرة تماماً. أظن أنني أملت في أن تكون قد حظيت ببعض الوقت حتى تهدأ، ثم عادت إلى البيت. لكنها لم تكن هناك».

«إذن، كانت الساعة نحو العاشرة عندما حاولت الاتصال بها؟».

«لا!»... صار صوته يشبه الهمس الآن... «لم أتصل. شربت أيضاً زجاجتين من البيرة في البيت. وشاهدت التلفزيون بعض الوقت. ثم ذهبت إلى فراشي».

أفكّر في تلك المشاجرات مع توم؛ في كل تلك الأشياء الفظيعة التي كنت أقولها بعد أن يفيض بي الكيل، وفي ذلك الغضب في الشارع. كيف كنت أصرخ عليه، وأقول له إنني لا أريد أن أراه بعد ذلك. كان يتصل بي دائماً؛ وكان يحدِّثني حتى أهدأ، ويتملّقني حتى أعود إلى البيت.

«ظننت أنها ستكون جالسة في مطبخ تارا... تعرفين هذا... تحدثها عن مساوئي. وهكذا، تركت الأمر».

لقد ترك الأمر. يبدو هذا قسوة قلب، قلة اهتمام... لا يفاجئني أنه لم يخبر أحداً بهذه القصة. بل يفاجئني أنه يقولها الآن. ليس هذا سكوت الذي تخيلته، سكوت الذي عرفته، الرجل الذي كان يقف خلف ميغان على الشرفة واضعاً كفيه الكبيرتين على كتفيها النحيلين، مستعداً لحمايتها من أي شيء.

إنني على وشك إغلاق الهاتف، لكن سكوت يتابع الكلام: «نهضت من نومي باكراً. لم أجد أي رسائل على هاتفي. لم يُخِفْني هذا ـ افترضت أنها مع تارا وأنها لا تزال غاضبة مني. اتصلت بها عند ذلك، فلم تجبني... انتقل الهاتف إلى البريد الصوتي. لكني لم أشعر بخوف، حتى ذلك الوقت. قلت في نفسي إنها لا تزال نائمة، ربما، أو لعلها تتجاهل اتصالي فقط. لم أستطع العثور على رقم تارا. لكن عنوانها كان عندي ـ كان موجوداً على بطاقتها، على مكتب ميغان. وهكذا، ذهبت... قدتُ سيارتي إلى ذلك المكان».

أسأل نفسي... إن لم يكن قلقاً، فما الذي جعله يذهب إلى بيت تارا. لكنني لا أقاطعه. أتركه يتحدث.

«وصلت إلى شقة تارا بعد التاسعة بوقت قصير. تأخرت قبل أن تفتح الباب. وعندما فتحته، بدت عليها دهشة حقيقية لرؤيتي. كان واضحاً أنها لم تكن تتوقع أبداً ظهوري عند بابها في هذا الوقت من الصباح. عند

ذلك عرفت... عند ذلك أدركت أن ميغان لم تكن عندها. بدأت أفكر... بدأت...». تعثرت كلماته، وشعرت بالتعاسة لأنني شككت فيه.

«قالت لي إنها رأت ميغان آخر مرة ليلة الجمعة، في درس التمرينات الرياضية. عند ذلك بدأ خوفي».

وعندما أغلقت الهاتف، رحت أفكر لو أنني لم أعرفه... لو أنني لم أره كيف يكون معها، مثلما فعلت... لبدا كثير مما قاله غير صحيح.

الاثنين، 22 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

أشعر بتشوّش تام. نمت نوماً عميقاً، لكن أحلامي كانت كثيرة. وهذا الصباح، أحاول جاهدة أن أصحو جيداً. عاد الطقس الحار من جديد. عربة القطار خانقة اليوم رغم أن الركاب لا يشغلون إلا نصفها. تأخر استيقاظي هذا الصباح. ولم يتسنَ لي الوقت الكافي لألتقط جريدة أو لأتفقد الأخبار على الإنترنت قبل مغادرة البيت. وهذا ما جعلني أحاول قراءة ما حمله موقع بي بي سي على هاتفي المحمول. لكن الصفحة تستغرق زمناً طويلاً حتى تفتح... لسبب ما. وفي محطة نورثكورت، دخل العربة رجل معه آي باد وجلس إلى جانبي. لم تصادفه أي صعوبة في تصفّح الإنترنت والوصول إلى الأخبار. ذهب مباشرة إلى موقع صحيفة ديلي تليغراف. وهناك وردت القصة الثالثة تحمل عنواناً بأحرف ضخمة: اعتقال رجل على صلة باختفاء ميغان هيبويل.

أصابني ذعر جعلني أنسى نفسي وأنحني مباشرة صوب الجهاز حتى أرى ما هو مكتوب بشكل أفضل. نظر الرجل إليّ، شاعراً بالاستياء، مجفلاً تقريباً.

قلت له: «إنني آسفة. أنا أعرفها... تلك المرأة المختفية. إنني أعرفها».

قال: «أوه! كم هذا فظيع!». إنه رجل في منتصف العمر، حَسَن الكلام، حَسَن الملبس... «هل تريدين قراءة القصة؟».

«نعم، من فضلك. لا أستطيع الوصول إلى أي شيء في الانترنت على هاتفي».

ابتسم ابتسامة لطيفة ثم أعطاني الجهاز. لمست العنوان فظهرت القصة أمامي.

اعتقل رجل في الثلاثينات، على علاقة بقضية اختفاء ميغان هيبويل البالغة تسعة وعشرين عاماً وتقطن في منطقة ويتني والمفقودة منذ يوم السبت، 13 تموز/ يوليو. لم تؤكد الشرطة إن كان الرجل المعتقل زوج ميغان هيبويل، سكوت هيبويل، الذي خضع لاستجواب مشدَّد يوم الجمعة. وفي تصريح له هذا الصباح، قال ناطق باسم الشرطة: «نستطيع تأكيد أننا اعتقلنا رجلاً في ما يتصل باختفاء ميغان. لم يوجَّه له أي اتهام بعد. إن البحث عن ميغان متواصل. ونحن نفتش عن عنوان نظن أنه يمكن أن يكون مسرح جريمة».

إننا نمر بالبيت الآن؛ لكن القطار لم يتوقف عند الإشارة هذه المرة. التفتّ صوب البيت، لكنني تأخرت. لقد مضى. ترتجف يداي بينما أعيد الجهاز إلى صاحبه. يهز رأسه بحزن قائلاً: «إنني آسف جداً».

قلت له: «إنها ليست ميتة». صوتي مثل نعيب غراب... بل إنني لا أصدق نفسي أيضاً. الدموع تلسع عينَيَّ من الداخل. لقد كنت في هذا البيت. لقد كنت هناك. جلست قبالته إلى طاولة المطبخ. نظرت في عينيه. وأحسست شيئاً. أفكر في تلك اليدين الكبيرتين... أفكر في أنه، إذا كان قادراً على سحقي، فهو قادر على سحقها أيضاً ـ ميغان الهشة، صغيرة الجسم.

تزعق مكابح القطار عند اقترابنا من محطة ويتني فأنهض على قدمَيَّ، قفزاً.

أقول للرجل الجالس إلى جانبي: «عليَّ الذهاب»، فيبدو عليه شيء من الدهشة، لكنه يومئ برأسه إيماءة متعقلة.

يقول لي: «حظاً طيباً».

أجْري على رصيف المحطة، ثم أهبط الدرجات. إنني ماضية عكس اتجاه حركة معظم الناس. وعندما أكاد أصل أسفل السلم أتعثّر فيقول رجل لي: «انتبهي!» ... لكني لا ألتفتُ إليه لأني أنظر إلى حافة الدرجة الإسمنتية، الدرجة قبل الأخيرة. أرى بقعة دم عليها. أسأل نفسي... كم من الوقت مَرَّ عليها هنا. هل يمكن أن يكون عمرها أسبوعاً؟ هل يمكن أن يكون هذا الدم دمي؟ هل يمكن أن يكون دمها؟ هل يمكن أن يكون دمها في البيت... أسأل نفسي إن كان هذا هو سبب اعتقاله! أحاول استعادة صورة المطبخ، وغرفة المعيشة. الرائحة: نظافة تامة، رائحة مادة مطهّرة. هل كانت مادة الكلور مثلًا؟ لست أدري... لا أستطيع التذكر الآن. كل ما أستطيع تذكره تذكراً واضحاً هو العَرَق على ظهره ورائحة البيرة في أنفاسه.

أجري متجاوزة النفق فأصل مترنّحة إلى زاوية شارع بلنهايم رود. أحبس أنفاسي عندما أمضي مسرعة على امتداد الرصيف، خافضة رأسي، خائفة من النظر. وعندما أنظر، لا أرى شيئاً.

لا أجد سيارة مقفلة أمام باب سكوت، ولا سيارات شرطة. أيمكن أن يكونوا قد انتهوا من تفتيش البيت؟ إن كانوا قد وجدوا شيئاً، فسوف يظلون هناك... بالتأكيد. لا بد أن الأمر يستغرق ساعات... حتى يفتشوا كل شيء... حتى يجمعوا الأدلة. تتسارع خطواتي. وعندما أبلغ بيته أقف ثم أستنشق نفساً عميقاً. الستائر مسدلة، في الأعلى وفي الأسفل. تهتز ستائر نافذة الجيران. هناك من يراقبني. أخطو صوب مدخل البيت، ثم

ترتفع يدي. لا يجوز أن أكون هنا. لا أعرف ما أفعله هنا. أردت أن أرى فحسب، أردت أن أعرف. أتردد لحظة بين مخالفة غرائزي كلها وقرع الباب، وبين الاستدارة والذهاب. أستدير لأغادر. وعند تلك اللحظة، ينفتح الباب.

قبل أن أتحرك، تمتد يده سريعاً، فتقبض على ساعدي وتجذبني نحوه. فمه مشدود غاضب، وعيناه مجنونتان. إنه يائس. يملأني الذعر والأدرينالين، وأرى الظلمة قادمة. أفتح فمي لأصرخ، لكنني تأخرت كثيراً. يدفعني داخل البيت، ثم يغلق الباب خلفي.

ميغان

الخميس، 21 آذار/ مارس 2013

في الصباح

لست ممن يخسرون! يجب أن يعرف هذا الأمر عني. أنا لا أخسر لعبة من هذا النوع.

شاشة هاتفي المحمول فارغة. فارغة... معانِدة، وقحة. لا رسائل نصية، ولا مكالمات. كلما نظرت إلى تلك الشاشة، أشعر أنني أتلقى صفعة على وجهي، فأزداد غضباً على غضب. ماذا أصابني في غرفة الفندق تلك؟ بم كنت أفكر؟ هل ظننت أن صلة قامت بيننا، أن شيئاً حقيقياً حدث بيننا؟ لم يكن يعتزم الذهاب معي إلى أي مكان. لكنني صدقته ثانية واحدة ـ بل أكثر من ثانية ـ وهذا ما يزعجني حقاً. كنت سخيفة، سريعة التصديق. كان يسخر مني، طيلة الوقت.

إن كان يعتقد أنني سوف أجلس باكية عليه، فسوف يرى شيئاً آخر. أستطيع العيش من دونه. أستطيع أن أكون على أحسن ما يرام من دونه ـ لكنني لا أحب أن أخسر. هذه ليست طبيعتي. لا شيء من هذا يشبه طبيعتي. لا يستطيع أحد أن يرفضني. أنا من يقرّر الذهاب، أنا من يذهب.

إنني أقود نفسي صوب الجنون، ولا أستطيع عدم فعل ذلك. لا أستطيع التوقف عن العودة إلى ذلك اللقاء بعد الظهر في الفندق واستعادة ما قاله، مرة بعد مرة... استعادة الشعور الذي جعلني أحسه.

ابن حرام!

إن كان يظن أنني سأختفي... سأذهب هكذا، سأذهب بهدوء... فهو مخطئ. إذا لم يرد على اتصالي سريعاً، فسوف أكف عن الاتصال بهاتفه المحمول، وسأتصل به في البيت. لن أقبل أن يتجاهلني.

على الإفطار، طلب مني سكوت أن ألغي جلسة المعالجة النفسية ليوم الغد. لم أقل شيئاً. تظاهرت بأنني لم أسمعه.

يقول لي: «دعانا ديف إلى العشاء. لم نذهب إليهم منذ زمن بعيد. هل تستطيعين ترتيب وقت آخر لجلسة المعالجة النفسية؟».

نبرة صوته خفيفة، رقيقة... كما لو أنه يطلب طَلَباً عارضاً. لكنني أستطيع الإحساس به يراقبني، عيناه على وجهي. إننا واقفان على حافة مشاجرة... عليَّ أن أكون حذرة.

أقول له: «لا أستطيع يا سكوت! الوقت متأخّر على هذا. لماذا لا تطلب من ديف وكارين أن يأتيا إلينا ليلة السبت بدلاً من ذلك؟»... إن فكرة تسلية ديف وكارين في عطلة نهاية الأسبوع ترهقني، لكن يجب أن أقدم تنازلاً.

يقول لي: «لا، ليس الوقت متأخراً». يقولها وهو يضع فنجان قهوته على الطاولة، أمامي. يضع كفَّيْه على كتفيَّ لحظة واحدة ويقول: «ألغِ ذلك الموعد، هل اتفقنا؟» ثم يسير خارجاً من الغرفة.

وعندما أسمعه يغلق باب البيت... في اللحظة نفسها، ألتقط فنجان القهوة وأقذف به صوب الجدار.

في المساء

كنت أستطيع أن أقول لنفسي إن الأمر ليس رفضاً في الحقيقة. كنت قادرة على إقناع نفسي بأنه يحاول أن يفعل الشيء الصحيح، فحسب... الشيء الصحيح أخلاقياً ومهنياً. لكني أعرف أن هذا غير صحيح.

أو... على الأقل... ليس هو الحقيقة كلها لأن المرء، إذا أراد شخصاً ما بقوة... فلا علاقة للأخلاق بذلك (ولا للاعتبارات المهنية بالتأكيد)؛ سوف يفعل أي شيء ليحصل عليه. إنه لا يريدني بالقوة الكافية.

تجاهلت اتصالات سكوت طيلة بعد الظهر؛ وذهبت إلى جلستي متأخّرة عن الموعد. دخلت مكتبه مباشرة من غير قول أي كلمة لموظفة الاستقبال. كان جالساً خلف مكتبه... يكتب شيئاً. التفت صوبي لحظة دخولي، لم يبتسم... ثم عاد ينظر في أوراقه. وقفت أمام مكتبه منتظرة أن يرفع رأسه وينظر إليّ. أحسست أن دهراً قد انقضى قبل أن يفعل ذلك.

سألني أخيراً: «هل أنت بخير؟» ... ابتسم لي عند ذلك: «أنت متأخرة عن موعدك».

انحبست أنفاسي في حلقي، ولم أستطع الكلام. مضيت حول مكتبه ثم وقفت متكئة عليه. لامست ساقي فخذه. انسحب إلى الخلف قليلاً.

قال لي: «ميغان! هل أنت بخير؟» هززت رأسي. مددتُ يدي له، فمد يده وأمسكها.

«ميغان»... قالها من جديد وهو يهز رأسه.

لم أقل شيئاً.

قال: «لا يمكنكِ... عليك أن تجلسي. دعينا نتحدث».

هززت رأسي.

«ميغان».

كلما نطق اسمي من جديد، كلما ازداد الأمر سوءاً.

نهض واقفاً ودار حول المكتب، مبتعداً عني. وقف في وسط الغرفة.

قال بنبرة مهنية ـ نبرة جافة، مسطَّحة: «هيا... اجلسي».

مضيت خلفه حتى وسط الغرفة. وضعت يدي على وسطه، ووضعت الأخرى على صدره. أمسك بمعصمي وابتعد قليلاً عني.

«لا تفعلي هذا يا ميغان. لا تستطيعين أن تفعلي هـذا... لا نستطيع...». ثم استدار مبتعداً.

قلت بصعوبة: «كمال، أرجوك». كرهت صوت كلماتي.

«هذا الأمر... هنا! لا يجوز... ليس هذا مناسباً. هذا... صدّقيني، لكن...».

أخبرته لحظتها بأنني أريد أن أكون معه.

قال لي: «هذه حالة تحوّل، انتقال، يا ميغان. إنها تحدث من وقت لآخر. إنها تصيبني أنا أيضاً. كان عليَّ حقاً أن أخبرك عن هذا الأمر في المرة الأخيرة. إنني آسف».

حينها، وددت أن أصرخ. إنه يجعل الأمر يبدو مبتذَلاً كثيراً، من غير روح... يجعله عادياً.

سألته: «هل تريد القول لي إنك لا تحسّ شيئاً؟ أتقول لي إنني أتخيل هذا كله؟»

هز رأسه: «عليك أن تفهمي يا ميغان. ما كان يجوز لي أن أترك الأمور تصل إلى هذا الحد».

تحركتُ مقتربةً منه. وضعت يدي على وركيه ثم جعلته يستدير صوبي. أمسكَ بمعصمي من جديد. أطبقت أصابعه الطويلة على معصمي. قال: «من الممكن أن أخسر عملي». وعند ذلك، فقدت أعصابي حقاً.

ابتعدت عنه... بغضب، بعنف. حاول أن يمسكني، لكنه لم يستطع. كنت أصرخ عليه، أقول له إنني لا أعبأ أبداً بعمله. كان يحاول تهدئتي - قلقاً، هكذا افترضت... قلقاً مما يمكن أن تظنّه موظفة الاستقبال، ومما

يمكن أن يظنّه بقية المرضى. أمسك بكتفي. انغرس إبهاماه في أعلى ذراعيّ. طلب مني أن أهدأ، وأن أكف عن التصرف كالأطفال. هزّني... هزاً عنيفاً... ظننت للحظة أنه سوف يصفعني على وجهي.

قبّلته على فمه؛ عضضتُ على شفته السفلى بأشد ما استطعت. أحسست بطعم دمه في فمي. دفعني بعيداً عنه.

في طريق عودتي إلى البيت كنت أخطط للانتقام. كنت أفكر بكل الأشياء التي يمكن أن أفعلها به. أستطيع جعلهم يطرِدونه من عمله، أو أسوأ من ذلك. لكني لن أفعل هذا لأنه يعجبني كثيراً. لا أريد إيقاع الأذى به. بل إنني لست شديدة الانزعاج من رفضه بعد الآن. ما يزعجني أكثر من أي أمر آخر هو أنني لم أصل إلى نهاية قصتي. وأنا لا أستطيع البدء من جديد مع شخص آخر... الأمر صعب كثيراً.

لا أريد الذهاب إلى البيت الآن لأنني لا أعرف كيف سأفسّر الكدمات على ذراعي.

ريتشل

الاثنين، 22 تموز/ يوليو 2013

في المساء

... إنني أنتظر الآن.

يعذِّبني... يعذبني عدم معرفتي، يعذبني بطء كل شيء يجب أن يتحرك. لكن، لا شيء أستطيع فعله أكثر مما فعلت.

كنت على حق هذا الصباح عندما أحسست بذلك الذعر. لكني، فقط، لم أعرف من أي شيء يجب أن أخاف.

ليس من سكوت! لا بد أنه رأى الذعر في عينيّ عندما جذبني داخل البيت. لأنه تركني على الفور تقريباً. كان مجنون العينين أشعث الشعر؛ بدا كأنه آثر الانسحاب من الضوء... أغلق الباب من خلفنا. «ماذا تفعلين هنا؟ هنالك مصورون وصحافيون في كل مكان. لا أستطيع أن أترك الناس يأتون إلى بابي... يتجولون هنا. سوف يقولون أشياء... سوف يحاولون ـ سوف يحاولون أي شيء، للحصول على صورة، للحصول على...»

قلت له: «لا أحد في الخارج»؛ لكني يجب أن أكون صادقة... لم أنظر حقاً. لعلّه يوجد أشخاص جالسون في سيارات، منتظرين حدوث شيء.

سألني من جديد: «ماذا تفعلين هنا؟».

«سمعت... كان ذلك في الأخبار. أردت فقط أن... هل هو ذلك الرجل؟ هل اعتقلوه؟».

أومأ برأسه: «نعم! في وقت مبكر من هذا اليوم. كانت محققة الشرطة هنا. جاءت لتخبرني. لكنها لم تستطع... لا يريدون أن يكشفوا لي عن السبب. لا بد أنهم وجدوا شيئاً؛ لكنهم لا يريدون أن يقولوا لي ما هو. لكنهم لم يجدوها هي، رغم ذلك. أعرف أنهم لم يعثروا عليها».

يجلس على درجات السلم لافّاً ذراعيه حول جسده. جسده يرتجف كله.

«لا أستطيع احتمال هذا. لا أستطيع احتمال انتظار رنين جرس الهاتف. عندما يرن الهاتف... ماذا سيكون الخبر؟ هل سيكون أسوأ خبر على الإطلاق؟ هل سيكون أن...» تتوقف كلماته، ثم يرفع رأسه وينظر إليّ كأنما يراني أول مرة: «لماذا جئت؟».

«أردت... ظننت أنك لن تكون راغباً في البقاء وحدك».

نظر إلّي كما لو أنني مجنونة، ثم قال: «لست وحدي».

نهض وسار من جانبي إلى غرفة المعيشة. بقيت واقفة هناك، لحظة. لم أعرف إن كان عليَّ أن أتبعه أو أن أذهب. لكنه صاح عند ذلك: «هل تريدين قهوة؟».

كانت هناك امرأة في الخارج، على المرج، تدخّن. كانت طويلة لها شعر خطّه الشيب. وكانت تبدو أنيقة في بنطلون أسود وقميص أبيض أغلقت أزراره حتى رقبتها. كانت تسير عند المدخل جيئة وذهاباً، لكنها توقفت عندما لمحتني. ألقت سيجارتها على الأرض المبلّطة وسحقتها بقدمها.

سألتني متشككة عندما وصلت إلى المطبخ: «هل أنت من الشرطة؟».

«لا. إنني...».

قال سكوت: «هذه ريتشل واتسون. المرأة التي اتصلت بي لتخبرني عن أبديك».

أومأت برأسها بحركة بطيئة كما لو أن تفسير سكوت لم يساعدها في فهم شيء. راحت تنظر إليّ، وراحت عيناها تنتقلان سريعاً من رأسي إلى قدمي، ثم صعوداً من جديد... «أوه!».

«إنني، فقط، آآآ...» لم يكن لديَّ سبب يبرر وجودي هناك. لم أكن أستطيع القول... أليس كذلك؟ ... لم أستطع القول إنني أردت أن أعرف فقط. أردت أن أرى!

«لا بأس! إن سكوت شديد الامتنان لك لأنك أخبرته بذلك. من الواضح أننا الآن ننتظر لنعرف ماذا يحدث على وجه التحديد». تقدّمت مني ثم أمسكتني من مرفقي وأدارتني بلطف صوب الباب. ألقيت نظرة صوب سكوت. لكنه ما كان ينظر نحوي. كانت عيناه مثبتتان في مكان ما خارج النافذة، إلى الناحية الأخرى من خط القطار.

«شكراً على مرورك يا آنسة واتسون. حقاً، إننا ممتنّون لك كثيراً».

وجدت نفسي على درجات المدخل. أغلق باب البيت بإحكام من خلفي. وعندما رفعت رأسي رأيتهم: توم دافعاً عربة الطفلة، وآنّا سائرة إلى جانبه. تجمّدا في مكانهما عندما شاهداني. رفعت آنّا يدها إلى فمها ثم انحنت سريعاً فأخذت طفلتها من العربة. اللبؤة تحمي صغيرتها! وددت أن أضحك عليها... أن أقول لها إنني لست هنا من أجلها... لم أكن في أي لحظة أقل اهتماماً بطفلتها مني الآن.

إنني مطرودة! لقد أوضحت والدة سكوت ذلك بكل جلاء. إنني مطرودة... وإنني محبَطة أيضاً. لكن هذا لا يجوز أن يكون أمراً مهماً لأنهم اعتقلوا كمال أبديك. لقد أمسكوا به، وقد ساعدتهم في هذا. لقد فعلت شيئاً صحيحاً. لقد أمسكوا به. ولن يطول الأمر الآن قبل أن يعثروا على ميغان ويعيدوها إلى بيتها.

آنّا

الاثنين، 22 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

أيقظني توم باكراً. أيقظني بقبلة وابتسامة عريضة. يبدأ عمله متأخراً بعض الشيء هذا الصباح. ولذلك اقترح أن نأخذ إيفي إلى الخارج، عند زاوية الشارع، لتناول الإفطار. إنه مكان اعتدنا اللقاء فيه عندما بدأت علاقتنا. كنا نجلس عند الواجهة ـ كانت هي في عملها في لندن؛ ولم يكن هنالك خطر من أن تمرّ بنا وتلاحظنا. لكني كنت أشعر بتلك الإثارة... فحتى إذا... ماذا لو... لعلها تعود إلى البيت باكراً ذات يوم، لسبب من الأسباب: من الممكن أن تشعر بأنها ليست على ما يرام، أو يمكن أن تكون قد نسيت أوراقاً مهمة في البيت. كنت أحلم بهذا. كنت أريدها أن تأتي وتمرّ بنا، هناك، ذات يوم، حتى تراني معه، حتى تعرف في لحظة واحدة أنه لم يعد لها هي. من الصعب الآن تصديق أنني كنت أريد ظهورها في يوم من الأيام.

منذ اختفاء ميغان، صرت أتجنّب المشي في ذلك الاتجاه... كلما استطعت ـ إن المرور بذلك البيت يجعلني أشعر بالقشعريرة ـ لكن، لا طريق غيره للوصول إلى المقهى. يمشي توم متقدّماً عنّي قليلاً، دافعاً العربة أمامه. إنه يغنّي شيئاً لإيفي، ويجعلها تضحك. ما أجمل أن نكون في الخارج، هكذا، نحن الثلاثة. أستطيع رؤية كيف ينظر الناس إلينا...

أستطيع سماعهم يقولون في أنفسهم: يا لهذه الأسرة الجميلة! وهذا ما يجعلني أشعر بالفخر... أشعر بالفخر أكثر مما شعرت به تجاه أي شيء آخر في حياتي كلها.

إذًا، كنت أسير في غلالة سعادتي تلك. كدنا نصل إلى الرقم 15 عندما انفتح الباب. ظننت لحظة أنني أهلوس... لأنني رأيتها خارجة من ذلك الباب. إنها ريتشل. تخرج من باب البيت ثم تقف هناك لحظة... ترانا... فتتجمد واقفة في مكانها. هذا مخيف! تبتسم في اتجاهنا ابتسامة شديدة الغرابة... تكاد تكون تكشيرة، فلا أستطيع تمالك نفسي... أنحني فأختطف إيفي من عربتها... أجفلت إيفي، ذُعرت، وراحت تصرخ.

تسير ريتشل مسرعة، مبتعدة عنا، ماضية صوب المحطة.

يناديها توم: «ريتشل! ماذا تفعلين هنا يا ريتشل؟»... لكنها تتابع سيرها، أسرع، ثم أسرع، إلى أن تصبح خطواتها أشبه بالجري. نقف نحن الاثنان في مكاننا، هناك، ثم يستدير توم نحوي ويرى ذلك التعبير على وجهي فيقول: «هيا بنا! فلنعد إلى البيت».

في المساء

عندما عدنا إلى البيت علمنا أنهم اعتقلوا شخصاً على صلة باختفاء ميغان هيبويل. شخص لم أسمع باسمه من قبل؛ معالج نفسي كانت تذهب إليه. أظن أن هذا جعلني أشعر بالراحة لأنني كنت أتخيل أشياء كثيرة فظيعة.

قال توم: «قلت لكِ إنه لن يكون شخصاً غريباً. لا يكون الفاعل شخصاً غريباً أبداً، أليس كذلك؟ على أيّ حال، نحن لا نعرف ما حدث أصلاً. لعلها بخير. أغلب الظن أنها هربت مع شخص ما».

«فلماذا اعتقلوا ذلك الرجل إذن؟».

يرفع توم كتفيه. كان شارد الذهن، يشدّ سترته، يعدّل من وضْع ربطة عنقه، يستعد للذهاب حتى يقابل آخر عملائه في ذلك اليوم.

سألته: «ماذا ستفعل؟»

«أفعل... ماذا تعنين؟»... نظر إليّ نظرة فارغة، غير مدرك معنى سؤالي.

«ماذا ستفعل بخصوصها؛ ريتشل. لماذا كانت هنا؟ لماذا كانت في بيت هيبويل؟ هل تظن... هل تظن أنها كانت تحاول الوصول إلى حديقتنا ـ أنت تعرف... يمكن الوصول عبر حدائق الجيران».

ضحك توم ضحكة كئيبة: «أشكّ في هذا. هيا الآن، إنها ريتشل! نحن نتحدث عن ريتشل. لن تكون قادرة على القفز بمؤخرتها السمينة فوق هذه الأسيجة كلها. لا فكرة عندي عمّا كانت تفعله هناك. لعلها ثملة... لعلها أخطأت الباب!».

«بكلمات أخرى، أنت تقصد القول إنها كانت تريد أن تأتي إلى بيتنا».

هزّ رأسه: «لست أدري. انظري، لا تتركي هذا الأمر يقلقك... اتفقنا؟ اقفلي الأبواب! سوف أتصل بها لأعرف ما كانت تفعله هنا».

«أظن أن علينا أن نتصل بالشرطة».

«وماذا نقول لهم؟ لم تفعل لنا شيئاً في واقع الأمر...».

قلت له: «لم تفعل شيئاً في الآونة الأخيرة ـ إلا إذا أخذت في اعتبارك حقيقة أنها كانت هنا ليلة اختفاء ميغان هيبويل. كان علينا أن نخبر الشرطة بذلك منذ زمن».

«هيا الآن يا آنّا»... ترك كفيه تنزلقان حول وسطي... «لا أظن أبداً أن ريتشل يمكن أن تكون لها أي صلة باختفاء ميغان هيبويل. لكني سوف أتصل بها... اتفقنا؟».

«لكنك قلت لي بعد المرة الأخيرة...».

قال بلطف: «أعرف هذا. أعرف ما قلت لك». قبَّلني، ثم دس يديه تحت خصر بنطلوني... «دعينا لا نجعل الشرطة تتدخل في الأمر إلا عندما نكون في حاجة إلى ذلك فعلاً».

أظن أننا في حاجة إلى ذلك! لا أستطيع الكف عن التفكير في تلك الابتسامة التي قذفتنا بها... تلك التكشيرة. كانت كأنها ابتسامة انتصار. علينا أن نبتعد عنها! يجب أن نبتعد عنها.

ريتشل

الثلاثاء، 23 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

استغرق الأمر وقتاً قبل أن أدرك طبيعة مشاعري عندما استيقظت. موجة من الارتياح يخالطها شيء آخر: خوف لا اسم له. أعرف أننا اقتربنا من اكتشاف الحقيقة. لكنني لا أستطيع منع نفسي من الإحساس بأن تلك الحقيقة ستكون مفزعة.

أجلس في السرير، ثم أتناول حاسوبي المحمول وأشغّله وأنتظر إقلاعه... أنتظر، لكن من غير صبر، ثم أدخل إلى الإنترنت. تبدو العملية كلها طويلة، من غير نهاية. أستطيع سماع كاثي تتحرك في أرجاء البيت... تغسل الأطباق التي استخدمتها في إفطارها، وتجري صاعدة إلى الأعلى حتى تنظف أسنانها. تحوم بضع لحظات عند بابي. أتخيل أصابعها مرفوعة، مستعدة لطرق الباب. لكنها تعدل عن الأمر وتنزل السلم مُسرعة.

تظهر صفحة الأخبار في موقع بي بي سي. تتحدث العناوين عن تخفيضات في الأجور. وثمة قصة أخرى عن نجم تلفزيوني من السبعينات متَّهَم بارتكاب مضايقات جنسية. لا شيء عن ميغان؛ ولا شيء عن كمال. إنني محبَطة. أعرف أن لدى الشرطة مهلة أربع وعشرين ساعة قبل توجيه الاتهام إلى الموقوف المشتبه به. لقد تجاوزوا هذا

الزمن الآن. لكنهم يستطيعون في بعض الحالات الاستمرار في احتجاز الشخص اثنتي عشرة ساعة إضافية.

أعرف هذا كله لأنني أمضيت طوال نهار الأمس في البحث. فبعد إخراجي من بيت سكوت، عدت إلى هنا، وفتحت التلفزيون فأمضيت معظم النهار في متابعة الأخبار وقراءة المقالات في الإنترنت. أمضيت اليوم كله أنتظر.

عند الظهيرة، كشفت الشرطة عن اسم الشخص المشتبَه به. تحدثوا في الأخبار عن «اكتشاف أدلة في بيت د. أبديك وسيارته». لكنهم لم يحددوا هذه الأدلة. لعلهم وجدوا دماً! ألم يجدوا هاتفها المحمول بعد؟ ملابسها، حقيبتها، فرشاة أسنانها؟ ظلوا يعرضون صوراً لكمال، صوراً لوجهه الداكن الوسيم، ملتَقَطة من مسافة قريبة. لم تكن الصورة التي عرضوها مشوَّشة، بل صورة صريحة واضحة: إنه في عطلة في مكان ما؛ إنه لا يبتسم تماماً... بل هي شبه ابتسامة. يبدو أشد نعومة، أكثر جمالاً من أن يكون قاتلاً. لكن المظاهر يمكن أن تكون خدّاعة: يقولون إن القاتل المتسلسل تيد بوندي كان يشبه الممثل غاري غرانت.

انتظرت أخباراً جديدة طيلة النهار، أنتظر الإعلان عن الجديد: اختطاف، اعتداء، أو أسوأ من هذا! انتظرت أن أسمع شيئاً عن مكان وجودها، عن المكان الذي وضعها فيه. عرضوا صوراً لشارع بلنهايم رود، وللمحطة، ولباب بيت سكوت. وراح المعلّقون يتساءلون عن المعاني المحتملة لحقيقة أن هاتف ميغان المحمول لم يُستخدم، وأن بطاقاتها المصرفية لم تُستخدم أيضاً... منذ أكثر من أسبوع.

اتصل توم أكثر من مرة؛ لكنني لم أرد عليه. أعرف ما يريد. يريد أن يسألني عما كنت أفعله في بيت سكوت هيبويل صباح الأمس. سأتركه يتساءل. لا علاقة له بهذا. ليس كل شيء له علاقة به. أظن أنه يتصل نيابة عنها أصلاً. وأنا لست مدينة لها بأي تفسير.

انتظرت، ثم انتظرت... ولم يعلنوا عن أيّ اتهام. سمعت المزيد عن كمال، اختصاصي الصحة العقلية الذي كان يصغي إلى أسرار ميغان ومتاعبها، الذي اكتسب ثقتها ثم أساء استخدامها، الذي أغواها ثم... من عساه يعرف؟

علمت أنه مسلم من البوسنة، ناجٍ من النزاع البلقاني، جاء إلى بريطانيا صبياً لاجئاً في الخامسة عشرة من عمره. ليس العنف غريباً عليه لأنه فقد والده واثنين من أشقّائه الأكبر منه في مجزرة سريبرينيتسا. إنه يعرف العنف المنزلي. كلما سمعت المزيد عن كمال كلما عرفت أنني كنت على حق: كنت محقّة في إخبار الشرطة عنه. كنت محقة في اتصالي بسكوت.

أنهض فأرتدي ثوبي المنزلي وأهبط مسرعة إلى الطابق السفلي حتى أشاهد التلفزيون. لا أعتزم الذهاب إلى أي مكان اليوم. إذا جاءت كاثي من غير توقّع فسوف أقول لها إنني مريضة. أصنع لنفسي فنجاناً من القهوة وأجلس أمام التلفزيون. وأنتظر.

في المساء

أصابني الضجر قرابة الساعة الثالثة. ضجرت من الاستماع إليهم يتحدثون عن الأجور وعن مغتصبي الأطفال الذين اشتهروا تلفزيونيًا في السبعينات. أضجرني وأحبطني عدم وجود شيء عن ميغان، عدم سماع شيء عن كمال. وهكذا مضيت إلى متجر الكحول فاشتريت زجاجتين من النبيذ الأبيض. أكاد أنهي زجاجتي الأولى عندما يحدث ذلك. ثمة شيء جديد في الأخبار الآن... صور بكاميرا مهتزة مُلتَقَطة من مكان غير مكتمل البناء (أو لعله غير مكتمل الهدم)، وانفجارات في البعيد. سوريا، أو مصر... ربما السودان؟ كان صوت التلفزيون شديد الانخفاض، ولم أكن منتبهة حقاً إلى ما يقال. ثم رأيته: الشريط الإخباري المتحرّك أسفل

الشاشة. أخبرني بأن الحكومة تواجه تحدياً قانونياً في ما يتعلق بتقليل المساعدات القانونية، وبأن فرينااندو توريز سوف ينقطع عن عمله أربعة أسابيع بسبب شدّ أصابه في أوتار قدمه؛ وبأن المشتبَه به في قضية ميغان هيبويل قد أطلق سراحه من غير توجيه اتهام إليه.

أضع كأسي وأمسك بجهاز التحكّم فأرفع الصوت أعلى، فأعلى، فأعلى، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. يستمر التقرير الحربي، ويستمر، ويستمر... يزداد ارتفاع ضغط دمي مع استمراره... لكنه ينتهي آخر الأمر فيعودون إلى الاستوديو وتقول المذيعة:

«كمال أبديك، الرجل الذي اعتُقِل بالأمس للاشتباه بصِلته في اختفاء ميغان هيبويل، أُطلق سراحه اليوم من غير توجيه أيّ اتهام. تمّ توقيف أبديك، الذي كان المعالج النفسي للسيدة هيبويل، لكن الإفراج عنه جرى هذا الصباح لأن الشرطة تقول إنها لا تملك أدلة كافية لاتهامه».

لا أسمع ما تقوله المذيعة بعد ذلك. أجلس فقط... هناك، عيناي زائغتان، وضجيج في أذنيَّ... أفكر، *لقد أمسكوا به... ألقوا القبض عليه، ثم تركوه.*

في الطابق العلوي... في ما بعد. لدي الكثير من النبيذ لأشربه. لا أستطيع رؤية شاشة الحاسوب بشكل واضح... أرى الأشياء مزدوجة، بل أكثر من مزدوجة. أستطيع القراءة إذا وضعت يدي على إحدى عيني. يصيبني هذا بالصداع. كاثي في البيت. نادَتني فقلت لها إنني في الفراش. قلت لها إنني لست على ما يرام. تعرف أنني أشرب.

بطني مليئة بالكحول. أشعر بالغثيان. لا أستطيع التفكير بشكل واضح. ما كان ينبغي أن أبدأ الشراب في هذا الوقت المبكر. ما كان ينبغي أن أبدأ الشراب أصلاً. اتصلت برقم سكوت منذ ساعة، ثم اتصلت منذ دقائق. ما كان ينبغي أن أفعل ذلك أيضاً. لا أريد إلّا أن أعرف... أن أعرف الأكاذيب التي قالها كمال لهم. ما الأكاذيب التي كانوا أغبياء إلى

درجة تصديقها؟ لقد أفسدت الشرطة الأمر كله. هؤلاء الحمقى. إنها غلطة المحقِّقة رايلي؛ وأنا واثقة من هذا.

لم تقدم لي الصحف شيئاً. يقولون الآن إن كمال لم يسبق أن أُدين بجريمة عنف منزلي. كانت تلك غلطة. إنهم يجعلونه يبدو كأنه... ضحية.

لا أريد مزيداً من الشرب. أعرف أنه يجب أن أسكب ما بقيَ من نبيذ في المغسلة. إذا لم أسكبه في المغسلة فسوف يكون لديّ نبيذ في الصباح. وسوف أنهض وأشربه على الفور. وبعد أن أبدأ، سأكون راغبة في الاستمرار. يجب أن أسكبه في المغسلة. لكني أعرف أنني لن أفعل هذا. سيكون لديَّ شيء أتطلّع إليه عندما أستيقظ صباحاً.

ظلمة من حولي... أستطيع سماع شخص ينادي اسمها. صوت خفيض في البداية، ثم أقوى بعد ذلك. صوت حانق، يائس، يصرخ باسم ميغان. إنه سكوت ـ إنه غاضب منها. يناديها مرة بعد مرة. أظنه حلماً. أواصل محاولة التقاطه، التمسّك به، لكنه يغدو أقل وضوحاً، يغدو أبعد فأبعد كلما حاولت أكثر.

الأربعاء، 24 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

أستيقظ على طَرْقات رقيقة على الباب. المطر يضرب النوافذ. والساعة تجاوزت الثامنة، لكن الظلمة لا تزال هناك، في الخارج، كما يبدو لي. تفتح كاثي الباب بلطف ثم تنظر في الغرفة.

«ريتشل! هل أنت بخير؟». تلمح الزجاجة بالقرب من سريري فيتهدّل كتفاها... «أوه! ريتشل». تعبر الغرفة حتى السرير، ثم تأخذ الزجاجة. أشعر بحرج كبير يمنعني من قول أي شيء. تسألني كاثي:

«ألست ذاهبة إلى العمل؟ هل ذهبت إلى العمل البارحة؟» لكنها لا تنتظر إجابتي... تستدير وتذهب، فقط. تقول وهي ذاهبة: «سوف ينتهي الأمر بطردك من العمل إذا استمرّيتِ هكذا».

عليّ أن أقولها الآن لأنها غاضبة منّي على أي حال. عليَّ أن أذهب خلفها، وأخبرها: لقد طردوني منذ شهور لأنني عدت إلى العمل ثملة تماماً بعد استراحة غداء امتدت ثلاث ساعات أمضيتها مع أحد العملاء وأفلحت خلالها في أن أبدو فظة غير مهنية إلى درجة جعلته يقلع عن التعامل مع الشركة. عندما أغمض عينَيّ، أستطيع حتى الآن أن أتذكر نهاية ذلك الغداء، أن أتذكر النظرة على وجه النادلة عندما ناولتني سترتي... أذكر كيف دخلت المكتب فاستدار الجميع لينظروا إليّ. أذكر مارتن مايلز يأخذني جانباً ويقول لي: «أظن أن من الأفضل الآن أن تذهبي إلى البيت يا ريتشل».

أسمع هزيم الرعد، ثم أرى التماع البرق. أقفز واقفة. ما الذي كنت أفكر فيه ليلة أمس؟ أراجع دفتري الأسود الصغير. لكني لم أكتب شيئاً منذ ظهر الأمس: ملاحظات عن كمال ـ السن، العرق، الإدانة بجريمة عنف منزلي. أمسك بالقلم وأشطب النقطة الأخيرة.

في الأسفل، أعدّ لنفسي فنجاناً من القهوة، ثم أشغّل التلفزيون. عقدت الشرطة مؤتمراً صحافياً الليلة الماضية. إنهم يعرضون مقتطفات من ذلك المؤتمر الصحافي على قناة سكاي نيوز. أرى المحقق غاسغيل واقفاً هناك... يبدو شاحباً مرهَقاً. يبدو ذليلاً مُهاناً. لا يذكر اسم كمال، لكنه يقول فقط إنهم اعتقلوا شخصاً اشتبهوا به واستجوبوه. لكنهم أطلقوا سراحه من غير اتهام. ولا يزال البحث مستمراً. تنزاح الكاميرا بعيداً عنه، صوب سكوت الجالس منطوياً على نفسه، غير مرتاح، مرفرفاً بعينيه أمام أضواء الكاميرات. يعتصر الغَمّ وجهه. يتألم قلبي عندما أراه. إنه يتحدث ببطء، بصوت خافت، بعينين مسبَلتَين. يقول إنه لم يفقد

الأمل، وإنه يظل متشبثاً بفكرة أن ميغان سوف تعود إلى البيت بصرف النظر عمّا تقوله الشرطة.

تخرج الكلمات من فمه فارغة، تبدو زائفة... لكنني لا أستطيع تحديد السبب لأنني أستطيع النظر في عينيه. لا أعرف إن كان لا يصدّق حقاً إنها عائدة إلى البيت لأن ثقتي التي حازها ذات مرة تمزَّقت بعد أحداث الأيام القليلة الماضية... أو لعل ذلك لأنه يعرف حقاً أنها ليست عائدة إلى البيت.

عند ذلك تذكَّرت، عند ذلك فقط. تذكَّرت أنني اتصلت برقمه البارحة. هل كانت مرة، مرتين؟ أجري إلى الأعلى لأجلب هاتفي فأجده مطموراً بين أغطية السرير. لدي ثلاث مكالمات لم أجب عليها. واحدة من توم واثنتان من سكوت. لا رسائل. كانت مكالمة توم ليلة أمس؛ وكذلك كانت مكالمة سكوت الأولى، لكن بعدها... قبل منتصف الليل بقليل. أما مكالمته الثانية فقد جاءت هذا الصباح، منذ دقائق فقط.

انتعش قلبي قليلاً. هذا خبر طيب. فعلى الرغم مما فعلته أمه، على الرغم من معنى تصرفها الواضح (شكراً جزيلاً لك على مساعدتك... انقلعي الآن!) ... فإن سكوت لا يزال راغباً في الكلام معي. إنه في حاجة إليّ. ملأتني، لحظة واحدة، عاطفة جارفة تجاه كاثي... امتنان كبير لأنها رمتْ ما تبقّى من زجاجة النبيذ. يجب أن أحافظ على صفاء رأسي من أجل سكوت. إنه في حاجة إلى تفكيري الواضح الآن.

أذهب فأستحم، ثم أرتدي ملابسي، ثم أعِدّ لنفسي فنجاناً آخر من القهوة. أجلس في غرفة المعيشة وأضع دفتر ملاحظاتي الأسود الصغير إلى جانبي، ثم أتصل بسكوت.

يقول لي فور إجابته: «كان عليكِ أن تخبريني بهذا... كان عليك أن تخبريني عن حالتك». كانت نبرة صوته جامدة، باردة. صارت معدتي كرة قاسية صغيرة. إنه يعرف... «تحدثت معي المحقّقة رايلي بعد إخلاء

سبيله. لقد أنكر وجود علاقة غرامية بينهما. قالت لي رايلي إن الشاهد الذي أشار إلى وجود شيء بينهما كان شاهداً غير موثوق... شاهد مدمن على الكحول. بل لعله شاهد غير مستقِرّ عقلياً. لم تقل لي اسم الشاهد بطبيعة الحال، لكني فهمت أنها كانت تتحدث عنك».

أقول له: «لكن... لا! لا! لست كذلك... لم أكن أشرب عندما رأيتهما. كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً»... وكأن هذا يعني شيئاً... «ثم إنهم وجدوا دليلاً؛ هكذا قالت الأخبار. لقد وجدوا...».

«وجدوا دليلاً غير كافٍ».

انقطع الخط.

الجمعة، 26 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

ما عدت أسافر إلى وظيفتي الخيالية كل يوم. تخليت عن التظاهر بهذا. لا أبالي حتى بالنهوض من الفراش. أظن أن آخر مرة نظفت فيها أسناني كانت يوم الأربعاء. لا أزال أدّعي المرض رغم ثقتي التامة بأنني لا أخدع أحدًا بهذا.

لا أستطيع مواجهة النهوض من الفراش، وارتداء ملابسي، وركوب القطار، والذهاب إلى لندن، والتجول في الشوارع. هذا أمر، حتى عندما تكون الشمس مشرقة، ليس سهلًا، وهو مستحيل في هذا المطر. هذا ثالث يوم من المطر المتواصل البارد العنيف الذي لا يهدأ.

أعاني صعوبة في النوم؛ لا بسبب الشرب وحده، بل هي الكوابيس أيضاً. أرى نفسي عالقة في مكان ما. وأعرف أن هناك أحدًا قادمًا، وأن هنالك مخرجًا. بل أعرف أين المخرج، أعرف أنني رأيته من قبل، لكني لا أستطيع العثور على الطريق إليه. وعندما يمسك بي، لا أستطيع

الصراخ. أحاول أن أصرخ... أعبُّ الهواء ملء رئتيَّ ثم أدفعه خارجاً ـ لكن، ما من صوت... حشرجة فقط، مثل صوت شخص محتضر يكافح من أجل تنشّق الهواء.

أحياناً، أجد نفسي في كوابيسي في ذلك النفق، ذلك الممر تحت الأرض على شارع بلينهايم رود. طريق العودة مسدودة، ولا أستطيع التقدم لأن هنالك شيئًا، شيئًا في انتظاري. أستيقظ في رعب مطبق.

لن يعثروا عليها. كل يوم يمر، كل ساعة تمر، أصبح أكثر ثقة بذلك. سوف تكون اسماً من تلك الأسماء؛ وستكون قصتها واحدة من تلك القصص: مفقودة، ضائعة، ولم يجرِ العثور على الجثة. ولن يحصل سكوت على العدالة، ولا السَّكينة. لن تكون لديه جثة يحزن عليها. ولن يعرف أبداً ما حدث لها. لن تكون لتلك القصة نهاية، ولا حَلّ. أستلقي مستيقظة مفكرة في ذلك كله... وأتألم. لا يمكن أن يوجد عذاب أكبر، أو شيء أكثر إيلاماً، من عدم المعرفة... عدم معرفة من غير نهاية.

لقد كتبت له. اعترفت بمشكلتي، ثم كذبت من جديد فقلت إن المشكلة تحت السيطرة، وإنني ألتمس المعونة لتجاوزها. أخبرته أنني لست غير مستقرة عقلياً. لم أعرف إن كان هذا صحيحاً أو غير صحيح. أخبرته إنني واثقةً مما رأيته تمام الثقة... وأخبرته أنني لم أكن أشرب عندما رأيتها. هذا صحيح، على الأقل! لم يجبني. ولم أتوقع إجابة منه. لقد انقطعت عنه، صرت معزولة عنه. لن أستطيع أبداً أن أقول له الأشياء التي أردت قولها. لا أستطيع كتابتها أيضاً لأنها لن تبدو صادقة عند ذلك. أريده أن يعرف كم أنا آسفة لأنه لم يكن كافياً أن أشير لهم إلى كمال وأقول لهم: انظروا، هذا هو. كان يجب أن أمتلك شيئاً. كان يجب أن أفتح عيني جيداً في ليلة السبت تلك.

في المساء

إنني مبتلّة تماماً، متجمّدة من البرد. ابيضَّت أطراف أصابعي، وتجعَّدت. ينبض الألم في رأسي من آثار الشراب. بدأ هذا الألم قرابة الخامسة والنصف. هذا صحيح، تقريباً... لأنني بدأت الشرب قبل منتصف الليل. خرجت لأجلب زجاجة أخرى. لكن آلة النقود خذلتني عندما أعطتني ذلك الرد الذي كنت أتوقعه كثيراً: لا يوجد مال كافٍ في حسابك.

بعد ذلك، بدأت المشي. سرت أكثر من ساعة، من غير هدف. سرت تحت وابل المطر. كان مركز آشبري المخصص للمشاة ملكي أنا وحدي. قررت، في لحظة من اللحظات خلال ذلك المشي، أن علي أن أفعل شيئاً. علي أن أنتهي من عدم كفايتي.

إنني مرتوية الآن، شبه صاحية. وسوف أتصل بتوم. لست راغبة في معرفة ما فعلته أو قلته ليلة السبت تلك، لكن عليَّ أن أكتشف ذلك. علي أن أكتشف شيئاً. هناك سبب ما يجعلني واثقة من أن شيئاً يفوتني... شيئًا كبير الأهمية.

قد يكون هذا خداعاً للنفس، لا أكثر... قد يكون محاولة أخرى حتى أثبت لنفسي أنني لست معدومة القيمة. لكن، لعلّ الأمر حقيقي أيضاً!

يقول لي توم عندما يردّ على اتصالي: «أحاول العثور عليكِ منذ الاثنين. لقد اتصلت بمكتبك». يقول هذا ثم يصمت برهة حتى أستوعب.

أحسّ أنني محاصَرة الآن، محرَجة، مَخزية. أقول له: «أريد أن أكلمك عن ليلة السبت. عن ليلة السبت تلك».

«ماذا تقولين؟ إنني في حاجة إلى التحدّث معكِ عن يوم الاثنين يا ريتشل. ماذا كنت تفعلين في بيت سكوت هيبويل بحق الجحيم؟»

«لا أهمية لهذا يا توم...».

«بل هو مهم. ماذا كنت تفعلين هناك؟ أنت مدركة، ألست مدركة... أنه يمكن أن يكون... أقصد... إننا لا نعرف، أليس كذلك؟ لعله فعل بها شيئاً، أليس هذا ممكناً؟ لعله فعل شيئاً لزوجته».

أقول بنبرة واثقة: «لم يفعل شيئاً بزوجته. إنه ليس هو».

«وكيف تعرفين هذا؟ بربّك... ريتشل، ماذا يجري؟».

«إنني فقط... عليك أن تصدقني. ليس هذا سبب اتصالي بك. كنت في حاجة إلى التحدّث معك عن ذلك السبت وعن الرسالة التي تركتها لي. لقد كنت غاضباً أشد الغضب عند ذلك. قلت إنني أخفت آنّا».

«نعم... لقد أخفتِ آنّا. رأتك سائرة مترنحة في الشارع. وقد صرختِ في وجهها بكلمات نابية. لقد خافت كثيراً بعد الذي حدث في المرة الأخيرة... مع إيفي».

«وهل... هل فعلت آنّا شيئاً؟».

«ماذا تقصدين؟»

«هل فعلت شيئاً لي؟».

«ماذا؟»

«كان لدي جرح يا توم. جرح في رأسي. وكنت أنزف».

«هل صرت الآن تتهمين آنّا بإيذائك؟» إنه يصرخ الآن... إنه غاضب كثيراً... «بكل جدّية يا ريتشل... بكل جدّية أقول لك إن هذا قد تجاوز الحدود! لقد أقنعت آنّا ـ في أكثر من مناسبة ـ بعدم الذهاب إلى الشرطة للإبلاغ عنكِ. أما إذا أردت أن تتابعي على هذا الشكل، تضايقيننا، وتختلقين القصص...».

«لست أتهمها بأي شيء يا توم. إنني أحاول فقط أن أفهم ما جرى. إنني لا أستطيع...».

«لا تستطيعين أن تتذكري! طبعاً لا تستطيعين. ريتشل لا تستطيع أن تتذكر». أطلق زفرة حزينة... «انظري الآن! لقد شاهدتك آنّا ـ كنت ثملة؛ وكنت توجّهين الإساءات ـ جاءت إلى البيت فأخبرتني. كانت منزعجة كثيراً. وهكذا خرجت لأبحث عنك. وجدتك في الشارع. أظن أنك وقعت. وكنت في حالة بالغة السوء. كانت يدك مجروحة».

«لم تكن يدي مجروحة».

«ربما ... لكن كان هناك دم على يدك حينها. لا أعرف من أين أتاكِ هذا الدم. قلت لك إنني سآخذك إلى البيت. لكنك لم تستمعي لي. كنت فاقدة صوابك. ولم يكن لكلامك معنى. بدأت تسيرين، وذهبت أنا لأجلب السيارة. لكني لم أجدك عندما عدت. قدتُ السيارة فمررت من عند المحطة، لكني لم أستطع العثور عليك. قدت السيارة هنا وهناك بعض الوقت. كانت آنّا في غاية القلق من احتمال أن تكوني متربّصة في مكان ما؛ ومن أنك ستعودين إليها وتحاولين دخول البيت. وكنت قلقاً من أنك يمكن أن تسقطي فتؤذي نفسك... أو أن توقعي نفسك في المتاعب. قدت السيارة حتى وصلت إلى آشبري. قرعت الباب، لكنك لم تكوني في البيت. اتصلت بك بضع مرات. تركت لك رسالة أيضاً. ثم... نعم، لقد كنت غاضباً. كنت غاضباً حقاً في ذلك الوقت».

أقول له: «إنني آسفة يا توم. إنني آسفة حقاً».

يقول لي: «أعرف هذا. أنت آسفة دائماً».

«قلت لي إنني صرخت على آنّـا»... أقول له هذا متعلقة بتلك الفكرة... «ماذا قلت لها؟».

يرد بصوت نزِقٍ: «لست أدري! هل تريدين أن أذهب إليها؟ لعلك تحبين التكلم معها في هذا الأمر؟».

«توم...».

«لكن، حقاً... ما أهمية هذا الآن؟».

«هل رأيت ميغان هيبويل تلك الليلة؟».

يبدو عليه الاهتمام الآن: «لا! لماذا؟ هل رأيتها أنت؟ أنتِ لم تفعلي شيئاً، أليس كذلك؟».

«لا، بالطبع لم أفعل شيئاً». يظل صامتاً لحظة، ثم يقول: «لا بأس، لماذا تطرحين هذا السؤال الآن؟ ريتشل، إن كنت تعرفين شيئاً...».

أقول له: «لست أعرف شيئاً. لم أرَ شيئاً».

«فلماذا كنت في بيت هيبويل يوم الاثنين؟ أخبريني من فضلك ـ أخبريني حتى أستطيع أن أريح دماغ آنا. إنها قلقة».

«كان عندي شيء يجب أن أقوله له. شيء ظننت أنه يمكن أن يكون مفيداً».

«أنت لم تشاهدي زوجته، لكنك ظننت أنك تستطيعين إخباره شيئاً مفيداً».

أتردّد لحظة. لست أدري مقدار ما يجب أن أخبره إياه... لست أدري إن كان عليَّ أن أحتفظ بالأمر، من أجل سكوت. أقول له: «الأمر متعلق بميغان. لقد كانت على علاقة بشخص آخر».

«انتظري... هل كنت تعرفينها؟»

أقول له: «أعرفها قليلاً».

«كيف؟»

«من المعرض الفني».

يقول: «أوه! إذًا، من هو الرجل؟».

أقول له: «إنه معالِجها النفسي. الدكتور كمال أبديك. لقد رأيتهما معاً».

«حقاً؟ أهو ذلك الشخص الذي اعتقلوه؟ أظن أنهم أخلوا سبيله».

«نعم، لقد أخلوا سبيله. الذنب ذنبي... لأنني لست الشاهد الذي يمكن الاعتماد عليه».

يضحك توم. ضحكته ناعمة، ودّيـة... إنه لا يسخر مني الآن: «ريتشل، لا تقولي هذا! لقد فعلت الصواب عندما أخبرت الشرطة. وأنا واثق من أن الأمر غير متعلق بك أنت». أستطيع أن أسمع جلبة الطفلة من حوله. يقول توم شيئاً ما، بعيداً عن الهاتف... شيء لا أستطيع سماعه. ثم يقول لي: «يجب أن أذهب الآن». أستطيع أن أتخيَّله يضع الهاتف ثم يحمل ابنته الصغيرة ويقبّلها، ويحتضن زوجته. يتحرك ذلك الخنجر المغروس في قلبي، يدور ويدور ويدور».

الاثنين، 29 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

إنها الثامنة وسبع دقائق. وأنا في القطار. إنني عائدة إلى مكتبي الوهمي. كانت كاثي مع دامیين طيلة نهاية الأسبوع. وعندما رأيتها الليلة الماضية، لم أترك لها فرصة مهاجمتي. بدأت، على الفور، الاعتذار عِن سلوكي كله. قلت لها إنني كنت في حالة سيئة حقاً؛ لكنني أستجمع شتات نفسي الآن وأفتح صفحة جديدة. قبلت كاثي اعتذاراتي، أو تظاهرت بقبولها. ثم عانقتني أيضاً. ما أطيب قلبها!

خَلَت الأخبار من ذكر ميغان خلواً شبه تام. وردت في صحيفة صنداي تايمز مقالة تنتقد ضعف أداء الشرطة فأشارت إلى القضية إشارة وجيزة؛ وذلك عندما استشهد بها مصدر من النيابة العامة لم يشأ الكشف عن اسمه فاعتبرها «قضية من مجموعة قضايا تورّطت فيها الشرطة باعتقالات متسرعة استناداً إلى أدلة واهية أو غير سليمة».

إننا نقترب من الإشارة. أحس بتقلقل حركة القطار واهتزازه المألوف. تتباطأ حركة القطار فأرفع رأسي. يجب أن أرفع رأسي، لأنني لا أستطيع احتمال عدم رفْعه، لا أستطيع احتمال عدم النظر... لكن، ما عاد هنالك شيء أستطيع رؤيته. الأبواب مقفلة، والستائر مسدلة. لا أستطيع رؤية شيء غير المطر، ستائر من المطر، وماء موحل متجمّع في أسفل الحديقة.

جعلتني نزوة مفاجئة أترك القطار في ويتني. لم يستطع توم مساعدتي. لكن، لعل الرجل الآخر يستطيع مساعدتي... الرجل ذا الشعر الأحمر. انتظرت حتى اختفى الركاب الذين تركوا القطار في المحطة، حتى صاروا أسفل السلم جميعاً. ثم جلست على المقعد المظلل الوحيد على رصيف المحطة. قد يكون الحظ حليفي. قد أراه قادماً ليركب القطار. أستطيع اللحاق به. أستطيع أن أكلمه. إنه الأمل الوحيد الذي بقي لي... آخر رمية نرد لي. إذا لم ينجح هذا، فإن علي أن أترك الأمر كله. نعم، عليَّ أن أترك الأمر كله.

مضى نصف ساعة. تتسارع ضربات قلبي كلما سمعت خطوات تصعد السلم. وتداهمني موجة من الذعر كلما سمعت إيقاع كعبَ حذاء نسائي. يمكن أن أتورّط في مشكلة إذا رأتني آنّا هنا. لقد حذرني توم. لقد أقنعها بعدم إدخال الشرطة في الأمر، لكن... إذا واصلتُ ذلك...

التاسعة والربع الآن. لقد فقدت فرصة العثور على ذلك الرجل إلا إذا كان عمله يبدأ في ساعة متأخرة كثيراً. صار المطر أكثر شدة. وأنا لا أستطيع مواجهة نهار آخر في لندن من غير هدف. لم يبقَ معيَ مال إلا ورقة من فئة العشرة اقترضتها من كاثي. وعليَّ أن أجعلها تدوم إلى أن أفلح في استجماع شجاعتي لأطلب قرضاً من أمي. أسير فأهبط درجات السلم معتزمة سلوك الممر السفلي إلى الرصيف المقابل حتى أعود إلى آشبري. عند ذلك، ألمح سكوت مسرعاً، خارجاً من كشك الجرائد قبالة مدخل المحطة. كانت ياقة معطفه مرفوعةً حول وجهه.

أجري خلفه فألحق به عند الزاوية، قبالة الممر السفلي مباشرة. أمسك بذراعه فيستدير صوبي وقد فوجئ.

أقول له: «أرجوك! هل أستطيع التحدث إليك؟».

يزمجر قائلاً لي: «يا يسوع المسيح! ماذا تريدين مني؟» أتراجع مبتعدة عنه رافعة يديَّ إلى أعلى، وأقول: «إنني آسفة! إنني آسفة! أردت أن أعتذر منك، فقط... أردت أن أشرح...».

يصير المطر المنهمر طوفاناً. إننا وحدنا في الشارع. وكل منا مبتل بالماء حتى الجلد. يبدأ سكوت الضحك. يقذف بيديه عالياً في الهواء ثم يزمجر ضاحكاً. يقول لي: «هيا إلى البيت. سوف نغرق هنا».

يصعد سكوت إلى الأعلى ليجلب لي منشفة ريثما يغلي الماء. البيت أقل ترتيباً مما كان قبل أسبوع. حلت محل رائحة المادة المعقّمة رائحة شيء أكثر دنيوية. هنالك كومة جرائد في زاوية غرفة المعيشة. وكمية من كؤوس قذرة على طاولة القهوة وفوق الموقد. يظهر سكوت إلى جانبي مقدّماً لي منشفة: «إنها مزبلة، أعرف هذا. كادت أمي تدفعني إلى الجنون بتنظيفها وترتيبها من خلفي طيلة الوقت. حدثت مشادة صغيرة بيننا. لم تأتِ منذ عدة أيام». يبدأ رنين هاتفه فيلتف إليه ثم يضعه في جيبه قائلاً: «لقد ذكرنا الشيطان. إنها لا تتوقف أبداً».

أسير خلفه صوْب المطبخ.

أقول له: «إنني آسفة كثيراً لما حدث».

يرفع كتفيه قائلاً: «أعرف هذا. والغلطة ليست غلطتك على أي حال. أقصد أن الأمر كان يمكن أن يصبح مفيداً لو لا أنك...».

«لو لا أنني سكيرة؟».

لا أرى إلا ظهره. إنه يصبّ القهوة.

«طيب، ... نعم! لكن الحقيقة هي أنهم لم يستطيعوا الحصول على

ما يكفي لتوجيه الاتهام إليه أصلاً». يناولني فنجان القهوة ثم يجلس إلى الطاولة. ألاحظ أن واحداً من إطارات الصور على الطاولة الجانبية مقلوب على وجهه الآن. سكوت مستمر في كلامه: «لقد عثروا على أشياء ـ شعر، وخلايا من الجلد ـ في بيته. لكنه لا ينكر أنها ذهبت إلى بيته. لقد أنكر هذا في البداية، ثم أقرَّ بأنها ذهبت إلى بيته».

«ولماذا كذب؟».

«بالضبط! اعترف بأنها ذهبت إلى بيته مرتين، للحديث فقط. ثم رفض أن يخبر الشرطة شيئاً عن موضوع الحديث ـ هنالك مسألة سرية معلومات المريض. لقد وجدوا الشعر وخلايا الجلد في الطابق السفلي. لم يجدوا شيئاً في الأعلى، في غرفة النوم. وقد أقسم أنهما لم يكونا على علاقة غرامية. لكنه كاذب، لذلك...» يمرّر يده على عينيه. يبدو وجهه منكمشاً على نفسه... كتفاه متهدّلان. يبدو أصغر حجماً... «لقد وجدوا أثر دم في سيارته».

«أوه! يا إلهي».

«نعم! وهو يطابق فئة دمها. لكنهم لا يعرفون إن كانوا يستطيعون إجراء فحص «دي إن إي» لأنها عيّنة صغيرة جداً. وهم يواصلون القول إن هذا يمكن أن يكون غير ذي أهمية. كيف يمكن أن يكون هذا غير ذي أهمية؟ إنه دمها في سيارته!»... يهزّ رأسه ثم يقول: «لقد كنتِ على حق. كلما سمعت أكثر عن هذا الرجل كلما صرت متأكداً من أنكِ كنت على حق». ينظر صوبي، ينظر إلي مباشرة للمرة الأولى منذ وصولنا إلى البيت... «لقد كان يضاجعها. ثم أرادت إنهاء الأمر، وهكذا فقط... لقد فعل شيئاً. هذا هو الأمر. إنني واثق من هذا».

لقد فقد كل أمل. ولست ألومه على هذا. مضى الآن أكثر من أسبوعين لم تستخدم خلالهما هاتفها ولا بطاقتها المصرفية... لم تسحب مالاً من آلة النقود. لم يرَها أحد. لقد اختفت.

يقول سكوت: «لقد أخبر الشرطة بأنها يمكن أن تكون قد هربت».

«هل تقصد الدكتور أبديك؟».

يهز سكوت رأسه: «قال للشرطة إنها كانت تعيسة معي، وإنها يمكن أن تكون قد هربت».

«إنه يحاول إبعاد الشبهات عنه. يحاول أن يجعلهم يظنون أنك فعلت شيئاً لها».

«أعرف هذا. لكن الظاهر أنهم يصدقون كل ما يقوله ابن الحرام. تلك المرأة، رايلي... أستطيع أن أدرك ذلك عندما تتكلم عنه. إنه يعجبها... ذلك اللاجئ المسحوق الفقير». ينكّس رأسه بائساً... لعله على حق. لقد جرت بيننا مشاجرة مخيفة. لكنني لا أستطيع أن أصدق... لم تكن تعيسة معي. لم تكن تعيسة. لم تكن تعيسة». عندما يقولها للمرة الثالثة، أتساءل في نفسي إن كان يحاول إقناع نفسه بهذا التكرار... «لكن، إذا كانت تقيم علاقة غرامية، فلا بد أنها كانت تعيسة معي، أليس كذلك؟».

أقول: «ليس بالضرورة. لعل الأمر كان حالة من تلك... ماذا يسمونها؟... حالات التحوّل. تلك هي الكلمة، أليس كذلك؟ أقصد، عندما تنشأ لدى المريض مشاعر. أو يظن أن لديه مشاعر. تجاه المعالج النفسي. إن المعالج هو الطرف الذي يفترض فيه مقاومة هذه المشاعر وشرْحها للمريض حتى يجعله يفهم أنها ليست مشاعر حقيقية».

عيناه معلَّقتان بوجهي، لكنني أحس أنه لا يصغي حقاً إلى ما أقول.

يسألني: «ماذا حدث؟ ماذا حدث معكِ أنتِ؟ لقد تركت زوجك. هل كان هنالك شخص آخر؟».

أهز رأسي: «بل كان الأمر معكوساً. لقد ظهرت آنّا».

يوقفني: «آسف، لم أفهم».

أعرف السؤال الذي يريد طرحه. وقبل أن يتمكن من الكلام أقول له: «بدأ الأمر قبل ذلك. بدأ عندما كنا لا نزال متزوجين... أقصد الشرب. هذا ما أردتَ معرفته، أليس كذلك؟».

يومئ برأسه.

«كنا نحاول إنجاب طفل». أقول هذا ثم يعاندني صوتي. حتى الآن، بعد هذا الوقت كله، تفرّ الدموع من عينيَّ عندما أتحدث عن ذلك... «آسفة».

«لا بأس». ينهض واقفاً ويمضي صوب المجلى فيصب لي كأساً من الماء. يضع كأس الماء أمامي على الطاولة.

أتنحنح ثم أحاول أن أتماسك... قدر الإمكان: «كنا نحاول إنجاب طفل. لكن ذلك لم يحدث. أصابني إحباط كبير، وبدأت الشرب. صرت شخصاً يصعب العيش معه ففتش توم عن السلوى في مكان آخر. وقد كانت سعيدة تماماً بأن تمنحه تلك السلوى».

«إنني آسف حقاً... هذا بشع. أعرف... أردت أن أنجب طفلاً، أنا أيضاً. لكن ميغان كانت مصرّة على القول إن الوقت لم يَحِنْ بعد». جاء دوره الآن لمسح دموعه... إنه واحد من تلك الأمور... التي كنا نتشاجر من أجلها أحياناً».

«هل كان ذلك سبب المشاجرة التي جرت يوم ذهبت ميغان؟».

يتنهّد ثم يدفع كرسيه إلى الخلف وينهض واقفاً: «لا!»... يقولها ويستدير مبتعداً عني... «كان ذلك أمراً آخر».

في المساء

عندما عدت إلى البيت وجدت كاثي تنتظرني. إنها واقفة في المطبخ... تشرب كأساً من الماء بحركة عنيفة.

تسألني: «هل كان يومك في المكتب طيباً؟»... تقولها ضاغطة على شفتيها. إنها تعرف.

«كاثي...».

«كان لدى داميين اليوم اجتماع بالقرب من إيستون. وعندما كان خارجاً صادف مارتن مايلز. يعرف أحدهما الآخر بعض المعرفة، هل تذكرين هذا، من أيام عمل داميين في شركة لينغ فند للإدارة. كان مارتن مايلز مسؤولاً عن العلاقات العامة هناك».

«كاثي...».

رفعت يدها ثم أخذت جرعة كبيرة أخرى من كأسها: «أنت لا تعملين هناك منذ شهور! منذ شهور! هل تعرفين كم أجد نفسي حمقاء الآن؟ هل تعرفين كم يجد داميين نفسه أحمق الآن؟ أرجوك، أرجوك... قولي لي إنك وجدت عملاً آخر لم تخبريني عنه. أرجوكِ قولي لي إنك لم تكوني تتظاهرين بالذهاب إلى العمل. قولي إنك لم تكوني تكذبين عليّ ـ يوم في البيت، ويوم في الخارج ـ معقول؟ ... طيلة هذا الوقت».

«لم أعرف كيف أخبرك...».

«لم تعرفي كيف تخبرينني؟ ما رأيك في هذا: *كاثي لقد طردوني لأنني كنت ثملة وقت العمل*؟ ما رأيك في هذا؟» أجفل عندما أسمع كلماتها فترق تعابير وجهها... «إنني آسفة؛ لكن صدقاً... يا ريتشل». إنها شديدة اللطف حقاً. «ماذا كنت تفعلين؟ وأين تذهبين؟ ماذا تفعلين طيلة النهار؟».

«إنني أمشي. أذهب إلى المكتبة. وأحياناً...».

«هل تذهبين إلى البارات أحياناً؟».

«نعم، أحياناً. لكني...».

تبدأ توبيخي واضعة يديها على كتفي: «لماذا لم تقولي لي؟ كان عليك أن تقولي لي».

أقول لها: «كنت خجِلة». ثم أبدأ البكاء. هذا فظيع، شيء منفِّر حقاً، لكنني أبدأ ذرف الدموع. أنشج ثم أنشج... وكاثي تحتضنني، تمسِّد بيدها على شعري، تقول لي إنني سأكون بخير، وإن كل شيء سيكون على ما يرام. أشعر بتفاهتي. أكره نفسي... أكاد أكره نفسي أكثر من أي وقت مضى».

فيما بعد، جلست على الأريكة مع كاثي. كنا نشرب الشاي؛ وكانت تقول لي كيف ستجري الأمور. سوف أتوقف عن الشرب. وسوف أنجز ترتيب سيرتي الذاتية. وسوف أتصل بمارتن مايلز فأرجوه أن يعطيني توصية طيبة. سوف أتوقف عن إنفاق المال على الذهاب إلى لندن والعودة منها في رحلات قطار لا هدف لها.

«صدقيني يا ريتشل... لا أستطيع أن أفهم كيف تمكنت من مواصلة ذلك طيلة هذه المدة».

أرفع كتفي، ثم أقول: «أركب قطار الثامنة وأربع دقائق في الصباح؛ وفي المساء، أعود بقطار الخامسة وست وخمسين دقيقة. إنه قطاري. هذا هو القطار الذي أسافر فيه. هكذا يجري الأمر».

الخميس، 1 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

هنالك شيء يغطي وجهي؛ لا أستطيع التنفس؛ إنني أختنق. وعندما أطفو فأستيقظ أجد نفسي أعبّ الهواء... أتنفس شاهقة... صدري يؤلمني. أجلس في السرير بعينين مفتوحتين على اتساعهما فأرى شيئاً يتحرك في زاوية الغرفة... كتلة كثيفة من السواد تكبر ثم تكبر... أكاد

أصرخ ـ وعند ذلك أستيقظ تماماً فلا أرى شيئاً هناك. لكنني جالسة في السرير وخدّيَّ تبللهما دموعي.

إنه الفجر تقريباً. بدأ الضياء في الخارج يتحول رمادياً. ولا يزال مطر الأيام السابقة مستمراً في النقر على النافذة. لن أعود إلى النوم، لن أنام بقلبي المصطخب بعنفٍ في صدري... إنه يؤلمني.

أظن... لكني لست واثقة من ذلك... أن هنالك بعض النبيذ في الأسفل. لا أذكر أنني أنهيت الزجاجة الثانية. سوف تكون ساخنة لأنني لا أستطيع تركها في البراد. إذا تركتها، فسوف ترميها كاثي.

إنها راغبة كثيراً في أن تتحسن حالتي. لكن الأمور لا تجري وفق خطتها حتى الآن. توجد خزانة صغيرة في الردهة، حيث يوجد عداد الغاز. عندما يبقى لدي بعض النبيذ، فإنني أخبئه هناك.

أتسلل خارجة من الغرفة ثم أهبط درجات السلم على رؤوس أصابعي في ذلك الضوء الخافت. أفتح الخزانة الصغيرة ثم أرفع الزجاجة: إنها خفيفة إلى حد محبِط... ليس فيها أكثر من كأس واحدة. لكن هذا أفضل من لا شيء. أصب النبيذ في كأس شاي ثقيلة (تحسّباً لمجيء كاثي ـ أستطيع التظاهر بأنني أشرب الشاي)، ثم أضع الزجاجة في سلة المهملات (أحرص على إخفائها تحت علبة حليب كرتون فارغة وأغلفة المأكولات المحفوظة). أذهب إلى غرفة الجلوس، وأشغّل التلفزيون، ثم أسكت صوته سريعاً وأجلس على الأريكة. أمضي عبر القنوات ـ إنها محطات للأطفال ومحطات للإعلانات التجارية، إلى أن أجد نفسي... ألمح مكاناً أعرفه... أنظر إلى غابة كورلي الواقعة في آخر الطريق الذاهبة من هنا إليها: يستطيع المرء رؤيتها من القطار. إنها غابة كورلي تحت المطر الغزير الذي يضيّع معالم الحقول الواقعة بين حافة الغابة وخط القطار.

لا أعرف السبب الذي يجعلني أستغرق هذا الوقت كله قبل أن

أدرك ما يجري. أمضي عشر ثوانٍ، خمس عشرة ثانية، عشرين، في النظر إلى السيارات والشريط الملوَّن بالأبيض والأزرق، وإلى خيمة بيضاء في خلفية الصورة. تصبح أنفاسي أقصر، فأقصر، إلى أن أحبسها تماماً... لا أتنفس على الإطلاق.

هذه هي. إنها في الغابة طيلة هذه الفترة؛ إلى جانب خط سكة الحديد الذاهب من هنا. أمرّ بهذه الحقول كل يوم، في الصباح وفي المساء، أمر بها مسافرة، غير منتبهة.

في الغابة. أتخيل قبراً محفوراً تحت شجيرات مشعثة، ثم مغلَقاً بالتراب على عجل. أتخيل أموراً أسوأ، أموراً غير معقولة ـ جَسَدها معلَّق من حبل... عميقاً في الغابة حيث لا يصل أحد.

بل لعلها ليست هي أصلاً. من الممكن أن يكون ذلك التقرير عن شخص آخر. أعرف أنه ليس عن شخص آخر!

يظهر مراسل صحافي على الشاشة الآن. يبدو شعره الداكن ملتصقاً برأسه. أرفع الصوت فأصغي إليه يخبرني أموراً أعرفها، يخبرني أموراً أستطيع أن أحسها. يخبرني أنني لست الشخص الذي لا يستطيع التنفس... ميغان هي من لا تستطيع التنفس الآن.

أسمعه يقول متحدِّثاً إلى شخص في الاستوديو... ضاغطاً بيده على أذنه: «هذا صحيح! تؤكد الشرطة الآن أنها عثرت على جثة امرأة شابة تغمرها مياه الأمطار في حقل عند أسفل غابة كورلي الواقعة على مسافة أقل من خمسة أميال من بيت ميغان هيبويل. إن السيدة هيبويل... كما تعلمون... مفقودة منذ أوائل تموز. منذ الثالث عشر من تموز في حقيقة الأمر. ولم يرها أحد بعد ذلك. تقول الشرطة إن الجثة التي اكتشفتها الكلاب في وقت مبكر من هذا الصباح يجب أن تخضع لتحديد الهوية بشكل رسمي؛ لكنهم.يظنون أنها جثة ميغان. وقد جرى إبلاغ زوج السيدة هيبويل أيضاً».

يتوقف المراسل عن الكلام برهة. إنهم يطرحون عليه سؤالاً من الاستوديو، لكنني لا أستطيع السماع لأن دمي يزمجر في أذني. أرفع الكأس إلى شفتي فأشرب آخر قطرة فيها.

المراسل يتكلم من جديد: «صحيح يا كاي! هذا صحيح. يبدو أن الجثة كانت مدفونة هنا في الغابات؛ ربما منذ بعض الوقت. وقد كشفتها الأمطار الغزيرة التي تساقطت في الآونة الأخيرة.

هذا أسوأ... أسوأ كثيراً مما تخيلت. أستطيع رؤيتها الآن... وجهها المشوَّه الملوَّث بالطين، وذراعاها الشاحبتان مكشوفتَين، ممتدتَيْن إلى أعلى، مرفوعتين كأنها كانت تحاول أن تشقّ طريقها بأظافرها لتخرج من قبرها. أحس بطعم سائل حار، الصفراء والنبيذ المر... في فمي، فأجري صاعدةً إلى غرفتي والغثيان يملأوني.

في المساء

لزمت السرير معظم النهار. حاولت ترتيب الأمور في ذهني. حاولت أن أستجمع، من ذكرياتي ومن أحلامي واللمحات الخاطفة التي تأتيني، ما حدث ليلة السبت. حاولت أن أجعل لذلك كله معنى، أن أراه بوضوح، فسجّلت ذلك كله. كان صرير قلمي على الورقة يشبه صوت شخص يهمس لي؛ جعلني ذلك متوترة، وبقيت أحس أن هناك شخصًا آخر في البيت... على الناحية الأخرى من الباب. لم أستطع منع نفسي من تخيلها واقفة هناك.

كنت شديدة الخوف من فتح باب غرفتي؛ لكنني فتحته آخر الأمر فلم أجد أحداً هناك، بالطبع. نزلت إلى غرفة المعيشة وشغّلت التلفزيون من جديد. كانت الصور نفسها لا تزال موجودة: الغابة تحت المطر، وسيارات الشرطة تسير في درب موحلة، وتلك الخيمة البيضاء المخيفة التي تبدو الآن رمادية مشوَّشة؛ ثم فجأة... ميغان، مبتسمة للكاميرا،

جميلة لا تزال، لم يصبها سوء. ثم يظهر سكوت خافضاً رأسه، دافعاً المصورين، محاوِلاً شق طريقه عبرهم ليصل إلى باب بيته. رأيت رايلي إلى جانبه. ثم رأيت مكتب كمال. لكني لم أر أثراً له.

ما كنت أريد سماع شيء مما يقولون، لكني كنت مضطرة إلى رفع الصوت، مضطرة إلى أي شيء يوقف طنين الصمت في أذني. تقول الشرطة إن المرأة (التي لا يزال ينبغي التعرف على هويتها رسمياً، ميتة منذ بعض الوقت... ربما منذ عدة أسابيع. ويقولون أيضاً إن تحديد سبب الوفاة لم يجرِ بعد. ويقولون إنهم لم يجدوا دليلاً على دافع جنسي خلف القتل).

يفاجئني هذا... أراه شيئاً غبياً. أعرف ماذا يقصدون. يقصدون إنهم لا يظنون أنها قد اغتُصبت. هذه نعمة، بالطبع... لكن هذا لا يعني عدم وجود دافع جنسي وراء القتل. يبدو لي أن كمال أرادها لكنه لم يستطع الحصول عليها. ويبدو لي أنها حاولت إنهاء الأمر لكنه لم يتحمل ذلك. هذا دافع جنسي... أليس هذا دافعاً جنسياً؟

ما عدت أطيق الإصغاء إلى الأخبار. عدت إلى غرفتي، في الأعلى، ثم اندسستُ تحت لحافي. أفرغ حقيبة اليد باحثة في ملاحظاتي التي خربشتها على قطع صغيرة من الورق.. نتف المعلومات التي جمعتها كلها... الذكريات تلوح في رأسي كأنها ظلال... أسأل نفسي: «لماذا أفعل هذا؟ ما الغاية من هذا كله؟».

ميغان

الخميس، 13 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

لا أستطيع النوم في هذا الحَرّ. تتزاحم فوق جلدي حشرات غير مرئية. طفْحٌ جلدي على صدري... لا أستطيع أن أجد راحة. ثم إن سكوت يبدو كأنه يشعّ حرارة. يشبه الاستلقاء إلى جانبه الاستلقاء بجانب الموقد. أبتعد عنه، لكني لا أستطيع الابتعاد بالقدر الكافي؛ وأجد نفسي معلّقة عند حافة السرير... مزيحة الأغطية عني. لا أستطيع احتمال هذا. أفكر في الذهاب للنوم على الأريكة في الغرفة الإضافية. لكنه يمقت أن يستيقظ فلا يجدني. دائماً يؤدي هذا إلى مشاجرة بيننا. نتشاجر عادة حول الاستخدامات البديلة للغرفة الإضافية؛ ونتشاجر أيضاً عندما يسألني عن الشخص الذي كنت أفكر فيه وأنا مستلقية هناك، وحدي. أود أن أزعق أحياناً: *اتركني فقط. اتركني فقط. اتركني أتنفّس*. وهكذا، لا أستطيع النوم... إنني حانقة. أحس كأننا نتشاجر الآن رغم أن هذه المشاجرة موجودة في خيالي فقط.

وفي رأسي، تدور الأفكار، وتدور وتدور وتدور.

أحس أنني أختنق.

متى صار البيت صغيراً إلى هذا الحد الذي يدفع إلى الجنون؟ متى صارت حياتي مملّة إلى هذه الدرجة؟ هل هذا حقاً ما كنت راغبة فيه؟ لا

أستطيع التذكر. لست أعرف إلا أنني كنت أشعر بحال أفضل منذ بضعة أشهر؛ لكنني الآن غير قادرة على التفكير وغير قادرة على النوم... لا أستطيع الرسم... تصبح حاجتي إلى الهرب طاغيةً حقاً. أستطيع أن أسمع ذلك عندما أستلقي مستيقظة في الليل... أسمع صوتاً هادئاً، لكنه لا يتوقف... ولا أستطيع إنكاره أو تجاهله: همسٌ في رأسي، اهربي! اهربي! وعندما أغمض عيني، تملأ رأسي صور حياتي في الماضي وحياتي في المستقبل... صور الأشياء التي حلمت بأنني أريدها، وصور الأشياء التي كانت لدي لكني رميتها. لا أستطيع أن أجد لنفسي راحة لأنني أندفع في طرق مسدودة، كيفما اتجهت: المعرض الفني المغلق، والبيوت في هذا الشارع، والانتباه الخانق للنساء المجتهدات في صالة التمارين الرياضية، وخط القطار عند نهاية الحديقة... بقطاراته كلها، قطاراته التي تأخذ دائماً أشخاصاً آخرين إلى أماكن أخرى وتذكّرني مرة بعد مرة بعد مرة... تذكّرني عشرات المرات كل يوم... بأنني باقية في مكاني.

أحس بأنني ماضية إلى الجنون.

لكني كنت أشعر بحال أفضل قبل أشهر قليلة مضت. كان الأمر في تحسّن. كنت على ما يرام. كنت أنام. لم أكن أعيش خائفة من الكوابيس. كنت قادرة على التنفّس. نعم، صحيح أنني كنت أريد الهرب أيضاً... أحياناً. لكن، ليس في كل يوم.

لقد ساعدني التحدّث مع كمال؛ لا أستطيع إنكار ذلك. لقد أعجبني الأمر. وأعجبني كمال. إنه يجعلني أكثر سعادة. وأحس الآن أن الأمر ليس منتهياً أبداً. لم أصل إلى جوهره أبداً. الذنب ذنبي بالطبع لأنني تصرفت تصرُّفاً أحمق، مثل الأطفال... لأنني كرهت إحساسي بأنني مرفوضة. يجب أن أتعلم كيف أخسر. إنني محرجة الآن، أحسّ بالخزي. أحس الحرارة في وجهي عندما أفكر في هذا. لا أريد أن يكون

ذلك هو انطباعه الأخير عني. أريده أن يراني من جديد، أن يراني في حال أفضل. وأحسّ بأنني... إذا ذهبت إليه، فسوف يساعدني... إنها طبيعته... هكذا هي طبيعته.

يجب أن أصل إلى نهاية القصة. يجب أن أخبر أحداً، ولو مرة واحدة. يجب أن أقول تلك الكلمات بصوت مرتفع. إذا لم تخرج من صدري، فسوف تأكلني أكلاً. ذلك الثقب الذي في داخلي، الثقب الذي خلفته وراءها... سوف يكبر ثم يكبر ويكبر إلى أن يلتهمني.

سوف يكون عليَّ أن أبتلعَ كبريائي وإحساسي بالعار... وأن أذهب إليه. سوف يكون مضطراً إلى الاستماع. سوف يجعله يستمع إلي.

في المساء

يظن سكوت أنني في السينما مع تارا. وأنا واقفة خارج شقة كمال منذ ربع ساعة، أستعد نفسياً لأقرع الباب. إنني خائفة من الطريقة التي سينظر إليّ بها... بعد آخر مرة بيننا. يجب أن أجعله يرى أنني آسفة. لقد ارتديت ملابس تناسب هذا: ملابس بسيطة، عادية... بنطلون جينز وقميصًا قصير الكمَّين، من غير أي مساحيق تجميل، تقريباً. لا أريد إغواءه... يجب أن يدرك هذا.

أحس بضربات قلبي تتسارع عندما أصعد الدرجات المفضية إلى بابه فأقرع الجرس. لا يأتي أحد. الأنوار مضاءَة؛ لكنَّ أحداً لا يفتح الباب. لعله رآني واقفة في الخارج، متردّدة. ولعله في الأعلى، لعله يأمُل في ذهابي آخر الأمر إذا تجاهلني. لن أذهب. لا يعرف كم يمكن أن يكون تصميمي كبيراً. عندما أعقد العزم على أمر ما أصبح قوة لا يمكن تجاهلها.

أقرع الجرس من جديد، ثم أقرعه مرة ثالثة. أسمع أخيراً وقع الخطوات على السلم، ثم ينفتح الباب. إنه في سروال الرياضة مع

قميص أبيض قصير الكمَّيْن. أراه حافياً، مبلل الشعر، محمرّ الوجه.

«ميغان!»... لقد فوجئ بي، لكنه ليس غاضباً. هذه بداية طيبة... «هل أنت بخير؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

أقول له: «إنني آسفة». يتراجع خطوة داعياً إياي إلى الدخول. أشعر بامتنان كبير، امتنان قوي كثيراً... حتى يبدو كأنه حب، تقريباً.

يتقدمني إلى المطبخ. مطبخه في حالة فوضى شاملة. أطباق وكؤوس مكوَّمة قرب المجلى، وأغلفة كرتون لمأكولات جاهزة... متناثرة حول سلة القمامة. أتساءل في نفسي إن كان مكتئباً. أقف عند الباب. أما هو فيستند إلى طاولة المطبخ قبالتي طاوياً ذراعيه أمام صدره.

يسألني: «ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟». تعبير وجهه محايد تماماً... وجه المعالج النفسي. يجعلني هذا راغبة في قَرْصه، فقط حتى أجعله يبتسم.

«علي أن أخبرك...» أبدأ الكلام لكني أتوقف لأنني لا أستطيع أن أمضي إلى ذلك الأمر مباشرة. الأمر بحاجة إلى مقدِمات. وهكذا، أسلك طريقاً آخر. أقول: «أردت أن أعتذر عما حدث... المرة الماضية».

يقول لي: «أشكرك. لا تتركي الأمر يقلقك. إذا كنت في حاجة إلى الحديث مع شخص ما فإنني أستطيع إحالتك إلى معالج آخر، لكنني لا أستطيع...».

«كمال... أرجوك».

«ميغان! لا أستطيع الاستمرار في دور المعالج النفسي بعد الآن».

«أعرف هذا. إنني أعرف هذا. لكني لا أستطيع البدء من جديد مع شخص آخر. لا أستطيع. لقد مضينا بعيداً. اقتربنا كثيراً. يجب أن أخبرك فقط. مرة واحدة فقط. وسأذهب بعد ذلك، أعدك بهذا. لن أزعجك بعدها أبداً».

يميل برأسه إلى أحد جانبيه. إنه لا يصدّقني... أرى هذا. يظن أنه إذا سمح لي بالعودة الآن فلن يستطيع التخلص مني بعد ذلك.

«اسمعني، أرجوك. لن يستمر هذا الأمر إلى الأبد. أحتاج فقط إلى شخص يستمع إلي».

«ماذا عن زوجكِ؟» يسألني، فأهزّ رأسي.

«لا أستطيع ـ لا أستطيع إخباره. ليس بعد هذا الزمن كله. إنه لن... لن يكون قادراً على الاستمرار في النظر إليَّ كما أنا. سوف أكون شخصاً آخر في نظره. لن يعرف كيف يغفر لي. أرجوك يا كمال. أحس أنني لن أستطيع النوم أبداً إذا لم أبصق هذا السم. استمع إليَّ، أرجوك، كصديق... لا كمعالج نفسي».

تهبط كتفاه قليلاً عندما يستدير مبتعداً عني فأظن أن الأمر انتهى. ينكمش قلبي. لكنه يفتح الخزانة ويخرج منها كأسين.

«كصديق إذًا. هل تريدين بعض النبيذ؟».

يأخذني إلى غرفة الجلوس. غرفة خافتة الإضاءة، فيها مصابيح عادية. وفيها تلك النفحة نفسها من الإهمال المنزلي، كما في المطبخ. نجلس متقابلين إلى طاولة زجاج تكوَّمت فوقها صحف ومجلات وقوائم للوجبات الجاهزة. أشبك كفي حول كأسي. أرشف قليلاً من النبيذ. إنه نبيذ أحمر، لكنه بارد. كأن فيه طعم تراب.

أبتلع ما في فمي، ثم آخذ رشفة أخرى. إنه ينتظر أن أبدأ الكلام، لكن الأمر صعب... أصعب مما ظننت أنه سيكون. لقد حفظت هذا السر زمناً طويلاً ـ عشر سنوات، أكثر من ثلث حياتي كلها. ليس الأمر بتلك السهولة... البوح ليس سهلاً. لكنني أعرف أنه يجب أن أبدأ الكلام. إذا لم أبدأ الآن، فقد لا أمتلك في أيّ وقت آتٍ الشجاعة اللازمة لقول تلك الكلمات بصوتٍ مرتفعٍ. بل يمكن أن أفقدها تماماً... يمكن أن تلتصق بحلقي فتخنقني في نومي.

«بعد أن تركت إبسويتش، انتقلت للعيش مع ماك في كوخه الواقع بالقرب من هولكام عند نهاية الطريق. لقد أخبرتك هذا، أليس كذلك؟ كان الكوخ معزولاً جداً، كان على مسافة ميلين من أقرب حَيّ، وعلى مسافة ميلين إضافيين من أقرب متجر. كانت لدينا احتفالات كثيرة في البداية. وكان لدينا دائماً بضعة أشخاص ينامون في غرفة المعيشة أو في الأراجيح خارج البيت خلال الصيف. لكننا تعبنا من هذا، واختلف ماك مع الجميع في آخر المطاف. وهكذا، توقَّف الناس عن المجيء إلينا. لم يبق غيرنا نحن الاثنين فقط. اعتدنا على مرور الأيام، ولم نكن نرى أحداً. كنا نذهب للتسوق في ذلك المتجر الموجود في محطة الوقود. غريب، عندما أفكر في ذلك... لكني كنت في حاجة إليه آنذاك، بعد كل شيء ـ بعد إبسويتش وكل هؤلاء الرجال، بعد كل الأشياء التي فعلت. لقد أحببت ذلك. ماك وأنا وحدنا، وسكة الحديد القديمة، والعشب، والكثبان، والبحر الرمادي الذي لا يعرف الهدوء».

يميل كمال برأسه جانباً ويبتسم نصف ابتسامة. أحسّ بهزّة في داخلي. «يبدو هذا لطيفاً. لكن، ألا تظنين أنك تضفين صبغة رومانسية عليه؟ البحر الرمادي الذي لا يعرف الهدوء؟».

أقول ملوّحة بيدي: «لا تهتم بهذا! لكنك مخطئ على أيّ حال. هل رأيت منطقة شمال نورفولك؟ إنه ليس البحر الأدرياتيكي. ذلك البحر لا يعرف الهدوء، إنه رماديّ اللون دائماً».

يرفع يديه مبتسماً: «لا بأس».

أحس على الفور أنني صرت في حال أفضل، وأن التوتر بدأ يزول عن رقبتي وكتفَيّ. أرتشف جرعة أخرى من النبيذ. يبدو أقل مرارة الآن.

«كنت سعيدة مع ماك. أعرف أن ذلك المكان لم يكن من النوع الذي أحب... لم تكن الحياة التي أحب... لكن، في ذلك الوقت، عقب وفاة بن، وبعد كل ما حدث بعدها... كان المكان مناسباً لي. لقد أنقذني

ماك. لقد آواني، وأحبني، وجعلني آمنة. ثم إنه لم يكن مضجِراً. ولأكن صادقة تماماً... لقد كنا نتعاطَى المخدرات كثيراً. من الصعب أن تشعر بالضجر عندما تكون مخدَّراً طيلة الوقت. كنت سعيدة. كنت سعيدة حقاً».

يهز كمال رأسه، ويقول لي: «إنني أفهم هذا رغم كوني غير واثق من أنه يبدو نوعاً من أنواع السعادة الحقيقية. إنه ليس ذلك النوع من السعادة الذي يمكن أن يستمر، الذي يمكنك أن تعيشي عليه».

أضحك، ثم أقول: «كان عمري سبعة عشر عاماً. وكنت مع رجل يثيرني، رجل يعبدني. لقد هربت مبتعدة عن أبي وأمي، مبتعدة عن ذلك البيت الذي يذكّرني كل شيء فيه، كل شيء، بأخي المتوفى. ما كنت أريد سعادة دائمة، أو سعادة أستطيع أن أعيش عليها طيلة عمري. كنت في حاجة إلى تلك السعادة بالضبط، في تلك اللحظة بالضبط».

«فماذا حدث إذن؟» أحس بأن الغرفة صارت أكثر ظُلمة من ذي قبل. ها نحن هنا... وصلنا إلى الشيء الذي لم أقله أبداً.

«لقد حبلت».

يهز رأسه منتظراً أن أتابع كلامي. هناك جزء مني يريده أن يوقفني عن الكلام، يريد أن يطرح عليَّ بعض الأسئلة؛ لكنه لا يفعل ذلك... ينتظرني فقط. ازدادت الظلمة أكثر.

«كان الوقت قد تأخر كثيراً عندما أدركت الأمر... كان متأخراً على التخلّص من ذلك الحَبَل... متأخراً على التخلص منها. لو لم أكن شديدة الغباء، شديدة الإهمال، لفعلت ذلك. والحقيقة أن أحداً منا ما كان يريد مجيئها».

ينهض كمال واقفاً ثم يذهب إلى المطبخ ويعود حاملاً منديلاً من مناديل المطبخ الورقية حتى أمسح به عينَيّ. يناولني المنديل ثم يجلس. تمر بُرهة قبل أن أتابع كلامي. كمال جالس مثلما يجلس عادة في

جلساتنا، عيناه على عينَي، شابكاً كفَّيه في حجره، صابراً، ساكناً. لا بد أن فعل هذا يحتاج إلى قدر غير معقول من ضبط النفس... ذلك السكون... ذلك الامتناع عن أي شيء. لا بد أنه أمر مرهِق كثيراً.

ساقاي ترتجفان، ركبتاي تنتفضان مثل ركبتَيْ دمية تحركها خيوط. أنهض على قدمَيَّ حتى أوقف هذا. أمضي إلى باب المطبخ، ثم أعود من جديد. تخدش أظافري راحتَيْ كفَّيَّ.

أقول له: «كنا في غاية الغباء، كلانا. بل إنني حتى لم أعترف بما كان يحدث... تابعنا حياتنا فحسب. لم أذهب لرؤية طبيب، ولم آكل الأشياء المناسبة، ولم أتناول أقراص الفيتامينات والمعادن. لم أفعل شيئاً من الأشياء التي يفترض أن أقوم بها. لقد تابعنا فقط... تابعنا عيش حياتنا. لم نعترف حتى بأن شيئاً قد تغير. صرت أكثر امتلاء، وأكثر تعباً. وصرنا، نحن الاثنين، سريعَيْ الغضب... كنا نتشاجر طيلة الوقت؛ لكن شيئاً لم يتغير حقاً إلى أن أتت».

يتركني أبكي. وبينما أبكي، ينتقل إلى الكرسي الأقرب إليّ فيجلس إلى جانبي... تكاد ركبتاه تلمسان فخذي. ينحني صوبي. إنه لا يمسّني، لكن جسدينا متقاربان... أستطيع أن أستنشق عبيره، نظيفاً في هذه الغرفة القذرة، حاداً، قوياً.

يغدو صوتي همساً. لا يبدو لي أن من الصواب قول هذه الكلمات بصوت مرتفع. أقول: «ولدتها في البيت. كانت هذه حماقة، لكنني كنت أخشى المستشفيات في ذلك الوقت... بسبب المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى مستشفى... عندما قُتل بن. ثم إنني لم أخضع لأيّ فحوص تصويرية. كنت أدخن، وأشرب قليلاً، ولم أكن قادرة على مواجهة محاضراتهم. ما كنت قادرة على مواجهة شيء من هذا. أظن... تماماً حتى اللحظة الأخيرة:.. أن الأمر لم يبدُ لي أمراً حقيقياً... لم يبُد لي أن ذلك الأمر سيحدث حقاً».

«كانت لدى ماك صديقة ممرّضة، أو لعلها تلقت شيئاً من التدريب على التمريض، أو أمر من هذا القبيل. جاءت إلينا. وجرى كل شيء على ما يرام. لم تكن الولادة صعبة كثيراً. أقصد... كانت رهيبة بالطبع، مؤلمة ومخيفة، لكن... ثم جاءت المولودة. كانت صغيرة جداً. لا أذكر كم كان وزنها على وجه التحديد. هذا مخيف، أليس كذلك؟». لا يقول كمال شيئاً، ولا يتحرك... «كانت جميلة. لها عينان قاتمتان وشعر أشقر. لم تكن تبكي كثيراً... وكانت تنام جيداً، منذ البداية. كانت طفلة طيبة. كانت فتاة طيبة». كان عليَّ أن أتوقع الآن لحظة... «توقعتُ أن يكون كل شيء في غاية الصعوبة، لكنه لم يكن كذلك».

ازدادت الظلمة، إنني واثقة من هذا. لكني أرفع رأسي فأرى كمال هناك، عيناه على عينَيَّ، وتعابير وجهه رقيقة، لطيفة. إنه يصغي إليَّ. إنه يريد مني إخباره. فمي جاف. أشرب جرعة أخرى من النبيذ. يؤلمني ابتلاعه. «أطلقنا عليها اسم إليزابيث. وكنا ندعوها ليبي». يبدو الأمر غريباً الآن... أن أقول اسمها بصوت مرتفع بعد هذا الزمن الطويل كله. «ليبي»، أقولها من جديد مستمتعة بأن أحسّ باسمها في فمي. أرغب في قول اسمها مرة بعد مرة. يمد كمال يده أخيراً فيمسك بيدي، يضعها بين كفيه. إبهامه على معصمي، على نبضي.

«تشاجرنا ذات يوم، ماك وأنا. لست أذكر سبب تلك المشاجرة. كنا نفعل ذلك من حين لآخر ـ مجادلات صغيرة تتحول إلى مشاجرات... لا عنف جسدي... لم يكن فيها شيء بهذا السوء. لكن أحدنا كان يصرخ على الآخر، وكنت أهدده بأنني سأتركه، أو كان يخرج من البيت أحياناً ولا يعود إلا بعد يومين».

«كانت أول مرة يحدث فيها هذا بعد ولادتها. المرة الأولى التي يغضب فيها ويتركني. كان عمرها بضعة أشهر فقط. وكان الماء يتسرب من سقف البيت. أذكر هذا: صوت الماء المتقطّر في دِلاء وضعناها في

المطبخ. كان الجو شديد البرودة، متجمّداً؛ وكانت الريح تهبّ قوية من جهة البحر. المطر مستمر منذ أيام. أوقدت ناراً في غرفة المعيشة، لكنها كانت تنطفئ كل مرة. كنت في غاية التعب. كنت أشرب حتى أشعر بالدفء، لكن ذلك لم ينفعني، فقررت أن أذهب إلى الحمام. أخذت ليبي معي. وضعتها على صدري. كان رأسها تحت ذقني تماماً».

تغدو الغرفة أكثر ظلمة، ثم أكثر ظلمة... حتى أصير هناك من جديد، مستلقية في الماء، جسدها منضغط على جسدي، وشمعة يتراقص ضوؤها خلف رأسي مباشرة. أستطيع سماع لهب الشمعة يطقطق، وأستطيع شم رائحة الشمع والإحساس بالهواء الصقيعي حول رقبتي وكتفَيَّ. أحس أنني ثقيلة... جسدي يغطس في الدفء. إنني مرهَقة، مستنزَفَة. وفجأة، تنطفئ الشمعة... أشعر بالبرد من جديد. برد حقيقي... أسناني تصطك في فمي... جسدي ينتفض كله. أحس بأن البيت يهتز أيضاً، والريح تزعق، تنتزع قرميد السقف.

«غرقت في النوم...». أقولها ثم لا أستطيع قول شيء آخر لأنني أشعر بها من جديد؛ «لم تعد راقدة على صدري... كان جسدها منحشراً بين ذراعي وحافة الحوض... كان وجهها في الماء. كنا باردتين تماماً، كلتانا».

مرت لحظة لم يتحرك خلالها أي منا. لا أكاد أستطيع النظر إليه؛ لكني أفعل أخيراً فلا يشيح بعينيه بعيداً عني. لا يقول أي كلمة. يضع ذراعه حول كتفَيَّ ويشدّني إليه، ووجهي على صدره. أتنفسه وأنتظر إحساساً مختلفاً... أنتظر أن أصير أكثر خفة، أن أحس أنني صرت أحسن حالاً، أو أسوأ حالاً، الآن بعد أن صارت عندي روح حية أخرى تعرف ذلك أيضاً. أظن أنني أشعر بالانفراج، بالراحة، لأني أعرف من ردة فعله أنني فعلت الشيء الصحيح. إنه ليس غاضباً مني؛ وهو لا يراني وحشاً. إنني آمنة هنا، آمنة تماماً معه.

لست أدري كم بقيت هناك، بين ذراعيه. لكني سمعت رنين هاتفي فعدت إلى نفسي. لم أردّ على الهاتف؛ لكنه أصدر صوتاً بعد لحظة لينبهني إلى رسالة وصلتني. كانت رسالة من سكوت. *أين أنت؟* وبعد ثوانٍ من ذلك بدأ الهاتف يرن من جديد. كانت تارا هذه المرة. خلّصت نفسي من عناق كمال وأجبت.

«ميغان! لا أعرف ما تفعلين الآن، لكن عليك أن تتصلي بسكوت. لقد اتصل بي أربع مرات. قلت له إنك خرجت لشراء بعض النبيذ. لكني لا أظن أنه صَدّقني. يقول إنك لا تردين على اتصاله». تبدو تارا منزعجة، فأعرف أن عليَّ استرضاءها، لكني لا أملك طاقة كافية لذلك.

أقول لها: «لا بأس! شكراً لك. سوف أتصل به الآن».

تقول لي: «ميغان...»، لكني أنهي المكالمة قبل أن أسمع كلمة أخرى.

تجاوزت الساعة العاشرة الآن. مرَّ على وجودي هنا أكثر من ساعتين. أُغلق هاتفي، ثم أستدير صوب كمال.

أقول: «لا أريد الذهاب إلى البيت».

يهز رأسه، لكنه لا يدعوني إلى البقاء عنده. يقول بدلاً من ذلك: «تستطيعين العودة إن أحببت ذلك. تستطيعين العودة مرة أخرى».

أتقدم صوبه، أجتاز المسافة الصغيرة الفاصلة بين جَسَدَيْنا. أقف على رؤوس أصابعي فأقبّل شفتيه. لا يبتعد عن قبلتي، لا يبتعد عني.

ريتشل

السبت، 3 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

الليلة الماضية، حلمت أنني في الغابات، أمشي وحيدة. كان ذلك وقت الغسق، أو وقت الفجر... لست واثقة تماماً، لكن شخصاً آخر كان هناك معي. لم أستطع رؤية ذلك الشخص؛ عرفت فقط أنه كان هناك، عرفت أنه يسير في اتجاهي مقترباً مني. لم أرد أن يراني أحد، أردت أن أهرب بعيداً، لكنني لم أستطع. كانت ساقاي ثقيلتَين لا تستطيعان الجري. وعندما حاولت الصراخ لم أستطع إصدار أيَّ صوت.

وعندما استيقظت، كانت خيوط ضوء بيضاء تنساب من شقوق النافذة. انتهى المطر أخيراً... بعد أن أنجز عمله. الغرفة دافئة؛ تفوح برائحة بشعة... عفونة وحموضة ـ لم أغادرها تقريباً منذ يوم الخميس. أستطيع أن أسمع عويل المكنسة الكهربائية وهديرها خارج الغرفة. كاثي تنظف البيت. سوف تخرج بعد ذلك. أستطيع الخروج من غرفتي بعد ذهابها. لست واثقة مما سأفعله بعد ذلك؛ يبدو أنني لا أستطيع ضبط نفسي. يوم واحد، يوم آخر من الشراب... ربما... ثم... سأضبط نفسي منذ الغد.

يصدر هاتفي صوتاً قصيراً، يخبرني أن البطارية على وشك النفاد. ألتقطه لأصله بالشاحن. فألاحظ أن لديّ مكالمتَين من الليلة الماضية. أفتح البريد الصوتي. لديَّ رسالة واحدة.

«ريتشل، مرحباً! أنا ماما. اسمعي، إنني قادمة إلى لندن غداً، السبت. يجب أن أقوم ببعض التسوق. هل نستطيع أن نلتقي لنشرب قهوة أو شيئاً آخر؟ حبيبتي، ليس الوقت مناسباً الآن لأن تقيمي معي. هناك... نعم، إن لدي صديقاً جديداً. أنت تعرفين كيف تكون الأمور في المراحل الأولى». تطلق ضحكة مترددة صغيرة... «لكني سأكون مسرورة جداً بإعطائك قرضاً حتى ترتّبي أمورك بضعة أسابيع. سوف نتحدث عن هذا غداً. اتفقنا يا حبيبتي! إلى اللقاء».

يجب أن أكون صريحة معها، وأن أخبرها بالضبط كم هي سيئة أحوالي. ليس هذا حديثاً أريد الخوض فيه وأنا صاحية تماماً. أنتزع نفسي من السرير: أستطيع الذهاب إلى المتجر الآن؛ وأستطيع أن أحتسي كأسين قبل أن أخرج. عليَّ أن أكسر حدة الصحو. أنظر إلى هاتفي من جديد، إلى المكالمات الفائتة. مكالمة واحدة من أمي، والأخرى من سكوت. كانت مكالمته في الواحدة إلا ربع صباحاً. أجلس هناك، هاتفي في يدي، أفكِّر في الاتصال به. ليس الآن... الوقت لا يزال مبكراً. ربما في ما بعد؟ ربما بعد كأس، لكن ليس بعد كأسين.

أصل الهاتف بالشاحن، ثم أفتح النافذة وأذهب إلى الحمام لأستحم بماء بارد. أفرك جلدي وأغسل شعري وأحاول إسكات ذلك الصوت في رأسي... الصوت الذي يقول لي إن هذا أمر غريب... بعد أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة على اكتشاف جثة زوجتك! ... أمر غريب أن تتصل بامرأة أخرى في منتصف الليل!

في المساء

لم تجفّ الأرض بعد؛ لكن الشمس تكاد تبين بين غيوم بيض كثيفة. اشتريت لنفسي واحدة من زجاجات النبيذ الصغيرة ـ زجاجة واحدة فقط. لا يجوز أن أفعل هذا، لكن تناول الغداء مع أمي سيكون

اختباراً مناسباً لقوة الإرادة التي تلزمني لأظل صاحية طيلة حياتي. لكنها، رغم ذلك، وعدتني بأن تضع ثلاثمائة جنيهٍ في حسابي المصرفي. لن يكون الأمر مضيعة للوقت إذاً.

لم أعترف بمقدار سوء أحوالي. لم أخبرها أنني بلا عمل منذ شهور؛ ولم أخبرها أنهم طردوني (تظن أن نقودها تكفيني لتدبّر أمري ريثما أبدأ استلام المعونة الاجتماعية). لم أخبرها كم صارت الأمور سيئة من ناحية الشراب؛ ولم تلاحظ هي ذلك. أما كاثي فلاحظت! عندما رأيتها لحظة خروجي من البيت هذا الصباح، رمَتني بنظرة ثم قالت: «أوه! بحق الله. أفي هذا الوقت؟». لا أعرف أبداً كيف تستطيع فعل هذا، لكنها تعرف دائماً. حتى إذا لم أشرب إلا نصف كأس... تنظر إليَّ فتعرف!

تقول: «أعرف هذا من عينيك». لكنني نظرت إلى نفسي في المرآة فوجدت أن شكلي يكون هو نفسه، دائماً. يكاد صبرها ينفد، ويكاد تعاطفها ينفد أيضاً. يجب أن أتوقف. لكن ليس اليوم. لا أستطيع التوقف اليوم. صعب كثيراً أن أتوقف اليوم.

كان يجب أن أتهيأ للأمر، كان يجب أن أقبله... لا أدري... لكني لم أفعل.

ركبت القطار فوجدتها في كل مكان. رأيت وجهها ينظر إليّ من كل صحيفة: ميغان الجميلة الشقراء السعيدة... تنظر مباشرة إلى الكاميرا، تنظر مباشرة إليّ.

ترك أحدهم نسخة من صحيفة التايمز على المقعد. وهكذا قرأت تقرير تلك الصحيفة. ظهرت نتيجة التعرُّف الرسمي على الجثة ليلة أمس؛ وأما تقرير التشريح فسيظهر اليوم. ينقلون عن ناطق باسم الشرطة قوله إنه «لا يزال صعباً تحديد سبب وفاة السيدة هيبويل، لأن الجثة ظلت في العراء بعض الوقت، ولأنها ظلت غارقة في الماء عدة أيام على الأقل». إن التفكير في هذا مخيف عندما تكون صورتها أمامي تماماً.

كيف كان شكلها عند ذلك، وكيف هو شكلها الآن. هناك إشارة صغيرة إلى كمال؛ إلى اعتقاله وإخلاء سبيله. وهناك تصريح للمحقّق غاسغيل يقول فيه إنهم «يتابعون عدداً من الأدلّة». أظن أن هذا يعني أن لا أدلّة لديهم. أغلق الجريدة وأضعها على الأرض، عند قدمي. لا أستطيع احتمال النظر إليها أكثر من هذا. لا أريد أن أقرأ هذه الكلمات الفارغة التي لا تحمل أي أمل.

أسند رأسي إلى النافذة. سنمرّ الآن بالبيت رقم 23 ألقي نظرة، لحظة واحدة، لكن المسافة بعيدة... أبعد من أن يستطيع المرء رؤية أي شيء رؤية حقيقية من هذا الجانب من سكة القطار. أواصل التفكير بذلك اليوم، عندما رأيتها مع كمال... في طريقة تقبيله لها، في مقدار غضبي... ورغبتي في مواجهتها. لو فعلت ذلك، فماذا كان يمكن أن يحدث؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنني ذهبت حينها، وقرعت الباب، وسألتها: ماذا تظنين أنك فاعلة؟ لو فعلت هذا، فهل كنت أراها موجودة هنا الآن، على شرفتها؟

أغمض عيني. وفي محطة نورثكورت، يأتي أحدهم ويجلس إلى جانبي. لا أفتح عينيّ لأنظر إليه؛ لكن جلوسه هناك يدهشني لأن القطار نصف فارغ. ينتصب شعري أعلى رقبتي. أشم رائحة عطر ما بعد الحلاقة مختلطة برائحة دخان السيجارة فأعرف أنني شممت هذه الرائحة من قبل.

«مرحباً!».

أنظر حولي فأرى أنه الرجل صاحب الشعر الأحمر، ذلك الرجل في المحطة... ذلك السبت. إنه يبتسم لي مادّاً يده ليصافحني. أدهشني أنني صافحته. أحس براحة كفّه قاسية، متقرِّنة.

«هل تذكرينني؟».

أقول هازة رأسي: «نعم! نعم، منذ بضعة أسابيع، في المحطة».

يومئ برأسه ويبتسم. يقول لي: «كنت ثملاً بعض الشيء»، ثم يضحك... «أظن أنك كنت ثملة أيضاً، أليس كذلك يا عزيزتي؟».

إنه أصغر سناً مما ظننت؛ لعله في أواخر العشرينات. إن له وجهاً لطيفاً... ليس وسيماً، إنه لطيف فحسب. له ابتسامة عريضة واسعة. توحي لهجته بأنه من كوكينغ أو إيستواري، شيء من هذا القبيل. أراه ينظر إليّ كأنه يعرف شيئاً عني، كأنه يناكفني، كأن هناك نكتة ما بيننا. ليست بيننا أي نكتة. أشيح بوجهي بعيداً عنه. عليّ أن أقول شيئاً، أن أسأله، *ماذا رأيت؟*

يسألني: «كيف حالك، هل أنت على ما يرام؟».

«نعم، إنني بخير». أنظر عبر النافذة من جديد لكنني أستطيع الإحساس بعينيه مسلطتين عليّ فيأتيني حافز غريب... أن أستدير صوبه وأشم رائحة الدخان على ثيابه، وفي أنفاسه. أحب رائحة دخان السجائر. كان توم مدخّناً عندما التقينا. لكنني كنت أظهر انزعاجي من ذلك عندما كنا نشرب، أو بعد ممارسة الجنس. رائحة السجائر شهوانية بالنسبة لي. إنها تذكّرني بالسعادة. أعض بأسناني على شفتي السفلى متسائلة، لحظة واحدة، ماذا يمكن أن يفعل إذا استدرت لأواجهه ثم قبّلته على فمه. أحس جسده يتحرك. أراه ينحني إلى الأسفل ويلتقط الجريدة القابعة عند قدمي.

«شيء فظيع، أليس كذلك؟ يا للفتاة المسكينة! أمر غريب لأننا كنا هناك تلك الليلة. كان ذلك في تلك الليلة، أليس كذلك؟ ليلة اختفائها».

كأنه قرأ أفكاري... يصعَقني هذا. أستدير لأنظر إليه. أريد أن أرى التعبير في عينيه. «لم أفهم قصدك!».

«تلك الليلة، عندما التقينا في القطار. كان ذلك ليلة اختفاء تلك الفتاة... الفتاة التي عثروا عليها الآن. يقولون إنها شوهدت بالقرب من المحطة آخر مرة. أقول في نفسي دائماً... تعرفين... إنني لا بد أن أكون

قد رأيتها. لكني لا أتذكر. كنت ثملاً». يرفع كتفيه، ثم يتابع: «أنت لا تذكرين شيئاً، أليس كذلك؟».

أمر غريب، غريب كيف أحس عندما يقول هذا. بل إنني لا أستطيع أن أتذكر إحساساً مثل هذا من قبل. لا أستطيع الإجابة لأن ذهني مضى إلى مكان مختلف تماماً... لا أفكر في كلماته التي يقولها... أفكر في عطر بعد الحلاقة. تحت رائحة الدخان، ذلك العبير. منعش، ليمونيّ الرائحة، فوّاح. تثير لدي تلك الرائحة ذكرى جلوسي إلى جانبه في القطار، مثلما أجلس الآن... لكننا كنا نمضي في الاتجاه الآخر. وكان هنالك شخص يضحك بصوت مرتفع حقاً. وضع يده على ذراعي. يسألني إن كنت أريد الذهاب لتناول شراب لكن... فجأة... هناك شيء غير صحيح. أشعر بالخوف، بالارتباك. شخص ما يحاول ضربي، أستطيع رؤية قبضته قادمة فأنخفض وأرفع يدي لأحمي رأسي. لست في القطار الآن؛ إنني في الشارع. أسمع الضحك من جديد... أو لعله صياح. إنني على درجات السلم، إنني على الرصيف، الأمر محيّر كثيراً، قلبي يدق سريعاً. لا أريد أن أكون قريبة من هذا الرجل. أريد الابتعاد عنه.

أهبّ واقفة، ثم أقول بصوت مرتفع حتى يسمعني الأشخاص الآخرون في العربة: «اسمح لي»... لكن العربة شبه خاوية؛ لا يلتفت أحد إليّ. يرفع الرجل رأسه ناظراً إلي، مدهوشاً... ثم يزيح ساقيه جانباً حتى أمرّ.

يقول لي: «آسف يا عزيزتي. لم أقصد إزعاجك».

أسير مبتعدة عنه بأسرع ما أستطيع. لكن القطار يهتز ويتمايل فأكاد أفقد توازني. أمسك بظهر أحد المقاعد حتى أتفادى السقوط. ينظر الناس إليّ. أخرج مسرعة إلى العربة الأخرى، ثم أجتاز العربة التي بعدها أيضاً. أواصل السير حتى أصل إلى نهاية القطار. إنني خائفة، مبهورة الأنفاس. لا أستطيع تفسير هذا. لا أذكر ما حدث، لكنني أستطيع الإحساس به...

الخوف والتشوّش. أجلس في مقعد مقابل للاتجاه الذي جئت منه حتى أستطيع رؤيته إن جاء خلفي.

أحاول التركيز ضاغطة بكفَّيَّ على عينَيّ. أحاول استعادة ذلك... أحاول استعادة ما رأيته. ألعن نفسي لأنني أشرب. لو كان رأسي صاحياً... لكن، ها هي. ظلمة من حولي، ورجل يسير مبتعداً عني. أهي امرأة تسير مبتعدة عني؟ امرأة... امرأة في فستان أزرق، إنها آنا.

يندفع الدم صاخباً في رأسي، ويصخب قلبي. لست أدري إن كان ما أراه، ما أحسه، حقيقة أم لا، خيالاً أم ذكرى. أغمض عينَيّ بشدة وأحاول أن أحس ذلك من جديد، أن أرى من جديد... لكنه راح، غاب عني.

آنّا

السبت، 3 آب/ أغسطس 2013

في المساء

ذهب توم ليلتقي زملاءه من أيام الجيش ويتناولوا شراباً معاً. أما إيفي فهي نائمة الآن. أنا جالسة في المطبخ. الأبواب والنوافذ مغلقة رغم الحر. توقف مطر الأسبوع الماضي أخيراً؛ والمكان مغلق إلى حد خانق.

إنني ضجرة. لا أستطيع التفكير في شيء أفعله. أفكر في الذهاب إلى التسوّق وإنفاق بعض المال على نفسي؛ لكن هذا مستحيل في وجود إيفي. إنها تنزعج من ذلك، فيصيبني التوتر. وهكذا... أجد نفسي جالسة في المنزل. لا أستطيع مشاهدة التلفزيون ولا النظر في الصحف. لا أريد أن أقرأ شيئاً عن ذلك؛ لا أريد رؤية وجه ميغان. لا أريد التفكير في هذا.

كيف أستطيع الامتناع عن التفكير في هذا بينما نحن هنا، على مسافة بضعة بيوت فقط؟

أتصل ببعض الصديقات لأرى إن كانت إحداهن راغبة في نزهة، لكن لديهن جميعاً مخططاتهن الخاصة. بل إنني أتصل حتى بشقيقتي، لكن على المرء طبعاً أن يرتّب معها موعداً مسبقاً، قبل أسابيع! على أي امرئ أن يفعل ذلك عندما يريد لقاءها؛ أما في ما يخصني أنا فقد قالت إنها تعاني آثار الشرب إلى حد لا يسمح لها بقضاء الوقت مع إيفي. جاءتني موجة حسد فظيعة عند ذلك... تُقتُ إلى قضاء أيام السبت

مستلقية على الأريكة ومن حولي الصحف وفي رأسي ذكرى ضبابية عن مغادرة الحانة ليلة أمس.

هذا غباء، حقاً، لأن ما لديّ الآن أفضل من ذاك مئة مرة... وأنا أبذل تضحيات حتى أحافظ عليه. ليس عليَّ الآن إلا حماية ما لديّ. وهكذا أجلس في بيتي المختنق حراً، وأحاول ألا أفكر في ميغان. أحاول عدم التفكير فيها، لكني أقفز في مكاني كلما سمعت صوتاً وأجفل كلما مرّ بالنافذة ظل من الظلال. لا أستطيع احتمال هذا.

ما لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه هو حقيقة أن ريتشل كانت هنا ليلة اختفاء ميغان. كانت تسير مترنّحة في الخارج، ثملة تماماً، ثم اختفت فجأة. ظل توم يبحث عنها وقتاً طويلاً، لكنه لم يستطع العثور عليها. لا أستطيع التوقف عن التفكير في ما كانت تفعله. لا صلة تربط بين ريتشل وميغان هيبويل. تحدثت عن ذلك مع ضابط الشرطة، المحققة رايلي، بعد أن شاهدنا ريتشل في بيت هيبويل. لكن رايلي قالت إن هذا ليس أمراً مقلقاً. قالت: «إنها متسكّعة. تشعر بالوحدة، وباليأس قليلاً. لا تريد إلا أن تشغل نفسها بشيء ما».

لعلها على حق. لكني، عند ذلك، أفكر في قدومها إلى بيتي. أفكر كيف أخذت طفلتي، وأتذكر الذعر الذي انتابني عندما شاهدتها، حاملة إيفي، هناك... قرب السياج. وأتذكر تلك الابتسامة الصغيرة المخيفة التي جعلت الدم يتجمَّد في عروقي... تلك الابتسامة عندما رأيتها خارجة من بيت سكوت هيبويل. لا تعرف المحققة رايلي كم يمكن أن تكون ريتشل شخصاً خطيراً.

ريتشل

الأحد، 4 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

إنه مختلف... ذلك الكابوس الذي أيقظني هذا الصباح. كنت قد فعلت شيئاً خاطئاً، في ذلك الكابوس. لكني لا أعرف طبيعة ذلك الشيء. كل ما أعرفه أنه شيء لا يمكن تصحيحه. كل ما أعرفه هو أن توم يكرهني الآن، وأنه لن يكلمني بعد الآن أبداً، وأنه أخبر كل من أعرفهم عن ذلك الشيء الفظيع الذي فعلته فانقلب الجميع ضدي: الزملاء القدامى، وأصدقائي، بل حتى أمي. صاروا ينظرون إلي باشمئزاز وازدراء؛ لا يود أحد منهم الإصغاء إليَّ، ولا يدعني أحد منهم أقول له كم أنا آسفة. شعور فظيع، شعور يائس بالذنب، لا أستطيع التفكير في طبيعة الشيء الذي أقدمت عليه. أستيقظ، فأعرف أن ذلك الحلم لا بد أن يكون آتياً من ذكرى قديمة، من إساءة قديمة. ليس مُهماً الآن أي إساءة كانت.

بعد مغادرتي القطار يوم أمس. تجولت حول محطة آشبوري ربع ساعة، أو عشرين دقيقة. أردت أن أرى إن كان قد غادر القطار معي. الرجل ذو الشعر الأحمر. لكني لم أعثر له على أثر. قلت في نفسي إن من الممكن أن يكون قد مَرّ من غير أن أراه، أو أنه في مكان ما هناك... ينتظرني حتى أذهب إلى بيتي فيتبعني. فكرت يائسة... كم أحب أن أكون

قادرة على أن أهرع إلى البيت، إلى توم الذي ينتظرني. كم أحب أن يكون هنالك شخص ينتظرني.

ذهبت إلى البيت ومررت على متجر الكحول في طريقي.

كانت الشقة فارغة عندما وصلت. بدا لي أن المكان قد فرغ منذ لحظة صغيرة... كأن كاثي قد خرجت قبل قليل فقط... لكنها تركت لي رسالة صغيرة على الطاولة تقول فيها إنها ذاهبة لتناول الغداء مع داميين في هينلي، وأنها لن تعود قبل مساء الأحد. أحسستُ بالاضطراب، وبالخوف. مضيت من غرفة إلى غرفة ألتقط الأشياء ثم أضعها. أحسست أن هناك شيئاً غير طبيعي، لكنني أدركت آخر الأمر أن ذلك الشيء غير الطبيعي موجود في داخلي.

لكن طنين الصمت في أذنيَّ كان يشبه أصواتاً، فصببت لنفسي كأساً من النبيذ، ثم كأساً أخرى، ثم اتصلت بسكوت. انتقل الهاتف إلى البريد الصوتي مباشرة. كانت رسالته الترحيبية قادمة من عمر آخر... صوت رجل مشغول، واثق... رجل لديه في بيته زوجة جميلة. وبعد بضع دقائق اتصلت من جديد. أجاب شخص على الهاتف، لكنه لم يتكلم.

«مرحباً!».

«من المتكلم؟».

قلت: «إنني ريتشل؛ ريتشل واتسون».

«أوه!»... سمعت أصواتاً من حوله، صوت شخص، صوت امرأة. لعلها أمه.

قلت له: «أنت... لم أردّ على اتصالك».

«لا... لا. هل اتصلت بك؟ أوه! كان ذلك عن طريق الخطأ». بدا مرتبكاً... «لا، ضعيها هناك»... هكذا قال، ثم مرت بضع لحظات قبل أن أدرك أنه لم يكن يكلمني.

قلت له: «إنني آسفة كثيراً».

«نعم». كانت نبرة صوته جامدة، مسطَّحة.

«آسفة كثيراً».

«شكراً لك».

«هل كنت... هل كنت تريد أن تقول لي شيئاً؟».

«لا! لا بد أنني اتصلت برقمك عن طريق الخطأ». هكذا قال... بنبرة أكثر ثقة واقتناعاً هذه المرة.

«أوه!»... أدركت أنه يريد إنهاء المكالمة. أدركت أن عليَّ أن أتركه مع أسرته، مع حزنه. عرفت أن عليَّ أن أفعل هذا، لكنني لم أفعل. سألته: «هل تعرف آنا؟ آنا واتسون؟».

«من؟ هل تقصدين زوجة زوجك السابق؟».

«نعم».

«لا! أقصد أنني لا أعرفها حقاً... ميغان... كانت ميغان تهتم بابنتها بعض الوقت، السنة الماضية. لماذا تسألين؟».

لا أعرف سبب سؤالي. لست أدري. سألته: «هل نستطيع أن نلتقي؟ أودّ أن أحدثك عن شيء ما».

«أي شيء؟»... بدا منزعجاً... «ليس الوقت مناسباً تماماً». لسعتني مسحة السخرية القارسة في صوته. كنت على وشك إغلاق الهاتف عندما قال: «البيت هنا مليء بالناس. هل نلتقي غداً؟ تعالي إلى البيت غداً».

في المساء

لقد جرح نفسه أثناء الحلاقة: هناك دم على خدِّه وعلى قميصه. شعره رطب؛ وتفوح منه رائحة الصابون وكولونيا ما بعد الحلاقة. يومئ

لي برأسه ثم يتنحّى جانباً مفسحاً لي أن أدخل البيت؛ لكنه لا يقول شيئاً. البيت مظلم، هواؤه راكد. مصاريع النوافذ الخارجية في غرفة الضيوف مغلقة والستائر مسدَلة على الأبواب الفرنسية المفضية إلى الحديقة. أرى على طاولات المطبخ علب طعام بلاستيكية.

يقول سكوت: «أحضروا كلهم طعاماً معهم». يشير إليّ أن أجلس إلى الطاولة، لكنه يظل واقفاً مسدلاً ذراعيه. «هل أردت أن تقولي لي شيئاً؟»... إنه يشبه رجلاً آلياً؛ إنه لا ينظر في عينَيّ. يبدو مهزوماً.

«أردت أن أسألك عن آنّا واتسون، عما إذا... لست أدري. كيف كانت علاقتها بميغان؟ هل كانت إحداهما تحب الأخرى؟».

عبس، ثم وضع يديه على مسند الكرسي أمامه: «لا! أقصد... لم تكن إحداهما تكره الأخرى. ولم تكن إحداهما تعرف الأخرى معرفة جيدة حقاً. لم تكن بينهما علاقة بالمعنى الفعلي». أحسست أن ارتخاء كتفيه قد ازداد... إنه قلق... «ولماذا تسألين عن هذا الأمر؟».

يجب أن أكون واضحة: «لقد رأيتها. أظن أنني رأيتها بالقرب من النفق، عند المحطة. رأيتها تلك الليلة... ليلة اختفاء ميغان».

يهز رأسه قليلاً محاولاً فهْم ما أقوله: «آسف، لم أفهم! لقد رأيتها. وأنت كنت... أين كنت؟».

«لقد رأيتها. كنت في طريقي لرؤية... لرؤية توم، زوجي السابق، لكني...»

يغمض عينيه، ويشد عليهما، ثم يفرك جبهته: «انتظري دقيقة ـ أنت كنت هنا ـ ورأيت آنّا واتسون! ثم ماذا؟ أعرف أن آنّا كانت هنا. إنها تعيش على مسافة عدة بيوت فقط. وقد قالت للشرطة إنها ذهبت إلى المحطة قرابة الساعة السابعة، لكنها لم تتذكر رؤية ميغان». تقبض كفّاه على الكرسي. وأدرك أنه بدأ يفقد صبره: «ما الذي تريدين قوله بالضبط؟»

أقول له: «لقد كنت أشرب قبل ذلـك»... يحمرّ وجهي بذلك الإحساس المألوف بالخجل... «لا أذكر بالضبط؛ لكن لديّ هذا الإحساس فقط...».

يرفع سكوت يده قائلاً: «هذا يكفي. لا أريد أن أسمع هذا. إن لديك مشكلات مع زوجك السابق، ومع زوجة زوجك السابق... هذا واضح. لكن هذا لا علاقة له بي أنا، ولا علاقة له بميغان، أليس كذلك؟ يا ربي! ألستِ خجِلة من نفسك؟ هل لديك أي فكرة عما أمرّ به هنا؟ هل تعرفين أن الشرطة استدعتني للتحقيق هذا الصباح». إنه يضغط على الكرسي بقوة كبيرة... خفت أن تتحطم... أحاول أن أستعد نفسياً لتحطمها. «ثم تأتين إلى هنا لتقولي هذا الكلام الفارغ! يؤسفني أن حياتك كلها كارثة فظيعة لكن، صدقيني... إنها نزهة لطيفة بالمقارنة مع حياتي. والآن... من فضلك...» ويشير برأسه في اتجاه باب البيت.

أنهض واقفة. أشعر أنني حمقاء، سخيفة. أقول بخجَل: «لقد أردت تقديم المساعدة. أردت أن...».

«أنت لا تستطيعين مساعدتي؛ هل تفهمين هذا؟ لا تستطيعين مساعدتي. لا يستطيع أحد أن يساعدني. زوجتي ماتت. والشرطة تظن أنني قتلتها». صوته يعلو، وتظهر بقع حمر على خدَّيه... «يظنون أنني قتلتها».

«لكن... كمال أبديك...».

يطير الكرسي فيصطدم بجدارِ المطبخ بقوة تجعل إحدى قوائمه تنفصل عنه. أقفز مرتدّة إلى الخلف، مذعورة؛ لكن سكوت لم يتحرك من مكانه تقريباً. عاد كفاه متدليتان إلى جانبيه... يشد على قبضتيه. أستطيع رؤية العروق تحت جلده.

يقول صارّاً على أسنانه: «كمال أبديك! ... لم يعد مشتبَهاً به». صوته هادئ، لكنه يجد مشقة في ضبط نفسه. أستطيع أن أحس بالغضب

يشع منه كله. أود الذهاب إلى باب البيت، لكنه واقف في طريقي، يسد مساري، ويحجب الضوء القليل الذي كان ينير الغرفة.

يسألني: «هل تعرفين ماذا يقول لهم؟»... استدار مبتعداً عني ثم التقط الكرسي. إنني لا أعرف ذلك على ما أظن... لكنني أدرك من جديد أنه لا يكلمني في الحقيقة... «إن لدى كمال أنواعاً مختلفة من القصص. يقول كمال إن ميغان كانت تعيسة، وإنني كنت غيوراً... كنت زوجاً مسيطراً، كنت... ماذا كانت تلك الكلمة؟... أسيء إليها من الناحية العاطفية». يبصق تلك الكلمات متقززاً... «يقول كمال إن ميغان كانت تخافني».

«لكن... لكنه...».

«ليس هو الشخص الوحيد. صديقتها تارا أيضاً، تقول إن ميغان طلبت منها أن تغطي عليها... وأن ميغان أرادت منها أن تكذب عليّ في ما يخص مكان وجودها، وفي ما يخص ما كانت تفعله».

يضع الكرسي عند الطاولة من جديد، لكنه يسقط. أتقدم خطوة في اتجاه الباب فينظر إليّ عند ذلك. يقول: «إنني رجل مدان»... يتقلص وجهه ألماً... «إنني مدان، لست أكثر من شخص مدان».

يركل الكرسي المكسور جانباً ثم يجلس على واحد من الكراسي الثلاثة الباقية. أتململ في مكاني، غير واثقة... أأظل أم أذهب؟ يبدأ سكوت الكلام ثانية. صوته خافت لا أكاد أستطيع سماعه. يقول: «كان هاتفها في جيبها». أتقدم خطوة في اتجاهه... «كانت في الهاتف رسالة منّي. آخر شيء قلته لها، آخر شيء على الإطلاق، الكلمات الأخيرة التي قرأتها... كانت تلك الكلمات: *إلى الجحيم أيتها العاهرة الكاذبة*».

ذقنه على صدره... تبدأ كتفاه بالارتعاد. إنني قريبة منه إلى حد لمسه. أرفع يدي... ثم مرتجفة... أضع أصابعي، بخفة، على رقبته من الخلف. لا يبتعد عني، ولا يبعدني عنه.

أقول له: «إنني آسفة». وأنا أعني ذلك حقاً. لأنني... رغم صدمتي لسماع تلك الكلمات، لتخيل أنه استطاع قولها لها بهذا الشكل... أعرف كيف يكون الأمر عندما تحب شخصاً لكنك تقول له أفظع الأشياء عندما تكون غاضباً أو متألماً. أقول: «رسالة نصية. ليس هذا كافياً. إذا كان هذا كل ما لديهم...»

«لكنه ليس كل ما لديهم، أليس كذلك؟»... يعتدل في جلسته عند ذلك مبعداً يدي عنه. أسير إلى الجهة الأخرى من الطاولة فأجلس قبالته. لا ينظر إلي: «إن لدي دافعاً. لم أكن أتصرف... لم تكن ردة فعلي كما يجب أن تكون عندما ذهبتْ. لم أشعر بالخوف عليها بالسرعة الكافية. لم أتصل بها بالسرعة الكافية». يضحك ضحكة مرة... «ثم إن لديّ نهجاً من السلوك المسيء كما يقول كمال أبديك». ينظر إليَّ عند ذلك فقط، يراني... يرى ضوءاً عند ذلك؛ أملاً... «أنت، تستطيعين أن تتحدثي مع الشرطة. تستطيعين القول لهم إن هذه كذبة. إنه يكذب. تستطيعين تقديم جانب آخر للقصة، على الأقل. تستطيعين أن تقولي لهم إنني أحببتها وإننا كنا سعيدَيْن».

أحس الذعر يعلو في صدري. يظن أنني أستطيع مساعدته. إنه يعلّق آماله عليّ... وأنا لا أملك من أجله إلا كذبة، كذبة بائسة.

أقول بضعف: «لن يصدقوني. إنهم لا يصدقونني. فأنا شاهد لا يُعتمد عليه».

يكبر الصمت بيننا، يتمدد ويملأ الغرفة. تطن ذبابة طنيناً غاضباً عندما تصطدم بالباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة. تعبث أصابع سكوت بالدم الجاف على خده. أستطيع سماع صوت أظافره تخدش جلده. أدفع بالكرسي الذي أجلس عليه إلى الخلف فيصدر صوت عن احتكاك قوائمه بالأرض. يرفع سكوت رأسه.

يقول، وكأنه بدأ يفهم الآن المعلومة التي قدمتها له منذ ربع ساعة: «هل كنتِ هنا؟ هل كنت في ويتني ليلة اختفاء ميغان؟».

لا يكاد صوته يعلو في سمعي فوق صخب دمي في أذني. أومئ برأسي.

يسألني: «لماذا لم تخبري الشرطة بذلك؟». أرى تلك العضلة تتوتر عند فكه.

«لقد فعلت. أخبرتهم بذلك حقاً. لكني لم أجد... لم أرَ شيئاً. لا أستطيع أن أتذكر شيئاً».

ينهض واقفاً ويسير حتى الباب المفضي إلى الحديقة، ويفتح الستائر. يُعمي بصري ضياء الشمس الساطع، لحظة واحدة. يقف سكوت مديراً ظهره نحوي، طاوياً ذراعيه على صدره.

يقول... كمن يقرر حقيقة: «لقد كنتِ ثملة. لكن، لا بد أنك تتذكرين شيئاً. لا بد أنك تتذكرين ـ هذا ما يجعلك تواصلين القدوم إلى هنا، أليس كذلك؟» يستدير فيواجهني... «هكذا هو الأمر، أليس كذلك؟ لماذا تتابعين الاتصال بي. أنت تعرفين شيئاً». يقول هذا كأنه حقيقة: ليس سؤالاً، وليس اتهاماً، وليس نظرية يتخيلها. يسألني: «هل رأيت سيارته؟ فكّري. سيارة كورسا فوكسهول زرقاء. هل رأيت تلك السيارة؟» أهز رأسي نفياً فيرفع يديه محبطاً يائساً... «لا تتجاوزي الأمر هكذا. فكري جدياً. ماذا رأيت؟ لقد رأيت آنّا واتسون؛ لكن هذا لا يعني شيئاً. لقد رأيت... هيا! من رأيت هناك؟». ترفرف عينايّ في ضياء الشمس، وأحاول يائسة، جاهدة، أن أستجمع ذكرى ما رأيت... لكن، لا شيء يأتيني. لا شيء حقيقياً، لا شيء مفيداً. لا شيء أستطيع قوله بصوت مسموع. لقد كنت منخرطة في مشاجرة. أو ربما... ربما شاهدت مشاجرة أو جَدَلاً. تعثرت على درجات المحطة. ساعدني في الوقوف رجل أحمر الشعر. أظن أنه كان لطيفاً معي رغم أنه يجعلني

أشعر بالخوف الآن. أعرف أنني أصبت بجرح في رأسي، وبجرح آخر في شفتي، وبكدمات على ذراعي. أظنني أتذكر أنني كنت في ذلك النفق. كان مظلماً. كنت مذعورة، مشوَّشة. سمعت أصواتاً. سمعت أحداً يصرخ باسم ميغان. لا... ذلك كان حلماً. ذلك لم يكن حقيقة. أتذكر الدم. الدم على رأسي، والدم على يدي. أتذكر آنّا. لا أتذكر توم. ولا أتذكر كمال ولا سكوت ولا ميغان.

إنه ينظر إليَّ، يراقبني منتظراً أن أقول شيئاً، أن أقدم له بعض الراحة، لكنني لا أملك شيئاً أقدمه.

يقول: «تلك الليلة... ذلك هو الوقت المهم». يعود فيجلس. إنه الآن أكثر قرباً مني. ظهره صوب النافذة. هناك عرق يلتمع على جبهته وعلى شفته العلوية. وهو يرتجف كما لو أن حمّى أصابته. «إنه الوقت الذي حدث فيه ذلك. يظنّون أنه الوقت الذي حدث فيه ذلك. ليسوا واثقين». يتوقف لحظة ثم يتابع: «لا يستطيعون التأكد. بسبب حالة... بسبب حالة الجثة». يستنشق نفساً عميقاً... «لكنهم يظنون أن الأمر حدث في تلك الليلة. أو بعد ذلك بقليل». لقد عاد إنساناً آلياً. يتحدث مع الغرفة، ليس معي أنا. أصغي إليه صامتة وهو يخبر الغرفة أن سبب الوفاة كان إصابة في الرأس؛ وأن جمجمتها أصيبت بكسور في عدة أماكن. لا يوجد اعتداء جنسي؛ أو ... على الأقل... لا يوجد اعتداء جنسي يمكن تأكيده. بسبب حالتها... كانت في حالة فظيعة.

عندما يعود إلى نفسه، عندما يعود إليّ، أرى خوفاً في عينيه... أرى قنوطاً.

يقول: «إذا تذكرت أي شيء، فإن عليك مساعدتي. أرجوكِ، حاولي أن تتذكري يا ريتشل». أسمع اسمي من شفتيه فتتقلّص معدتي... أشعر بالبؤس.

وفي القطار، في طريق عودتي إلى البيت، أفكر في ما قاله سكوت. أتساءل إن كان حقيقياً. أيكون سبب عدم قدرتي على التذكر محصوراً في داخل رأسي؟ أتكون لديَّ معلومات لا أستطيع البوح بها؟ أعرف أنني أحس بشيء تجاهه، شيء لا أستطيع تحديده، شيء لا يجوز أن أحسه. لكن، أيكون الأمر شيئاً أكثر من هذا؟ إن كان هناك شيء في رأسي، فقد يتمكن أحد من مساعدتي في إخراجه. أحد... معالج نفسي مثلاً. معالج نفسي. شخص مثل كمال أبديك.

الثلاثاء، 6 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

لم أنم إلا قليلاً. رقدت صاحية طيلة الليل، أفكّر في ذلك، وأقلّب الفكرة في ذهني. هل هي حماقة، تهوّر، شيء لا معنى له؟ وهل الأمر خطير؟ لست أدري ما أنا فاعلة. حددت موعداً صباح الأمس لرؤية الدكتور كمال أبديك. اتصلت بالعيادة وتحدثت مع موظفة الاستقبال وحددت كمال بالاسم. لا بد أنني كنت أتخيل هذا، لكنني أظن أن الدهشة كانت ظاهرة في صوتها. قالت إنه يستطيع رؤيتي اليوم، عند الرابعة والنصف. أبهذه السرعة؟ قلبي يرفرف ويضرب أضلاعي، فمي جاف. قلت لها إن الموعد مناسب. تبلغ تكلفة الجلسة الواحدة خمسة وسبعين جنيهاً. لن يعيش طويلاً ذلك المال الذي جاءني من أمي. إنه ثلاثمئة جنيه فقط.

لم أعِد التفكير في أي شيء آخر بعد تحديد ذلك الموعد. إنني خائفة، لكنني مستثارة أيضاً. لا أستطيع إنكار أن هناك جزءاً مني يرى إثارة كبيرة في فكرة مقابلة كمال. بدأ الأمر كله مع كمال: لمحته، فتغيّر مجرى حياتي، خرج قطار حياتي عن سكَّته. تغير كل شيء لحظة رأيته يقبّل ميغان.

ثم إن عليّ أن أراه! يجب أن أفعل شيئاً لأن الشرطة غير مهتمة إلا بسكوت. لقد استدعوه إلى الاستجواب البارحة، مرة أخرى. لم يستطيعوا إثبات شيء بطبيعة الحال، لكن هناك مقطع مصوَّر على الإنترنت: سكوت داخلاً إلى قسم الشرطة وأمه سائرة إلى جانبه. ربطة عنقه مشدودة أكثر مما يجب... يبدو مختنقاً.

يطلق الجميع مختلف أنواع التخمينات. تقول الصحف إن الشرطة شديدة الحرص الآن لأنها لا تستطيع المغامرة باعتقال متسرّع آخر. وتدور أحاديث عن خلل في التحقيق؛ وتلميحات إلى أن من الممكن أن تكون هناك حاجة إلى استبدال المحققين. فظيع هو الكلام الذي يتناول سكوت على الإنترنت... نظريات مجنونة، مقرفة. ولقطات له يرجو فيها عودة ميغان. وإلى جانبها صور لقتلةٍ ظهروا على التلفزيون أيضاً باكين منتحبين يبدو عليهم أشد الأسى تجاه مصير أحبَّتهم. هذا مخيف... غير إنساني. لا أستطيع إلّا أن أصلّي لكي لا يرى سكوت هذه الأشياء. سوف تحطّم هذه الأشياء قلبه.

إذن... مهما أكن حمقاء متهوّرة، فإنني ماضية لرؤية كمال أبديك لأنني رأيت سكوت... خلافاً لكل أصحاب النظريات والتخمينات هؤلاء. لقد كنت قريبة منه إلى حد يكفي لأن ألمسه وأعرف طبيعته وأعرف أنه ليس قاتلاً.

في المساء

ساقايَ تستمرّان بالارتجاف وأنا أصعد درجات سلم محطة كورلي. إنني أرتعش على هذا النحو منذ ساعات. لا بد أنه الأدرينالين... يرفض قلبي أن يبطئ نبضه. القطار مزدحم ـ لا مجال للجلوس هنا... ليس مثلما أركب القطار في محطة إيستون. وهكذا لا بد لي من الوقوف في منتصف العربة. الجو شديد الحرارة. أحاول التنفس ببطء وعيناي

مسبلتان تنظران إلى قدمَي. أحاول فقط أن أصل إلى حقيقة ما أشعر به.

بهجة، خوف، ارتباك، إحساس بالذنب. إحساس بالذنب، على الأكثر.

لم يكن الأمر مثلما توقعت.

عندما وصلت إلى العيادة، كنت قد أفلحت في جعل نفسي في غاية الذعر: كنت مقتنعة تماماً بأنه سينظر إليّ وسيعرف أنني أعرف... سوف يعتبرني خطراً عليه. خفت أن أقول الأشياء التي لا يجوز أن أقولها. وخفت من أنني لن أتمكن من منع نفسي من التفوّه باسم ميغان. دخلت غرفة الانتظار المملة الأنيقة ثم تكلمت مع موظفة الاستقبال. كانت في أواسط العمر. سجَّلَت المعلومات الخاصة بي من غير أن تنظر إليّ. جلست والتقطت نسخة من مجلة فوغ ورحت أقلّب صفحاتها بأصابع مرتجفة محاولة تركيز ذهني على المهمة التي تنتظرني مع محاولتي، في الوقت نفسه، أن أبدو ضَجِرة بعض الشيء... مثلما يبدو أي مريض آخر.

كان في غرفة الانتظار شخصان غيري: رجل في العشرينات يقرأ شيئاً على هاتفه، وامرأة متقدمة في السن تحدق في قدميها بنظرات كئيبة كالحة من غير أن ترفع نظرها أبداً... حتى عندما نادت موظفة الاستقبال باسمها. نهضت فقط، ثم تحركت. كانت تعرف أين يجب أن تذهب. انتظرت بعدها خمس دقائق، عشر دقائق. أحس أن أنفاسي صارت ضحلة. كانت غرفة الانتظار شديدة الدفء، من غير هواء، أحسست أن رئتيَّ لا تستطيعان الحصول على كفايتهما من الأكسجين. خفت أن أفقد الوعي.

ثم انفتح باب وخرج منه رجل فعرفت أنه هو حتى قبل أن أنظر إليه فعلاً. عرفته مثلما عرفت أنه لم يكن سكوت عندما رأيته أول مرة، عندما لم يكن إلا خيالاً أراه من بعيد متحركاً صوبها ـ كان مجرد انطباع بأنه شخص طويل، انطباع عن حركته البطيئة. مد يده لي.

«الآنسة واتسون». رفعتُ عيني لأنظر إليه فأحسست بوخزة كهربائية تسري أسفل عمودي الفقري. وضعت يدي في يده. كانت يده دافئة، جافّة، ضخمة، أحاطت بيدي كلها.

قال: «من فضلك» وأشار بأن أتبعه إلى غرفته. سرت خلفه شاعرة بالغثيان والدوار طيلة المسافة. إنني أسير على أثر خطواتها هي. لقد فعلَتْ هذا كله. جلست قبالته في الكرسي الذي قال لي أن أجلس عليه. ولعله ضم كفيه تحت ذقنه مثلما يفعل الآن. ولعله أومأ إليها برأسه، بالطريقة نفسها، قائلاً: «حسناً... بماذا تودين أن تحدثيني اليوم؟».

كان كل ما يتعلق به دافئاً: يده عندما صافحتها؛ وعيناه؛ ونبرة صوته. رحت أفتّش في وجهه عن أدلة، عن علامات تشير إلى ذلك الوحش الضاري الذي حطّم رأس ميغان، عن لمحة من ذلك اللاجئ المضطهد الذي فقد أسرته. لم أستطع رؤية شيء من هذا. ثم نسيت نفسي حيناً من الزمن. نسيت أن أخاف منه. كنت جالسة هناك. ولم أعد خائفة. ابتلعت ريقي بصعوبة وحاولت أن أتذكر ما عليّ قوله، ثم قلته: قلت له إنني أعاني مشكلات متعلقة بالكحول، منذ أربع سنوات؛ وإن الشراب جعلني أخسر زواجي وعملي؛ وإنه يسيء إلى صحتي بالطبع؛ وإنني أخشى أن يودي بعقلي أيضاً.

قلت له: «هناك أشياء لا أستطيع تذكّرها. يحدث تعتيم في ذاكرتي فلا أذكر المكان الذي كنت فيه أو الشيء الذي فعلته. أسأل نفسي أحياناً إن كنت قد قلت أو فعلت أشياء فظيعة، لكني لا أستطيع التذكر. وإذا... إذا قال لي أحد إنني فعلت شيئاً، فإني لا أحس حتى أن الأمر متعلّق بي أنا. لا أحس أنني أنا من فعل ذلك الشيء. يصعب كثيراً أن يشعر المرء بالمسؤولية عن شيء لا يستطيع تذكّره. وهكذا فإنني لا أشعر بالأسف إلى الحد الكافي. إنني أنزعج من هذا، لكن الشيء الذي فعلته يكون قد... امّحى مني كما لو أنه لا ينتمي إليّ أنا».

قلت هذا كله، هذه الحقيقة كلها، بسطتها أمامه في الدقائق الأولى. كنت شديدة الاستعداد لقول هذا... وكنت أنتظر أن أقوله أمام أحد ما. لكن، ما كان يجب أن يكون هو ذلك الشخص. لقد أصغى إليّ مثبّتاً عينيه العسليتين الصافيتين على عيني... عاقداً كفيه... من غير حركة. لم ينظر هنا وهناك في الغرفة، ولم يسجل أي ملاحظات. لقد أصغى إليّ فقط. وأخيراً أومأ برأسه إيماءة بسيطة وقال: «أنت تريدين أن تكوني مسؤولة عما تفعلين، لكنك تجدين صعوبة في ذلك... في الشعور بالمسؤولية الكاملة عندما لا تستطيعين تذكر الأمر، أليس كذلك؟».

«صحيح... هكذا هو. هكذا هو الأمر بالضبط».

«لكن، كيف نتحمل المسؤولية؟ يمكنك أن تعتذري. وحتى إذا كنت لا تستطيعين تذكر ارتكاب أيّ إساءة، فإن ذلك لا يعني أن اعتذارك، وأن المشاعر الكامنة خلف ذلك الاعتذار، ليس اعتذاراً صادقاً مخلصاً».

«لكني أريد أن أحسه. أريد أن أحس... أن يكون الإحساس أسوأ».

شيء غريب أن أقول هذا؛ لكني أفكر هكذا طيلة الوقت. لا أشعر بالسوء إلى الحد الكافي. أعرف ما أنا مسؤولة عنه. أعرف الأشياء الفظيعة التي فعلتها... كلها؛ حتى عندما لا أتذكر التفاصيل ـ لكني أشعر أن مسافة تفصل بيني وبين تلك الأفعال. أحس أنها أفعال شخص آخر.

«أنت ترين أن عليك أن تشعري بالسوء أكثر مما تفعلين، أليس كذلك؟ تقولين إنك لا تشعرين بالذنب كفاية تجاه أخطائك؟»

«نعم».

هزّ كمال رأسه، وقال: «ريتشل! قلت لي إنك خسرت زواجك، وإنك خسرت وظيفتك. ألا ترين في هذا عقاباً كافياً؟».

أهزّ رأسي.

استند إلى الخلف قليلاً في مقعده: «أظن أنك قد تكونين قاسية على نفسك أكثر مما يجب».

«إنني لست كذلك».

«لا بأس، فليكن. هل نستطيع العودة إلى الخلف قليلاً؟ هل نستطيع العودة إلى الوقت الذي بدأت عنده هذه المشكلات؟ قلت لي إن ذلك كان... قبل أربع سنين، أليس كذلك؟ هل تستطيعين إخباري عن ذلك الزمن؟».

قاومت. لم أكن مخدَّرة بفعل دفء صوته، بفعل رقة عينيه. لم أكن عاجزة بالكامل. لن أبدأ إعطاءه الحقيقة كلها. لن أقول له الآن إنني كنت أتوق إلى إنجاب طفل. قلت له إن زواجي انهار، وإنني اكتأبت، وإنني كنت أشرب على الدوام... لكني قلت هذه الأشياء على أي حال ولم أعد أستطيع استعادتها الآن أبداً.

«تقولين إن زواجك قد انهار... إذًا... هل تركت زوجك أم أنه هو الذي تركك، أو... ترك كل منكما الآخر؟»

قلت: «لقد أقام علاقة غرامية. التقى امرأة أخرى ووقع في حبها». هز رأسه منتظراً أن أتابع كلامي... «لم تكن غلطته هو، رغم ذلك. كان الذنب ذنبي أنا».

«ولماذا تقولين هذا؟».

«قلت لك إنني بدأت الشرب قبل...».

«إذن، لم تكن علاقة زوجك الغرامية مع امرأة أخرى الشرارة التي أطلقت ذلك».

«لا، لم تكن الشرارة. كنت قد بدأتُ الشرب. وهذا ما بدأ يبعده عني. هذا ما جعله يتوقف عن...».

ظل كمال منتظراً. لم يحثّني على المتابعة. تركني جالسة هناك منتظراً مني أن أقولَ الكلمات بصوت مسموع.

قلت: «... يتوقف عن حبي».

أكره نفسي لأنني بكيت أمامه. لا أفهم سبب عجزي عن تمالك نفسي. ما كان علي أن أكلمه عن أشياء حقيقية. كان ينبغي لي أن أذهب إليه حاملة مشكلات مختلقة تماماً... شخصية خيالية ما. كان علي أن أستعدّ بشكل أفضل.

أكره نفسي لأنني كنت أنظر إليه، مصدّقة، للحظة واحدة، أنه يحس ما أحسه. لكنه نظر إلي كأنه يحس ذلك لا كأنه مشفق عليّ بل كأنه يفهمني... كأنني شخص أراد مساعدته حقاً.

«إذاً يا ريتشل... بدأ الشرب قبل انهيار زواجك. هل تظنين أنك قادرة على الإشارة إلى سبب بدء الشراب؟ أقصد أن هذا الأمر لا يستطيعه كثير من الناس. فبالنسبة إلى بعض الأشخاص يكون الأمر مجرد انزلاق عام إلى حالة من الاكتئاب، أو من الإدمان. هل كان هنالك شيء محدد في ما يخصك أنت؟ معاناة أو محنة أو خسارة ما؟» هززت رأسي ورفعت كتفي. لن أقول له ذلك. لن أقول له ذلك.

انتظر بضع لحظات ثم ألقى نظرة سريعة على الساعة فوق مكتبه.

«ربما نتابع الحديث في المرة القادمة»... قال هذا ثم ابتسم فتجمّدت برداً.

كل ما يتعلق به دافئ ـ كفاه، وعيناه، وصوته... كل شيء ما عدا تلك الابتسامة. تستطيع أن ترى القاتل فيه عندما يكشف عن أسنانه. تقلّصت معدتي، وتسارعت ضربات قلبي تسارعاً هائلاً. غادرت عيادته من غير أن أصافح يده التي مدها لي. ما كنت قادرة على تحمّل لمسه.

إنني أفهم... نعم، إنني أفهم. أستطيع أن أرى ما رأته ميغان فيه. ليس الأمر مجرد أنه شخص وسيم إلى حد لافت.

إنه هادئ أيضاً، ويوحي بالاطمئنان... إنه ينضح لطفاً وصبراً. قد لا يتمكن شخص بريء أو مطمئن أو مضطرب من رؤية ما يتجاوز ذلك. قد لا يستطيع رؤية الذئب الكامن خلف هذا الهدوء. إنني أفهم هذا. لقد بقيتُ غريقة قرابة ساعة كاملة. تركت نفسي أنفتح أمامه. نسيت من هو. لقد خذلت سكوت، وخذلت ميغان، وأنا أشعر بالذنب لذلك.

لكنني أشعر بالذنب أكثر من أي شيء لأنني... لأنني أريد أن أعود إليه.

الأربعاء، 7 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

جاءني الحلم نفسه من جديد... الحلم الذي أرى فيه أنني أقدمت على شيء خاطئ... حيث يتخذ الجميع موقفاً عدائياً مني، ويقفون مع توم ضدي. ذلك الحلم الذي لا أستطيع فيه أن أفسّر شيئاً، ولا أن أعتذر... لأنني لا أعرف ما فعلت. وفي الحيّز الفاصل بين الحلم واليقظة، أفكر في مجادلة غاضبة حقيقية جرت منذ زمن ـ قبل أربع سنين ـ بعد فشل أول تجربة لنا... تجربتنا الوحيدة... في طفل الأنبوب. كان ذلك عندما أردت أن أجرّبها مرة ثانية. قال لي توم إننا لا نملك المال اللازم. لم أجادله في ذلك. كنت أعرف أننا لا نملك المال ـ بل إننا رهنّا البيت؛ وكان لديه بعض الديون الباقية من صفقة أعمال فاشلة أقنعه والده بالدخول فيها. كان عليَّ أن أتعامل مع هذا الواقع. كنت آمل بأننا سنملك المال اللازم ذات يوم. وأما في ذلك الوقت، فقد كان عليَّ أن أكتم دموعي التي كانت تتدفق حارة سريعة كلما رأيت امرأة غريبة منتفخة البطن، وكلما سمعت أخبار الآخرين السعيدة.

كان ذلك بعد شهرين من اكتشاف فشل تجربة طفل الأنبوب؛ عندما أخبرني عن تلك الرحلة، رحلة إلى لاس فيغاس لأربعة أيام ليشاهد مباراة الملاكمة الكبرى وينفّس عن بعض الضغط. هو فقط، مع اثنين من زملائه القدامى... أشخاص لم أقابلهم قط. كانت تكلفة الرحلة كبيرة... عرفت ذلك لأنني رأيت إيصال حجز رحلة الطائرة والفندق في صندوق البريد الوارد لديه. لا فكرة لديَّ عن ثمن تذاكر المباراة نفسها. لكنني لا أظن أنها كانت رخيصة. لم يكن المبلغ كافياً لتسديد ثمن تجربة طفل أنبوب جديدة، لكنه كان صالحاً لأن يكون بداية لذلك. جدثت مشاجرة مخيفة بيننا. لست أذكر التفاصيل لأنني كنت أشرب طيلة بعد الظهر... أحضّر نفسي لمواجهته. وهكذا، عندما جرى الأمر... جرى على أسوأ شكل. لا زلت أذكر بروده في اليوم التالي؛ رفضه الكلام عما جرى. أذكر كيف قال لي بنبرات محبطة مسطّحة ما قلته وما فعلته في اليوم السابق... أخبرني كيف حطمت صورة زفافنا، وكيف صرخت عليه قائلة إنه أناني، ونعتّه بأنه زوج عديم النفع... فاشل.

أذكر كم كرهت نفسي ذلك اليوم.

كنت مخطئة. طبعاً، كنت مخطئة لأنني قلت له هذه الأشياء. لكن ما أفكر فيه الآن هو أنني لم أكن غير منطقية لأنني غضبت. كان لديّ الحق كله بأن أغضب، أليس كذلك؟ كنا نحاول إنجاب طفل. ألم يكن حريّاً بنا أن نقبل التضحيات من أجل ذلك؟ كنت قادرة على التخلي عن أحد أطرافي إذا كان ذلك يجعلني أحظى بطفل. أما كان قادراً على التخلي عن عطلة في لاس فيغاس؟

أظل مستلقية في السرير قليلاً، أفكر في ذلك؛ ثم أنهض وأقرر أن أخرج لأتمشَّى قليلاً لأنني سأجد نفسي راغبة في الذهاب إلى ذلك المتجر عند الزاوية إذا لم أفعل شيئاً. لم أشرب شيئاً منذ الأحد، لكنني أحس أن الصراع لا يزال مستمراً داخلي، التوق إلى أن أثمل قليلاً، أن

أنسى عقلي قليلاً، أن أتخلص من ذلك الإحساس الغامض بأنني حققت شيئاً من العار أن أتخلى عنه.

ليست آشبري مكاناً لطيفاً حقاً للمشي. ليس فيها إلا متاجر وبيوت ضواحٍ؛ حتى أنه ليس فيها حديقة جيدة. أسير عبر وسط البلدة. ليس هذا بالمكان السيئ عندما لا تجد أشخاص آخرين من حولك. اللعبة هي أن تخدع نفسك فتوهمها بأنك منطلق إلى مكان ما: عليك فقط أن تحدد نقطة وأن تنطلق صوبها. أختار الكنيسة في نهاية شارع بليزانس. إنها على بعد ميلين من شقة كاثي. لقد ذهبت مرة إلى أحد لقاءات مدمني الكحول هناك. لم أذهب إلى لقاء يجري قريباً من بيتي، لأنني لم أكن راغبة في مصادفة أي شخص هناك يمكن أن أراه في الشارع، أو في السوبر ماركت، أو في القطار.

عندما أصل إلى الكنيسة، أستدير لأعود أدراجي ماضية نحو البيت بخطى واسعة: امرأة لديها أشياء تفعلها، لديها مكان تذهب إليه. امرأة طبيعية. أنظر إلى الناس الذين أصادفهم في الطريق. رجلان يركضان حاملين حقيبتي ظهر. إنهما يتدربان للمشاركة في الماراثون. امرأة شابة في تنورة سوداء وقميص رياضي أبيض، تحمل حذاءها ذا الكعب العالي في حقيبة صغيرة... ذاهبة إلى عملها. أتساءل عما يخفيه هؤلاء الناس. أتراهم يتحركون لكي يتوقفوا عن الشرب، يجرون حتى يقفوا في أماكنهم؟ أتراهم يفكرون في قاتل رأوه البارحة، في قاتل يعتزمون في رؤيته من جديد.

لست في حالة طبيعية.

أكاد أصل إلى البيت عندما أرى ذلك. كنت ضائعة في أفكاري. كنت أفكر في الشيء الذي من المفترض أن تفضي إليه هذه الجلسات مع كمال: هل أخطط حقاً للتفتيش في أدراج مكتبه إذا غادر الغرفة؟ هل أخطط لاصطياده في الكلام وجعله يقول شيئاً يفضحه... لاستدراجه إلى

منطقة خطرة؟ لكن من المحتمل أنه أكثر ذكاء مني بكثير. ومن المحتمل جداً أنه يتوقّع هجومي. هو يعرف أصلاً أن اسمه ظهر في الصحف. لا بد أن يكون متنبّهاً لاحتمال وجود أشخاص يحاولون معرفة أخبار عنه، أو استخلاص معلومات منه.

هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أسير خافضة رأسي مثبّتة نظري على الرصيف عندما مررت أمام المتجر الصغير إلى يميني محاولة عدم النظر إليه لأن النظر إليه سيزيد احتمال انزلاقي؛ لكني رأيت اسمها من زاوية عيني. رفعت رأسي... ها هو اسمها، بحروف كبيرة على الصفحة الأولى في إحدى صحف الفضائح: هل كانت ميغان قاتلة أطفال؟

آنّا

الأربعاء، 7 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

كنت مع صديقاتي في مقهى ستاربكس عندما حدث ذلك. كنا جالسات في مكاننا المعتاد عند النافذة. وكانت ألعاب الأطفال متناثرة على الأرض كلها. كانت بِث تحاول (مرة أخرى) إقناعي بالانضمام إلى نادي الكتاب الذي أقامته. وعند ذلك ظهرت دايان. كان على وجهها تلك النظرة... تعبير الإحساس بالأهمية الذي يكون لدى شخص يحمل دسيسة دسمة. لم تكد تستطيع ضبط نفسها ريثما تفلح في إدخال عربة الأطفال المزدوجة عبر الباب.

قالت لي بوجه عليه ملامح الجدّية: «آنّا! هل رأيت هذا؟». ثم نشرت أمامي صحيفة تحمل عنواناً كبيراً: «هل كانت ميغان قاتلة أطفال».

لم أجد كلمة أقولها. حدّقتُ في الجريدة فقط ثم... يا للسخف. انفجرتُ باكية. أصيبت إيفي بالذعر أيضاً. وراحت تصرخ. كان ذلك فظيعاً.

ذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي ووجه إيفي. وعندما عدت كانت صديقاتي تتكلمن جميعاً بنبرة خفيضة. ألقت عليّ دايان نظرة ماكرة ثم سألتني: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟». رأيت أنها كانت مستمتعة بذلك.

كان الأفضل أن أذهب عند ذلك؛ لم أستطع البقاء. كان اهتمامهن فظيعاً، كلهن... كن يقلن إنني لا بد أن أكون شديدة الانزعاج. لكني رأيت الحقيقة على وجوههن: إدانة لا يكاد التنكّر يخفيها. كيف استطعت أن أعهد بابنتي لتلك المرأة المتوحشة؟ لا بد أنك أسوأ أم في الدنيا كلها.

حاولت أن أتصل بتوم في طريق عودتي إلى البيت. لكن هاتفه انتقل مباشرة إلى البريد الصوتي. تركت له رسالة طلبت فيها منه أن يعاود الاتصال في أسرع وقت ممكن. حاولت أن يكون صوتي عادياً هادئاً، لكني كنت أرتعد... أحسست أن ساقَيَّ تهتزان... غير ثابتتين.

لم أشترِ الجريدة. لكني لم أستطع مقاومة قراءة القصة في الإنترنت. يبدو الأمر كله غامضاً بعض الشيء. زعم أصحاب القصة بأن «مصادر مقرَّبة من التحقيق» قالت إن ميغان «قد تكون متورّطة في قتل طفلتها» منذ عشر سنوات. وتخمّن تلك «المصادر» أن هذا الأمر يمكن أن يكون الدافع وراء قتلها. لكن المحقق المسؤول عن القضية كلها. اسمه غاسغيل؛ ذلك الشخص الذي أتى للحديث معنا بعد اختفاء ميغان، لم يدلِ بأيّ تعليق.

اتصل بي توم. كان في استراحة بين اجتماعين. ليس قادراً على العودة إلى البيت. حاول تهدئتي. أظهر الانفعالات المناسبة كلها. قال لي إن من المحتمل كثيراً أن يكون هذا كله كلاماً فارغاً. «تعرفين أنك لا تستطيعين تصديق نصف ما تنشره الصحف». لم أتكلم كثيراً لأنه كان أصلاً صاحب الاقتراح بأن تأتي ميغان لتساعدني في رعاية إيفي. لا بد أن إحساسه فظيع الآن.

إنه على حق. قد لا تكون القصة صحيحة أصلاً. لكن، من عساه يختلق قصة من هذا النوع؟ لماذا يخترع المرء شيئاً كهذا؟ ثم إنني لا أستطيع منع نفسي عن التفكير... فقد كنت أعرف. كنت أعرف أن هناك شيئاً غير طبيعي في تلك المرأة. ظننت في البداية أنها غير ناضجة بعض

الشيء، لا أكثر. لكن الأمر كان يتجاوز ذلك. كانت غائبة نوعاً ما. كانت غارقة في نفسها. لن أحاول الكذب. إنني سعيدة برحيلها... إلى بئس المصير.

في المساء

إنني في الأعلى، في غرفة النوم. توم جالس مع إيفي يشاهدان التلفزيون. إننا لا نتكلم. والذنب ذنبي. هاجمته فور دخوله باب البيت.

كان ذلك يتراكم في داخلي طيلة النهار. لم أستطع منْع نفسي؛ ولم أستطع الاختباء... كنت أراها حيثما نظرت... في كل مكان. هنا، في بيتي، تحمل ابنتي، تطعم ابنتي، تغنّي لابنتي، تلعب معها بينما أغفو أنا قليلاً. كنت أفكر في تلك الأوقات التي تركت خلالها إيفي وحدها مع تلك المرأة. جعلني ذلك في حالة فظيعة من الغثيان.

وعند ذلك جاءني جنون الارتياب... الشعور بأنني كنت مراقَبة طيلة فترة عيشي في هذا البيت، طيلة هذه الفترة كلها. في البداية، كنت أعزو الأمر إلى القطارات. كل تلك الأجساد التي لا وجود لها تحدِّق بي من النوافذ، تحدِّق بنا... تجعل القشعريرة تسري في جسمي. كان هذا واحداً من الأسباب التي جعلتني غير راغبة في الانتقال إلى هذا البيت أصلاً. لكن توم لم يكن يريد تركه. قال إننا سنخسر مالاً كثيراً إذا بعناه.

كانت القطارات في البداية ثم ريتشل. ريتشل التي تراقبنا، تظهر أمامنا في الشارع، تتصل بنا طيلة الوقت. ثم ميغان... عندما كانت هنا مع إيفي: كنت أشعر دائماً أنها تراقبني... كأنها تقيّمني، تقيّم أمومتي، تدينني لأنني غير قادرة على الاعتناء بطفلتي وحدي. أعرف أن هذا سُخف. لكنني أفكر عند ذلك في اليوم الذي جاءت فيه ريتشل إلى البيت وأخذت إيفي... فيبرد جسمي كله وأقول في نفسي إن هذا ليس سخفاً على الإطلاق.

وهكذا، كنت أغلي... كنت مستعدة للقتال عندما وصل توم إلى البيت. أعطيته إنذاراً نهائياً: علينا أن نترك هذا البيت. لن أبقى في هذا البيت أبداً، لن أبقى في هذا الشارع وأنا أعرف كل ما جرى هنا. أينما نظرت الآن، صار عليَّ أن أرى ميغان أيضاً. لا ريتشل فقط. صار عليَّ أن أفكر في كل شيء لمسته ميغان. هذا كثير جداً. قلت له إنني لا أبالي إن حصلنا على سعر جيد أو لم نحصل على سعر جيد مقابل البيت.

قال لي: «سوف تبالين عندما تضطرين إلى العيش في بيت أسوأ من هذا بكثير، وعندما لا نستطيع أن نسدّد أقساط الرهن؛ هذا منطقي تماماً». سألته إن كان يستطيع طلب مساعدة من والديه. إن لديهما مالاً كثيراً ـ لكنه قال إنه لن يطلب منهما شيئاً... لن يطلب منهما شيئاً بعد الآن. وعندها غضب وقال إنه لم يعد يريد أي حديث في هذا الأمر. كان ذلك بسبب المعاملة التي تلقّاها من والديه عندما ترك ريتشل من أجلي. ما كان يجوز لي حتى أن أذكرهما. هذا يزعجه ويغضبه دائماً.

لكني لا أستطيع منع نفسي. أشعر باليأس لأنني أراها الآن كلما أغمضت عينَيّ... أراها جالسة هناك عند طاولة المطبخ حاملة إيفي في حضنها. أراها تلاعبها وتبتسم لها وتثرثر معها؛ لكن الأمر لم يبدُ حقيقياً أبداً... لم يبدُ عليها أبداً أنها كانت تريد الوجود هنا. كنت أحس دائماً أنها تكون سعيدة عندما يحين موعد ذهابها فتناولني إيفي. كان ذلك كأنها تكره الإحساس بوجود طفل بين ذراعيها.

ريتشل

الأربعاء، 7 آب/ أغسطس 2013

في المساء

الحرارة لا تُطاق... تزداد، ثم تزداد. شبابيك الشقة مفتوحة؛ أستطيع تذوّق أول أكسيد الكربون متصاعداً من الشارع، في الأسفل. حلقي يحكّني من الداخل. وبينما آخذ حمّامي الثاني هذا اليوم، أسمع هاتفي يرن. أتركه يرن؛ لكنه يرن مرة ثانية. ثم يرن أيضاً. عندما خرجت من الحمام، أجده يرن للمرة الرابعة، فأجيب.

إنه مذعور الصوت، مبهور الأنفاس. يصلني صوته متقطعاً. يقول: «لا أستطيع الذهاب إلى البيت. هناك كاميرات في كل مكان».

«سكوت؟».

«أعرف أن هذا... هذا أمر غريب حقاً، لكنني في حاجة فقط إلى مكان أذهب إليه... مكان لا أجدهم فيه ينتظرونني. لا أستطيع الذهاب إلى أمّي، ولا إلى أصدقائي. إنني، فقط... أتجول بالسيارة. إنني أقودها منذ مغادرتي قسم الشرطة»... يتقطَّع صوته ... «أنا في حاجة إلى ساعة أو اثنتين فقط. أحتاج إلى الجلوس، والتفكير. من غير وجودهم، من غير الشرطة، من غير أشخاص يطرحون عليَّ أسئلة بغيضة. إنني آسف، لكن هل أستطيع القدوم إلى بيتك؟».

أقول له نعم... بالطبع. ليس فقط لأنه يبدو مذعوراً يائساً... بل

لأنني أريد أن أراه. أريد أن أساعده. أعطيه العنوان فيقول لي إنه سيصل بعد ربع ساعة.

أسمع جرس البيت بعد عشر دقائق: دقات قصيرة، حادّة، متلاحقة.

يقول لي عندما أفتح الباب: «يؤسفني أن أطلب هذا. لم أعرف أين أذهب». تبدو عليه هيئة شخص ملاحَق: إنه مرتعد، شاحب، والعرق يغطّي جلده.

«لا بأس، لا بأس»... أقول له وأنا أتنحّى جانباً حتى أفسح له الطريق. أقوده إلى غرفة المعيشة وأقول له أن يجلس. أحضرُ له كأس ماء من المطبخ. يشرب الماء، بجرعة واحدة تقريباً، ثم يجلس منحنياً واضعاً ذراعيه على ركبتيه منكّساً رأسه.

أحوم من حوله غير عارفة إن كان علي أن أتكلم أو أن أمسك لساني. آخذ الكأس لأجلب له الماء من جديد... من غير أن أقول له شيئاً. يبدأ الكلام أخيراً. يقول بصوت هادئ: «تظنين أن الأسوأ قد حدث... أقصد، لا بد أنك تظنّين ذلك؟» يرفع رأسه ناظراً إليّ... «زوجتي ماتت، والشرطة تظن أنني قتلتها. ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من هذا؟ إنه يشير إلى تلك الأخبار في الصحف، إلى الأشياء التي يقولونها عنها. هذه القصة الفضائحية التي يفترض أن أحداً في الشرطة قد سرّبها في الصحافة... قصة تورّط ميغان في قتل طفلتها. شيء غامض، تخمينات، حملة لتشويه سمعة امرأة ميتة. إنه أمر بغيض».

أقول له: «لكن هذا ليس صحيحاً. لا يمكن أن يكون صحيحاً». وجهه خالٍ من التعبير... غير فاهم شيئاً. يقول لي: «أخبرَتني المحققة رايلي هذا الصباح...» يسعل حتى يتمكن من الكلام... «الأخبار التي انتظرتها دائماً. لا تستطيعين تخيل هذا». يتابع كلامه لكن صوته يصبح همساً... لا أكثر... «لا تعرفين كم كنت أتوق لهذا. كنت أحلم به، أتخيل كيف سيكون شكلها، وكيف ستبتسم لي، خجول... عارفة، كيف

ستمسك بيدي وتضغطها فوق شفتيها...» إنه ضائع... إنه يحلم... لا أفهم أبداً ما يتحدث عنه. يقول: «اليوم... عرفت اليوم أن ميغان كانت حُبلى».

يبدأ البكاء... وأنا أختنق أيضاً، أبكي من أجل جنين لم يوجد قط، أبكي من أجل طفلة امرأة لم أعرفها أبداً. لكن هذا مرعب، أكثر بكثير مما أستطيع احتماله. لا يمكنني أن أفهم كيف يستطيع سكوت مواصلة التنفس. كان يجب أن يقتله هذا، كان يجب أن يعتصر روحه من جسده. لكنه... لا أدري كيف... لا يزال هنا.

لا أستطيع الكلام، لا أستطيع الحركة. غرفة المعيشة حارّة لا هواء فيها رغم النوافذ المفتوحة. أسمع أصواتاً من الشارع، في الأسفل: صفارة سيارة شرطة، صبايا تصحن وتضحكن، وموسيقى من سيارة عابرة. حياة عادية، طبيعية. أما هنا، فإن العالم ينتهي. ينتهي العالم بالنسبة لسكوت؛ وأنا لا أستطيع الكلام. إنني واقفة هناك، خرساء، عاجزة، لا نفع لي.

أظل هكذا حتى أسمع خطوات على الدرجات في الخارج، أسمع صوت ذلك البحث المألوف في حقيبة كاثي الكبيرة حتى تعثر على مفاتيحها. يردّني هذا إلى الحياة. عليَّ أن أفعل شيئاً: أمسك بيد سكوت فينظر إلي... متحفّزاً.

أقول وأنا أشده لينهض: «تعال معي». يتركني أجرّه إلى الردهة ثم أصعد به السلم قبل أن تفلح كاثي في فتح الباب. أغلق باب غرفتي من خلفنا.

أقول له مفسّرة ما جرى: «إنها شريكتي في السكن. سوف... قد تطرح أسئلة. أعرف أنك لا تريد هذا الآن».

يومئ برأسه. ينظر من حوله في غرفتي الضئيلة... يرى الفراش غير المرتب، والملابس... نظيفة ووسخة... مكوَّمة فوق كرسي المكتب، والجدران العارية، والأثاث الرخيص. أشعر بالإحراج. هذه هي حياتي:

فوضوية، بائسة، صغيرة. شيء لا يصدَّق. أفكر في هذا، وأفكر أيضاً في مدى سخفي... كيف أتخيل أن سكوت يمكن أن يبالي بحالة حياتي... في هذه اللحظة.

أشير له بأن يجلس على السرير. يطيعني وهو يمسح عينيه بظهر كَفَّيه. يتنفس تنفساً ثقيلاً.

أسأله: «هل أستطيع أن أحضر لك شيئاً؟».

«هل لديك بيرة؟».

أقول: «لا أحتفظ بمشروبات كحولية في البيت». أحس باحمرار وجهي عندما أقول هذا. لكن سكوت لا يلاحظ شيئاً؛ بل إنه لا يرفع رأسه لينظر إلي. «أستطيع أن أعدّ لك فنجاناً من الشاي، هل تريد شاياً؟». يومئ برأسه من جديد. فأقول له: «استلقِ الآن. استرِح قليلاً». يفعل كما قلت له فيخلع حذاءه ويستلقي إلى الخلف على السرير مطيعاً مثل طفل مريض.

في الأسفل، أتبادل حديثاً قصيراً مع كاثي ريثما يغلي الماء. أصغي إليها متحدثة عن مكان جديد للغداء اكتشفته في نورثكورت («سلطات جيدة حقاً»)؛ وكم هي مزعجة تلك المرأة الجديدة في العمل. ابتسم لها وأومئ برأسي، لكنني أسمعها بأذن واحدة فقط. جسدي متوتر: أصغي إلى صوت صادر عنه، خطوات أقدام، أو قرقعة السرير. يبدو وجوده هنا غير حقيقي... وجوده في سريري في الأعلى. أشعر بالدوار عندما أفكر في هذا... كأنني أحلم.

تتوقف كاثي عن الكلام أخيراً ثم تنظر إليّ. تقطِّب حاجبيها وتسألني: «هل أنت بخير؟ يبدو عليك... كأنك لست هنا».

أقول لها: «إنني متعَبة قليلاً. لست أشعر بأنني على ما يرام. أظن أنني سأذهب إلى فراشي». تنظر إليّ تلك النظرة. تعرف أنني لم أكن أشرب (تستطيع أن تعرف ذلك دائماً)؛ لكنها تفترض... على الأرجح...

أني موشكة على البدء من جديد. لست أبالي. لا أستطيع التفكير في هذا الآن. أحمل فنجان الشاي، وأقول لها إنني سأراها في الصباح.

أقف خارج باب غرفتي مصغية. الغرفة هادئة. أمسك مقبض الباب بحذر، ثم أدفع الباب لأفتحه. إنه مستلقٍ هناك، تماماً في الوضع نفسه مثلما تركته. يداه ممتدتان إلى جانبيه، وعيناه مغمضتان. أستطيع سماع تنفسه، خفيفاً غير منتظم تماماً. يشغل جسمه نصف السرير؛ لكن شيئاً يغريني بأن أستلقي إلى جانبه، في الحيّز الباقي، وأن أضع ذراعي فوق صدره... لأريحه. لكنني أسعل سعلة صغيرة وأمدّ له فنجان الشاي.

يجلس في السرير، ثم يقول بصوت خشن وهو يتناول الفنجان مني: «شكراً لك! على... منحي مكاناً آمناً هنا. لقد كان... لا أستطيع أن أصف لك ذلك، منذ أن نشروا تلك القصة».

«هل تقصد القصة التي تتحدث عما جرى منذ سنوات؟».

«نعم، تلك هي».

هناك تخمينات كثيرة في تفسير كيفية حصول الصحف الصفراء على هذه القصة. تخمينات صاخبة... تشير أصابع الاتهام إلى الشرطة، وإلى كمال أبديك، وإلى سكوت.

أقول له: «إنها كذبة، أليس كذلك؟».

«طبعاً، إنها كذبة. لكنها تعطي دافعاً لشخص ما، أليس كذلك؟ أقصد ما يقولون ـ ميغان وطفلتها- وهذا من شأنه أن يعطي الدافع، لشخص ما ـ لعله والد ذلك الطفل ـ يعطيه دافعاً لقتلها. بعد تلك الحادثة بسنوات وسنوات».

«هذه سخافة».

«لكن، تعرفين ما يقوله الجميع. يقولون إنني اختلقت هذه القصة لا لأجعلها تبدو شخصاً سيئاً فقط بل لأدفع الشبهات بعيداً عني،

لأجعلها تتجه صوب شخص غير معروف، شخص ما من ماضيها لا يعرفه أحد».

أجلس إلى جانبه، على السرير. تكاد ساقانا تتلامسان.

«ماذا تقول الشرطة عن هذا الأمر؟».

يرفع كتفيه: «لا شيء في الحقيقة. إنهم يسألونني إن كنت أعرف شيئاً عن هذا. هل كنت أعرف أنها أنجبت طفلة من قبل؟ هل كنت أعرف ما حدث؟ هل كنت أعرف هويَّة الأب؟ قلت لهم إنني لا أعرف. هذا كلام فارغ كله... إنها لم تحبل أبداً». يعجز صوته عن الاستمرار. يتوقف ويأخذ رشفة من فنجانه. «سألتهم عن مصدر تلك القصة، وعن من أعطاها للصحف. قالوا لا يستطيعون إخباري. لكني أفترض أنها أتت منه... من أبديك». يطلق زفرة طويلة مرتجفة... «لا أفهم السبب. لا أفهم ما يجعله يقول عنها أشياء من هذا القبيل. لا أعرف ما يحاول فعله. من الواضح أنه شخص مضطرب تماماً».

أفكر في الرجل الذي قابلته ذلك اليوم: في طبعه الهادئ، وصوته الناعم، والدفء في عينيه. إنه أبعد ما يكون عن الاضطراب. لكن... تلك الابتسامة». أقول له: «إن نشر هذه الأشياء شيء مخز. لا بد أن هناك أنظمة...».

يقول: «لا يجوز التشهير بالموتى». يسكت لحظة ثم يقول من جديد: «لقد أكّدوا لي أنهم لن يقدموا أي معلومات عن هذا الأمر... أقصد، عن حبلها. ليس بعد. ربما لن يقولوا شيئاً على الإطلاق. لكن من المؤكد أنهم لن يقولوا شيئاً قبل أن يعرفوا الأمر على وجه التأكيد».

«حتى يعرفوا ماذا؟».

قال: «الطفل ليس طفل أبديك».

«وهل أجروا فحص الـ دي إن إيه؟».

يهز رأسه: «لا! لكني أعرف. لا أستطيع أن أحدد كيف، لكنني أعرف. إن الطفل طفلي أنا... كان طفلي».

«إن كان أبديك يظن أن الطفل طفله هو، فإن هذا يعطيه دافعاً للقتل، أليس كذلك؟». لن يكون أول شخص يتخلّص من طفل لا يريده عن طريق التخلص من أمه. لكني لا أقول هذه الكلمات بصوت مرتفع. ولا أقول الكلمات التالية أيضاً... إنه يعطي سكوت دافعاً للقتل أيضاً. إن كان يظن أن زوجته تحمل طفل شخص آخر... لكن، لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك. صدمته، ومعاناته، لا بد أنها أشياء حقيقية. لا يستطيع أحد إجادة التمثيل إلى هذا الحد.

لا يبدو على سكوت أنه مصغٍ إليّ. كانت عيناه مثبتتين على باب الغرفة... عينان مزجَّجتان... يبدو غارقاً في السرير كأنه جالس في رمال متحركة.

أقول له: «يجب أن تظل هنا فترة. حاول أن تنام».

ينظر إليّ عند ذلك، ويكاد يبتسم. يسألني: «ألا تمانعين؟ سوف يكون هذا... سأكون شاكراً لك. أجد النوم صعباً في البيت. ليس بسبب الناس الذين في الخارج فقط، وليس بسبب فكرة وجود أشخاص يحاولون الانقضاض عليَّ. ليس الأمر كذلك فحسب. إنها هي. إنها في كل مكان. لا أستطيع عدم رؤيتها. أمضي لأهبط إلى الأسفل، ولا أنظر... أجبر نفسي على عدم النظر. لكنني أتجاوز النافذة، ثم أجد نفسي أعود إليها لأتأكد من أنها ليست جالسة هناك، على الشرفة». أحس بوخز الدموع في عينَيّ عندما يقول هذا. «كانت تحب الجلوس على تلك الشرفة... هل ترين هذا ـ تحب الجلوس على تلك الشرفة الصغيرة لدينا. كانت تحب الجلوس في الخارج، هناك، تنظر إلى القطارات».

أقول له وأنا أضع يدي على ذراعه: «أعرف. كنت أراها أحياناً جالسة هناك».

يقول لي: «أسمع صوتها دائماً. أسمع صوتها يناديني. أستلقي في السرير فأسمع صوتها يناديني من الخارج. أظن دائماً أنها موجودة هناك». إنه يرتجف.

أقول له: «استلقِ الآن». آخذ الفنجان من يده... «عليك أن تستريح».

عندما أتأكد من أنه غرق في نومه، أستلقي إلى جانبه، خلف ظهره. لا يبعد وجهي عن كتفه إلا بضعة سنتيمترات. أغمض عيني وأصغي إلى ضربات قلبي، أصغي إلى خفقان الدم في رقبتي. أستنشق رائحته الحزينة الواهنة.

وعندما أستيقظ بعد ساعات، أجد أنه قد ذهب.

الخميس، 8 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

أحس أنني أرتكب خيانة. لقد تركني منذ ساعات فقط. وها أنا هنا الآن، في طريقي لرؤية كمال... في طريقي مرة أخرى إلى ذلك الرجل الذي يعتقد أنه قتل زوجته... قتل طفله. أشعر بالغثيان. أسأل نفسي إن كان علي أن أخبره بخطتي، وأن أشرح له أنني أفعل هذا كله من أجله هو. لكني لست واثقة من أنني أفعل هذا من أجله فقط... ثم إنني لا أملك خطة في حقيقة الأمر.

سوف أكشف اليوم شيئاً من نفسي.

تلك هي خطتي لهذا اليوم. سأتحدث عن شيء حقيقي. سأحدِّثه عن أنني رغبت في الإنجاب وسأرى إن كان ذلك سيثير شيئاً لديه ـ رد فعل غير طبيعي، أو أي نوع من الاستجابة. سأرى ما يمكن أن يؤدي إليه ذلك.

سوف أرى أين يأخذني ذلك.

لن يأخذني ذلك إلى أي مكان.

يبدأ بأن يسألني عن إحساسي الآن... كيف صرت أرى نفسي، ومتى كانت آخر مرة تناولت فيها كحولاً.

أقول له: «يوم الأحد».

«جيد! هذا جيد» يضم كفَّيه في حجره... «تبدين في حالٍ طيبة». يبتسم ثم... لا أرى أمامي قاتلاً. أسأل نفسي الآن عما رأيته ذلك اليوم. هل تخيلت ذلك؟

أقول: «سألتني في المرة الماضية عن الشرب... كيف بدأ؟». يومئ برأسه فأتابع... «أصابني اكتئاب. كنا نحاول... كنت أحاول أن أحبل. لم أستطعِ، فأصابني الاكتئاب. عندها بدأ الأمر». وعلى الفور، على الفور تماماً، وجدت نفسي أبكي من جديد. إن مقاومة لطف الغرباء أمر مستحيل. ينظر شخص إليك، شخص لا يعرفك، فيقول لك إن كل شيء سيكون على ما يرام... مهما يكن الشيء الذي فعلته، مهما يكن الشيء الذي تفعله: لقد عانيت، وتألمت، وأنت تستحق الغفران الآن. أوليه ثقتي، وأسرّ له ما بنفسي، وأنسى من جديد ما جئت أفعله هنا. لا أراقب وجهه بحثاً عن استجاباته، ولا أدرس عينيه علّني ألمح فيهما علامة شك أو إحساس بالذنب. أسمح له بأن يشيع الراحة في نفسي.

إنه لطيف، عقلاني. يحدثني عن استراتيجيات التلاؤم، ويذكرني بأن شبابي يقف في صفي.

إذاً... لعل هذا يأخذني إلى مكان ما، يعطيني نتيجة، لأنني أغادر مكتب كمال أبديك وأنا أحسّ نفسي أخف وزناً وأكبر أملاً. لقد ساعدني. أجلس في القطار وأحاول قراءة ملامح القاتل الذي رأيته؛ لكنني ما عدت قادرة على رؤيته الآن. أحاول جاهدة أن أراه رجلاً قادراً على ضرب امرأة، على سحق جمجمتها.

تأتيني صورة مفزعة، مخجلة: كمال بيديه الرشيقتين، وطبعه المطمئن، وكلامه الهادئ الصافر قليلاً... في مقابل سكوت الضخم القوي اليائس ذي الطبع البرّي. يجب أن أذكّر نفسي بأن هذه هي حالة سكوت الآن... لم يكن هكذا من قبل. ويجب أن أتابع تذكير نفسي بما كان سكوت عليه قبل أن يبدأ هذا كله. لكنني أجد نفسي مضطرة إلى الاعتراف بأنني لا أعرف كيف كان سكوت قبل أن يبدأ هذا كله.

الجمعة، 9 آب/ أغسطس 2013

في المساء

يتوقف القطار عند الإشارة. أرتشف جرعة من عبوة الجن والتونيك الباردة، ثم أنظر نحو بيته، نحو شرفتها. لقد التزمتُ بعدم الشراب، لكنني في حاجة إلى هذا الآن. يسمونها 'الشجاعة الهولندية'. إنني في طريقي لرؤية سكوت. وعليّ أن أخوض مخاطرات شارع بلينهايم قبل أن أصل إليه: توم، وآنّا، والشرطة، والصحافة. والنفق الذي تصاحبه تلك الذكرى الغامضة، نصف الذكرى عن الرعب والدم. لكنه طلب مني المجيء فلم أستطع الرفض.

لقد وجدوا جثة الطفلة الصغيرة الليلة الماضية. وجدوا ما بقي منها. وجدوها مدفونة في الأرض المحيطة ببيت مزرعة قريباً من ساحل إيست أنغليان... تماماً حيث قال لهم أحد الأشخاص أن يبحثوا. تحدثت الصحف عن الأمر هذا الصباح:

فتحت الشرطة تحقيقاً في وفاة طفلة وجدوا بقاياها مدفونة في حديقة أحد البيوت بالقرب من هولكام في منطقة نورفولك، وقد اكتشفت الجثة بعد بلاغ للشرطة عن احتمال وقوع جريمة قتل في الماضي، وذلك في سياق التحقيق في مقتل ميغان هيبويل من ويتني التي عثر على جثتها في غابة كورلي الأسبوع الماضي.

اتصلت بسكوت هذا الصباح عندما قرأت الأخبار. لم يجبني، فتركت له رسالة عبّرت فيها عن أسفي لسماع هذه الأخبار. اتصل بي بعد الظهر.

سألته: «هل أنت بخير؟».

«ليس تماماً». كان صوته كثيفاً من أثر الشراب.

«إنني آسفة جداً... هل أنت في حاجة إلى شيء؟».

«أحتاج إلى وجود شخص لا يقول لي: ألم أقل لك؟».

«عفواً، ماذا تقصد؟».

«كانت أمي هنا، طيلة بعد الظهر. تجد أن عليها إفهامي أنها كانت مدركة كل شيء ـ *هناك أمر غير طبيعي في ما يخص هذه الفتاة، أمر غير مألوف... لا أسرة لها، ولا أصدقاء... جاءت من لا مكان*– لماذا لم تقل لي هذا الكلام من قبل؟». سمعت صوت زجاج يتحطم... وسباب.

أسأله من جديد: «هل أنت بخير؟».

سألني: «هل تستطيعين المجيء إلى هنا».

«إلى البيت؟».

«نعم».

«أنا... الشرطة... الصحافيون... لست واثقة من...».

«أرجوك! إنني في حاجة إلى وجود أحد معي؛ وجود شخص كان يعرف ميغان، يحبّها. شخص لا يصدق هذا كله...».

كان ثملاً. أدرك ذلك لكنني قلت له إنني سآتي.

وأنا أشرب الآن أيضاً... أشرب في القطار، وأفكر في ما قاله لي. *أريد شخصاً كان يعرف ميغان، يحبها*. لم أكن أعرفها؛ ولست واثقة من أنني لا أزال أحبها. أنهي العبوة بأسرع ما استطعت، ثم أفتح عبوة أخرى.

أغادر القطار عند ويتني. إنني جزء من حركة العائدين من أعمالهم مساء الجمعة: عبد آخر من عبيد الرواتب، وسط هذا الجمهور المتعَب الذي يشعر بالحر، الجمهور المتشوّق للوصول إلى البيت والجلوس في الخارج لتناول بيرة باردة، للعشاء مع الأطفال، وللنوم في وقت غير متأخّر. قد يكون إحساسي هذا بسبب الشراب فقط، لكني أشعر... على نحو لا أستطيع نفيه... بحال طيبة عندما أجد نفسي منجرفة مع هؤلاء الناس... يتفقّد كل واحد منهم هاتفه، ويبحث في جيوبه عن بطاقة القطار. أعود بالزمن إلى الخلف، أعود زمناً طويلاً إلى أول صيف عشته في شارع بلينهايم عندما كنت أعود إلى البيت كل ليلة بعد العمل، وأستعجل هبوط السلم والخروج من المحطة، ثم أسير نصف راكضة في ذلك الشارع. كان توم يعمل من البيت. وما كنت أكاد أدخل الباب حتى يبدأ خلع ملابسي عني. أجد نفسي ابتسم عندما أتذكر هذا... حتى الآن... عندما أتذكر ذلك التوقّع، ذلك التَوْق: ترتفع الحرارة إلى خدي عندما أنحدر سائرة صوب الشارع، وأعضّ على شفتي حتى أمنع نفسي من الضحك... تتسارع أنفاسي وأنا أفكر فيه عارفة أنه يعدّ الدقائق الباقية قبل وصولي إلى البيت... مثلما أفعل أنا.

تملأ تلك الأيام رأسي إلى حدٍّ يجعلني أنسى قلقي من مصادفة توم أو آنّا، أنسى قلقي من الشرطة والمصورين... وقبل أن أدرك ذلك، أجد نفسي عند باب سكوت، أقرع الجرس فينفتح الباب. أشعر بالإثارة رغم أنني لا يجوز أن أشعر بالإثارة... لكنني لا أحس ذنباً تجاه هذا لأن ميغان ليست مثلما ظننت أبداً. لم تكن جميلة إلى ذلك الحد الذي تخيَّلت، ولم تكن فتاة خالية البال جالسة على شرفتها. ما كانت ميغان زوجة محبّة. وما كانت حتى شخصاً جيداً. لقد كانت كاذبة، غشّاشة.

لقد كانت قاتلة.

ميغان

الخميس، 20 تموز/ يوليو 2013

في المساء

إنني جالسة على الأريكة في غرفة المعيشة لديه، وفي يدي كأس من النبيذ. لا يزال البيت في حالة فوضى. أتساءل إن كان يعيش على هذا النحو دائماً... مثل صبيٍّ مراهق! ثم أفكر في أن حياته قد تكون كذلك فعلاً لأنه فقد أسرته عندما كان مراهقاً. أشعر بالحزن عليه. يعود من المطبخ ويجلس إلى جانبي... قريباً مني إلى حد مريح. لو استطعت لأتيت إلى هنا كل يوم، ساعة أو ساعتين فقط. سوف أجلس هنا وأشرب النبيذ وأحس بيده تلامس يدي.

لكني لا أستطيع! ثمة غاية من هذا. وهو يريدني أن أصل إليها.

يقول لي: «طيب يا ميغان! هل تحسّين أنك مستعدة الآن؟... هل أنت مستعدة لإكمال ما حدثتني عنه من قبل؟».

أميل إلى الخلف قليلاً، في اتجاهه... أستند إلى جسده الدافئ. يسمح لي بذلك. أغمض عيني فلا تستغرق عودتي زمناً طويلاً... عودتي إلى ذلك الحمام. هذا غريب لأني أمضيت وقتاً طويلاً في محاولة عدم التفكير في الأمر، عدم التفكير في تلك الأيام، وفي تلك الأشياء، لكني قادرة الآن على إغماض عيني فأعود إلى ذلك كله... على الفور تقريباً... مثل الإغفاء... مثلما يكون الأمر في منتصف الحلم.

كانت ظلمة، وكان الجو بارداً. لست في الحمّام الآن. «لا أعرف ما حدث بالضبط. أذكر أنني استيقظت، وأذكر أنني أدركت أن شيئاً سيئاً قد حدث. ثم كان أول ما عرفته بعد ذلك هو أن ماك موجود في البيت. إنه يناديني. أستطيع سماع صوته يناديني من الأسفل، يصيح باسمي، لكني لم أستطع الحركة. كنت جالسة على أرض الحمّام؛ وكانت بين ذراعي. لا يزال المطر مستمراً، وهنالك فرقعة تصدر من عوارض السقف. برد شديد. صعد ماك السلم وهو مستمر في مناداتي ـ وصل إلى الباب، ثم أشعل الضوء. أستطيع الإحساس بهذا الضوء الآن، بالضوء الذي أحرق عينيّ... صار كل شيء أبيض لامعاً، مرعباً».

«أذكر أني صرخت طالبة منه إطفاء الضوء. لم أرد أن أرى، لم أرد النظر إليها وهي في تلك الحال. لست أدري، لست أدري ما حدث عند ذلك. كان يصرخ عليّ؛ يزعق في وجهي. ناولته إياها، ثم جريت. جريت خارجة من البيت، تحت المطر... جريت حتى الشاطئ. لا أذكر ما حدث بعد هذا. مرّ وقت طويل قبل أن يأتي بحثاً عني. كان المطر مستمراً. أظن أنني كنت بين الكثبان. فكرت أن أرمي نفسي في الماء، لكني كنت مذعورة إلى حد منعني من ذلك. جاء يبحث عني أخيراً. وأخذني إلى البيت».

«دفنّاها في الصباح. لففتها بواحدة من ملاءات السرير. حفر ماك القبر. دفنّاها عند حافة الأرض، بالقرب من سكة القطار غير المستخدَمة. وضعنا حجارة فوق القبر لتكون علامة تشير إليه. لم نتكلم عن ذلك، ولم نتكلم عن أي شيء. لم ينظر أحدنا إلى الآخر. خرج ماك تلك الليلة. قال إن عليه أن يقابل أحداً. ظننت أنه يمكن أن يكون ذاهباً إلى الشرطة. لم أعرف ما أفعل. انتظرت عودته فقط، انتظرت مجيء أحد ما. لم يعد ماك بعد ذلك. لم يعد أبداً».

أجلس في غرفة المعيشة الدافئة في بيت كمال. جسده الدافئ إلى جانبي... وأنا أرتجف. أقول له: «لا أزال أحس بهذا! تلك الليلة،

لا أزال أستطيع الإحساس بها. إنها الشيء الذي يخيفني، الشيء الذي يبقيني مستيقظة: إحساسي بأنني وحيدة في ذلك البيت. كنت مذعورة كثيراً... مذعورة إلى درجة منعتني من النوم. كنت أدور في تلك الغرف المظلمة فأسمعها تبكي وأشم رائحة جلدها. كنت أرى أشياء. كنت أستيقظ في الليل واثقة من أن في البيت شخصاً آخر ـ أو شيئاً آخر ـ موجوداً معي... موجوداً في البيت معي. ظننت أنني جننت. ظننت أنني مُوشكة على الموت. فكرت في أن أظل هناك، وفي أن أحداً سيأتي ذات يوم فيجدني. هكذا... لن أكون قد تركتها... على الأقل». أنحني لآخذ منديلاً من العلبة على الطاولة لأمسح أنفي. تنزلق يد كمال على ظهري، إلى أسفله، وتظل هناك.

«وفي النهاية، لم تكن لديّ شجاعة تكفي للبقاء في البيت. أظن أنني انتظرت عشرة أيام، ثم لم يبق شيء آكله ... لا علبة فاصولياء، لا شيء. حزمتُ حوائجي، ورحلت».

«هل رأيت ماك بعد ذلك؟».

«لا، أبداً! رأيته آخر مرة في تلك الليلة. لم يقبّلني، بل لم يودّعني وداعاً حقيقياً. قال فقط إن عليه أن يخرج قليلاً». أرفع كتفي... «هذا ما جرى».

«هل حاولتِ الاتصال به؟».

أهزّ رأسي: «لا! كنت خائفة كثيراً، في البداية. لم أعرف ماذا يمكن أن يفعل إذا استطعت التواصل معه. ثم إنني لم أكن أعرف شيئاً عن مكان وجوده ـ ولم يكن لديه هاتف محمول. فقدت اتصالي بالأشخاص الذين يعرفهم. كان أصحابه أشبه بالبدو الرحّل، من مختلف الأشكال. هيبيون، ورحّالة متجوّلون. منذ أشهر قليلة، بعد حديثنا عنه، حاولت البحث عنه في غوغل. لكن لم أستطع العثور عليه. هذا غريب...».

«ما هو؟».

«في الأيام الأولى، كنت أراه طيلة الوقت. في الشارع مثلاً؛ أو أرى رجلاً في البار فأكون واثقة من أنه هو... ويتسارع خفقان قلبي... أخاف. كنت أسمع صوته بين الناس. لكن هذا توقف منذ زمن بعيد. والآن ـ أظن أنه ميت».

«ولماذا تظنين هذا؟»

«لست أدري. إنه، فقط... فقط أحسّ أنه ميت».

يعتدل كمال في جلسته ويزيح جسمه مبتعداً عني قليلاً، بلطف. يستدير فيواجهني.

«أظن أن هذا من فعل خيالك فقط، على الأرجح، يا ميغان. من الطبيعي أن تظنّي أنكِ ترين أشخاصاً شغلوا مساحة كبيرة من حياتك، بعد مفارقتهم. في الأيام الأولى، كنت ألمح إخوتي هنا وهناك، طيلة الوقت. أما إحساسك بأنه ميت، فقد يكون مجرد نتيجة طبيعية لغيابه عن حياتك كل هذا الوقت. أقصد أنه لم يعد يبدو حقيقياً بالنسبة لك، بمعنى من المعاني».

إنه يعود إلى وضعية المعالج النفسي الآن؛ لم نعد مجرَّد صديقَيْن جالسَيْن على الأريكة. أود أن أمدّ يدي إليه لأشده إليّ من جديد؛ لكنني لا أريد أن أتعدّى أي حدود. أفكر في المرة الأخيرة، عندما قبلته قبل أن أذهب ـ تلك النظرة على وجهه... التوق، والإحباط، والغضب.

«لا أدري إن كنت الآن، بعد أن تحدثنا عن هذا الأمر، وبعد أن أخبرتني بقصتك، إن كان مفيداً لك أن تحاولي التواصل مع ماك. يمكن أن يوفّر هذا نهاية أو ختاماً لذلك الفصل في ماضيك». كنت أعرف أنه سيطرح هذا الاقتراح. أقول له: «لا أستطيع! لا أستطيع!»

«فكِّري في الأمر للحظة فقط».

«لا أستطيع! ماذا لو أنه لا يزال يكرهني؟ ماذا لو أدى ذلك إلى استرجاع الأمر كله؛ أو إذا جعله يذهب إلى الشرطة؟»... ماذا لو. لا

أستطيع قول هذا بصوت مسموع، لا أستطيع حتى أن أهمس به. ماذا لو أخبر سكوت بحقيقتي؟

يهزّ كمال رأسه: «لعله لا يكرهك أصلاً يا ميغان. لعله لم يكرهك أبداً. لعله خائف، هو أيضاً. لعله يشعر بالذنب. أفهم مما قلته لي إنه ليس شخصاً يتصرف بمسؤولية. لقد أخذ فتاة صغيرة جداً، فتاة في غاية الهشاشة، ثم تركها وحدها عندما كانت في حاجة إلى مساندته. ربما يدرك أنكما تتحملان مسؤولية مشتركة عما حدث. بل لعل هذا هو ما جعله يهرب».

لا أعرف إن كان يصدِّق هذا حقاً... أو أنه يحاول فقط أن يجعلني في حالة أفضل. لكني أعرف أن هذا غير صحيح. لا أستطيع لومه هو وتبرئة نفسي. عليَّ أنا أن أتحمل هذه المسؤولية.

يقول كمال: «لا أريد الضغط عليك لتفعلي شيئاً لا تريدين فعله. أريد منك فقط أن تفكري في احتمال أن يكون تواصلك مع ماك مفيداً، لا أقول هذا لأنني أرى أنك مدينة له بأي شيء. هل تدركين هذا؟ أظن أنه هو المدين لك. أفهم إحساسك بالذنب، أفهم هذا. لكنه هجرك، تخلّى عنك. كنت وحيدة، خائفة، مذعورة، حزينة. تركك وحدك في ذلك البيت. ليس غريباً ألا تستطيعين النوم. فكرة النوم نفسها تخيفك طبعاً: تخافين أن تغفي فيحدث لك شيء مخيف. والشخص الوحيد الذي كان عليه أن يساعدك تركك وحيدة».

في تلك اللحظات، عندما يقول لي كمال هذا الأشياء، لا أراها سيئة أبداً. عندما تنزلق الكلمات على لسانه، مغوية، دافئة، معسولة، أكاد أستطيع تصديقها، تقريباً. بل أكاد أصدق أيضاً أن هناك سبيلاً لأن أترك هذه الأمور خلف ظهري، أن أدعها ترتاح، وأن أذهب إلى سكوت وأعيش حياتي مثلما يفعل الناس الطبيعيون... أعيش من غير أن ألتفت لأنظر خلفي، ومن غير انتظار يائس لقدوم شيء أفضل. أهذا ما يفعله الناس الطبيعيون؟».

يسألني: «هل ستفكرين في الأمر؟»... يلمس كفّي عندما يقول هذه الكلمات. ابتسم له ابتسامة مشرقة وأقول إنني سأفكر. بل ربما أعني ذلك حقاً، لست أدري! يسير معي حتى الباب واضعاً ذراعه على كتفي. أود أن أستدير لأقبّله ثانية، لكنني لا أفعل.

أسأله بدلاً من ذلك: «هل ستكون هذه آخر مرة أراك؟» فيومئ برأسه... «ألا نستطيع... ؟».

«لا يا ميغان! لا نستطيع. علينا أن نفعل ما هو صحيح».

أرفع رأسي مبتسمة له. أقول: «أنا لست شديدة البراعة في ذلك... لم أكن بارعة في فعل الأشياء الصحيحة طيلة حياتي».

«تستطيعين أن تكوني كذلك. سوف تكونين كذلك. عودي إلى البيت الآن. اذهبي إلى زوجك».

أقف على الرصيف أمام بيته زمناً طويلاً بعد أن يغلق الباب. أحس أنني صرت أخف، أكثر حرية... لكن، أكثر حزناً أيضاً. وعلى نحو مفاجئ... لا أريد الآن إلا العودة إلى سكوت.

أستدير لأمضي صوب المحطة عندما يأتي رجل راكضٌ على الرصيف، واضعاً سماعات على أذنيه، خافضاً رأسه. إنه مندفع صوبي... أتراجع إلى الخلف محاولة الابتعاد عن طريقه. أنزلق على حافة الرصيف وأقع. لا يعتذر الرجل مني؛ بل إنه لا يلتفت إلي. صدمتي كبيرة... لا أستطيع الصراخ. أنهض على قدمَيَّ ثم أقف هناك مستندة إلى إحدى السيارات الواقفة، محاولة التقاط أنفاسي. كل ذلك السلام الذي أحسسته في بيت كمال... تحطّم الآن فجأة.

لم أدرك إلا بعد وصولي إلى البيت أنني جرحت يدي خلال سقوطي. لا بد أنني مسحت فمي بها في لحظة ما. شفتاي ملطختان بالدم.

ريتشل

السبت، 10 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

أستيقظ باكراً. أستطيع سماع سيارة القمامة هادرة في الشارع، وقرع المطر على النافذة. مصاريع النافذة الخارجية نصف مرفوعة ـ نسينا إغلاقها الليلة الماضية. ابتسم لنفسي. أشعر بوجوده خلفي، دافئاً، نعساً، صلباً. أحرك ردفي مقرّبة إياهما قليلاً منه. لن يستغرق الأمر زمناً طويلاً قبل أن يهتاج، ويمسك بي، ويقلبني على ظهري.

جاءني صوته: «ريتشل! لا تفعلي هذا!». أتجمد. لست في بيتي؛ هذا ليس بيتي. هذا خاطئ كله.

أنقلب لأنظر إليه. أراه جالساً الآن. ينزل ساقيْه من السرير مديراً ظهره لي. أغمض عينيَّ بشدة حتى أتذكر، لكن كل شيء مشوش. وعندما أفتحهما من جديد أستطيع التفكير بوضوح لأن هذه الغرفة هي الغرفة نفسها التي استيقظت فيها ألف مرة، أو أكثر: هذا هو مكان السرير؛ هذا هو المنظر نفسه ـ لو جلست الآن فسأكون قادرة على رؤية قمم أشجار البلوط على الناحية الأخرى من الشارع. وهناك الحمّام المنفصل، إلى اليسار، وإلى يمينه خزانة جدار. إنها الغرفة نفسها التي كنت أتقاسمها مع توم.

يقول من جديد: «ريتشل»، فأمد يدي لألمس ظهره. لكنه يقف سريعاً ويستدير فيواجهني. يبدو كأنه مفرغ الآن، مثلما كان عندما رأيته

أول مرة بالقرب من قسم الشرطة ـ كأن أحداً أزال ما بداخله تاركاً قشرةً ... غلافاً خارجياً فقط. إنها مثل الغرفة التي كنت أتقاسمها مع توم، لكنها الغرفة التي تقاسمها هو مع ميغان. هذه الغرفة، وهذا السرير.

أقول: «أعرف. إنني آسفة. إنني آسفة كثيراً. كان هذا شيئاً خاطئاً».

يقول من غير أن تنظر عيناه إلى عيني: «نعم، كان شيئاً خاطئاً». يذهب إلى الحمّام ويغلق الباب خلفه.

أظل مستلقية مغمضة عيني. أحس أنني أغرق في الذعر، ذلك القَرص المخيف في أمعائي. ماذا فعلت؟ أتذكر أنه كان كثير الكلام عندما وصلت. كانت كلماته مندفعة مثل سَيْل. كان غاضباً ـ غاضباً من أمه التي لم تحب ميغان أبداً؛ وكان غاضباً من الصحف بسبب ما تكتبه عنها والتلميح إلى أنها نالت نصيبها الذي تستحق؛ وكذلك من الشرطة لفشلها في الأمر كله، لأنها خذلته. جلسنا في المطبخ نشرب كأساً بعد كأس من البيرة. أصغيتُ إلى كلامه. وعندما انتهت البيرة كلها جلسنا في الخارج، في مدخل البيت، وعندها لم يعد غاضباً. كنا نشرب وننظر إلى القطارات التي تمرّ بنا... ونتحدث عن لا شيء: برامج التلفزيون، والعمل، والمدرسة التي ذهب إليها... تماماً مثل الناس العاديين. نسيت أن أحس بما كان مفترضاً بي أن أحسّه... نسيَ كلانا... لأنني أستطيع أن أتذكّر كل شيء الآن. يبتسم لي ويلمس شعري. يصدمني هذا مثل موجة؛ أشعر بالدم مندفعاً إلى وجهي. أتذكر أنني تقبّلت ذلك أنا نفسي. جاءتني الفكرة ولم أرفضها، بل قبِلتها. أردتها أيضاً. أردت أن أكون مع جيسون. أردت أن أعيش إحساس جس عندما كانت تجلس معه خارج البيت، عندما تشرب النبيذ معه في المساء. نسيت ما كان مفترّضاً بي أن أحسه. تجاهلت حقيقة أن جس، في أحسن الأحوال، لم تكن إلا شيئاً من نسج خيالي... وفي أسوأ الأحوال، لم تكن جس مجرد لا شيء، بل كانت ميغان. إنها ميتة... جسدها ممزق متروك للتحلّل. بل أسوأ من

هذا: لم أنسَ. لم أعبأ. لم أعبأ لأنني بدأت أصدّق ما يقولونه عنها. أتراني فكرتُ أيضاً، لحظات قليلة فقط، في أنها نالت ما تستحق؟

يخرج سكوت من الحمام. لقد استحمّ... أزال أثري عن جلده. يبدو في حال أفضل الآن؛ لكنه لا ينظر إلى عيني عندما يسألني إن كنت أريد قهوة. ليس هذا ما أردت: لا شيء صحيح في هذا كله. لا أريد أن أفعل هذا. لا أريد أن أفقد سيطرتي على نفسي من جديد.

أرتدي ثيابي سريعاً وأذهب إلى الحمام فأغسل وجهي بماء بارد. يسيل الكحل ويتجمع عند أطراف عينيَّ. شفتاي داكنتان... معضوضتان. وجهي محمَرّ ورقبتي محمَرّة حيث كانت ذقنه تخدشني. أستعيد سريعاً ذكرى الليلة الماضية... يداه عليَّ... فتنقبض معدتي. أشعر بالدوار. أجلس على حافة حوض الحمام. الحمام أسوأ حالاً من بقية البيت: أوساخ متجمعة حول المغسلة، ولطخ من معجون الأسنان على المرآة. وكأس فيه فرشاة أسنان واحدة. لا عطر، لا كريمات مطرّية، لا مساحيق تجميل. لعلها أخذت تلك الأشياء معها عندما ذهبت؛ أو لعله رماها كلها.

وعندما أعود إلى غرفة النوم، أنظر من حولي باحثة عن أثر لها. عن فستان معلق خلف الباب، فرشاة شعر فوق الطاولة ذات الدروج، إصبع من أحمر الشفاه، زوج من الأقراط. لكنني لا أجد شيئاً. أجتاز الغرفة ماضية صوْب الخزانة. أوشك على فتحها... تستقر يدي على مقبض بابها... عندما أسمعه يناديني: «القهوة جاهزة»... فأجفل.

يناولني فنجان القهوة من غير أن ينظر إلى وجهي، ثم يستدير مبتعداً ويقف مديراً ظهره لي ناظراً إلى سكة القطار، أو إلى شيء خلفها. ألقي نظرة ناحية اليمين فألاحظ أن الصور قد اختفت كلها. أحس وخزاً في جمجمتي، ويقف الشعر على ذراعي. آخذ رشفة من قهوتي ثم أبتلعها بصعوبة. لا شيء صحيحاً في هذا كله.

لعلّ أمه هي من فعل هذا: لعلها أزالت كل شيء وأبعدت الصور من هنا. أمه لم تكن تحب ميغان. قال لي هذا مرة بعد مرة. لكن رغم ذلك... من الذي يمكن أن يفعل الذي فعله الليلة الماضية؟ من يضاجع امرأة غريبة في سريره الزوجي قبل أن يمضي على موت زوجته شهر واحد. يستدير عند ذلك، وينظر إليّ، فأحس كما لو أنه قرأ أفكاري لأن نظرة غريبة ظهرت على وجهه ـ ازدراء، أو نفور ـ أحس نفوراً تجاهه، أنا أيضاً. أضع فنجاني.

أقول: «عليّ الذهاب»، فلا يجادلني.

لقد توقف المطر. الشمس ساطعة في الخارج. تزوغ عيناي في ضياء الشمس الصباحية. رجل قادم في اتجاهي ـ أراه أمام وجهي لحظة أضع قدمي على الرصيف. أرفع يدي وأستدير لأتفادى الاصطدام به. أسمعه يقول شيئاً لكني لا أفهمه. تظل يداي مرفوعتين، ويظل رأسي منكساً. لا تكاد تفصلني عنها خمس أقدام عندما أراها. إنها آنّا، واقفة بالقرب من سيارتها واضعة يديها على وركيها... تنظر إليّ. تهز رأسها عندما تلتقي أعيننا. ثم تستدير وتسير مسرعة صوب باب بيتها. تسير سريعاً، كأنها تجري تقريباً. أتجمّد في مكاني لحظة وأنا أنظر إلى هيئتها الضئيلة في جزمتها السوداء وقميصها الأحمر. أحس حقاً أنني رأيت هذا من قبل. نظرت إليها هاربة من قبل... مثلما أفعل الآن.

كان ذلك بعد انتقالي من البيت بوقت قصير. وكنت قد أتيت لرؤية توم، لآخذ شيئاً تركته هناك. بل إنني لا أستطيع تذكر الشيء الذي أتيت من أجله. ما كان شيئاً هاماً. أردت فقط أن أذهب إلى البيت، وأن أرى توم. أظن أن ذلك كان يوم الأحد، وقد تركت البيت يوم الجمعة... إذاً، كانت ثمانٍ وأربعون ساعة تقريباً قد مضت على انتقالي. وقفتُ في الشارع أنظر إليها وهي تحمل أشياء من السيارة إلى البيت. كانت تنقل أغراضها، تنتقل إلى البيت، تنتقل بعد يومين بعد مغادرتي... قبل أن يبرد

فراشي. تسرّع غير لائق. لمحتني فمضيت نحوها. لا أعرف أبداً ما كنت عازمة على قوْله لها. لا شيء عاقلًا... أنا واثقة من هذا. أتذكر أنني كنت أصرخ. أما هي فقد هربت، مثلما تفعل الآن. لم أكن أدرك مدى سوء الأمر في ذلك الوقت. لم تكن تُبدي لي شيئاً بعد. هذا أفضل. أظن أن ذلك كان قادراً على قتلي.

أشعر بالدوار وأنا واقفة على رصيف المحطة أنتظر القطار. أجلس على المقعد وأقول لنفسي إن هذا من أثر الشراب. انقطاع عن الشرب طيلة خمسة أيام، ثم شربٌ كثير. جاءني هذا الدوار بسبب الشراب. لكنني أعرف أن الأمر أكثر من ذلك. إنها آنا. مشاهدتها، وذلك الإحساس الذي جاءني عندما رأيتها مبتعدة عني بتلك الطريقة. إنه الذعر.

آنّا

السبت، 10 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

قدت السيارة إلى الصالة الرياضية في نورثكورت من أجل حصة التمرينات هذا الصباح. ثم مررت على متجر ماتشز في طريق عودتي فاشتريت لنفسي فستاناً قصيراً لطيفاً جداً من صنع ماكس مارا (سوف يسامحني توم على هذا عندما يراني مرتدية الفستان). كان نهاري لطيفاً تماماً؛ لكنني رأيت حركة غريبة أمام بيت هيبويل عندما كنت أركن السيارة. إن المصورين موجودون هناك طيلة الوقت هذه الأيام. وعند ذلك رأيتها. من جديد! لم أكد أستطيع تصديق هذا. إنها ريتشل تمر مسرعة من أمام أحد المصورين... تبدو خشبنة المظهر. إنني واثقة تماماً من أنها خارجة لتوِّها من بيت سكوت.

لم يزعجني هذا أبداً. كنت مدهوشة فحسب. وعندما ذكرت ذلك لتوم. بهدوء، وبشكل طبيعي. أصابته الدهشة أيضاً، مثلما أصابتني.

قال: «سوف أتصل بها. سأكتشف ما يحدث».

قلت له بألطف ما استطعت: «لقد حاولتَ هذا من قبل. لم تستطع التوصل إلى شيء». قلت له إنه قد يكون علينا أن نستشير محامياً هذه المرة، وأن نسأل عن إمكانية استصدار أمر بمنعها من المجيء إلى هذا الشارع، أو شيء ما.

قال: «لكنها لا تضايقنا في حقيقة الأمر، أليس كذلك؟ لقد توقفت اتصالاتها الهاتفية. وهي لم تحاول التواصل معنا أو القدوم إلى بيتنا. لا تتركي هذا يقلقك يا حبيبتي. سوف أسوي الأمر».

إنه محقّ بالطبع... فيما يتعلق بالإزعاج. لكنني لا أهتم بهذا كله. ثمة شيء يحدث، ولست مستعدة للاكتفاء بتجاهله. تعبت من قوله دائماً إن علي ألا أقلق، وإنه سيكلمها، وإنها ستبتعد عنا آخر الأمر. أظن أن الوقت قد حان لكي أتولّى الأمور بنفسي. سوف أتصل بالشرطة عندما أراها في المرة القادمة. سأتصل بتلك المرأة، المحققة رايلي. لقد بدت لي لطيفة، ومتعاطِفة. أعرف أن توم يشعر بالأسف على ريتشل، لكني أظن صادقة أن الوقت قد حان لكي أتولى أمر تلك العاهرة بنفسي وأنتهي منها.

ريتشل

الاثنين، 12 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

نحن في موقف السيارات عند بحيرة ويلتون. كنا نأتي إلى هذا المكان أحياناً لنسبح في الأيام الحارة جداً. أما اليوم، فنحن جالسان فقط. نحن جالسان جنباً إلى جنب في سيارة توم. فتحنا النوافذ ليدخل النسيم الدافئ. أود أن أسند رأسي إلى أعلى المقعد وأغمض عينيَّ وأشم رائحة الصنوبر وأصغي إلى الطيور. أود أن أمسك يده وأن أظل هنا طيلة النهار.

اتصل بي الليلة الماضية وسألني إن كان يمكن أن نلتقي. سألته إن كان ذلك متعلقاً برؤيتي آنّا في شارع بلنهايم رود. قلت له إن الأمر لا علاقة له بهما. لم أذهب إلى ذلك الشارع لإزعاجهما. صدَّق كلامي، أو ... على الأقل قال إنه صدّقه؛ لكنه ظل يبدو قلقاً، مضطرباً بعض الشيء. قال إنه في حاجة إلى الحديث معي.

قال لي: «أرجوك، راتش»، فقضي الأمر ـ طريقة قوله هاتين الكلمتين... مثل أيامنا القديمة تماماً... أحسست أن قلبي موشك على الانفجار... تابع يقول: «سوف آتِ لآخذك، هل اتفقنا؟».

استيقظت قبل الفجر؛ وكنت في المطبخ أعدُّ قهوتي عند الخامسة صباحاً. غسلت شعري؛ وأزلت شعر ساقَيَّ؛ وتجمَّلت... غيرت ثيابي

أربع مرات. كنت أشعر بالذنب أيضاً. غباء، أعرف هذا، لكني فكرت في سكوت ـ فكرت في ما فعلناه، وفي إحساسي آنذاك ـ وتمنيت لو أنني لم أفعل ذلك لأنه يبدو لي شيئاً أشبه بالخيانة. خيانة توم! الرجل الذي تركني من أجل امرأة أخرى قبل سنتين! لكني لا أستطيع منع نفسي من هذا الإحساس.

وصل توم قبل التاسعة. نزلت فوجدته مستنداً إلى سيارته، مرتدياً بنطلون الجينز وقميصاً رمادياً قديماً قصير الكمّين، كان قديماً إلى درجة أستطيع معها أن أتذكر بالضبط كيف كان إحساس خدي بقماشه عندما أستلقي واضعة رأسي إلى صدره.

قال عندما رآني: «لن أعمل هذا الصباح. فكرت في أننا يمكن أن نذهب في جولة بالسيارة».

لم نتحدث كثيراً في السيارة إلى أن بلغنا البحيرة. سألني عن أحوالي، وقال لي إنني أبدو على ما يرام. لم يأت على ذكر آنّا إلى أن صرنا جالسَيْن هنا في موقف السيارات... إلى أن صرت أفكر في مسك يده.

«الآن... مممم... قالت آنّا إنها شاهدتك... وظنت أنك قد تكونين خارجة من بيت سكوت هيبويل! هل هذا صحيح؟»، استدار ليواجهني، لكنه لم يكن ينظر إليَّ فعلاً. بدا عليه ما يشبه الحَرَج لأنه يسألني هذا السؤال.

أقول له: «لا شيء يدعو إلى القلق في هذا. إنني أرى سكوت... أقصد... لا أقصد ذلك المعنى... لا أقصد أنني أقابله. لقد صرنا صديقين بعض الشيء. هذا كل ما في الأمر. يصعب الشرح. إنني أساعده فقط، أساعده بعض الشيء. أنت تفهم هذا ـ من الواضح أنك تفهم ـ إنه يمر بوقت عصيب».

هز توم رأسه، لكنه لا ينظر إلي. إنه يقضم ظُفر سبَّابته اليسرى... علامة أكيدة على أنه قلق.

«لكن، يا راتش...»، ليته يكف عن مناداتي بهذا الاسم لأنه يجعلني أدوخ قليلاً... يجعلني راغبة في الابتسام. مر وقت طويل منذ آخر مرة سمعته يقول اسمي بهذه الطريقة؛ وهذا ما يبث في نفسي أملاً. لعل أموره ليست على ما يرام مع آنا... ولعله يتذكر بعض الأشياء الطيبة عن أيامنا معاً... لعل هناك جزءًا منه مشتاقًا إلي.

«لكن، إنني، فقط... إن هذا يقلقني حقاً».

يرفع رأسه أخيراً، وينظر إليّ. عيناه البنّيتان الواسعتان متعلّقتين بعينَيْ. يحرّك يده قليلاً كما لو أنه يهم بمسك يدي، لكنه يعدل عن ذلك... ويتوقف. «أعرف... لا بأس، لا أعرف الشيء الكثير عن هذا الأمر في الحقيقة؛ لكن سكوت... أعرف أنه يبدو رجلاً طيباً تماماً، لكنك لا تستطيعين أن تكوني واثقة فعلاً، أليس كذلك؟».

«أتظن أنه هو من فعلها؟».

يهز رأسه ثم يبتلع ريقه بصعوبة: «لا، لا! لست أقول هذا. إنني أعرف... طيب... تقول آنّا إنهما كانا يتشاجران كثيراً. وتقول إن ميغان كانت تبدو أحياناً خائفة منه بعض الشيء».

«تقول آنّا!» ... تدفعني الغريزة إلى عدم تصديق أي شيء تقوله تلك العاهرة. لكني لا أستطيع التخلص من ذلك الإحساس الذي جاءني عندما كنت في بيت سكوت يوم السبت... إحساسي بوجود شيء غير صحيح... كان هناك شيء خاطئ.

يهز رأسه: «كانت ميغان تعتني بطفلتنا... عندما كانت إيفي صغيرة جداً. يا ربي، لا أريد حتى التفكير في ذلك الأمر الآن... بعد تلك الأشياء التي تقولها الصحف عنها في الآونة الأخيرة. لكن الأمر سيتضح، أليس كذلك؟ تظنين أنك تعرفين شخصاً من الأشخاص، وبعد ذلك...» يطلق زفرة كبيرة... «لا أريد أن يحدث شيء سيىء. لا أريد أن يحدث لك شيء سيء». يبتسم لي عند ذلك، ثم يرفع كتفيه قليلاً ويقول: «لا يزال

أمرك يهمني يا راتش». عند ذلك، أجد نفسي مضطرة إلى الإشاحة بوجهي بعيداً عنه لأنني لا أريد أن يرى الدموع في عينَيّ. لكنه يدرك ذلك، بالطبع، ويضع يده على كتفي، ثم يقول: «إنني آسف كثيراً».

نظل فترة جالسَيْن في صمت مريح. أعضّ بشدة على شفتي لأمنع نفسي من البكاء. لا أريد أن أجعل الأمر أكثر صعوبة عليه... لا أريد هذا أبداً.

«إنني بخير يا توم. وأنا أتحسّن أيضاً. إنني أتحسّن».

«يسعدني أن أسمع هذا. هل تقصدين أنك لا... أنك لا...».

«لا أشرب؟ نعم أشرب، لكن أقل من قبل. الوضع في تحسّن».

«هذا جيد. تبدين في حال طيبة. تبدين... جميلة». يبتسم لي فأحسّ أن وجهي تورَّد. يدير وجهه سريعاً. وهل أنت... آآآ... هل أنت في وضْع جيد، أقصد... تعرفين، من الناحية المالية؟».

«إنني بخير».

«حقاً؟ هل أنت بخير حقاً يا ريتشل؟ لأنني لا أريدك أن...».

«إنني بخير».

«هل تأخذين قليلاً؟ أوووف... لا أريد أن يبدو هذا غبياً، لكن... ألا تأخذين قليلاً؟ لترتّبي أمورك؟».

«إنني بخير... صدقاً».

يميل في اتجاهي عند ذلك فتكاد أنفاسي تنقطع. أود كثيراً أن ألمسه. أود أن أشم رقبته، وأن أدفن وجهي في تلك الفجوة العريضة، ظاهرة العضلات، بين لوْحي كتفيه. يفتح علبة القفازات في السيارة: «دعيني فقط أكتب لك شيكاً... من باب التحسّب فقط، أنت تعرفين! لست مضطرة حتى إلى صرفه».

أبدأ بالضحك: «ألا تزال محتفظاً بدفتر الشيكات في السيارة؟».

يضحك، هو أيضاً. ثم يقول: «لا يعرف المرء متى يكون في حاجة إليه».

«لا تعرف متى يكون عليك أن تنقذ زوجتك السابقة المجنونة!».

يمر بإبهامه على وجنتي. أرفع يدي فأمسك بيده وأقبل كفها.

يقول بصوت مكتوم: «عديني، عديني أن تظلي بعيدة عن سكوت هيبويل. عديني بهذا يا راتش».

أقول له: «أعدك!»... أقولها، وأعنيها أيضاً. لا أكاد أرى شيئاً أمامي لشدة فرحتي... لأنني أدرك أنه ليس قلقاً عليَّ فقط... ليس الأمر قلقاً فحسب... إنه يغار.

الثلاثاء، 13 آب/ أغسطس 2013

في الصباح الباكر

أنا في القطار، أنظر إلى كومة ملابس إلى جانب السكة. قماش أزرق داكن. أظن أنه فستان بحزام أسود. لا يمكنني أن أتخيل كيف انتهى به الأمر هنا. هذا ليس بالتأكيد شيئاً تركه المهندسون خلفهم. القطار يتحرك... وإن كان ذلك ببطء جليدي. وهكذا يكون لدي الوقت الكافي لكي أنظر. يبدو لي أنني رأيت هذا الفستان من قبل، رأيت امرأة مرتدية هذا الفستان. لا أستطيع تذكر متى حدث ذلك. الطقس في غاية البرودة. إنه بارد كثيراً... لا يصلح للبس فستان كهذا. أظن أن الثلج سيتساقط قريباً.

أتحرّق شوْقاً إلى رؤية بيت توم ـ بيتنا. أعرف أنه سيكون هناك، جالساً في الخارج. أعرف أنه سيكون وحيداً... ينتظرني. سوف يقف عندما يمر القطار أمامه. وسوف يلوّح لي بيده، ويبتسم. أعرف هذا كله.

لكننا، رغم ذلك، نقف أولاً أمام البيت رقم خمسة عشر. جيسون وجس هناك. يشربان النبيذ على الشرفة. هذا غريب لأن الساعة لم تبلغ بعد الثامنة والنصف صباحاً. أرى جس في فستان عليه زهور حمر، وأرى في أذنيها قرطَين فضيَّين صغيرين عليهما طيور. أرى القرطين يهتزان أماماً وخلفاً عندما تتكلم. أرى جيسون واقفاً خلفها. كفّاه على كتفيها. أبتسم لهما. أود أن ألوّح بيدي، لكني لا أريد أن يظنني الناس غريبة الأطوار. أنظر فقط، ثم أتمنى لو أن أمامي كأساً من النبيذ أيضاً.

نحن واقفون هنا منذ وقت طويل. لا يزال القطار ساكناً في مكانه. أتمنى أن نتحرك لأننا إذا لم نفعل ذلك الآن فلن يكون توم موجوداً هناك... سأفتقد وجوده. أستطيع رؤية وجه جس الآن... أوضح من المعتاد. هذا بسبب الضوء... إنه ساطع كثيراً، ينصبّ عليها كأنه مصباح كشّاف. لا يزال جيسون واقفاً خلفها، لكنَّ يديه ليستا على كتفيها الآن. إنهما على رقبتها... يبدو عليها عدم الارتياح... يبدو عليها الألم. إنه يخنقها. أستطيع رؤية وجهها محمرّاً. إنها تصرخ! أهبّ واقفة، وأدقّ على زجاج النافذة. أصرخ به أن يتوقف. لكنه لا يستطيع سماعي. يمسك أحد ما بذراعي - إنه الرجل ذو الشعر الأحمر. يقول لي أن أجلس. يقول إن المحطة القادمة ليست بعيدة.

أقول له: «سيكون الوقت قد تأخر كثيراً عند ذلك». فيقول: «إن الوقت متأخر كثيراً منذ الآن يا ريتشل». ألتفت لأنظر إلى تلك الشرفة من جديد فأرى جس واقفة، وأرى جيسون قابضاً على شعرها الأشقر. سوف يضرب جمجمتها بالجدار فيسحقها.

في الصباح

أنا مستيقظة منذ ساعات، لكني لا أزال أرتجف. تهتزّ ساقاي عندما أهم بالجلوس على الكرسي. استيقظت من حلمي مذعورة مرتجفة...

استيقظت شاعرة أن كل ما عرفته كان غير صحيح، وأن كل ما رأيته ـ عن سكوت، وعن ميغان. ما كان إلا صوراً صنعتها في رأسي... أن لا شيء من هذا كله كان حقيقياً. لكن، إن كان عقلي يخدعني، أفليس من الأكثر احتمالاً أن يكون الحلم هو الوهم؟ تلك الأشياء التي قالها لي توم في السيارة، مختلطة كلها مع إحساسي بالذنب تجاه ما حدث بيني وبين سكوت تلك الليلة: ما كان حلمي إلا من فعل عقلي الذي انتقى تلك الأشياء.

لا يزال ذلك الإحساس المألوف بالذعر يتنامى عندما يتوقف القطار قبالة الإشارة. أنا خائفة إلى حد يكاد يمنعني من رفع رأسي لكي أنظر. النافذة مغلقة، ولا شيء هناك. البيت هادئ، يلفّه السلام. أو لعله مهجور. لا يزال كرسي ميغان في الخارج، على الشرفة... فارغاً. الجو دافئ اليوم، لكنني لا أستطيع منْع نفسي من الارتجاف.

يجب أن أتذكر دائماً أن الأشياء التي قالها توم عن سكوت وميغان جاءت من آنا؛ وما من أحد يعرف مثلما أعرف أنا أن الثقة بها مستحيلة.

بدا لي ترحيب الدكتور أبديك هذا الصباح فاتراً بعض الشيء. بل إنه كان منثنياً على نفسه بعض الشيء كأنه يتألم. وعندما صافحني، شدّ على يدي بقوة أقل من قبل. أعرف أن سكوت قال إنهم لن ينشروا أي معلومات عن الحَبَل؛ لكنني أتساءل إن كانوا قد أخبروه. لعله يفكر الآن في طفل ميغان.

أود أخبره عن الحلم، لكنني لا أستطيع العثور على طريقة لوصفه من غير أن أكشف نفسي. وهكذا أجد نفسي أسأله بدلاً من ذلك عن استعادة الذكريات، عن التنويم المغناطيسي.

يقول لي باسطاً أصابعه على المكتب أمامه: «نعم... هنالك معالجون يرون أن من الممكن استخدام التنويم المغناطيسي لاستعادة الذكريات المطموسة. لكن هذا أمر فيه خلاف كبير. أنا لا أفعل هذا،

ولا أوصي مرضايَ به. لست مقتنعاً بفائدته؛ بل أظن أنه يمكن أن يكون ضاراً في بعض الحالات». يبتسم لي نصف ابتسامة... «إنني آسف. أعرف أنك لم تكوني تريدين سماع هذه الإجابة. لكنني لا أظن أن هنالك طرقاً سريعة عندما يتعلق الأمر بالعقل».

أسأله: «هل تعرف معالجين نفسيين يفعلون ذلك؟».

يهز رأسه: «آسف! لا أستطيع نصحك بأحد منهم. عليك أن تتذكري دائماً أن من يخضعون للتنويم المغناطيسي يكونون معرَّضين للإيحاءات. كما أن الذكريات التي 'تُستعاد'...» - يرسم بأصابعه قوسين في الهواء حول كلمة تُستعاد - «ليست موضع ثقة دائماً. إنها ليست ذكريات حقيقية على الإطلاق».

لا أستطيع المغامرة بهذا. لا أستطيع أن أحتمل وجود صور أخرى في رأسي... ذكريات جديدة لا أستطيع أن أثق بها، ذكريات تظهر وتتحول وتنزاح فتخدعني وتجعلني أصدّق أنها أشياء غير ما هي عليه في الحقيقة... وتجعلني أنظر في هذا الاتجاه بينما يكون عليَّ أن أنظر في اتجاه آخر في حقيقة الأمر.

أسأله: «ما الذي تقترحه إذن؟ هل هناك ما أستطيع فعله لمحاولة استعادة ما فقدته؟». يفرك شفتيه بأصابعه الطويلة، جيئة وذهاباً: «هذا أمر ممكن، نعم. إن مجرد الحديث عن ذكرى بعينها يمكن أن يساعدك في توضيح الأشياء... عليك أن تستعيدي التفاصيل في جَوٍّ يجعلك تشعرين بالأمان والاسترخاء...».

«كالجوّ هنا... مثلاً؟».

يبتسم: «كالجوّ هنا؟ نعم، إذا كنت تشعرين بالأمان والاسترخاء هنا...» يرتفع صوته... يطرح أسئلة لا أجيب عليها. تخبو الابتسامة... «غالباً ما يكون التركيز على الأحاسيس بدلاً من العقل أمراً مفيداً. التركيز على الأصوات، والإحساس بالأشياء... إن الرائحة مهمة خاصة عندما

يتعلق الأمر بالتذكر. وقد يكون للموسيقى أثر كبير أيضاً. إذا كنت تفكرين في حالة بعينها، أو في يوم بعينه، فقد يكون مفيداً أن تعيدي اقتفاء أثر خطواتك رجوعاً إلى مسرح الجريمة، مثلما كان». مسرح الجريمة.... هذا تعبير شائع تماماً. لكن الشعر على رقبتي من الخلف ينتصب واقفاً، أشعر بوخْز في فروة رأسي... «هل تودّين الحديث عن حادثة بعينها يا ريتشل؟».

أود ذلك بالطبع؛ لكنني لا أستطيع إخباره. وهكذا أجد نفسي أخبره عن تلك الحادثة... مضرب الغولف... عندما هاجمت توم به بعد مشادة بيننا.

أذكر أنني استيقظت ذلك الصباح والقلق يملأني. عرفت على الفور أن شيئاً مخيفاً قد حدث. لم أجد توم في الفراش معي، فشعرت بالراحة. إنني مستلقية على ظهري، أحاول استعادة المشهد. أذكر أنني بكيت وصحت وقلت له إنني أحبه. وهو كان غاضباً. قال لي أن أذهب إلى الفراش. لم يكن راغباً في سماع المزيد. حاولت استعادة ذكريات أكثر عند المساء، وصولاً إلى حيث بدأت تلك المشادة بيننا. كنا نمضي وقتاً طيباً حقاً. وكنت قد شويت بعض الجمبري مع الكثير من الفلفل الأحمر والكزبرة. وكنا نشرب نبيذ تشينين الأبيض اللذيذ الذي أهداه إياه أحد عملائه امتناناً له. كنا نأكل في الخارج، عند مدخل البيت، ونصغي إلى أغاني «ذا كيلرز وكينغز أوف لايون» التي كنا نستمع إليها أول تعارفنا.

أذكر أننا ضحكنا وتبادلنا القبل. وأذكر أيضاً كيف رويت له قصة عن شيء ما ـ لم تعجبه تلك القصة قدر ما أعجبتني. أذكر أنني انزعجت. ثم أذكر أننا بدأنا نتبادل الصراخ؛ وأذكر أنني تعثّرت عند الباب عندما مضيت إلى الداخل... ثم غضبت لأنه لم يندفع لمساعدتي على النهوض.

لكن، هكذا كان الأمر: «عندما نهضت في الصباح وهبطت إلى الأسفل كان غير راغب في الكلام معي؛ بل كان يتجنّب النظر إليَّ أيضاً.

كان عليَّ أن أتوسل إليه حتى يخبرني بما فعلت. كرّرت قولي له إنني آسفة كثيراً. كنت مذعورة ذعراً يائساً. لا أستطيع شرح السبب. أعرف أن هذا لا معنى له؛ لكن إذا كنت غير قادرٍ على تذكر ما فعلت فإن عقلك يملأ المساحات الفارغة بأسوأ الاحتمالات...».

يهز كمال رأسه ويقول: «أستطيع تخيّل هذا. تابعي».

«أخيراً أخبرني... فقط حتى يسكتني. أوه... لقد انزعجت في البداية من شيء قاله، وتمسكت بانزعاجي. ثم أخذت أعيد الأمر وأعيده. لم أستطع التوقف أبداً. حاول إيقافي عن ذلك. حاول تقبيلي ومصالحتي. لكنني لم أكن لأترك الأمر. ثم قرر أن يبتعد عني فحسب، أن يصعد ليستلقي في سريره. وعندها حدث الأمر. جريت وراءه على السلم حاملة مضرب الغولف بيدي، ثم حاولت ضربه به على رأسه. لم أصبه لحسن الحظ. لكنني أصبت الجدار فاقتلعت كتلة من الجَصّ».

لا تتغير تعابير وجه كمال. لا يبدو مصدوماً. يهز رأسه فقط: «إذن فأنت تعرفين ما حدث، لكن لا تستطيعين الإحساس به تماماً. هل هذا صحيح؟ تريدين أن تتمكني من تذكره بنفسك، من رؤيته وعيشه عبر ذاكرتك أنت حتى تتمكني من... كيف كان تعبيرك عن هذا الأمر؟ ـ حتى تتمكني من الإحساس بأنه أمر منتمٍ إليك أنت، أليس كذلك؟ وفي تلك الحالة، ستشعرين بمسؤوليتك كاملةً؟»

أرفع كتفي وأقول: «حسنًا... نعم. أقصد أن هذا جزء من الأمر. لكن هناك شيء آخر. وقد حدث بعد ذلك، بعد ذلك بكثير... أسابيع، أو لعلها أشهر بعد ذلك. ظللت أفكر في تلك الليلة. كنت أفكر بذلك كلما مررت بتلك الثغرة في الجدار. قال توم إنه سيصلحها، لكنه لم يصلحها. ولم أشأ إزعاجه بها. كنت واقفة هناك ذات يوم. كان وقت المساء؛ وكنت خارجة من غرفة النوم ثم توقفت فجأة لأنني تذكرت. كنت على الأرض... ظهري إلى الجدار... باكية منتحبة. وكان توم واقفاً

فوقي يرجوني أن أهدأ. كان المضرب مرمياً على السجادة عند قدمي... لقد أحسست بالأمر، لقد أحسست بالأمر. كنت مذعورة. لكن الذكرى لم تتطابق مع الواقع لأنني لم أتذكر غضباً مستعراً حانقاً. لم أتذكر إلّا الخوف».

في المساء

إنني أفكر في ما قاله كمال عن «العودة إلى مسرح الجريمة». وهكذا جئت إلى ويتني بدلاً من الذهاب إلى البيت. وبدلاً من المرور سريعاً عند ذلك النفق، سرت بخطوات بطيئة مصمِّمة حتى وصلت إلى فوَّهته. وضعت كفي على الجدار البارد، على الحجارة الخشنة عند المدخل، ثم أغمضت عينَيَّ ورحت أمرّر أصابعي على تلك الحجارة. لم يأتني شيء. فتحت عيني ونظرت من حولي. الشارع في غاية الهدوء. امرأة واحدة فقط قادمة باتجاهي، على مسافة مئات الأمتار مني... لا أحد غيرها. لا سيارات تمر، ولا أطفال يصيحون... لم أسمع إلا صوت صفارة شديد الخفوت آتٍ من بعيد. اختفت الشمس خلف سحابة فأحسست بالبرد. تجمّدت عند مدخل النفق غير قادرة على المضيّ أبعد من ذلك. استدرت لأذهب. المرأة التي رأيتها ماشية في اتجاهي قبل لحظات تلتفّ حول الزاوية الآن. إنها في فستان أزرق داكن ملفوف على جسمها. تلقي نظرة صوْبي عندما تمر بي... فأتذكر. امرأة... أزرق... طبيعة الضوء. إنني أتذكر: آنّا. كانت في فستان أزرق له حزام أسود. وكانت تمشي مبتعدة عني، تمشي مسرعة، مثلما فعلت ذلك اليوم تقريباً. لكنها نظرت إلى الخلف هذه المرة، نظرت من فوق كتفها، ثم توقفت. توقفت سيارة بالقرب منها. سيارة حمراء. إنها سيارة توم. انحنت آنّا لتحدثه عبر النافذة، ثم فتحتْ الباب وصعدت إلى السيارة. انطلقت السيارة بهما بعيداً.

أذكر هذا. وقفت هنا ليلة ذلك السبت، عند مدخل النفق. وقفت ونظرت إلى آنّا تصعد إلى سيارة توم. لكن تذكري لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنه لا يبدو منطقياً. جاء توم بالسيارة باحثاً عني. لم تكن آنّا معه في السيارة - كانت في البيت. هذا ما قالته لي الشرطة. ليس الأمر منطقياً. أكاد أصرخ لشدة إحباطي، لأنني لا أعرف... تقتلني قلة فائدة دماغي هذا.

أعبر الشارع وأمضي على امتداد الجانب الأيسر لشارع بلنهايم رود. أقف تحت الأشجار برهة، قبالة البيت رقم 23. لقد أعادوا طلاء الباب الأمامي. كان لونه أخضر داكناً عندما عشت هنا. وهو أسود الآن. لا أذكر أنني لاحظت هذا التغيّر من قبل. كنت أفضل اللون الأخضر. أتساءل عن الأشياء الأخرى التي صارت مختلفة داخل البيت. غرفة الأطفال، بالطبع... لكن هل هما مستمران بالنوم في سريرنا؟ وهل تقوم بطلاء شفتيها أمام المرآة التي علّقتها أنا. هل أعادوا طلاء المطبخ أو... هل ملأ توم تلك الفجوة في جدار الممر في الأعلى؟

أود أن أعبر الشارع فأقرع الباب ذا الطلاء الأسود. أود أن أكلم توم، أن أسأله عن ليلة اختفاء ميغان. أود أن أسأله عن البارحة أيضاً عندما كنا في السيارة، عندما قبّلت كفه. أود أن أسأله عن شعوره عند ذلك. لكنني، بدلاً من ذلك، أقف هناك قليلاً ناظرة إلى نافذة غرفة نومي القديمة إلى أن أحس لسعة الدمع في عيني فأعرف أن وقت ذهابي قد حان.

آنّا

الثلاثاء، 13 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

وقفت أنظر إلى توم وهو يستعد للعمل هذا الصباح... يرتدي قميصه ويضع ربطة عنقه. بدا لي منشغل البال بعض الشيء. لعله يستعرض برنامجه لهذا اليوم. اجتماعات، ومواعيد، وماذا، ومع من، وأين. أحسست بالغيرة. حسدته، للمرة الأولى، حسدته حقاً على متعة ارتداء الملابس في الصباح ومغادرة البيت والمضي هنا وهناك طيلة اليوم... المضي خلف هدف... وكل ذلك في خدمة الدَّخْل الذي يجنيه.

ليس العمل هو الشيء الذي أشتاق إليه أو أفتقده، كنت وسيطة عقارية... لم أكن جرّاحة أعصاب. وهو ليس بالعمل الذي يحلم به المرء عندما يكون طفلاً. لكني كنت أحب قدرتي آنذاك على التجول في أنحاء البيوت الغالية حقاً عندما لا يكون أصحابها فيها. كنت أمرّ بأصابعي على رخام المطابخ، وأسترق نظرات إلى الخزائن الكبيرة. كنت أتخيل كيف يمكن أن تكون حياتي إذا عشت في بيت من هذا النوع... وأي شخص أكون عند ذلك. أدرك تماماً أن ما من عمل أهم من تنشئة طفل؛ لكن المشكلة أنه عمل لا يلقى كبير تقدير. لا يلقى كبير تقدير بالمعنى الذي يهمني الآن... بالمعنى المالي. أود أن يكون لدينا مال أكثر حتى نستطيع ترك هذا البيت، وهذا الشارع. الأمر بسيط.... الأمر بهذه البساطة.

لعله ليس بسيطاً هذه البساطة كلها. بعد خروج توم إلى عمله، جلست إلى طاولة المطبخ لأخوض معركة مع إيفي من أجل إفطارها. أقسم أنها كانت تأكل أيّ شيء، منذ شهرين فقط. أما الآن، فإنها ترفض أيّ طعام ما لم يكن لبناً رائباً مع الفراولة. أعرف أن هذا أمر طبيعي. دائماً أقول هذا لنفسي هذه الأيام... وأنا أحاول إزالة صفار البيض من شعري، وأزحف في أرجاء الغرفة لالتقاط الملاعق والأطباق التي ترميها. أقول لنفسي دائماً إن هذا أمر طبيعي.

رغم ذلك، عندما ننتهي من الطعام أخيراً وتبدأ طفلتي باللعب وحدها سعيدة... أسمح لنفسي بالبكاء دقيقة واحدة. لا أتيح هذه الدموع لنفسي إلا نادراً... فقط عندما لا يكون توم هنا... بضع لحظات فقط حتى أنفّس عمّا في صدري. كان ذلك عندما ذهبت لأغسل وجهي بعد فراغي من إطعام إيفي... لاحظت كم أبدو متعبة، كم أبدو مبقّعة، مهلهلة، فظيعة تماماً. عندها، جاءني ذلك الإحساس من جديد. الحاجة إلى ارتداء فستان وحذاء مرتفع الكعب، وإلى تصفيف شعري ووضْع مساحيق التجميل ثم المشي في الشارع لأجعل الرجال يلتفتون وينظرون إليّ.

أفتقد عملي، لكنني أفتقد أيضاً ما كان يعنيه ذلك العمل لي في آخر أيام وظيفتي المربحة... عندما التقيت توم. أفتقد كوني عشيقة رجل متزوج في ذلك الوقت.

كنت مستمتعة بهذا؛ بل أحببته في حقيقة الأمر. لم أشعر بأي ذنب أبداً. كنت أتظاهر بأنني أشعر بالذنب. كان عليَّ أن أتظاهر عندما أكون مع صديقاتي المتزوجات... اللواتي يعشن رعباً من الخادمة أو من الموظفة الجميلة المَرِحة في المكتب، تلك التي تستطيع الكلام عن كرة القدم وتمضي نصف حياتها في صالات التدريب الرياضية. كان عليَّ أن أقول لصديقاتي إن لديَّ شعوراً فظيعاً تجاه ذلك، وإنني آسفة حقاً من

أجل زوجته، وإنني لم أقصد أن يحدث شيء من هذا... لقد وقعنا في الحب، فماذا نستطيع أن نفعل؟

لكن الحقيقة هي أنني لم أحسّ بأيّ تعاطف مع ريتشل، ولا بأيّ أسف عليها، حتى قبل اكتشافي أنها تشرب وأنها صعبة مزعجة، وأنها تجعل حياته بائسة. ما كانت ريتشل حقيقية بالنسبة لي على أي حال. وكنت مستمتعة كثيراً. أمر مثير أن أكون المرأة الأخرى... لا معنى لإنكار هذا: أنت هي التي لا يستطيع الامتناع عن خيانة زوجته من أجلها... رغم حبه لها. أنت ساحرة إلى هذا الحد، لا سبيل إلى مقاومتك.

كنت أحاول بيع بيت في ذلك الوقت. البيع رقم 24 في شارع غرانهام. كان الأمر صعباً لأن آخر مشترٍ مهتم بذلك البيت لم يستطع الحصول على قرض. كان ذلك شيئاً متعلقاً بسجله الائتماني. وهكذا، رتّبنا أمر الحصول على تقييم محايد لنتأكد من أن كل شيء على ما يرام. كان صاحب البيت الذي يريد بيعه قد انتقل منه. وكان البيت خالياً. وهكذا كان عليَّ الوجود هناك حتى أفتح الباب للشخص الذي سيُجري التقييم المحايد.

كان واضحاً لحظة فتحت الباب له أن الأمر سيحدث. لم أفعل شيئاً من هذا النوع قبل ذلك، بل لم أحلم بفعله أصلاً. لكن، كان هنالك شيء في طريقة نظره إليّ، في ابتسامته. لم نستطع منع أنفسنا ـ فعلناها هناك، في المطبخ، على طاولة المطبخ. كان أمراً مجنوناً، لكننا كنا مجنونَيْن أيضاً. هذا ما كان يقوله لي دائماً: *لا تتوقعي مني أن أكون عاقلاً يا آنا. لا تتوقعي مني أن أكون عاقلاً معك أنتِ.*

أحمل إيفي فنخرج إلى الحديقة معاً. إنها تدفع عربتها الصغيرة جيئة وذهاباً، وتضحك من نفسها عندما تفعل ذلك... صارت نوبة غضبها هذا الصباح أمراً منسياً. كلما ابتسمت لي أحسّ أن قلبي موشك على الانفجار. مهما كنت أفتقد العمل، فسوف أفتقد ابتسامتها أكثر منه. لن يحدث ذلك أصلاً. لا يمكن أبداً بعد الآن أن أتركها مع أحد غيري

يعتني بها... مهما كان مؤهلاً، مهما كان مشهوداً له. لن أتركها مع أحد أبداً بعد الآن... لن أتركها مع أحد بعد ميغان.

في المساء

كتب لي توم رسالة نصّية قال فيها إنه سيعود متأخراً بعض الشيء هذا المساء لأن عليه دعوة أحد العملاء إلى الشراب. وكنت أستعد مع إيفي للخروج في نزهتنا المسائية. كنا في غرفة النوم، غرفة نومي أنا وتوم؛ وكنت أغيّر لها ملابسها. كان الضياء رائعاً. ألقٌ برتقالي غنيّ يملأ البيت كله ويتحوّل فجأة إلى لون أزرق رمادي عندما تحتجب الشمس خلف غمامة. كانت الستائر نصف مغلقة حتى لا تصبح الغرفة شديدة الحرارة. وهكذا مضيت لأفتحها فرأيت ريتشل واقفة في الناحية الأخرى من الشارع. كانت تنظر إلى بيتنا. لكنها مشت من فورها متجهة صوب المحطة.

إنني جالسة على السرير... يهزّني الغضب... تنغرس أظافري في راحَتيْ يدَيّ. إيفي ترفس الهواء بقدمَيها؛ لكنني غاضبة كثيراً... لا أريد حملها لأنني أخاف أن أسحقها.

قال لي توم إنه سيتولى الأمر. قال لي إنه اتصل بها يوم الأحد، وإنهما تحدثا، وإنها اعترفت بأن نوعاً من الصداقة نشأ بينها وبين سكوت هيبويل، لكنها لا تعتزم رؤيته بعد الآن ولن تعود إلى التجوال في المنطقة. قال توم إنها وعدته بذلك، وإنه يصدّقها. قال أيضاً إنها كانت منطقية... لم يظهر عليها أي أثر للشراب، ولم تكن هستيرية أيضاً. لم تطلق أي تهديدات، ولم تتوسل إليه حتى يعود إليها. قال لي إنه يظنّها في تحسّن.

أتنفس تنفساً عميقاً عدة مرات، ثم أرفع إيفي إلى حِجري وأضعها مستلقية على ظهرها فوق ساقَيّ، ثم أمسك يديها بيدَيّ.

«أظن أن الكيل قد طفح الآن؛ ألا تظنين هذا يا حلوتي؟».

المشكلة هي أن الأمر مرهق إلى حد كبير: أقول في نفسي كل مرة إن

الأمور في تحسن، وإننا انتهينا أخيراً من مشكلة ريتشل، لكني أعود لأرى تلك المشكلة أمامي من جديد. أشعر أحياناً أنها لن تبتعد عني أبداً.

هنالك بذرة فاسدة مزروعة عميقاً في داخلي. عندما يقول لي توم إن كل شيء بخير، إن كل شيء على ما يرام، وإنها لن تزعجنا بعد الآن... ثم أراها تعود إلى إزعاجنا، لا أستطيع منع نفسي من التساؤل عما إذا كان يحاول التخلص منها حقاً، أو أن جزءاً منه... جزءاً عميقاً منه... مرتاح لحقيقة أنها لا تستطيع الابتعاد والتخلي عنه.

أهبط إلى الأسفل، ثم أبحث في دروج المطبخ عن البطاقة التي تركتها المحققة رايلي. أطلب رقمها سريعاً قبل أن يتاح لي وقت لأغير رأيي.

الأربعاء، 14 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

نحن في السرير. يداه على ردفَيَّ، وأنفاسه حارة على رقبتي. جلده مبلل بالعرق، ملتصق بجلدي. يقول لي: «لم نعد نفعل هذا كثيراً».

«أعرف».

«علينا أن نخصص وقتاً أكبر لأنفسنا».

«هذا صحيح».

يقول لي: «أشتاق إليك. أشتاق إلى ما نفعله الآن. أريد المزيد من هذا».

أستدير ثم أقبِّله على شفتيه. عينايّ مغمضتان بإحكام... أحاول كبْت إحساسي بالذنب لأنني ذهبت إلى الشرطة من وراء ظهره.

يغمغم قائلاً: «أظن أن علينا أن نذهب إلى مكان ما. نحن الاثنان فقط. أن نبتعد قليلاً».

ومع من نترك إيفي؟... أود أن أسأله هذا. أنتركها مع والديك اللذين لا تكلمهما؟ أو مع أمي التي صارت ضعيفة إلى حد يجعلها غير قادرة حتيعلى الاعتناء بنفسها؟

لا أقول هذا. لا أقول أي شيء. فقط، أقبّله من جديد، قبلات أكثر عمقاً. تنزلق كفه حتى أعلى ساقي. يضغط عليها، يعصرها.

«ما رأيك؟ أين تحبين الذهاب؟ موريشيوس؟ بالي؟».

أضحك.

يقول لي مبتعداً قليلاً عني... ينظر في عيني: «إنني جاد. نحن نستحق هذا يا آنا. أنت تستحقين هذا. كانت سنة صعبة، أليس كذلك؟».

«لكن...».

«لكن ماذا؟» يبتسم لي ابتسامته الرائعة... «سوف نجد حلاً من أجل إيفي... لا تقلقي».

«توم، النقود».

«سيكون الأمر على ما يرام».

«لكن...». لا أريد أن أقول هذا، لكن علي أن أقوله: «ليس لدينا المال الكافي حتى للتفكير في تغيير بيتنا، لكننا نملك المال الكافي للذهاب في عطلة إلى موريشيوس أو بالي؟» ينفخ خديه، ثم يطلق الهواء ببطء منقلباً بعيداً عني. ما كان عليَّ قوْل هذا. يصدر صوت عن جهاز المراقبة في غرفة إيفي: إنها تستيقظ.

يقول توم: «سوف آتي بها». ثم ينهض ويخرج من الغرفة.

على الإفطار، تفعل إيفي ما تفعله عادة. صار ذلك لعبة لها الآن. رفض الطعام، وهز رأسها رافعة ذقنها ضاغطةً شفتيها... تدفع بقبضتيها الصحن الذي أمامها. ينفذ صبر توم سريعاً.

يقول لي: «ليس لديَّ وقت لهذا. عليك أن تقومي به أنت». ينهض واقفاً وهو يناولني الملعقة وتعبير الألم مرتسم على وجهه.

آخذ نفساً عميقاً.

لا بأس! إنه متعب. لديه عمل كثير. وهو منزعج لأنني لم أدخل عالم خيالاته عن العطلة هذا الصباح.

لكن لا... ليس الأمر على ما يرام لأنني متعَبة أنا أيضاً. أود أن نتحدث عن المال وعن وضعنا هنا. لن ينتهي الأمر بخروجه من الغرفة. بالطبع، لا أقول له هذا؛ لكنني بدلاً من ذلك أنكث عهداً قطعته على نفسي فأمضي مباشرة إلى ذكر ريتشل.

أقول: «كانت تتجول في المنطقة من جديد. هذا يعني أن ما قلته لها ذلك اليوم لم يكن ناجحاً».

يرميني بنظرة حادة: «ماذا تقصدين بأنها تتجول في المنطقة؟».

«رأيتها الليلة الماضية واقفة في الشارع قبالة البيت تماماً».

«هل كان معها أحد؟».

«لا! كانت وحيدة. لماذا تسأل عن ذلك؟».

يقول وقد صار وجهه داكناً مثلما يحدث دائماً عندما يغضب غضباً حقيقياً: «تبّاً! قلت لها ألا تقترب منا. لماذا لم تقولي لي شيئاً الليلة الماضية؟».

«لم أرد إزعاجك...»، أقولها بنعومة، بصوت منخفض... ندمتُ لأنني ذكرت الأمر... «لم أكن أريدك أن تقلق».

«يا إلهي!». يقول هذا ثم يرمي فنجان القهوة في المجلى فيصدر صوتاً مرتفعاً. تخاف إيفي من هذا الصوت فتبدأ بالزعيق. هذا غير مفيد. «لا أعرف ما يمكن أن أقول لك. صدقاً، لا أعرف. عندما تحدثت معها كانت على ما يرام. لقد استمعتُ لما قلت ثم وعدتني بألّا تأتي إلى هنا

بعد ذلك. كان مظهرها يبدو على ما يرام. كانت تبدو معافاة في الحقيقة ـ تبدو كأنها عادت إلى وضْعها الطبيعي».

«مظهرها! ... تبدو على ما يرام!»... أسأله هذا، وقبل أن يدير ظهره لي أستطيع أن أرى في وجهه أنه أدرك غلطته... «ظننتك قلت لي إنك تحدثت معها بالهاتف، أليس كذلك؟».

يستنشق نفساً عميقاً ثم يطلق زفرة ثقيلة... ثم يستدير صوبي من غير أي تعبير على وجهه: «نعم، لا بأس... هذا ما قلته لك يا عزيزتي لأنني كنت أعرف أنك ستنزعجين لأنني قابلتها. إنني أستسلم الآن ـ لقد كذبت عليك. أحياناً، يغامر المرء بأي شيء ليكسب راحته».

«هل تسخر مني؟».

يبتسم لي، ويهز رأسه عندما يخطو صوبي. لا تزال يداه مرفوعتين استسلاماً: «إنني آسف؛ إنني آسف. لقد أرادت أن نتحدث وجهاً لوجه. ظننت أن ذلك سيكون أفضل فعلاً. إنني آسف، هل اتفقنا؟ لقد تحدثنا فقط. لقد ذهبنا إلى مقهى بائس في آشبوري وتحدثنا عشرين دقيقة... أو نصف ساعة كحد أقصى. هل ترين الآن؟».

يحيطني بذراعيه ويجذبني إلى صدره. أحاول مقاومته، لكنه أقوى مني، ثم إن رائحته رائعة... وأنا لا أريد مشاجرة. أريد أن نكون في صف واحد معاً. يغمغم من جديد... في شعري: «إنني آسف».

أقول له: «لا بأس».

أتركه يفلت بفعلته لأنني أتولّى الأمر بنفسي الآن. لقد تحدثت مع المحقِّقة رايلي مساء أمس. عرفت منذ لحظة بدء كلامنا أنني فعلت الشيء الصحيح عندما اتصلت بها. عندما أخبرتها أنني شاهدت ريتشل خارجة من بيت سكوت هيبويل 'عدة مرات' (مبالغة بسيطة)، بدت شديدة الاهتمام بذلك. أرادت أن تعرف التواريخ، وفي أي ساعة حدث ذلك (استطعت تزويدها بمعلومات عن مرتين اثنتين. وتعمّدت

الغموض في ما يتعلق بالمرات الأخرى). أرادت أن تعرف إن كانت بينهما علاقة قبل اختفاء ميغان هيبويل. وسألتني إن كنت أظن أن بينهما علاقة جنسية الآن. كان عليَّ القول إن تلك الفكرة لم تخطر في بالي حقيقة، لا أستطيع أن أتخيله ذاهباً من ميغان إلى ريتشل. وعلى أيّ حال إن جسد زوجته لم يبرد في قبرها بعد.

أخبرتها أيضاً عن حادثة إيفي. محاولة الاختطاف. قلت هذا لأذكّرها به إن كانت ناسية.

قلت لها: «إنها غير مستقرة على الإطلاق. قد تظنين أنني أبالغ في ردة فعلي، لكنني لا أستطيع المغامرة أبداً عندما يتعلق الأمر بأسرتي».

قالت لي: «لا، أبداً! أشكرك كثيراً لأنك اتصلت بي. إذا رأيت شيئاً آخر تظنين أنه يدعو إلى الشك، فأرجو أن تخبريني».

لا فكرة عندي عما ستفعله الشرطة في هذا الشأن. من الممكن أن تكتفي بتحذيرها من الاقتراب! على أي حال، سيكون هذا مفيداً إذا بدأ بحث مسألة استصدار أمر بتقييد حركتها. لكني آمل... من أجل توم... ألا يصل الأمر إلى ذلك الحد.

بعد ذهاب توم إلى العمل، أخذت إيفي إلى الحديقة فلعبنا على الأراجيح وعلى الأحصنة الخشبية الهزازة الصغيرة. وعندما أعدتها إلى عربتها سقطت نائمة على الفور تقريباً فكان هذا إيذاناً لي بالذهاب إلى التسوّق. سرنا عبر الشوارع الخلفية في اتجاه متجر سينز بري الكبير. هذا طريق جانبي طويل بعض الشيء، لكنه هادئ وليس فيه سيارات كثيرة. إنه يمر بالبيت رقم 34 في شارع غرانهام.

لا يزال المرور بذلك البيت يثير عندي رعشة صغيرة، إلى الآن، فجأة، ترفرف فراشات كثيرة في أحشائي، وترتسم ابتسامة على شفتَيّ، وتتورد وجنتاي. أتذكر كيف كنت أصعد الدرجات الأمامية مسرعة، آملة ألا يراني أحد من الجيران داخلة إلى ذلك البيت. ثم أجهّز نفسي في

الحمام... أضع عطراً، وأرتدي ذلك النوع من الملابس الداخلية التي لا تُلبَس إلا لكي تُخلع. ثم أتلقّى منه رسالة نصية إنه عند الباب. ثم نمضي ساعة أو ساعتين في غرفة النوم، في الأعلى.

كان يقول لريتشل إنه مع أحد العملاء، أو إنه في لقاء مع الأصدقاء لتناول البيرة. وكنت أسأله: «ألا يقلقك احتمال أن تحاول ريتشل التحقّق من ذلك؟»، فيهز رأسه مستبعداً تلك الفكرة. قال لي مبتسماً ذات مرة: «إنني ماهر في الكذب». وقال مرة أيضاً: «حتى إذا حاوَلَتْ التحقّق فإن المشكلة مع ريتشل هي أنها لن تتذكر غداً ما حدث اليوم». عند ذلك فقط بدأت أدرك مدى سوء الوضع في نظره.

لكن التفكير في تلك الأحاديث يمسح الابتسامة عن وجهي. التفكير في توم الذي كان يضحك ضحكة تآمرية وهو يمرِّر أصابعه على بطني ويبتسم لي قائلاً: «إنني ماهر في الكذب». إنه ماهر في الكذب، لديه موهبة طبيعية. رأيته يفعل هذا: يقنِع موظف الاستقبال في الفندق بأننا زوجان في شهر العسل مثلاً، أو يتذرَّع بأن لديه حالة طارئة في البيت لكي يتجنب العمل ساعات إضافية. الجميع يفعل هذا، الجميع يفعل هذا طبعاً، لكن... عندما يفعله توم، فإنك تصدّقه فعلاً.

أفكر في كذبته على الإفطار هذا الصباح، لكن المهم أنني أمسكت به كاذباً؛ وقد اعترف بذلك على الفور. ليس عندي أي شيء يقلقني. إنه لا يقابل ريتشل من وراء ظهري! الفكرة سخيفة أصلاً. لعلها كانت جذّابة ذات يوم ـ كانت جذّابة فعلاً عندما قابلها أول مرة... فقد رأيت صورها: عينان كبيرتان داكنتان، وتفاصيل جسد مثيرة ـ لكنها سمينة الآن. ثم إنه لن يعود إليها أبداً... ليس بعد كل الأشياء التي فعلتها به، التي فعلَتْها بنا. كل تلك الإزعاجات والاتصالات الهاتفية آخر الليل، وقدومها إلى بيتنا، ورسائلها النصية.

أقف الآن في جناح المأكولات المعلَّبة. لا تزال إيفي نائمة في عربتها. أبدأ بالتفكير في تلك المكالمات الهاتفية، وفي تلك المرّة ـ أو لعلها مرّات؟. عندما استيقظت فرأيت ضوءاً في الحمام، استطعت أن أسمع صوته خفيضاً لطيفاً، من خلف الباب المغلق. كان يهدّئ من روعها. أعرف أن هذا ما كان يفعله. قال لي إنها تغضب أحياناً إلى درجة تجعلها تهدّده بأن تأتي إلى البيت، أو بأن تذهب إلى عمله، أو أن ترمي بنفسها أمام القطار. لعله ماهر جداً في الكذب. لكني أعرف عندما يقول الحقيقة. لا يستطيع خداعي.

في المساء

أفكر في الأمر فأجد أنه خدعني بالفعل. أليس كذلك؟ عندما قال لي إنه تحدث مع ريتشل هاتفياً وإنه أحس من صوتها أنها بخير، بحالة أفضل، سعيدة تقريباً... لم أشكّ في كلامه لحظة واحدة. ثم جاء إلى البيت ليلة الاثنين، وسألته عن نهاره فقال لي إنه كان في اجتماع مرهق حقاً هذا الصباح. أصغيتُ إليه متعاطفةً من غير أن أشك لحظة في قصة ذلك الاجتماع، من غير أن أفكّر أبداً في أنه كان طيلة ذلك الوقت في آشبوري مع زوجته السابقة.

هذا ما أفكر فيه وأنا أفرغ آلة غسل الأطباق... أفرغها بدقة وانتباه شديدَيْن لأن إيفي نائمة، ولأن قرقعة الأطباق والملاعق يمكن أن توقظها. لقد خدعني فعلاً. أعرف أنه لا يكون صادقاً دائماً مئة بالمئة في كل شيء. أفكر في تلك القصة عن والديه ـ كيف أنه دعاهما إلى زفافنا لكنهما رفضا الحضور لأنهما كانا غاضبَيْن منه لأنه ترك ريتشل. أرى هذا أمراً غريباً، دائماً، ففي المناسبتَيْن اللتين تحدثت فيهما مع أمه بدت لي مسرورة بالحديث معي. كانت لطيفة، مهتمة بي، ومهتمة بإيفي.

قالت لي: «آمل حقاً أن نتمكن من رؤيتها قريباً». لكن توم استبعد الفكرة تماماً عندما أخبرته بكلام أمه.

يقول لي: «إنها تحاول جعلي أدعوهما إلى بيتنا... حتى تستطيع أن ترفض. إنها ألعاب القوة». لكنها لم تبدُ لي أنها امرأة تلعب ألعاب القوة معي. لم أواصل الإلحاح على تلك النقطة. إن النفاذ إلى العلاقات داخل أسر الأشخاص الآخرين أمر شديد الصعوبة دائماً. ولا بد أن لديه أسباباً تجعله يبقيهما بعيدَيْن عنا. أعرف أن لديه أسباباً. إن حمايتي وحماية إيفي في قلب هذه الأسباب.

لكن، لماذا أتساءل الآن إن كانت تلك الحكاية صحيحة؟ إنه هذا البيت، هذا الوضع، كل الأشياء التي تحدث هنا. يجعلني هذا أشك في نفسي، أشك فينا. إذا لم أكن حذِرة منتبهة فسوف يدفعني هذا كله إلى الجنون. وسينتهي بي الأمر مثلها. مثل ريتشل.

أنا جالسة هنا فقط... أنتظر حتى يحين وقت إخراج الملابس من آلة التجفيف. أفكّر في تشغيل التلفزيون لأرى إن كنت أستطيع العثور على حلقة من «فريندز» لم أشاهدها ثلاثمئة مرة. أفكر في القيام ببعض تمرينات اليوغا. وأفكر في القصة على الطاولة الصغيرة بجانب سريري، القصة التي قرأت فيها اثنتي عشرة صفحة خلال الأسبوعين الماضيين. أفكر في حاسوب توم المحمول. إنه على الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس.

عند ذلك، أفعل شيئاً لم أفكر يوماً في فعله. أمسك بزجاجة النبيذ الأحمر التي فتحناها الليلة الماضية على العشاء فأصبّ لنفسي كأساً. ثم أحضر حاسوبه فأشغّله وأبدأ محاولة اكتشاف كلمة السر.

إنني أفعل الأشياء التي كانت تفعلها هي: أشرب وحدي، وأتلصّص عليه. إنها الأشياء التي كانت تفعلها، والتي كان يكرهها. لكن الأمور تغيرت في الآونة الأخيرة ـ منذ هذا الصباح. إذا كان سيكذب علَيّ، فسوف أتلصص عليه بدوري. هذا عدل، أليس كذلك؟ أشعر أنني أستحق بعض

الإنصاف. وهكذا، أحاول العثور على كلمة السر. أجرب تركيبات مختلفة من الأسماء: اسمي واسمه، اسمه واسم إيفي، اسمي واسم إيفي، ثلاثتنا معاً، أكتبها مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف، تواريخ ميلادنا في تركيبات مختلفة. تواريخ أخرى: عندما التقينا أول مرة، عندما مارسنا الجنس أول مرة. الرقم 34 في شارع غرانهام؛ الرقم 23 ـ هذا البيت. أحاول التفكير في أشياء خارج ما هو مألوف ـ يستخدم أكثر الرجال أسماء كرة القدم في كلمات السر لديهم، هكذا أظن... لكن توم لا يهوى كرة القدم. إنه يحب لعبة الكريكيت كثيراً. فلأحاول إذًا أسماء فرق «بولكوت» و«بولتهام» و«آشز». لا أعرف أسماء أي فرق جديدة. أفرغ كأسي فأصب نصف كأس أخرى. إنني مستمتعة بهذا حقاً... أحاول حل أحجية. أفكر في الفرق الموسيقية التي يحبها، في الأفلام التي تمتعه، وفي الممثلات اللواتي يعجبنه. أكتب أيضاً «كلمة السر»، ثم أكتب «1234».

أسمع زعيقاً مخيفاً في الخارج. إنه قطار لندن يتوقف عند الإشارة. يشبه صوت أظافر تنزلق على لوح صلب. أشد على أسناني ثم آخذ جرعة طويلة أخرى من النبيذ. وعند ذلك، أنتبه إلى الوقت ـ يا إلهي، إنها السابعة تقريباً. لا تزال إيفي نائمة. وسوف يصل توم إلى البيت في أي لحظة. أفكر في أنه سيصل إلى البيت في أي لحظة فأسمع صوت المفتاح في باب البيت... يتوقّف قلبي.

أغلق الحاسوب سريعاً ثم أهبّ واقفة فيسقط الكرسي مُصْدراً صوتاً عالياً. تستيقظ إيفي وتبدأ الصراخ. أعيد الحاسوب إلى طاولته قبل أن يصل توم إلى الغرفة. لكنه يصل فيدرك أن هناك شيئًا غير طبيعي. ينظر إليّ ثم يقول: «ماذا يجري؟» أقول له: «لا شيء، لا شيء. لقد دفعت الكرسي فسقط من غير أن أقصد ذلك». يلتقط إيفي من سريرها فيحتضنها. وعند ذلك ألمح وجهي في المرآة المعلقة في الممر: وجهاً شاحبًا، وشفتين عليهما بقع حمر قاتمة من أثر النبيذ.

ريتشل

الخميس، 15 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

حصلت لي كاثي على مقابلة من أجل وظيفة جديدة. لقد أسست إحدى صديقاتها شركة للعلاقات العامة، وهي في حاجة إلى توظيف مساعِدة. إنها وظيفة سكريتاريا، للمظاهر فقط... براتب بسيط جداً. لكني لا أبالي! هذه المرأة مستعدة لمقابلتي من غير أي توصيات. أخبرتها كاثي قصة ما عني. قالت إنني تعرّضت لانهيار لكني تجاوزت ذلك تماماً الآن. ستجري المقابلة بعد ظهر الغد في بيت تلك المرأة. إنها تدير عملها من كوخ صغير في الحديقة الخلفية ـ شاءت المصادفة أن يكون ذلك البيت في ويتني. وهكذا، كان من المفترض أن أنفق النهار كله في تلميع سيرتي الذاتية والاستعداد لتلك المقابلة. كنت أفعل ذلك، لكن سكوت اتصل بي. قال: «آمل أن نستطيع التحدث معاً».

«لا حاجة لهذا... أقصد... ليس عليك أن تقول شيئاً... كان الأمر... نعرف، أنا وأنت، أنها كانت غلطة».

قال: «أعرف هذا». بدا صوته حزيناً. لم يكن شبيهاً بصوت سكوت الحانق في كوابيسي، بل كان أقرب إلى صوت سكوت المحطم الذي جلس على سريري وأخبرني عن طفله الميت... «لكني أوَدّ حقاً أن أتحدث معك». قلت له: «بالطبع... بالطبع نستطيع أن نتحدث».

«وجهاً لوجه».

قلت: «أوه»... كان آخر شيء أردته في تلك اللحظة أن أضطر للعودة إلى ذلك البيت. «إنني آسفة. لا أستطيع اليوم».

«أرجوك يا ريتشل. الأمر مهم». بدا لي قانطاً... أحسست بالشفقة عليه، رغماً عني. كنت أحاول التفكير في عذر ما، لكنه قالها من جديد: «أرجوكِ»... فقلت له نعم، ثم ندمت على قول تلك الكلمة في لحظة خروجها من فمي.

إن في الصحف قصة عن طفلة ميغان ـ طفلتها الميتة، الأولى. تتناول القصة والد تلك الطفلة، في الحقيقة. لقد توصلوا إليه. اسمه كريغ ماكنزي. لقد مات نتيجة جرعة زائدة من الهيروويين في إسبانيا منذ أربع سنوات. إذاً، هذا يحذفه من قائمة المشتبه بهم. لم تكن تلك القصة تبدو في نظري دافعاً محتملاً حقاً بأي حال من الأحوال ـ إن أراد شخص ما أن يعاقبها على ما فعلته في ذلك الوقت، فلن يفعل ذلك الآن. كان سيفعله منذ سنوات كثيرة.

مَنْ الباقون إذن؟ لا يترك هذا أحداً غير المشتبه بهم المعتادين: الزوج، والعشيق. سكوت، وكمال. أو لعله شخص ما التقطها من الشارع ـ هل هي قصة قاتل متسلسل جديد تبدأ هنا؟ وهل ستكون الضحية الأولى ضمن سلسلة الضحايا... مثل ويلما ماكان أو بولين ريدي؟ ثم مَنْ قال إن القاتل يجب أن يكون رجلاً؟ لقد كانت ميغان هيبويل امرأة صغيرة الحجم، ضئيلة كعصفور. لا يتطلب قتلها قوة كبيرة.

بعد الظهر

كانت الرائحة أول شيء ألاحظه عندما فتح الباب. رائحة عرق وبيرة، رائحة مزعجة جامضة... وتحت تلك الرائحة كان ثمة شيء آخر، شيء أسوأ، شيء متعفِّن. أراه في بنطلون رياضي طويل وقميص

رمادي مبقّع قصير الكمّين. شعره مزيَّت، وجلده لامع كما لو أنه مصاب بالحمّى.

أسأله: «هل أنت بخير؟» فيبتسم لي ابتسامة عريضة. إنه يشرب.

«إنني بخير... ادخلي... ادخلي!»... لا أريد أن أدخل، لكنني أدخل.

ستائر نوافذ البيت من جهة الشارع مسدلة. وغرفة المعيشة غارقة في ضوء محمَرّ يبدو متلائماً مع الحر، ومع تلك الرائحة.

يتحرك سكوت في المطبخ. يفتح البراد فيأخذ زجاجة بيرة.

يقول: «تعالي واجلسي. تناولي شراباً». البسمة ثابتة على وجهه، لا بهجة فيها... صورة بسمة. هنالك شيء غير لطيف في تعبير وجهه. إنه الازدراء الذي رأيته صباح يوم السبت... بعد نومنا معاً... لا يزال موجوداً في تعبير وجهه.

أقول له: «لا أستطيع البقاء طويلاً. إن لدي مقابلة عمل غداً. وعليَّ أن أستعد».

«حقاً؟»... يقولها رافعاً حاجبيه. يجلس ثم يدفع بقدمه كرسياً في اتجاهي، ويقول: «اجلسي وتناولي شراباً»... إنه أمر... ليس دعوة. أجلس قبالته فيدفع زجاجة البيرة صوبي. أرفعها وآخذ رشفة منها. أسمع زعيقاً في الخارج ـ أطفالاً يلعبون في الحديقة الخلفية لأحد البيوت ـ ومن خلف ذلك الزعيق أسمع هدير القطار الخافت المألوف.

يقول لي سكوت: «لقد ظهرت نتائج فحص الـ دي إن إيه البارحة. أتت المحققة رايلي لرؤيتي ليلة أمس». ينتظر أن أقول شيئاً. لكنني أخاف أن أقول شيئاً خاطئاً. أظل صامتة. «الطفل ليس طفلي. إنه ليس طفلي. لكن المضحك في الأمر هو أنه ليس طفل كمال أيضاً». يضحك سكوت ثم يتابع: «إذاً، كان لديها شخص آخر أيضاً. هل تصدّقين هذا؟»، إنه

يبتسم تلك الابتسامة المخيفة... «أنت لم تعرفي شيئاً عن ذلك، أليس كذلك؟ ألم تعرفي شيئاً عن الرجل الآخر؟ ألم تخبرك شيئاً عن ذلك الرجل؟» تنزلق الابتسامة مختفية من وجهه فينتابني إحساس مزعج، إحساس مزعج كثيراً. أنهض واقفة ثم أتقدم خطوة صوب الباب. لكنه يسرع فيقف أمامي. يداه قابضتان على ذراعي. يدفعني إلى الخلف حتى أجلس من جديد.

«اجلسي في مكانك». يتنزع حقيبتي من كتفي ثم يقذف بها إلى زاوية المطبخ.

«سكوت... أنا لا أعرف ما يجري...».

يصيح بي منحنياً فوقي: «هيا الآن! كنتما صديقتين، أنت وميغان! لا بد أنك على علم بعشّاقها كلهم».

إنه يعرف! لا بد أنه أدرك ذلك من وجهي لحظة جاءتني هذه الفكرة. انحنى مقترباً مني، أنفاسه النتنة في وجهي، وقال: «هيا يا ريتشل! قولي لي!»

أهز رأسي فيمد يده ليلتقط زجاجة البيرة الموضوعة على الطاولة أمامي. تتدحرج الزجاجة ثم تتحطم على الأرض.

يصيح قائلاً: «أعرف أنكِ حتى لم تلتقي بها. كل ما قلته لي... كل شيء... كان كذباً».

طأطأت رأسي، ثم نهضت واقفة، مغمغمة: «إنني آسفة. إنني آسفة». أحاول الالتفاف حول الطاولة لأستعيد حقيبتي وهاتفي، لكنه يقبض على ذراعي من جديد.

يسألني: «لماذا فعلتِ هذا؟ ما الذي جعلك تفعلين هذا؟ ما مشكلتك؟».

إنه ينظر إليَّ، عيناه ملتحمتان بعيني، وأنا مذعورة، خائفة منه. لكنني

أعرف في الوقت نفسه أن هذا السؤال ليس سؤالاً غير منطقي. يجب أن أقدم له تفسيراً. لا أحاول تخليص ذراعي من قبضته. أترك أصابعه تحفر لحمي، وأحاول أن أتكلم بوضوح وهدوء. أحاول ألّا أصرخ. أحاول ألّا أكون مذعورة.

أقول له: «أردت أن أجعلك تعرف بأمر كمال. رأيتهما معاً، مثلما أخبرتك. لكنك لم تكن لتصدقني، لم تكن لتأخذني على محمل الجد، لو كنت مجرَّد فتاة رأتهما من نافذة القطار. كان عليَّ أن...».

«كان عليك!»... يتركني ويستدير مبتعداً عني... «تقولين لي إنه كان عليك»... صار صوته أكثر لطفاً. إنه يهدأ. تنفَّست عميقاً. حاولت تهدئة ضربات قلبي.

أقول: «أردت مساعدتك. أعرف أن الشرطة تشك دائماً في الزوج. وقد أردتك أن تعرف ـ أن تعرف أن هناك شخصًا آخر».

«هل هذا ما جعلك تختلقين قصة معرفتك بزوجتي؟ هل تدركين كم تبدين مجنونة؟».

«أدرك هذا».

أسير باتجاه طاولة المطبخ لألتقط منشفة، ثم أجثو... على يدَيَّ وركبتَيّ... وأنظِّف البيرة المسكوبة على الأرض. يجلس سكوت واضعاً مرفقَيْه على ركبتَيه، مطأطئاً رأسه. يقول: «لم تكن مثلما ظننتها. لم تكن المرأة التي ظننتها. لا فكرة عندي عمَّن هي».

أعصر المنشفة فوق المِجلَى ثم أفتح الماء البارد على يدي. حقيبتي على مسافة قدمَين مني، في زاوية الغرفة. أتحرك صوبها، لكن سكوت يرفع رأسه ناظراً إليّ... فأتوقف. أقف هناك، ظهري إلى الطاولة... أمسك حافتها بيدي حتى أضمن استقراري... حتى أشعر بالاطمئنان.

يقول: «أخبرتني المحققة رايلي. كانت تسألني عنك. سألتني

إن كان بيننا علاقة غرامية». يضحك عند ذلك... «علاقة معكِ أنت! يا إلهي. سألتها عند ذلك: هل رأيت كيف كانت زوجتي؟ لا تسقط المعايير بتلك السرعة». وجهي حار، وعرق بارد تحت إبطَيّ وأسفل ظهري. «من الواضح أن آنّا قدَّمَت شكوى ضدك. لقد شاهدتك تتجولين في المنطقة. هكذا حدث الأمر. قلت لها إن لا علاقة بيننا. وإنها مجرد صديقة لميغان... وتساعدني». ضحكَ من جديد. ضحكة خافتة لا مَرَح فيها... «قالت لي إنك لا تعرفين ميغان. قالت إنك مجرد كاذبة حزينة صغيرة ليس لديها حياة خاصة بها». خَبَت الابتسامة في وجهه... «كلكن كاذبات. كل واحدة منكن». يصدر هاتفي طنيناً. أسير خطوة صوب الحقيبة، لكن سكوت يصل إليها قبلي.

يقول لي وهو يخرج الهاتف من الحقيبة: «انتظري لحظة. لم ننته بعد». يقلب الحقيبة فيفرغ محتوياتها كلها على الطاولة، الهاتف، والمحفظة الصغيرة، والمفاتيح، وأحمر الشفاه، ومنديلاً نسائياً، وإيصالات بطاقة الائتمان. «أريد أن أعرف بالضبط مقدار الكلام الفارغ في كل ما قلتِه لي». ومن غير استعجال، يلتقط الهاتف وينظر إلى شاشته. يرفع عينيه صوبي، وفجأة تصبحان باردتين. يقرأ بصوت مرتفع: «هذه الرسالة لتأكيد موعدك مع الدكتور أبديك في الرابعة والنصف بعد الظهر يوم الاثنين، 19 آب/ أغسطس. إذا كنت غير قادرة على الحضور في هذا الموعد، فيُرجَى أخْذُ العلم بضرورة إبلاغنا قبل أربع وعشرين ساعة».

«سكوت، إنني...».

يسألني: «ماذا يجري بحق الجحيم؟»... صار صوته أشبه بالهمس... «ماذا تفعلين؟ ماذا تقولين له؟».

«لا أقول له شيئاً...» ألقى بالهاتف على الطاولة ثم جاء صوبي وقد تكوَّرت قبضتاه. أتراجع إلى زاوية الغرفة، وأحشر نفسي بين الجدار والباب الزجاجي. «كنت أحاول اكتشاف الحقيقة... كنت أحاول

المساعدة». يرفع قبضته فأنكمش، أخفض رأسي منتظرة الألم. وفي تلك اللحظة أدرك أنني فعلت هذا من قبل، أحسست بهذا من قبل، لكنني لا أستطيع أن أتذكر متى حدث ذلك ولا وقت لدي للتفكير فيه الآن. صحيح أنه لم يضربني، لكنه وضع يديه على كتفَيّ... إنه يشد عليهما الآن، يحفر إبهاماه ترقوتَيّ. يؤلمني هذا كثيراً... أصرخ.

يقول وهو يشد على أسنانه: «كل هذا الوقت... كنت أظن طيلة هذا الوقت أنك واقفة إلى صفي، لكنك كنت تعملين ضدي. كنت تقدمين له المعلومات، أليس كذلك؟ كنت تعطيه معلومات عني وعن ميغان. إنها أنتِ، أنت من جعل الشرطة تستهدفني. أنتِ التي...».

«لا! أرجوك، لا تفعل هذا. لم يكن الأمر هكذا. أردت مساعدتك». تنزلق يده اليمنى متحركة إلى الأعلى. يمسك بشعري عند رقبتي، ويشده. «سكوت، لا تفعل هذا... أرجوك. أرجوك يا سكوت. أنت تؤلمني. أرجوك». إنه يجرّني الآن، يجرني صوْب باب البيت. يغمرني الارتياح. سوف يرميني خارجاً، في الشارع. الحمد لله.

لكنه لا يرميني خارجاً بل يستمر في جرّي... باصقاً، شاتماً. يجرّني إلى الأعلى فأحاول المقاومة؛ لكنه قوي جداً... لا أستطيع المقاومة. إنني أصرخ: «أرجوك... لا تفعل هذا... أرجوك». أصرخ وأعرف أن شيئاً فظيعاً على وشك الحدوث. أحاول الصراخ، لكنني لا أستطيع... لا يخرج صوتي.

أعمتني دموعي... أعماني خوفي. يلقيني سكوت في إحدى الغرف ثم يغلق الباب من خلفي. أسمع صوت المفتاح يدور في القفل. تندفع حموضة حارة إلى حلقي... أتقيأ على السجادة. أنتظر... أصغي. لا يحدث شيء... لا يأتي أحد.

إنني في الغرفة الإضافية. كانت الغرفة المماثلة في بيتي مكتباً لتوم. أما الآن فهي غرفة طفلتهما... الغرفة ذات الستائر الوردية الناعمة. أما

هنا، فهي تبدو مستودعاً... كلها أوراق وملفات، وفيها جهاز تمرين رياضي قابل للطي، وحاسوب آبل ماكنتوش قديم. أرى علبة فيها أوراق تحمل أرقاماً ـ لعلها حسابات متعلقة بعمل سكوت. هناك علبة أخرى فيها بطاقات بريدية قديمة ـ بطاقات فارغة على ظهورها آثار من شيء أزرق... كأنها كانت ملصقة على جدار ذات يوم: سطوح بيوت باريسية، وأطفال يتزلَّجون في زقاق، وعوارض سكة قطار قديمة كَسَتها الطحالب، وصورة للبحر من داخل أحد الكهوف. أقلِّب هذه البطاقات ـ لا أعرف لماذا أبحث، أو عن أي شيء أبحث فيها... أحاول فقط تهدئة خوفي. أحاول ألا أفكر في تلك التقارير الصحافية... في إخراج جثة ميغان من الوحل. أحاول ألا أفكر في إصاباتها، أو في مقدار الرعب الذي لا بد أنها عاشته عندما رأت الموت قادماً إليها.

أقلِّب البطاقات... وفجأة أحس أن شيئاً عضَّني فأرتدّ إلى الخلف مطلِقة صيحة صغيرة. هنالك جرح في قمة إصبعي. الدم يقطر على بنطلوني. أوقف الدم بطرف قميصي، وأتابع تقليب البطاقات بانتباه أكبر. وعلى الفور، أرى الشيء الذي جرحني: صورة في إطار، محطّمة... قطعة زجاج صغيرة مفقودة في أعلاها... وحافة الزجاج المكشوفة ملطخة بدمي.

لم أر هذه الصورة من قبل. إنها صورة لميغان وسكوت معاً. وجهاهما قريبان من الكاميرا. إنها تضحك، وهو ينظر إليها مولَّهاً. أم لعلها نظرة غيرة؟ زجاج الصورة محطَّم على هيئة نجمة تبدأ عند زاوية عين سكوت. من الصعب عليّ أن أقرأ تعابير وجهه. أجلس هناك، على الأرض، والصورة أمامي. أفكّر كيف تتحطم الأشياء... دائماً... مصادفة، وكيف يعجز الإنسان أحياناً عن إصلاحها. أفكر في كل تلك الأطباق التي حطَّمتها عندما كنت أتشاجر مع توم... في تلك الثغرة في الجدار، في ممر الطابق العلوي.

أسمعُ صوتاً على الجانب الآخر من الباب المقفل. أسمع ضحك سكوت فيتجمّد جسدي كله. أقف سريعاً، ثم أمضي إلى النافذة. أفتحها وأنحني خارجها. أقف على رؤوس أصابعي وأصيح طالبةً النجدة. أنادي توم. هذا محال! شيء يدعو إلى الرثاء! حتى لو شاءت المصادفة أن يكون توم في الخارج، في الحديقة، على مسافة بيوت قليلة من هنا، فلن يتمكن من سماعي. المسافة بعيدة جداً. أنظر إلى الأسفل فأفقد توازني... لكني أشد نفسي إلى الخلف، إلى الداخل... ترتخي أمعائي، وتعلق شهقاتي في حنجرتي.

أصرخ: «أرجوك يا سكوت!... أرجوك...». أكره صوتي، أكره نبرة الاستعطاف فيه، نبرة القنوط. أنظر إلى الدم على قميصي فأفكّر بما لديّ من خيارات للدفاع عن نفسي. ألتقط إطار الصورة ثم أفتحه على السجادة. أختار أكبر شظايا الزجاج فأدسها بعناية في جيبي الخلفي.

أسمع صوت خطوات تصعد السلم. أستند إلى الجدار قبالة الباب. أسمع المفتاح يدور في القفل.

أرى سكوت حاملاً حقيبتي في يده. أراه يقذف بها عند قدمَيّ. وأرى في يده الأخرى قصاصة ورق. يقول مبتسماً: «لا بأس إذا لم أستطع جعل هذا يبلغ مستوى التمثيل في فيلم نانسي درو!»... يتصنّع صوتاً نسائياً، ثم يقرأ بصوت مرتفع: «هربت ميغان مع عشيقها الذي أشير إليه من هنا فصاعداً بالحرف ب». يضحك ضحكة قصيرة ثم يتابع: «لقد آذاها ب... آذاها سكوت...» يكرمش الورقة ثم يرميها عند قدمي. «ياإلهي! أنت تثيرين الرثاء حقاً، أليس كذلك؟» ثم ينظر من حوله فيرى السجادة حيث تقيّأت عليها، ويرى الدم على قميصي... «يا للجحيم! ماذا كنت تفعلين؟ هل حاولت قتل نفسكِ؟ هل تريدين أن تقومي بعملي بدلاً مني؟»... يضحك من جديد... «عليَّ أن أكسر رقبتك الملعونة

هذه... لكن هل تعرفين... أنت لا تستحقين هذا العناء. أخرجي من بيتي». قال هذا ثم تنحّى جانباً لأمُرّ.

أمسكت بحقيبتي وانطلقت صوب الباب، لكنه يخطو فور تحرّكي فيصير أمامي متخذاً وضعية الملاكم. أظن للحظة أنه موشك على إيقافي. على وضع يديه عليَّ من جديد. لا بد أنه لمح الذعر في عينَيّ لأنه راح يضحك، راح يزمجر ضاحكاً. بقيتُ أسمع صوت ضحكه إلى أن خرجت من البيت وأغلقت الباب من خلفي.

الجمعة، 16 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

لم أنَمْ إلا قليلاً. شربت زجاجة ونصف زجاجة من النبيذ علَّ ذلك يجعلني أنام، علّه يوقف اهتزاز يدي، علّه يهدّئ تقلّصات معدتي. لكنه لم ينجح في شيء من هذا. كنت أجفل فأستيقظ كلما بدأت أغفو. كنت شبه واثقة من أنني أحسّه موجوداً معي في هذه الغرفة. أشعلت الضوء وجلست هناك مصغية إلى أصوات الشارع في الخارج، إلى أناس يتحركون في هذا المبنى. لم أستطع الاسترخاء والنوم إلا مع ضياء الفجر. حلمت أنني في الغابات من جديد. كان توم معي. لكنني كنت خائفة.

تركت رسالة لتوم الليلة الماضية. بعد مغادرتي بيت سكوت، جريت إلى البيت رقم 23 وقرعت الباب. كنت مذعورة إلى حد جعلني غير مهتمة بأن تكون آنا هناك... حتى إذا غضبت لمجيئي. لم يفتح لي الباب أحد، فكتبت رسالتي على قصاصة ورق ألقيتها في علبة البريد. لا يهمّني أن تراها ـ بل أظن أن جزءاً مني يريدها أن تراها في الواقع. جعلت رسالتي غامضة ـ قلت له إن علينا أن نتحدث عما جرى في ذلك اليوم. لم أذكر سكوت بالاسم لأنني لم أكن أريد أن يذهب توم إليه ويواجهه ـ الرب وحده يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

اتصلت بالشرطة فور وصولي إلى البيت تقريباً. شربت كأسين من النبيذ قبل ذلك، حتى أهدّئ نفسي. طلبت أن أتكلم مع المحقق غاسغيل. لكنهم قالوا إنه غير موجود. وهكذا انتهى بي الأمر إلى الحديث مع رايلي. لم يكن هذا ما أردته، أعرف أن غاسغيل سيكون أكثر لطفاً منها.

قلت لها: «لقد حبسني في بيته. وهددَني أيضاً». سألتني عن مدة «حبسي» عنده. أحسست أنها تشكّ في كلامي.

قلت: «لا أعرف. لعلها نصف ساعة».

ساد صمت طويل.

«تقولين إنه هدّدَكِ. هل تستطيعين إخباري بطبيعة ذلك التهديد تحديداً؟».

«قال إنه سيكسر رقبتي. قال... قال إن عليه أن يكسر رقبتي...».

«هل قال لك إن عليه أن يكسر رقبتك؟».

«قال إنه سيكسرها إن اقتضى الأمر».

صمت. وبعد ذلك... «هل ضربك؟ هل ألحق بكِ الأذى بأي طريقة؟».

«كدمات... كدمات فقط».

«هل ضربك؟».

«لا! أمسكني بقوة».

صمت أطول.

وبعد ذلك: «آنسة واتسون! لماذا كنتِ في بيت سكوت هيبويل؟».

«طلب مني أن أذهب لرؤيته. قال إنه في حاجة إلى الكلام معي».

أطلقت رايلي زفرة طويلة: «لقد حذَّرناك سابقاً وقلنا لكِ أن تبقي بعيدة عن هذا. كنت تكذبين عليه، وتقولين له إنك كنت من أصدقاء

زوجته. كنت تقصّين عليه قصصاً غريبة و- دعيني أنهي كلامي - وهذا شخص... في أحسن الأحوال... واقع تحت ضغط شديد، وهو يعاني كثيراً. هذا في أحسن الأحوال. أما في أسوأ الأحوال، فقد يكون شخصاً خطراً».

«إنه شخص خطر! هذا ما أقوله لك بحق الله... بحق الله».

«هذا ليس مفيداً. أنت تذهبين هنا وهنا، وتكذبين عليه، وتستفزينه. إننا نحقق في جريمة قتل هنا. عليك أن تفهمي هذا. قد تعرّضين تقدمنا في التحقيق إلى الخطر، وقد...».

«أيّ تقدم؟» ... قلت لها هذا بصوت حاد... «لم تحقّقوا أي تقدم في التحقيق! لقد قتل زوجته... أقول لك هذا. هناك صورة، صورة لهما معاً، إنها محطّمة. وهو غاضب... إنه شخص غير مستقر...».

«نعم، رأينا هذه الصورة. لقد فتشنا البيت. لكن تحطيم الصورة ليس دليلاً على القتل».

«ألن تعتقلوه إذاً؟».

أطلقت زفرة طويلة: «تعالي إلى قسم الشرطة غداً. قدّمي شكوى. وسوف نتابع الأمر من تلك النقطة. ثم... يا آنسة واتسون! عليك أن تبتعدي عن سكوت هيبويل».

عادت كاثي إلى البيت فوجدَتني أشرب. لم تكن سعيدة بهذا. ماذا أستطيع أن أقول لها. لم تكن عندي طريقة لشرح الأمر. لم أقل إلا إنني آسفة. ثم صعدت إلى غرفتي مثلما تفعل مراهقة عندما تحرَد. ثم استلقيت مستيقظة... أحاول أن أنام... منتظرةً اتصالاً من توم. لم يتصل.

استيقظت باكراً ونظرت إلى هاتفي (لا مكالمات)؛ غسلتُ شعري وارتديتُ ملابسي من أجل المقابلة. كانت يداي مرتجفتين، ومعدتي منقبضة. أخرج في وقت مبكر لأن علي أن أذهب إلى قسم الشرطة

أولاً حتى أسجِّل الشكوى ضد سكوت. ليس هذا لأنني أتوقع أن ينتج عن تلك الشكوى شيء. إنهم لا يأخذونني على محمل الجد أبداً، ومن المؤكد أنهم لن يغيّروا ذلك الآن. أسأل نفسي: ماذا يريدون حتى يعتبروني أي شيء غير إنسانة مهووسة.

طوال الطريق إلى قسم الشرطة، لم أكن قادرة على منع نفسي من الالتفات إلى الخلف. زعيق مفاجئ لصفارة سيارة من سيارات الشرطة جعلني أقفز في مكاني رعباً. وفي مدخل القسم، مشيت بالقرب من السياج الواقي. كانت أصابعي تنزلق على ذلك السياج الحديدي. سرت هكذا حتى أستطيع التمسك به إن لزمني ذلك. أدرك أن هذا سخف، لكنني أشعر أنني معرَّضة للخطر إلى حد كبير الآن بعد أن رأيته على حقيقته... الآن بعد أن لم يبق بيننا أسرار.

بعد الظهر

يجب أن يكون الأمر منتهياً بالنسبة لي الآن. كنت أظن طيلة هذا الوقت أن هناك شيئًا يجب أن أتذكره، شيئًا نسيته. لكن... لا وجود لأي شيء. لم أرَ شيئاً هاماً، ولم أفعل شيئاً فظيعاً. كلّ ما حدث هو أنني كنت موجودة في الشارع نفسه، مصادفة. أعرف هذا الآن بفضل الرجل ذي الشعر الأحمر. لكن... يبقى هناك شيء في رأسي... شيء مثل بقعة تحكّني ولا أستطيع الوصول إليها.

لم أجد غاسغيل، ولا رايلي، في قسم الشرطة. أدليت بالشكوى أمام شرطي يبدو عليه الضجر. سوف يضعون هذه الشكوى في أحد الملفّات ثم ينسونها. هذا ما أفترضه... إلا إذا عثر أحد ما عليَّ في حفرة في مكان ما. كانت مقابلتي في الناحية الأخرى من البلدة، الناحية الأكثر بعداً عن بيت سكوت. لكنني أخذت تاكسي من قسم الشرطة. لن أغامر بشيء. كانت المقابلة جيدة: الوظيفة نفسها أقل مني بكثير... لكن،

يبدو لي أنني صرت أقل مني بكثير، أنا نفسي... خلال السنة الماضية أو السنتين الماضيتين. يجب أن أعيد ترتيب المعايير. لكن المشكلة الأكبر في هذه الوظيفة (غير بؤس الدخل، ووضاعة العمل نفسه) هي اضطراري إلى المجيء إلى ويتني طيلة الوقت، وإلى المشْي في هذه الشوارع والمخاطَرة باحتمال مصادفة سكوت أو آنّا وطفلتها.

هذا لأن مصادفة الناس تبدو كل ما أستطيع فعْله في هذه الناحية. كان هذا شيئاً أحببته في هذه البلدة: الإحساس بأنك في قرية على أطراف لندن. قد لا تعرف الجميع، لكن الوجوه مألوفة كلها.

صرت عند المحطة تقريباً. أمرّ أمام متجر كراون فأشعر بيد تلمس ذراعي فأجفل مبتعدة... أنزلق عن الرصيف وأصير في الشارع.

«أوه... أوه... إنني آسف! إنني آسف!»... هذا هو من جديد، الرجل ذو الشعر الأحمر حاملاً زجاجة شراب في يده، رافعاً اليد الأخرى بحركة اعتذار.

يبتسم قائلاً: «أنت عصبية، أليس كذلك؟»... لا بد أنني أبدو مذعورة حقاً لأن ابتسامته تخبو. «هل أنت بخير؟ لم أقصد إخافتك».

يقول إنه ثمل في وقت مبكر اليوم. ثم يدعوني إلى مشاركته الشراب. أرفض ذلك، لكنني أغيّر رأيي.

أقول له ـ اتضح أن اسمه آندي ـ عندما أحضَرَ لي الجن والتونيك: «إنني مدينة لك باعتذار بسبب تصرّفي في القطار. أقصد... في المرة الأخيرة. كان يومي سيئاً».

يقول آندي: «لا بأس». ابتسامته بطيئة... كسولة. لا أظن أن هذه زجاجته الأولى اليوم. إننا جالسان متقابلَين في حديقة البيرة في آخر المقهى. يبدو المكان هنا آمناً أكثر من الناحية المطلّة على الشارع. ولعل هذا الإحساس بالأمان هو ما شجّعني.

أغامر فأقول له: «أردت أن أسألك عما حدث في تلك الليلة... عندما التقيتك. إنها ليلة اختفاء ميغ... ليلة اختفاء تلك المرأة».

«أوه! طيب. لماذا؟ ماذا تقصدين؟».

أستنشق نفساً عميقاً. أحس أن وجهي بدأ يحمَرّ. يظل الأمر محرجاً حتى إن كنت قد اعترفت به مرات كثيرة من قبل... يجعلني هذا الاعتراف أنكمش على نفسي دائماً... «كنت في حالة سكر شديد؛ ولست أتذكر شيئاً. هناك أشياء أريد أن أفهمها. أريد أن أعرف إن كنتَ قد رأيتَ شيئاً، إن كنت قد رأيتني أتحدّث مع شخص آخر... أي شيء من هذا القبيل...». عيناي مثبَّتتان بالطاولة. لا أستطيع النظر في عينيه.

يلكز قدمي بقدمه ويقول: «لا بأس عليك! لم تفعلي أي شيء سيىء». أرفع رأسي فأراه مبتسماً... «كنت ثملاً أنا أيضاً. جرى بيننا حديث في القطار، لكني لا أستطيع تذكّر موضوع ذلك الحديث. ثم تركنا القطار هنا معاً، أقصد في ويتني، لكن مشيتك كانت غير ثابتة بعض الشيء لقد انزلقتِ على السلم. هل تذكرين هذا؟ ساعدتك في الوقوف فبدا عليك حرج شديد. احمرّ وجهك مثلما هو الآن». يضحك عند ذلك... «خرجنا من المحطة معاً فسألتك إن كنت راغبة في الذهاب إلى الحانة لكنك قلت إن عليك أن تذهبي لمقابلة زوجك».

«هل هذا كل شيء؟».

«لا! ألا تذكرين حقاً؟ كان ذلك بعد قليل ـ لا أدري، بعد نصف ساعة... ربما؟ ذهبتُ إلى حانة كراون، لكن أحد أصدقائي اتصل قائلاً لي إنه يشرب في بار واقع إلى الناحية الأخرى من سكة القطار. وهكذا كنت ذاهباً إليه عبر النفق. رأيتك واقعة على الأرض هناك. وكنتِ في حالة مزرية عند ذلك. جرحت نفسك أيضاً. قلقت بعض الشيء، وقلت إنني سأوصلك إلى البيت إذا كنت تريدين ذلك، لكنك رفضتِ. لقد كنت... نعم، كنت منزعجة، غاضبة كثيراً. ظننت أن مشاجرة جرت بينك

وبين رجلك. رأيته مبتعداً في الشارع وقلت لك إنني مستعد للذهاب خلفه إن أردت، لكنك قلتِ لي ألّا أفعل ذلك. ثم انطلق بسيارته. لقد كان... آآآ... لم يكن وحده».

«هل كانت معه امرأة؟»، يهز رأسه ثم يخفضه قليلاً ثم يطرق قليلاً ويقول: «نعم ذهبا في السيارة معاً. افترضت عند ذلك أن هذا كان سبب المشاجرة بينكما».

«وبعد ذلك؟».

«ذهبتِ بعد ذلك. أحسست أنك... مشوَّشة... قليلاً، أو شيء من هذا القبيل... ذهبتِ مبتعدة. كنت تواصلين القول إنك لست في حاجة إلى أي مساعدة. مثلما قلت لك... كنت أنا نفسي ثملاً بعض الشيء... وهكذا تركت الأمر. تابعت طريقي عبر النفق والتقيت صاحبي في الحانة. هذا كل شيء».

عندما كنت أصعد السلم إلى الشقة، كنت واثقة من أنني أرى ظلالاً فوقي... من أنني أسمع وقع خطوات أمامي. هناك من ينتظرني في الأعلى. لا أحد هناك، بطبيعة الحال. والشقة كانت خالية أيضاً: كان كل شيء فيها طبيعياً. كانت رائحتها توحي بأنها فارغة. لكن ذلك لم يمنعني من تفتيش الغرف كلها ـ تحت سريري وتحت سرير كاثي، وفي الخزائن، بل حتى في خزانة المطبخ التي لا يستطيع طفل الاختباء فيها.

بعد ثلاث جولات في الشقة، صرت قادرة على التوقف أخيراً. صعدت إلى غرفتي وجلست على سريري مفكرة في ذلك الحديث مع آندي وفي حقيقة أنه يطابق ما أتذكّره. لم يكشف لي كلامه شيئاً جديداً. تجادلنا في الشارع، أنا وتوم. وانزلقت فسقطت وجرحت نفسي. مضى توم غاضباً وصعد إلى سيارته مع آنّا. ثم جاء بعد ذلك باحثاً عني، لكنني كنت قد ذهبت. أفترض أنني أخذت سيارة تاكسي، أو أنني عدت إلى محطة القطار.

إنني جالسة في سريري أنظر من النافذة. وأسأل نفسي: لماذا لا أشعر أنني صرت في حال أفضل؟ لعل السبب ببساطة أنني لا أزال غير قادرة على الوصول إلى أي إجابات. لعل ذلك لأنني... رغم أن ما أتذكره منسجم مع ما يتذكره الآخرون. لا أزال أشعر أن هناك شيئاً غير صحيح. أتذكر فجأة، آنّا! لم يذكر توم أبداً أنه ذهب معها بالسيارة ذلك الوقت؛ لكن ثمة أمراً آخر: عندما رأيتها تمضي مبتعدة وتصعد إلى السيارة... لم تكن تحمل ابنتها. أين كانت إيفي خلال حدوث هذا كله؟

السبت، 17 آب/ أغسطس 2013

في المساء

يجب أن أكلم توم حتى تستقيم الأمور في رأسي لأنني أجد الأمر غير منطقي كلما فكرت فيه... ولا أستطيع منع نفسي من التفكير فيه مرة بعد مرة. ثم إني قلقة أيضاً لأن يومين مرّا منذ أن تركت له تلك الرسالة... مر يومان ولم يتصل بي. لم يردّ على الهاتف الليلة الماضية. وهو لا يردّ طيلة اليوم. هناك شيء غير طبيعي. لا أستطيع أن أبعد عنّي ذلك الإحساس بأنه شيء متعلّق بآنّا.

أعرف أنه سيكون راغباً في الكلام معي أيضاً بعد سماعه ما حدث مع سكوت. أعرف أنه سيكون راغباً في مساعدتي. لا أستطيع منع نفسي عن التفكير في حالته ذلك اليوم في السيارة... في تلك المشاعر التي كانت بيننا. أرفع سَمّاعة الهاتف وأطلب رقمه... فراشات ترفرف في معدتي، تماماً مثلما تفعل دائماً... تشوّقي لسماع صوته... صوته الثاقب الآن مثلما كان منذ سنين.

«نعم؟».

«توم، هذه أنا».

«نعم؟»

لا بد أن آنّا موجودة معه. ولا بد أنه لا يريد أن يقول اسمي. انتظر لحظة حتى أفسح له مجالاً للذهاب إلى غرفة أخرى، للابتعاد عن آنّا. أسمعه يتنهد ثم يقول: «ما الأمر؟».

«آآ... أردت أن أكلمك... مثلما أخبرتك في الرسالة التي تركتها لك. إنني...».

«ماذا؟ أي رسالة ...». بدا منزعجاً.

«تركت لك رسالة منذ يومين. قلت لك فيها إننا يجب أن نتكلم عن...».

«لم تصلني أي رسالة». يتنهّد مرة أخرى... تنهيدة أثقل هذه المرة. «تباً لهذا! ذلك سبب انزعاجها مني». لا بد أن آنّا أخذت الرسالة. لم تعطه إياها... «ماذا تريدين؟».

أودّ أن أنهي المكالمة؛ وأن أتصل به من جديد... أن أبدأ من جديد. أريد أن أقول له كم كانت رؤيته يوم الإثنين أمراً طيباً عندما ذهبنا إلى البحيرة.

«أردت فقط أن أسألك عن شيء».

يقول بحدَّة: «ماذا؟»

يبدو منزعجاً حقاً.

«هل كل شيء على ما يرام؟».

«ماذا تريدين يا ريتشل؟...» لقد ذهب ذلك كله... الرِقّة كلها التي كانت في صوته منذ أسبوع فقط. ألعن نفسي لأنني تركت له تلك الرسالة. من الواضح أنني سبَّبت له مشاكل في البيت.

«أردت أن أسألك عن تلك الليلة ـ ليلة اختفاء ميغان هيبويل».

«آه... يا ربي! لقد تحدّثنا عن هذا ـ لا يمكن أن تكوني قد نسيتِ ذلك».

«أنا فقط...».

يقول بصوت مرتفع، فَظّ: «لقد كنت ثملة. قلت لك أن تذهبي إلى البيت. لكنك لا تُصغين. تجولتُ في المكان. قُدتُ السيارة باحثاً عنك، لكني لم أستطع العثور عليك».

«وأين كانت آنّا؟».

«كانت في البيت».

«هل كانت مع الطفلة؟».

«نعم، كانت مع إيفي».

«ألم تكن معك في السيارة؟»

«لا».

«لكن...»

«أوه... بحق الله. كانت تستعد للخروج. وكان عليّ أن أبقى مع الطفلة. ثم جئت أنت فألغت مشروعها. أما أنا فقد أهدرتُ ساعات إضافية من عمري جارياً هنا وهناك بحثاً عنكِ».

ليتني لم أتصل! ليتني لم أجعل آمالي تتصاعد ثم تتحطم من جديد. هذا مثل فولاذ بارد يطعنني، يتلوّى في أحشائي.

أقول له: «لا بأس! الأمر فقط أنني... أتذكر الأمر بشكل مختلف... توم، عندما رأيتني... هل كنت مصابة؟ هل كنت... هل كان في رأسي... جرح؟»

زفرة ثقيلة أخرى: «يدهشني أن تكوني قادرة على تذكّر أي شيء على الإطلاق يا ريتشل. كنتِ ثملة بشكل كامل، ثملة بشكل قذر... مقرف. كنت تترنَّحين هنا وهناك في ذلك المكان».

أحسُّ بغصّة في حنجرتي عندما أسمعه يقول هذه الكلمات. سمعته يقول هذه الأشياء من قبل... في الأيام السيئة منذ زمن... في أسوأ الأيام، عندما كان متعَباً مني، ضجِراً مني، متقزّزاً مني.

يتابع حديثه ضجِراً متعَباً: «كنتِ قد وقعتِ في الشارع، وكنت تصرخين. كنت في حالة مزرية تماماً. ما أهمية هذا الآن؟»

لا أستطيع أن أعثر على الكلمات المناسبة بالسرعة الكافية. أبحث عن الإجابة وقتاً أطول مما يطيق، فيتابع قائلاً: «انظري! يجب أن أذهب. لا تتصلي بي بعد الآن من فضلك. لقد تحدثنا عن هذا. كم مرة يجب أن أطلب هذا الأمر منك؟ لا تتصلي، ولا تتركي لي رسائل، ولا تأتي إلينا. هذا يزعج آنّا. هل اتفقنا؟».

و... ينقطع الخط.

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح الباكر

كنت في الأسفل طيلة الليل، في غرفة المعيشة، مع التلفزيون حتى أحس أن ثمّة أحداً معي. كان خوفي يتراجع ويزداد. كانت قوتي تتراجع وتزداد. أحس أنني عدت في الزمن... أحس أن الجرح الذي سبَّبه لي منذ سنين عاد الآن فانفتح... عاد جديداً، موجِعاً. أعرف أن هذا سخف. كنت حمقاء عندما ظننت أن لي فرصة معه من جديد استناداً إلى حديث واحد فقط، إلى لحظات معدودة ظننتها لحظات رِقَّة لكنها ما كانت، على الأرجح، شيئاً أكثر من اندفاع عاطفي وإحساس بالذنب. لكن الأمر مؤلم، رغم ذلك. وليس عليَّ إلا أن أترك نفسي أحس هذا الألم، لأنني إذا لم أفعل ذلك... إذا بقيت أخدّر الألم... فلن يزول مني أبداً.

كنت حمقاء أيضاً عندما تركت نفسي أظن أن هناك صلة تربطني بسكوت، وأنني قادرة على مساعدته. أنا حمقاء إذًا. هكذا اعتدت أن أكون. لست مضطرة إلى البقاء حمقاء... لست مضطرة! يجب ألّا أكون حمقاء بعد اليوم. أستلقي هنا طيلة الليل، وأعِدُ نفسي بأنني سوف أعرف

كيف أدير أموري. سأنتقل من هنا، بعيداً جداً. وسأحصل على عمل جديد. سأعود إلى اسمي الأصلي وأقطع كل ما يربطني بتوم. سأجعل من الصعب أن يعثر عليَّ أحد... إن اهتمَّ أحدٌ بالبحث عني أصلاً.

لم أنم كثيراً. بقيت مستلقية هنا على الأريكة، أضع خطَطاً. وكلما أبدأ الغرق في النوم، أسمع صوت توم في رأسي... واضحاً كما لو أنه موجود هنا معي، إلى جواري تماماً. شفتاه قرب أذني ـ *كنتِ ثملة تماماً. ثملة بشكل قذر، مقرف* ـ فأستيقظ مجفلة وأحسّ بالعار يجتاحني، يغمرني مثل موجة. إنه العار... لكنه إحساس قوي أيضاً بشيء مكرر... لأنني سمعت تلك الكلمات من قبل... تلك الكلمات نفسها.

وعند ذلك أصبح عاجزة عن منْع نفسي من تكرار تلك المشاهد في رأسي: ماشية ودمي على الوسادة، ألم داخل فمي... كأنني عضضت وجنتي من الداخل، أظافري قذرة، وفي رأسي صداع فظيع، وأرى توم خارجاً من الحمّام... أرى ذلك التعبير على وجهه ـ نصف غاضب، نصف مجروح ـ والخوف يتزايد في داخلي كأنه طوفان.

«ماذا حدث؟».

يريني توم الكدمات على ذراعه، وعلى صدره، حيث ضربته.

«لا أصدق هذا يا توم. لا يمكن أن أضربك أبداً. لم أضرب أحداً في حياتي كلها».

«كنتِ ثملة تماماً يا ريتشل. هل تذكرين أي شيء مما فعلته الليلة الماضية؟ أي شيء مما قلتِه؟...»، ثم يخبرني لكن أظل عاجزة عن التصديق... لا شيء في ما قاله يشبهني أنا، لا شيء أبداً. وأما قصة مضرب الغولف... الفجوة في الجدار... رمادية فارغة مثل عين عمياء تنظر إليَّ كلما مررت بها... لكنني لم أستطع التوفيق بين ذلك العنف الذي تحدث عنه وبين خوفي، الخوف الذي أذكره.

أو لعله الخوف الذي أظن أنني أذكره؟ بعد حين من الزمن، تعلمت

ألا أسأل عما فعلت، تعلمت ألا أجادل عندما يعطيني تلك المعلومات، لأنني لم أكن راغبة في معرفة التفاصيل، لم أكن راغبة في سماع قبحها... قبح الأشياء التي قلتها، وقبح الأشياء التي فعلتها، عندما كنت في تلك الحالة، عندما كنت ثملة بشكل قذر، مقرف. كان يهددني أحياناً بأن يسجّل ما يحدث. وكان يقول إنه سيُسمعني ذلك. لكنه لم يفعلها أبداً. هذا أفضل... هذا أكثر رحمة.

تعلَّمت بعد فترة أنك لا يجوز أن تسأل عما حدث عندما تستيقظ على تلك الحال. عليك فقط أن تعتذر: أن تقول إنك آسف على كل ما فعلت، وإنك آسف على ما أنت عليه، وإنك أبداً لن تتصرف بهذه الطريقة من جديد، أبداً.

وأنا الآن لا أتصرف كذلك... حقاً، لا أتصرف كذلك. يمكنني أن أكون ممتنّة لسكوت من أجل هذا: إنني خائفة الآن خوفاً لا يسمح لي بالخروج منتصف الليل لأشتري شراباً. يمنعني خوفي من أن أسمح لنفسي بالانزلاق من جديد لأنها هي اللحظة التي أجعل نفسي فيها هَشّة، معرَّضة للأذى.

يجب أن أكون قوية... هذا كل ما في الأمر.

أحس ثقلاً في أجفاني من جديد. يميل رأسي فيستريح على صدري. أخفض صوت التلفزيون حتى يكاد ينعدم. ثم أنقلب حتى يصير وجهي إلى ناحية ظهر الأريكة، أمدّ يدي فأسحب اللحاف فوقي، ثم أبدأ الغرق... أستطيع الإحساس بهذا... سوف أنام، وعندها... فجأة... الأرض مندفعة صوبي... أنتفض جالسة ويقفز قلبي إلى فمي. لقد رأيت ذلك. لقد رأيت ذلك.

كنت في النفق. وكان هو قادماً نحوي. صفعة على فمي ثم أرى قبضته مرفوعة، والمفاتيح في يده. ثم ألم حارق عند اصطدام المعدن المسنن بجمجمتي.

آنّا

السبت، 17 آب/ أغسطس 2013

في المساء

أكره نفسي لأنني أبكي. حالة تثير الرثاء. لكني أحسّ نفسي مرهَقة، مستنزَفة، لأن الأسابيع القليلة الماضية كانت شديدة الوطأة علي. جرت مشاجرة أخرى بيننا، أنا وتوم. كانت متعلقة بريتشل. أيمكن أن تحصل أي مشاجرة بيننا لسببٍ غير ذلك؟

أظن أن الأمر كان في طور الاختمار قبل ذلك. كنت أعذّب نفسي مفكّرة في تلك الرسالة، وفي حقيقة أنه كذب عليّ في ما يتعلق بلقائهما. أقول لنفسي دائماً إن هذا أمر سخيف تماماً. لكني لا أستطيع مقاومة إحساسي بأن شيئاً ما يحدث بينهما. أفكر في الأمر كله، مرة بعد مرة: بعد كل ما فعلَته ريتشل به ـ بعد كل ما فعلته بنا ـ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف يمكن له حتى أن يفكّر في أن يكون معها من جديد؟ أقصد... عند النظر إلينا معاً، جنباً إلى جنب، فكيف يمكن لأيّ رجل في هذا العالم أن يفضّلها عليّ؟ هذا حتى من غير الدخول في تفاصيل مشاكلها كلها!

لكني أقول في نفسي بعد ذلك إن هذا يحدث أحياناً. ألا يحدث هذا أحياناً؟ أشخاص يكون لك معهم ماضٍ مشترك فلا يتركونك... ومهما تحاول تخليص نفسك، فإنك لا تستطيع ذلك... لا تستطيع التحرّر منهم. بل لعلك تكف عن محاولة ذلك بعد فترة.

جاءت ريتشل يوم الخميس. جاءت تدقّ الباب وتنادي توم. كنت في غاية الغضب؛ لكني لم أجرؤ على فتح الباب. عندما يكون معك طفل، فإن هذا يجعلك هشّاً، يجعلك ضعيفاً. لو كنت وحدي لواجهتها. لو كنت وحدي لما كان عندي مشكلة في التخلّص منها. لكن... مع وجود إيفي... لم أستطع المغامرة بذلك. لا فكرة عندي أبداً عما يمكن أن تفعله.

أعرف سبب قدومها. كانت غاضبة لأنني أبلغت الشرطة عنها. أراهن أنها أتت باكية إلى توم لتجعله يقول لي أن أتركها وشأنها. لقد تركت رسالة ـ «علينا أن نتحدث. أرجو أن تتصل بي في أقرب وقت ممكن... الأمر مهم». (وضعت ثلاثة خطوط تحت كلمة «مهم») ـ. رميت هذه الورقة في سلة المهملات. لكني بحثت عنها فيما بعد واستعدتها، ثم وضعتها في دُرجي الخاص إلى جانب السرير، إلى جانب نسخ مطبوعة من رسائلها الإلكترونية المزعِجة وسجلّ أدوّن فيه كل ما يتعلق باتصالاتها والأوقات التي أراها فيها. إنه سِجِلّ الإزعاجات. إنه دليلي... إذا احتجت إليه يوماً ما. اتصلت بالمحقّقة رايلي فتركت لها رسالة أقول فيها إن ريتشل جاءت من جديد. لكن رايلي لم تعاود الاتصال بي حتى الآن.

كان عليَّ إخبار توم بتلك الرسالة. أعرف أن عليَّ إخباره. لكني ما كنت أريد أن ينزعج مني لأنني تحدثت مع الشرطة. وهكذا، وضعت الرسالة في ذلك الدرج آملة أن تنساها ريتشل. لكنها لم تنسها... بالطبع. لقد اتصلت به الليلة. كان في غاية الغضب عندما أنهى المكالمة معها.

قال لي بنبرة حادة: «ما قصة تلك الرسالة بحق الجحيم؟».

قلت له إنني رميتها. قلت: «لم أدرك أنك قد ترغب في قراءتها. ظننت أنك تريدها خارج حياتنا، بقدر ما أريد ذلك».

نظر إليَّ مستغرباً: «المسألة ليست هنا. وأنت تعرفين هذا. أريد أن تبتعد عنا ريتشل، أريد هذا بالطبع. ما لا أريده هو أن تبدئي بالاستماع إلى اتصالاتي الهاتفية والتخلص من رسائلي. إنك...» وتنهّد.

«إنني ماذا؟».

«لا شيء. إنه فقط... إنه ذلك النوع من الأشياء التي كانت تفعلها ريتشل».

كان ذلك لكمة في أحشائي... ضربة تحت الحزام. يا للسُّخف... انفجرت دموعي وجريت أصعد السلم ودخلت الحمّام. انتظرت أن يأتي لتهدئتي، لتقبيلي ومصالحتي مثلمَا يفعل دائماً. لكني سمعت صوته يصيح بعد نصف ساعة: «أنا ذاهب إلى صالة الرياضة لمدة ساعتين». وقبل أستطيع الرد سمعت صوت إغلاق باب البيت.

والآن... أجد نفسي أتصرف مثلما كانت تفعل ريتشل تماماً: أجهِزُ على نصف زجاجة النبيذ الأحمر المتبقّية من عشاء الليلة الماضية، وأتلصّص على حاسوبه. من الأسهل عليَّ أن أفهم سلوكها عندما تكون مشاعري مثلما هي الآن. لا شيء أكثر ألماً من الشك، لا شيء يأكل المرء مثل داخله.

توصلت أخيراً إلى معرفة كلمة السر على حاسوبه: إنها بلنهايم! كلمة غبية مضجرة إلى هذا الحد ـ اسم الشارع الذي نعيش فيه. لم أجد أي رسائل تدينه، أي صور وسخة أو رسائل عاطفية. أمضيتُ نصف ساعة أقرأ رسائل متعلقة بالعمل، رسائل تخدِّر الدماغ... بل تخدِّر ألم الغيرة أيضاً. ثم أغلقت الحاسوب وأزحته جانباً. أشعر ببهجة حقيقية الآن... بفضل النبيذ، وبفضل المحتويات المضجِرة في حاسوب توم. لقد طمأنت نفسي إلى أنني كنت مجرد امرأة سخيفة.

أصعد إلى الأعلى، إلى الحَمّام، لأنظف أسناني ـ لا أريده أن يعرف أنني عدت إلى شرب النبيذ من جديد ـ ثم أقرر أن أنزع ملاءات السرير

لأضع ملاءات نظيفة بدلاً منها، وأن أرشّ قليلاً من عطر آكوا دي بارما على الوسائد، وأن أرتدي اليوم ذلك السروال الداخلي من الحرير الأسود الذي جاءني منه في عيد ميلادي السنة الماضية. وسوف أثيره عندما يعود إلى البيت.

عندما كنت أسحب الملاءات عن السرير كدت أتعثر بحقيبة سوداء موضوعة تحته. إنها حقيبته التي يأخذها معه إلى صالة الرياضة. ذهب ونسيها هنا. لقد ذهب منذ ساعة، لكنه لم يعد من أجل الحقيبة. تنقبض معدتي. لعله قرر أن يصرف النظر عن الأمر وأن يذهب إلى الحانة بدلاً من ذلك. أو لعل لديه مستلزمات رياضية احتياطية في خزانته الخاصة في الصالة. أو... لعله في السرير معها الآن، في هذه اللحظة.

أشعر بالغثيان. أجثو على ركبتي وأقلب محتويات الحقيبة. أشياؤه كلها هنا، مغسولة جاهزة للاستخدام. أجد جهاز الآي بود أيضاً، والحذاء الذي لا يستخدم غيره للجري. أجد شيئاً آخر أيضاً: هاتف محمول. هاتفاً لم أره أبداً من قبل.

أجلس على السرير. الهاتف في يدي. قلبي يخفق. سوف أشغّل الهاتف. لن أستطيع مقاومة هذا أبداً. لكني واثقة تماماً من أنني سأندم على تشغيله، لأن وجود هذا الهاتف لا يمكن أن يعني إلا شيئاً سيئاً. لا يحتفظ المرء بهاتف محمول احتياطي موضوع في حقيبة الرياضة إلا إذا كان يريد إخفاء شيء ما. هنالك صوت في رأسي يقول لي: *أعيديه إلى مكانه... انسيه تماماً*... لكني لا أستطيع. يضغط إصبعي بشدة على مفتاح التشغيل. أنتظر ريثما تضاء الشاشة... ثم أنتظر... ثم أنتظر. إنه ميت. يسري الارتياح في جسدي كأنه المورفين.

أحسست بالارتياح لأنني لا أستطيع أن أعرف الآن. لكني مرتاحة أيضاً لأن هاتف ببطارية فارغة يعني هاتفاً غير مستخدم، هاتفاً غير مرغوب فيه، وليس هاتف رجل منغمس في علاقة عاطفية. لو كان كذلك، لأراده

معه طيلة الوقت. لعله هاتف قديم له؛ ولعله قابع في حقيبته الرياضية منذ شهور ولم يتسنَ له أن يرميه. بل قد لا يكون هاتفه أصلاً: لعله وجده في صالة الرياضة ووضعه في حقيبته معتزماً تسليمه إلى موظف الاستقبال هناك، لكنه نسي الأمر بعد ذلك؟

أترك السرير والملاءة لا تزال نصف منزوعة عنه. أهبط إلى غرفة المعيشة. إن في طاولة القهوة درجين صغيرين مليئين بأشياء من تلك التوافه المنزلية التي تتراكم مع مرور الزمن: لفافات من شريط بلاستيكي لاصق، ومآخذ كهربائية مختلفة يستخدمها المرء عندما يسافر خارج البلاد، وأشرطة قياس، وعدة خياطة، وشواحن هواتف محمولة قديمة. إنها ثلاثة شواحن... آخذها كلها. أجرّبها، فيعمل الثاني منها على الجهاز. أصله بالكهرباء وأضعه قرب سريري، عند جهتي أنا. الهاتف والشاحن مخفيان خلف الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. ثم أنتظر.

تواريخ وساعات، في الأغلب. ليست تواريخ. إنها أيام. الساعة الثالثة يوم الاثنين؟ الرابعة والنصف يوم الجمعة. وأحياناً، مكالمات مرفوضة. رسالة: لا أستطيع غداً. ليس في أيام الأربعاء. لا شيء آخر: لا اعتراف بالحب، ولا إيحاءات مفضوحة. إنها مجرد رسائل نصية... خمس رسائل أو ست رسائل. وكلها من رقم محجوب. لم أجد أرقاماً في سجل الهاتف. كان قائمة المكالمات ممحوًّا أيضاً.

لست في حاجة إلى تواريخ... لأن الهاتف نفسه يسجّلها. تعود هذه اللقاءات إلى أشهر مضت. بل إلى سنة مضت تقريباً. عندما أدركت هذا، عندما رأيت أن أول اتصال كان في أيلول/ سبتمبر العام الماضي، أحسست غصة في حنجرتي. شهر أيلول! كان عمر إيفي ستة أشهر آنذاك. وكنت لا أزال سمينة، مرهَقة، قبيحة، ممتنعة عن الجنس. لكني بدأت أضحك عند ذلك لأن هذا الأمر سخيف فعلاً... لا يمكن أن يكون حقيقياً. كنا في غاية السعادة في أيلول... كنا غارقَيْن في الحب،

وفي حب طفلتنا الجديدة. لا يمكن أبداً أن يعبث معها في ذلك الوقت؛ لا يمكن أبداً... أبداً... أن يراها طيلة هذا الوقت. لو كان الأمر كذلك لعرفت. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. هذا الهاتف ليس له.

رغم هذا!... أتناول سجل الإزعاجات من على الطاولة إلى جانب سريري وأنظر في تلك المكالمات... أقارنها باللقاءات المتفق عليها في الهاتف. بعضها متطابق. وبعضها متأخّر يوماً أو اثنين، أو مبكر يوماً أو اثنين. وبعضها مختلف تماماً.

هل يمكن حقاً أنه يراها كل هذا الوقت ويقول لي إنها تضايقه وتزعجه بينما يرسمان الخطط ليلتقيا، ليتسللا خلسة من خلف ظهري؟ لكن، لماذا تتصل به عبر الهاتف الأرضي إذا كانت تستطيع الاتصال بهذا الهاتف؟ لا معنى لهذا. لا معنى له إلا إذا كانت تريدني أن أعرف. إلا إذا كانت تحاول إثارة مشكلات بيننا.

مضت الآن على غياب توم ساعتان. وسوف يعود قريباً، أينما كان. أرتّب السرير، وأضع السجل والهاتف في الدرج إلى جانب السرير، ثم أهبط إلى المطبخ وأصبّ لنفسي كأساً أخيرة من النبيذ فأشربها سريعاً. أستطيع الاتصال بها. وأستطيع مواجهتها أيضاً. لكن، ماذا أقول لها؟ ليست لديَّ نقطة تفوّق أخلاقي أستند إليها. ثم إنني لست واثقة من قدرتي على احتمال هذا، على احتمال رؤية سرورها عندما تخبرني أنني كنت غبية طيلة هذا الوقت. ستقول: إن كان قد فعل هذا معك، فسوف يفعله بك أيضاً.

أسمع خطوات على الرصيف خارج المنزل فأعرف أنه هو. أعرف مشيته. أسكب ما بقي من كأس النبيذ في المجلى، ثم أقف هناك مستندة إلى طاولة المطبخ. أسمع ضربات قلبي في أذني.

يقول عندما يراني: «مرحباً». يبدو وديعاً، مترنّحاً بعض الشيء.

«هل صاروا يقدمون البيرة في صالة الرياضة الآن؟»

يبتسم ويقول: «نسيت حقيبتي. فذهبت إلى الحانة».

مثلما ظننت تماماً... أو مثلما توقّع أن أظن!

يقترب مني قليلاً ويسألني: «ماذا كنت تفعلين؟»... على شفتيه ابتسامة... «يبدو عليك الإحساس بالذنب». يلفّ وسطي بذراعيه ويشدني نحوه. أستطيع أن أشم رائحة البيرة في أنفاسه... «هل كنت تفعلين شيئاً سيئاً؟».

«توم...».

«ششششش». يقولها ثم يقبّلني على فمي ويبدأ فك أزرار بنطلوني. ويديرني. لا أريد هذا؛ لكنني لا أعرف كيف أقول لا. أغمض عيني وأحاول عدم التفكير فيه معها. أحاول أن أفكر في أيامنا الأولى عندما كنا نسرع إلى ذلك البيت الفارغ في شارع غرانهام... مبهورَيْ الأنفاس، متشوّقَيْن، جائعين.

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح الباكر

أستيقظ مذعورة. لا يزال الظلام مخيماً. يخيل لي أنني أستطيع سماع بكاء إيفي. لكنني أذهب إليها لأتفقدها فأراها نائمة نوماً عميقاً. أرى قبضتيها ممسكتَيْن بالبطانية إمساكاً مُحْكَماً. أعود إلى السرير، لكنني لا أستطيع العودة إلى النوم. ذلك الهاتف في الدرج إلى جواري هو كل ما أستطيع التفكير فيه. ألتفت صوب توم فأراه مستلقياً ماداً يده إلى جانبه، وأرى رأسه مرتداً إلى أسفل. أعرف من إيقاع تنفسه أنه نائم تماماً. أنزلق من السرير، وأفتح الدرج، وآخذ الهاتف.

أهبط إلى المطبخ، وأقلب الهاتف في يدي مرة بعد مرة... أهيئ نفسي. أريد أن أعرف؛ لكنني لا أريد أن أعرف. أريد أن أتأكد، لكنني

أريد أن أكون مخطئة... أريد هذا إلى حد اليأس. أشغّل الهاتف. أضغط ضغطة طويلة على الرقم «واحد» فأسمع الرسالة الترحيبية من البريد الصوتي. أسمع البريد الصوتي يخبرني بعدم وجود رسائل، وبعدم وجود رسائل محفوظة. يسألني أيضاً: أأريد تغيير رسالة التحية؟ أنهي المكالمة. لكن خوفاً يداهمني فجأة، خوفًا غير منطقي على الإطلاق. أخاف أن يرنّ الهاتف وأن يسمعه توم في الأعلى. وهكذا أفتح الباب الزجاجي المنزلق وأخطو إلى الخارج.

العشب رطب تحت قدمَيّ؛ والهواء لطيف البرودة مثقَلٌ بعبير المطر والأزهار. أسمع قطاراً في البعيد... هدير بطيء. إنه بعيد جداً. أسير حتى أكاد أصل إلى السياج قبل أن أشغّل البريد الصوتي من جديد: هل أريد تغيير رسالة التحية؟ نعم، أريد تغييرها. يصدر عن الهاتف طنين قصير، ثم لحظة صمت، ثم أسمع صوتها. صوتها هي... لا صوته. *مرحباً، هذه أنا، اترك رسالة من فضلك.*

توقَّف قلبي عن الخفقان.

هذا ليس هاتفه. إنه هاتفها هي.

أعيد الرسالة من جديد.

مرحباً، هذه أنا، اترك رسالة من فضلك.

إنه صوتها هي... صوتها!

لا أستطيع أن أتحرك. لا أستطيع أن أتنفس. أعيد الرسالة مرة بعد مرة. حنجرتي منقبضة. أحس أنني على وشك الإغماء. ثم... أرى المصباح يُضاء في الطابق العلوي.

ريتشل

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح الباكر

ذكرى تفضي إلى ذكرى. كان ذلك كما لو أنني أتخبّط في الظلام أياماً، أو أسابيع، أو شهوراً. ثم أضع يدي على شيء ما آخر الأمر. كأنني أسحب يدي على جدار لأعثر على طريقي من غرفة إلى الغرفة التي بعدها. أخيراً، بدأت الأشباح المبعثرة تتجمع وتتخذ شكلاً، وبعد حين ألِفَت عيناي الظلمة وصرت أستطيع أن أرى.

ما كان ذلك في البداية. صحيح أن الأمر بدا لي أول الأمر تذكّراً. لكني أظنه كان حلماً. كنت جالسة هنا، على الأريكة، شبه مشلولة تحت وقع الصدمة. أقول لنفسي إن هذه ليست المرة الأولى التي أخطئ فيها تذكّر شيء من الأشياء، ولن تكون المرة الأولى التي أرى فيها الأمور ماضية في اتجاه ما بينما هي ماضية في اتجاه آخر تماماً في حقيقة الأمر.

حدث هذا تلك المرة، عندما ذهبنا إلى حفلة أقامها أحد زملاء توم. كنت في غاية السكر. لكننا أمضينا ليلة طيبة. أذكر كيف ودّعت كلارا وقبّلتها. كانت كلارا زوجة ذلك الزميل. كانت امرأة جذابة، دافئة، لطيفة. أذكر كيف قالت لي إن علينا أن نلتقي مرة أخرى. وأذكر كيف ضمّت يدي بين يديها.

كنت أذكر هذا بكل وضوح، لكنه لم يكن صحيحاً. عرفت أنه غير صحيح في الصباح التالي عندما أدار توم ظهره لي عندما حاولت الكلام معه. أعرف أن ذلك لم يكن صحيحاً لأن توم أخبرني كم كان محرَجاً ومحبطاً في ذلك الوقت لأنني اتهمت كلارا بمغازلته، وكنت هستيرية، وقلت أشياء مسيئة.

أستطيع أن أشعر بيدي بين كفَّيها عندما أغمض عيني. يداها الدافئتان على يدَيّ؛ لكن هذا لم يحدث حقيقة. ما حدث حقيقة هو أن توم كان مضطراً تقريباً إلى حملي خارج ذلك البيت. وكنت أصيح وأصرخ طيلة الطريق. أما كلارا المسكينة فانزوت مختبئة في المطبخ.

هذا يعني أنني عندما أغمض عيني وأسبح في نصف حلم، فأجد نفسي في ذلك النفق، يمكن أن أكون قادرة على الإحساس بالبرد والهواء الراكد سيء الرائحة، وقد أكون قادرة على رؤية شخص آتٍ صوبي، متوهّجاً غضباً، رافعاً قبضته؛ لكن هذا لم يكن حقيقياً. والذعر الذي أحسسته لم يكن حقيقياً أيضاً. وعندما يضربني ذلك الشبح ويتركني هناك مرمية على الأرض، باكية، نازفة... ذلك لم يكن حقيقياً أيضاً.

لكنه كان حقيقياً! ... لقد رأيته. يصدمني حقاً إنه شيء لا أكاد أستطيع تصديقه. لكن الشمس تشرق فأحسّ أن الضباب راح ينقشع. كان ما قاله لي كذباً. لم أتخيل أنه ضَرَبني. إنني أتذكر أنه ضربني. تماماً مثلما أتذكر أنني ودعت كلارا بعد تلك الحفلة، ومثلما أتذكر يدها ممسكة يدَيّ. مثلما أتذكر خوفي عندما وجدت نفسي على الأرض إلى جانب مضرب الغولف، أعرف الآن، أعرف بالتأكيد، أنني لم أكن الشخص الذي لوَّح بذلك المضرب.

لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. أجري إلى الأعلى فأرتدي بنطلوناً وقميصاً، ثم أهبط جاريةً من جديد. أطلب رقمها، رقم الهاتف الأرضي، فأتركه يرنّ مرتين ثم أغلق الهاتف. لا أعرف ماذا أفعل. أعدّ قهوة، ثم

أتركها تبرد، ثم أتصل برقم المحقّقة رايلي، ثم أغلق الهاتف على الفور. لن تصدقني. أعرف أنها لن تصدقني.

أنطلق خارجة إلى المحطة. هذا وقت قداس الأحد. ولن يأتي القطار التالي قبل نصف ساعة. ليس لديّ ما أفعله الآن غير أن أجلس على مقعد هناك متقلبة مرة بعد مرة من الشك إلى القنوط ثم إلى الشك من جديد.

كل شيء كذب. لم أتخيل أنه ضربني. لم أتخيل أنه تركني ومضى مسرعاً، شاداً على قبضتيه. لقد رأيته يستدير ويصرخ. رأيته مبتعداً في الشارع مع امرأة. رأيته يركب السيارة معها. لم أتخيل هذا. أدرك عند ذلك أن الأمر في غاية البساطة، في غاية البساطة فعلاً. إنني أتذكر... كل ما في الأمر أني خلطت بين اثنتين من الذكريات. لقد أدخلت صورة آنّا ماشية، مبتعدة عني، في فستانها الأزرق... أدخلتها ضمن سيناريو آخر: توم وامرأة معه يصعدان إلى السيارة. أعرف هذا لأن تلك المرأة لم تكن ترتدي فستاناً أزرق؛ كانت في بنطلون جينز وقميص أحمر قصير الكمّين. لقد كانت هي... تلك المرأة كانت ميغان.

آنّا

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح الباكر

أقذف بالهاتف من فوق السياج، أقذفه إلى أبعد ما استطعت. يسقط في مكان ما على حافة كومة من الحجارة عند أعلى الحاجز قبل سكة القطار. أظن أنني أستطيع سماع صوته متدحرجاً، نازلاً صوب السكة نفسها. وأظن أنني لا أزال أسمع صوتها. *مرحباً، هذه أنا، اترك رسالة من فضلك*.

أظن أنني سأظل أسمع هذا الصوت زمناً طويلاً.

أجده عند أسفل السلم عندما أعود إلى البيت. إنه ينظر إليّ مرفرفاً بأجفانه... عيناه مشوَّشتان... تحاولان الاستيقاظ.

«ماذا يحدث؟».

أقول له: «لا شيء». لكنني أستطيع سماع الرجفة في صوتي.

«وماذا كنت تفعلين خارج البيت؟».

قلت له: «ظننت أنني سمعت صوتاً، صوت أحد هنا. أيقظني شيء ما. لم أستطع العودة إلى النوم».

يقول وهو يفرك عينيه: «لقد رُنَّ الهاتف».

أضم يدَيَّ معاً حتى أجبرهما على الكف عن الارتجاف: «ماذا؟ أي هاتف؟».

«الهاتف». إنه ينظر إلي كما لو أنني مجنونة.

«رن الهاتف. شخص ما اتصل ثم فصل الخط».

«أوه! لا أعرف. لا أعرف المتصل».

يقول ضاحكاً: «أنت لا تعرفين بالطبع. هل أنت بخير؟» ... يجتاز الغرفة قادماً إليّ، ثم يحيط خصري بذراعيه: «أنت غريبة في الآونة الأخيرة». يحضنني قليلاً ورأسه مستند إلى صدري. يقول: «كان عليك إيقاظي عندما سمعت ذلك الصوت. لا يجوز أن تخرجي وحدك. هذه مهمّتي أنا».

أقول له: «إنني بخير». لكني أجد نفسي مضطرة إلى الشد على أسناني لأمنعها من الاصطكاك. يقبّل شفتَيَّ. ويدفع بلسانه داخل فمي.

يقول لي: «فلنعد إلى السرير».

أقول محاولة تخليص نفسي منه: «أظن أنني سأشرب القهوة».

لكنه لا يفلتني. ذراعاه مشدودتان من حولي. ويده تمسك برقبتي من الخلف.

يقول لي: «هيا الآن! تعالي معي. لن أقبل الرفض».

ريتشل

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

لست واثقة حقاً مما يجب أن أقوم به. وهكذا، فإنني أقرع جرس الباب فقط. أقول لنفسي: ألم يكن عليَّ أن أتصل بهم أولاً؟ ليس من الأدب أن يأتي المرء في الصباح الباكر من يوم الأحد من غير اتصال قبل ذلك! أبدأ الضحك. أحس أنني مصابة بشيء من الهستيريا. حقاً... لا أعرف ما أفعله الآن.

لا يأتِيأحد إلى الباب. يتنامى داخلي ذلك الإحساس الهستيري عندما أدور حول المنزل وأسير في ذلك الممر الضيق. لدي إحساس قوي بأنني فعلت هذا من قبل. في ذلك الصباح... عندما أتيت إلى البيت... عندما أخذت الطفلة الصغيرة. لم أكن أقصد أذيتها أبداً. إنني واثقة من ذلك الآن.

أستطيع سماع صوت الطفلة خلال سيري في الممر، في ظل البيت الصباحي الكثيف. أتساءل إن كنت أتخيل ذلك. لكن لا... ها هي هناك، ومعها آنا أيضاً، جالستان عند مدخل البيت. أناديها باسمها، ثم أجتاز السور. إنها تنظر إليَّ. أتوقع أن أراها مصدومة، أو غاضبة، لكنها لا تكاد تظهر دهشة لوجودي. .

تقول لي: «مرحباً يا ريتشل!»... تنهض واقفة ممسكة بيد طفلتها.

تجرها ناحية. تنظر إلي هادئة، غير مبتسمة. عيناها حمراوان، وجهها شاحب، مغسول، من غير مساحيق التجميل.

تسألني: «ماذا تريدين؟».

قلت لها: «لقد قرعت جرس الباب».

تقول لي: «لم أسمعه». تضع الطفلة في حجرها. تستدير قليلاً مبتعدة عني كأنها تهمُّ بالدخول إلى البيت. لكنها تتوقف. لا أفهم لماذا لا تصرخ علي.

«أين هو توم يا آنّا؟».

«لقد خرج. خرج ليلتقي أصدقاءه من أيام الجيش».

أقول: «علينا أن نذهب يا آنّا».

تبدأ الضحك. تضحك عندما أقول هذا.

آنّا

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في الصباح

فجأة، لسبب ما، بدا لي الأمر كله مضحِكاً كثيراً. ريتشل المسكينة السمينة واقفة في حديقتي، محمرّة، متعرّقة، تقول لي إن علينا أن نذهب. علينا، *نحن الثلاثة*، أن نذهب!

«وأين نذهب؟»، أسألها عندما أتوقف عن الضحك، لكنها تنظر إليّ فقط، من غير تعبير، من غير كلمات تقولها. أقول لها: «لن أذهب معك إلى أي مكان». تتلوَّى إيفي في حضني متذمّرة فأضعها على الأرض. لا أزال أحس جلدي حارّاً، متألماً، حيث فركت نفسي في الحمام هذا الصباح. وأشعر بلذعةَ في فمي، وخدي، ولساني.

تسألني: «متى يعود؟».

«لن يعود سريعاً... هكذا أظن».

في الحقيقة، لا فكرة عندي عن موعد عودته. بعض الأحيان، يمضي أياماً كاملة في تسلّق الجبال. أو... يقول لي إنه يمضي أياماً كاملة في تسلق الجبال. لكني لا أعرف الآن. أعرف أنه أخذ معه حقيبته الرياضية. لن يطول الأمر قبل أن يكتشف أن الهاتف لم يعد موجوداً فيها.

كنت أفكر في أخذ إيفي والذهاب إلى بيت أختي بعض الوقت. لكن ذلك الهاتف يقلقني. ماذا لو عثر عليه أحد هناك؟ هنالك عمّال

على هذا المقطع من خط القطار في هذه الفترة. قد يجده أحدهم فيسلّمه للشرطة. إنه يحمل بصمات أصابعي.

ثم فكرت أن استعادته قد لا تكون أمراً صعباً. لكن يجب أن أنتظر هبوط الليل، حتى لا يراني أحد.

أدرك أن ريتشل مستمرّة في الكلام. إنها تطرح عليّ أسئلة. لم أكن مصغية إليها. أحسّ تعباً شديداً.

«آنّا!»... تقول لي مقتربة مني... تلك العينان الثاقبتان تفتشان في أعماق عيني... «هل قابلت أحداً منهم في يوم من الأيام؟».

«قابلت من؟».

«هل رأيت أصدقاءه من الجيش؟ هل عرّفك فعلاً إلى أيّ واحدٍ منهم؟»... أهزّ رأسي نفياً... «ألا تظنين أن هذا أمر غريب؟».

يفاجئني ذلك. الأمر الغريب فعلاً هو ظهورها في حديقتي منذ الصباح الباكر، يوم الأحد.

أقول لها: «لا، ليس غريباً. إنهم جزء من حياة أخرى. حياة أخرى له هو. مثل حالتك أنت. مثلما كان يجب أن تكوني. لكن الظاهر أننا لا نستطيع أن نتخلّص منكِ»... تجفل ريتشل مجروحة... «ماذا تفعلين هنا يا ريتشل؟»

تقول لي: «تعرفين سبب وجودي هنا. تعرفين أن شيئاً... أن شيئاً يحدث». يظهر على وجهها تعبير صادق... كما لو أنها قلقة عليّ. قد يكون هذا مؤثراً في ظروف أخرى!

أقول لها: «هل ترغبين في فنجان من القهوة؟» فتومئ برأسها.

أعدّ القهوة، ونجلس جنباً إلى جنب في مدخل البيت في صمت يكاد يوحي بأنه ودّي. أسألها: «إلى أي شيء تلمّحين؟ أتقولين إن أصدقاء توم من الجيش لا وجود لهم؟ أتقولين إنه يختلق هذا؟ أتقولين إنه خرج مع امرأة أخرى في حقيقة الأمر؟».

تقول ريتشل: «لا أعرف».

«ريتشل؟»... تنظر إليّ عند ذلك فأرى في عينيها أنها خائفة. «هل لديك شيء تريدين إخباري به؟».

تسألني: «هل قابلت أسرة توم، ولو مرة واحدة؟... والديه؟».

«لا! إنهما لا يكلماننا. كفوا عن الكلام معه عندما تركك من أجلي».

تهزّ ريتشل رأسها. تقول: «هذا غير صحيح. لم أقابلهما أنا أيضاً. بل إنهما لا يعرفاني... فلماذا يهتمان وينزعجان إذا تركني؟».

ظلام في رأسي... في مؤخّرة جمجمتي تماماً. أحاول كبت هذا الظلام منذ أن سمعت صوتها في تلك الرسالة الترحيبية على الهاتف؛ لكنه يكبر الآن، ويتسع.

أقول: «لا أصدّقك. لماذا يمكن أن يكذب عليَّ توم في هذا الأمر؟».

«لأنه يكذب في كل شيء».

أنهض واقفة، ثم أبتعد عنها. أشعر بانزعاج منها لأنها قالت هذا. أشعر بانزعاج من نفسي لأنني أظن بأنني أصدّقها. أظن بأنني عرفت دائماً أن توم كاذب. كل ما في الأمر هو أن أكاذيبه كانت تناسبني في الماضي.

أقول لها: «إنه كاذب ماهر. مضى وقت طويل من غير أن تشعري بأي شيء، أليس كذلك؟ كل تلك الشهور... كنا نلتقي، يضاجع أحدنا الآخر حتى الموت في ذلك البيت في شارع غرانهام... ولم يكن عندك شكّ في شيء».

تبتلع ريقها وتعض على شفتها بقوة. تقول لي: «ميغان. ماذا عن ميغان؟».

«إنني أعرف. كانت بينهما علاقة». تبدو هذه الكلمات غريبة على أذني عندما أنطقها أول مرة جهاراً. لقد خانني. لقد خانني. أقول لها:

«لا بد أن هذا يزعجك؛ لكنها ذهبت الآن. ما عاد للأمر أهمية، أليس كذلك؟».

تستمر في مخاطبتي: «آنّا...».

تغدو الظلمة أكبر. إنها تملأ رأسي كله... تشوّش نظري. أمسك بيد إيفي وأشدّها متحركة صوب الداخل. لكنها تحتج احتجاجاً صاخباً.

«آنّا...».

أقول لها: «كانت بينهما علاقة. هذا هو الأمر كله. لا شيء آخر. لا يعني هذا بالضرورة أنه...».

«... أنه قتلها؟».

«لا تقولي ذلك!» ... أجد نفسي أقول هذه الكلمات لها... «لا تقولي هذه الكلمات أمام طفلتي».

أقدم لإيفي وجبة قبل الظهر فتأكل من غير تذمّر للمرة الأولى منذ أسابيع... كأنها تعرف أن لدي أموراً أخرى تشغلني الآن. أعبدها لأنها فعلت ذلك. أشعر أنني أكثر هدوءاً مما كنت عندما نعود إلى الخارج رغم أن ريتشل لا تزال هناك واقفة عند نهاية الحديقة قرب السياج، واقفة تراقب قطاراً مارّاً. وبعد برهة، عندما انتبهت أننا عدنا إلى الخارج، مشت في اتجاهي.

أقول لها: «أنت تحبّين القطارات، أليس كذلك؟ أنا أكرهها. أمقتها مقتاً شديداً».

تبتسم لي نصف ابتسامة. ألاحظ أن لها غمّازة عميقة على خدها الأيسر. لم أرَها من قبل. أظن أنني لم أرها مبتسمة إلا مرات قليلة... لم أرَها مبتسمة أبداً.

تقول لي: «هذه كذبة أخرى من كذباته. قال لي إنك أحببت هذا البيت، إنك أحببت كل شيء فيه، حتى القطارات. قال لي إنك لا تحلمين

بالعثور على مكان آخر جديد، وإنك كنت شديدة الرغبة في الانتقال إلى هذا البيت للعيش هنا معه رغم أنني عشت فيه قبلك».

أهز رأسي: «ولماذا يقول لك ذلك بحق الجحيم؟ هذا كلام فارغ. كنت أحاول دائماً أن أجعله يبيع البيت منذ سنتين».

ترفع كتفيها: «لأنه يكذب يا آنا. لأنه يكذب طيلة الوقت».

تزهر الظلمة. أشد إيفي فأجلِسها في حضني. تجلس راضية تماماً. لقد نعست في أشعّة الشمس. أقول لريتشل: «إذًا... هل كانت المكالمات الهاتفية كلها...». الآن فقط بدأ الأمر يبدو منطقياً لي... «ألم تكن كلها منك؟ أقصد... أعرف أنك كنت المتصلة بعض المرات، لكن في بعض المرات الأخرى...».

«هل تقصدين أنها كانت مكالمات من ميغان؟ نعم، أظن هذا».

أمر غريب لأنني أعرف الآن أنني كنت طيلة ذلك الوقت أكره امرأة غير التي يجب أن أكرهها، لكنني أعرف مع ذلك أن هذا لا يقلل من مَقتي لريتشل. قد يكون هذا لأنني أراها هنا، على هذه الحال، هادئة، مهتمة، صاحية... أراها مثلما كانت ذات يوم، فيزداد نفوري منها لأنني بدأت أرى ما كان يراه فيها بالتأكيد. أرى شيئاً لا بد أنه أحبه.

ألقي نظرة إلى ساعتي. تجاوزت الحادية عشرة. أظن أن توم قد خرج نحو الساعة الثامنة. بل لعله خرج قبل ذلك. لا بد أنه عرف بأمر الهاتف الآن. يجب أن يكون قد عرف ذلك منذ فترة. لعله يظن أنه سقط من حقيبته. أو لعله يظن أنه سقط تحت السرير، في الأعلى.

أسألها: «منذ متى تعرفين؟... بتلك العلاقة».

تقول: «لم أعرف إلا اليوم. أقصد القول إنني لا أعرف ما كان يجري. كل ما أعرفه...». أحمد الله على أنها سكتت لأنني لست واثقة من قدرتي على تحمّل كلامها عن خيانة زوجي. لا أستطيع احتمال فكرة أننا، أنا وهي ـ أنا وريتشل السمينة الحزينة ـ في مركب واحد الآن.

تسألني: «أتظنين أنه كان له؟ ذلك الجنين، أتظنين أنه كان له؟».

أنظر إليها لكني لا أراها حقيقة، لا أرى شيئاً إلا الظلمة، لا أسمع شيئاً إلا زئيراً في أذنَيّ، شيئاً مثل صخب البحر أو مثل طائرة تمر فوق رأسي.

«ماذا قلت؟».

«قلت... إنني آسفة». وجهها محمرّ، مرتبك... «ما كان يجب أن... لقد كانت حاملاً عندما ماتت. كانت ميغان حاملاً. إنني آسفة».

لكنها ليست آسفة أبداً. أنا واثقة من هذا. ثم إني لا أريد أن أسقط محطَّمة أمامها. أنظر إلى إيفي، فأحس حزناً لم أحسّ مثله من قبل يغمرني كأنه موجة، يسحقني ويقطع أنفاسي. شقيق إيفي... شقيقة إيفي... ماتت! تجلس ريتشل إلى جانبي. وتضع ذراعها حول كتفي.

تقول مرة أخرى: «إنني آسفة». فأودّ أن أضربها. أحسّ بقشعريرة عندما يلمس جلدها جلدي. أود أن أدفعها بعيداً عني، أود أن صرخ عليها، لكني لا أستطيع. تتركني أبكي برهة. ثم تقول بصوت واضح مصمم: «آنّا، أظن أن علينا أن نذهب. أظن أن عليك أن تحزمي بعض حوائجك وحوائج إيفي. ثم علينا أن نذهب. تستطيعين أن تأتي إلى بيتي الآن. إلى أن... إلى أن نجد مخرَجاً من هذا كله».

أجفّف عيني، وأبتعد عنها: «لن أتركه يا ريتشل؟ لقد أقام علاقة غرامية، وهو... هذه ليست المرة الأولى، أليس كذلك؟»... أبدأ بالضحك فتضحك إيفي أيضاً.

تتنهد ريتشل وتنهض واقفة: «تعرفين أن الأمر ليس مقتصراً على تلك العلاقة يا آنّا. أعرف أنك تدركين هذا».

أقول لها: «نحن لا نعرف شيئاً». أقول هذا بما يشبه الهمس.

تقول: «لقد صعَدَتْ إلى السيارة معه في تلك الليلة. رأيتها. لم أكن

أتذكر هذا ـ ظننت في البداية أنك كنتِ أنت. لكني تذكرت بعد ذلك. أتذكر الآن».

«لا». تضغط إيفي بيدها الصغيرة الدَّبِقة على فمي.

«علينا أن نخبر الشرطة يا آنّا»... تتقدم خطوة صوبي... «أرجوك! لا تستطيعين البقاء هنا معه».

إنني أرتجف... رغم سطوع الشمس. أحاول التفكير في آخر مرة أتت فيها ميغان إلى البيت، وفي التعبير الذي ظهر على وجهه عندما قالت إنها لم تعد قادرة على العمل من أجلنا بعد ذلك. أحاول التذكّر: هل بدا مسروراً أم منزعجاً؟ ومن غير استدعاء، تظهر صورة مختلفة في رأسي: واحدة من أولى مرات مجيئها إلى بيتنا لتعتني بإيفي. كان من المفترض أن أخرج لرؤية صديقاتي؛ لكني متعبة كثيراً فبقيت في الأعلى لأنام. لا بد أن توم عاد إلى البيت بينما كنت نائمة هناك، لأنهما كانا معاً عندما هبطت. كانت مستندة إلى طاولة المطبخ. وكان واقفاً قريباً منها، قريباً جداً منها. أقرب مما يجب. وكانت إيفي في كرسيّها المرتفع. كانت تبكي، وما كان أحد منهما ينظر إليها.

أحس ببرد شديد. هل فهمت يومها أنه يريدها؟ كانت ميغان جميلة شقراء ـ كانت مثلي. إذًا... نعم.. أرجّح أنني أدركت أنه يريدها، مثلما أعرف عندما أسير في شارع يسير فيه رجال متزوّجون مع زوجاتهم إلى جانبهم، ومع أطفالهم ممسكين بأيديهم... أعرف أنهم ينظرون إليّ، وأعرف أنهم يريدونني. لعلّي كنت مدركة. لقد أرادها، وقد أخذها. لكن ليس القتل... لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك.

ليس توم من يفعل ذلك. عاشق، وزوج مرّتين. أب أيضاً. أب جيّد. يقدّم من غير تذمّر.

قلت أذكّرها: «لقد أحببته». ثم أضفت: «وأنت لا تزالين تحبينه، أليس كذلك؟».

تهز رأسها، لكني لا أرى ما يقنعني.

«بل تحبينه. وأنت تعرفين... تعرفين أن هذا ليس أمراً مستحيلاً».
أقف وأجرُّ إيفي معي، ثم أقترب منها: «لا يمكن أن يكون قد فعلها يا ريتشل. تعرفين أنه لا يمكن أن يفعل هذا. لا تستطيعين أن تحبي رجلاً يمكن أن يفعل هذا، أليس كذلك؟».

تقول: «لكني أحببته. كلتانا أحبَّته». تجري دموع على خدَّيْها. تمسح دموعها. وفي أثناء ذلك يتغير تعبير وجهها... يفقد لونه. إنها لا تنظر إليّ، بل تنظر من فوق كتفي. وعندما أستدير متابعةً نظرتها، أراه في نافذة المطبخ... يراقبنا.

ميغان

الجمعة، 12 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

إنها مسيطرة على سلوكي. أو لعله هو من يسيطر على سلوكي. شيء في داخلي يقول لي إنها هي. أو لعله قلبي يخبرني أنها هي. لست أدري. إنني أشعر بها، مثلما شعرت منذ زمن... متكوّرة... بذرة في مهدها... لكن هذه البذرة تبتسم. تنتظر لحظتها. لا أستطيع أن أكرهها. ولا أستطيع التخلص منها. لا أستطيع. كنت أظن أنني قادرة على التخلص منها؛ كنت أظن أنني سأكون متلهفة إلى إزالتها. لكني، عندما أفكر بها، لا أستطيع أن أرى شيئاً غير وجه ليبي، عينيها الداكنتين. أكاد أشم رائحة جلدها. أستطيع أن أشعر ببرودتها الشديدة عند النهاية. لا أستطيع التخلص منها. لا أريد التخلص منها. أريد أن أحبها.

لا أستطيع أن أكرهها، لكنها تخيفني. أخاف مما يمكن أن تسببه لي، أو مما يمكن أن أفعله بها. إنه هو... ذلك الخوف الذي أيقظني بعيد الخامسة هذا الصباح. استيقظت غارقة في العرق رغم النوافذ المفتوحة ورغم حقيقة أنني كنت وحدي. ذهب سكوت من أجل مؤتمر في مكان ما في هارتفوردشاير أو إسكس أو... في مكان ما. سيعود الليلة.

ماذا دهاني؟ ما مشكلتي؟ لماذا أكون توّاقة إلى الوحدة عندما يكون هنا ثم لا أستطيع احتمال وحدتي عندما يغيب؟ لا أستطيع احتمال هذا

الصمت. عليَّ أن أتكلم بصوت مسموع حتى يزول الصمت. كنت أفكر في فراشي هذا الصباح، أقول في نفسي: ماذا لو حدث ذلك من جديد؟ ماذا سيحدث عندما أكون وحدي معها؟ ماذا سيحدث إذا رفض إيوائي، إذا رفض إيواءنا؟ ماذا يمكن أن يحدث لو فطن إلى أنها ليست ابنته؟

قد تكون ابنته، بالطبع! لست أدري. لكني أحسّ فقط أنها ليست ابنته. أحس ذلك مثلما أحس أنها بنت وليست صبياً. لكن، حتى إذا لم تكن ابنته، فكيف يمكن أن يعرف هذا؟ لن يعرف هذا. لا يستطيع أن يعرفه. هذا غباء مني. سيكون في غاية السعادة. سيكون مجنوناً لشدة فرحه عندما أخبره. لن يخطر في باله أبداً أنها يمكن ألّا تكون ابنته. سيكون إخباره أمراً قاسياً. سيحطِّم قلبه. لا أريد أن أجرحه. لم أرد أبداً أن أجرحه.

لا أستطيع تغيير طبيعتي، لا أستطيع التحكّم فيها.

«تستطيعين التحكم بما تفعلين، رغم ذلك». هذا ما يقوله كمال.

اتصلت بكمال بعد السادسة مباشرة. كان الصمت قد هزمني... بدأ الذعر يتملّكني. فكرت في الاتصال بتارا ـ كنت أعرف أنها ستأتي إليّ على الفور. لكني لم أرَ أنني أستطيع احتمال هذا. سوف تكون شديدة التعلق بي، وستبالغ في حمايتي. كان كمال الشخص الوحيد الذي يمكن أن أفكّر في الكلام معه. اتصلت به في بيته. قلت له إنني في مشكلة، وإنني لا أعرف ما أفعل، وإنني مذعورة. جاء كمال سريعاً. ليس من غير أي أسئلة، لكن، تقريباً، من غير أسئلة. لعلي جعلت الوضع يبدو أسوأ مما هو عليه في الحقيقة. ولعله خاف أن أفعل شيئاً غبياً، أن أرتكب حماقة.

إننا في المطبخ. لا يزال الوقت مبكراً... تجاوزت السابعة والنصف قليلاً. عليه أن يذهب سريعاً إذا أراد اللحاق بموعده الأول لهذا اليوم. أنظر إليه جالساً قبالتي، إلى طاولة المطبخ، عاقداً كفَّيه بأناقة أمامه. عيناه

العميقتان مثل عينَيْ ظبي تنظران في عينَيّ، فأشعر بالحب. نعم، أشعر بالحب. إنه جيد جداً معي رغم تصرفاتي البائسة.

صفح عن كل ما جرى من قبل، تماماً مثلما كنت آمل أن يفعل. أزاح كل شيء جانباً... كل خطاياي. قال لي إن ذلك سوف يستمر، ويستمر، إن لم أسامح نفسي؛ ولن أتمكن أبداً من الكف عن الهرب. وأنا لا أستطيع الهرب أكثر من ذلك، لا أستطيع الهرب بعد الآن، أليس كذلك؟ ليس بعد وجودها.

أقول له: «إنني خائفة! ماذا لو أخطأت من جديد؟ ماذا لو كان عندي خلل ما؟ ماذا لو جرت الأمور بشكل سيىء مع سكوت؟ ماذا إن انتهى بي الأمر إلى أن أكون وحدي من جديد؟ لا أعرف إن كنت قادرة على هذا؛ أخاف كثيراً أن أكون وحدي من جديد ـ أقصد... وحدي مع طفل...».

ينحني صوبي ويضع يده فوق يدي: «لن تفعلي أي شيء خاطئ. لن تفعلي. لم تعودي طفلة ضائعة حزينة على أخيها. أنت شخص مختلف تماماً الآن. صرتِ أقوى. صرت كبيرة الآن. لا شيء يحملك على الخوف من أن تكوني وحيدة من جديد. ليس هذا أسوأ الأشياء، أليس كذلك؟».

لا أقول شيئاً، لكني لا أستطيع إلا أن أفكر في أنه قد يكون أسوأ الأشياء فعلاً لأنني قادرة، عندما أغمض عينَيّ، على استعادة الإحساس الذي يأتيني عندما أكون عند حافة النوم فيردّني إلى اليقظة. إحساس بأنني وحدي في بيت مظلم... أصغي إلى صرخاتها وأنتظر سماع خطوات ماك على الأرض الخشبية في الأسفل عارفة أنني لن أسمعها أبداً.

«لا يمكنني أن أقول لك ما يجب فعله في ما يتعلق بسكوت. أقصد علاقتكِ به... تعرفين أنني عبَّرت عن مخاوفي؛ لكن عليك أن تقرري بنفسك. عليك أن تقرزي إن كنت واثقة به، وإن كنت تريدين أن يعتني بك وبطفلك. يجب أن يكون هذا القرار قرارك أنتِ. لكني أرى أنك

قادرة على الثقة بنفسك يا ميغان. يمكنك الثقة بأنك ستفعلين ما هو صواب».

وفي الخارج، على المرج، يجلب لي فنجاناً من القهوة. أضع الفنجان على الأرض ثم ألفّه بذراعَيّ وأجذبه ليقترب مني. ومن خلفنا، يهدر قطار متباطئاً عند الإشارة. ضجة القطار تشبه حاجزاً أو جداراً يغلّفنا، يعزلنا، يحيط بنا. أحس أننا صرنا وحدنا حقاً. يحطيني بذراعيه ويقبّلني.

أقول: «شكراً لك! شكراً لأنك أتيت. شكراً لأنك هنا».

يبتسم لي، ويبتعد عني قليلاً، ثم يمرِّر إبهامه على وجنتي: «سوف تكون أمورك بخير يا ميغان».

«أما كان ممكناً فقط... أن أهرب معك؟ أنت وأنا... أما كان يمكننا أن نهرب معاً؟».

يضحك: «لست في حاجة إلي. ولست في حاجة إلى مواصلة الهرب. سوف تكونين بخير. ستكونين بخير، أنت والطفل».

السبت، 13 تموز/ يوليو 2013

في الصباح

أعرف ما عليَّ فعْله. فكرت فيه طيلة نهار أمس. فكرت فيه طيلة الليل أيضاً. لم أكد أنم هذه الليلة. عاد سكوت مرهَقاً، مستنزَفاً، منحرف المزاج. ما كان يريد إلّا الأكل، والمضاجعة، والنوم. لا وقت لأي شيء آخر. بالتأكيد، لم يكن الوقت مناسباً للحديث عن هذا.

أستلقي مستيقظة معظم الليل وهو إلى جانبي، حارّاً، كثير التقلب. وأتخذ قراري. سوف أفعل الشيء الصحيح. سوف أفعل كل شيء بشكل صحيح. إذا فعلت كل شيء بشكل صحيح، فلا يمكن أن يسير أي شيء

على غير ما يرام. وحتى إذا حدث ذلك، فلا يمكن أن أكون أنا المخطئة. سوف أحب هذا الطفل، هذه الطفلة، وسوف أربيها عارفة أنني أفعل ما هو صحيح منذ البداية. لا بأس... ربما ليس منذ البداية تماماً، لكن منذ تلك اللحظة التي عرفت فيها أنها آتية. هذا هو الشيء الصحيح... ما أنا مدينة به لهذه الطفلة، وما أنا مدينة به لليبي. إنني مدينة لها، وعليَّ أن أقوم بكل شيء على نحو مختلف هذه المرة.

أظل راقدة هناك، وأفكر في ما قاله ذلك المعلم، وفي كل الأشياء التي كنتها: طفلة، مراهقة متمرّدة، هاربة، عاهرة، عاشقة، أمّاً سيئة، زوجة سيئة. لست واثقة إن كنت أستطيع أن أجعل من نفسي زوجة جيدة؛ أمّاً أن أكون أماً جيدة... فهذا ما لا بد لي من محاولته.

سوف يكون الأمر صعباً. قد يكون أصعب شيء اضطر إلى فعله في حياتي كلها. لكني سأقول الحقيقة. لا مزيد من الأكاذيب، ولا مزيد من الاختباء، ولا مزيد من الهرب، ولا مزيد من الهراء. سوف أضع كل شيء مكشوفاً أمام الأنظار... وسوف نرى. إذا عجز سكوت عن حبي عند ذلك، فليكن ما يكون.

في المساء

يدي على صدره. أحاول دفعه عنّي بأشد ما أستطيع، لكني غير قادرة على التنفس، وهو أكثر قوة مني بكثير. ذراعه ضاغطة على حنجرتي. أحس نبض الدم في صدغي. تتشوّش عيناي. أحاول الصراخ. ظهري إلى الجدار. أنتزع ملء قبضتي من قميصه فيتركني. يستدير مبتعداً عني فأنزلق مستندة إلى الجدار حتى أصير على أرض المطبخ.

أسعل وأبصق ودموعي تجري على وجهي. إنه واقف على مسافة خطوات مني. وعندما يستدير صوبي، ترتفع يدي غريزياً، ترتفع إلى حنجرتي لأحميها. أرى إحساسه بالعار، أرى خجله على وجهه، فأود

أن أقول له إنني بخير. إنني بخير. أفتح فمي لكن الكلمات لا تأتي؛ لا شيء إلا مزيد من السعال. ألمٌ لا يصدق. إنه يقول لي شيئاً لكني لا أستطيع سماع شيء... كما لو أننا تحت الماء... صوت مكتوم يصلني في موجات متداخلة مشوَّشة. لا أستطيع فهْم شيء مما يقول.

أظنه يقول لي إنه آسف.

أتحامل على نفسي فأقف ثم أتجاوزه مندفعة صوب السلم، وأصعد ثم أغلق باب غرفة النوم خلفي، ثم أقفله. أجلس على السرير وأنتظر مصغية أن أسمع خطواته. لكنه لا يأتي. أنهض على قدمَيَّ فأخرج حقيبة السفر الصغيرة من تحت السرير، ثم أمضي إلى الخزانة لأجلب بعض الملابس فألمح صورتي في المرآة. أرفع يدي إلى وجهي: تبدو يدي بيضاء إلى حد مخيف بالمقارنة مع وجهي المحمَرّ وشفتَيَّ القرمزيتين وعينَيَّ المحتقنتيْن دماً.

جزء مني كان مصدوماً لأنه لم يرفع أبداً يده عليّ بهذا الشكل من قبل. لكن، كان هناك جزء آخر مني يتوقع هذا. كنت أعرف، في مكان ما، في داخلي، أن هذا احتمال وارد، وأننا ذاهبان إلى تلك النقطة. إنها النقطة التي أقوده صوبها. وبطيئاً، بدأت أخرِجُ الأشياء من الأدراج ـ ملابس داخلية، وزوج من القمصان؛ ثم وضعت ذلك كله في الحقيبة.

لم أخبره بشيء بعد. لم أكد أبدأ الكلام. أردت أن أخبره عن الأشياء السيئة أولاً قبل أن نصل إلى الأخبار الحسنة. ما كنت قادرة على إخباره عن الطفلة لأقول له بعد ذلك إن هناك احتمالًا أن تكون طفلة شخص آخر. سيكون هذا شديد القسوة.

كنا جالسين أمام مدخل البيت. كان يحدثني عن العمل، ثم انتبه إلى أنني غير مصغية.

سألني: «هل أضجرك بهذا الكلام؟».

«لا!... طيب، ربما قليلاً». لم يضحك... «إنني شاردة الذهن الآن

لأن هناك ما أريد إخبارك به. لدي بعض الأشياء التي يجب أن أقولها لك. لن تحب بعض هذه الأشياء في حقيقة الأمر، لكن...».

«ما الشيء الذي تعرفين أنه لن يعجبني؟» كان يجب أن أدرك عند ذلك أن الوقت لم يكن مناسباً. كان مزاجه سيئاً. استبد به الشك على الفور وراح ينظر في وجهي، يفتش عما أريد قوله. كان يجب أن أدرك عند ذلك أنها فكرة سيئة جداً. أظن أنني أدركت، لكن وقت التراجع كان قد فات عند ذلك. ثم إنني كنت قد اتخذت قراري: أن أفعل ما هو صحيح.

جلست إلى جانبه على تلك الحافّة أمام البيت ودسست يدي في يده.

سألني من جديد: «ما الشيء الذي لن يعجبني؟». لكنه لم يفلِت يدي.

قلت له إنني أحبه فأحسست عضلات جسمه تتوتر كلها... كأنه أدرك ما سيأتي، كأنه يستعد لسماعه. يحدث هذا معكم، ألا يحدث... عندما يقول لكم أحد إنه يحبكم، عندما يقولها بتلك الطريقة. أحبك، نعم أحبك، لكن... لكن.

قلت له إنني ارتكبت بعض الأخطاء، فأفلت يدي. نهض واقفاً وسار بضعة أمتار في اتجاه سكة القطار قبل أنْ يستدير لينظر إلي. سألني: «أي نوع من الأخطاء؟». كانت نبرة صوته عادية، لكني سمعت في ذلك الصوت مقدار ما يبذله من جهد حتى يتحدث بتلك النبرة.

قلت: «تعال واجلس معي، أرجوك!».

هز رأسه قائلاً: «أي نوع من الأخطاء يا ميغان؟» قالها بصوت أقوى هذه المرة.

«كان هناك... انتهى الأمر الآن. كان هناك... شخص آخر». كانت عيناي تنظران إلى الأرض... لم أستطع النظر إليه.

قال شيئاً بصوت خافت جداً، شيء كأنه بصقة، لكني لم أستطع

سماعه. رفعت رأسي عند ذلك ونظرت إليه، لكنه كان قد استدار صوب سكة القطار من جديد واضعاً كفيه على صدغيه. نهضت ومضيت إليه. وقفت إلى جانبه ووضعت يدي على وركيه لكنه قفز مبتعداً عني. استدار ليدخل إلى البيت. وقال من غير أن ينظر صوبي: «لا تلمسيني يا عاهرة».

كان عليَّ أن أتركه يذهب عند ذلك. كان عليَّ أن أمنحه وقتاً حتى يستوعب الأمر؛ لكني لم أفعل. أردت أن أتجاوز الأخبار السيئة لأستطيع الوصول إلى الخبر الجيد. لحقت به إلى البيت.

«سكوت، من فضلك، استمع إليَّ فقط! ليس الأمر فظيعاً مثلما تظن. لقد انتهى كله الآن. انتهى تماماً. استمع إلي من فضلك... أرجوك...».

أمسك بصورتنا معاً، الصورة التي كان يحبّها كثيراً... الصورة التي صنعت لها إطاراً حتى أقدّمها هدية له في ذكرى زواجنا الثانية. رماها على رأسي بكل قوته. وعندما تحطمت خلفي على الجدار، هجم علي فأمسك بأعلى ذراعي ثم قذفني عبر الغرفة، رماني صوب الجدار المقابل. اصطدم رأسي بالجدار وارتدّ عنه مثلما ترتد كرة. انحنى فوقي بعد ذلك واضعاً ذراعه فوق حنجرتي، وراح يضغط أكثر فأكثر من غير أن يقول شيئاً. أغمض عينيه حتى لا يرى اختناقي.

فور انتهائي من حزم حقيبتي، بدأت إفراغها من جديد معيدة كل شيء إلى مكانه. لن يسمح لي بالذهاب إذا حاولت الخروج حاملة حقيبتي. يجب أن أذهب خاوية اليدين، من غير شيء إلا حقيبة اليد والهاتف. ثم غيرت رأيي من جديد وبدأت أعيد الأشياء كلها إلى الحقيبة. لست أدري أين أذهب، لكني أعرف أنني لا أستطيع البقاء هنا. أغمضُ عينيَّ فأحس بكفّيه على حنجرتي.

أعرف قراري ـ لا هروب بعد الآن، ولا اختباء بعد الآن ـ لكني لا أستطيع البقاء هنا الليلة. أسمع صوت خطوات على السلم... خطوات بطيئة، رصاصية. يقتضيه الوصول إلى الطابق العلوي زمناً طويلاً ـ إنه

يصعد السلم قفزاً عادة، لكنه اليوم رجلٌ صاعدٌ إلى خشبة الإعدام. لكني لا أعرف إن كان هو المحكوم أو الجلاد.

«ميغان!»... لم يحاول فتح الباب. «ميغان... آسف لأنني آلمتك. آسف كثيراً لأنني آلمتك». أستطيع سماع الدموع في صوته. لكن هذا يغضبني... يجعلني أود أن أطير إليه فأخمش وجهه. *إياك أن تجرؤ على البكاء. إياك أن تجرؤ بعد ما فعلته بي.* إنني حانقة عليه؛ أود أن أصرخ عليه وأقول له أن يبتعد عن ذلك الباب، أن يبتعد عني. لكني أعضّ على لساني لأنني لست غبية. إن لديه سبباً للغضب. وعليَّ أن أفكر بعقلي... عليَّ أن أفكر تفكيراً واضحاً. إنني أفكر من أجل شخصين الآن. منحتني هذه المواجهة قوة، وجعلتني أكثر تصميماً. أستطيع سماعه خارج الباب يرجو غفراني، لكني لا أستطيع التفكير في ذلك الآن. في هذه اللحظة... عندي أشياء أخرى يجب أن أقوم بها.

في عمق خزانتي، في آخرها تماماً، في أسفل ثلاث علب أحذية كُتبت محتويات كل منها على بطاقة، توجد علبة رمادية اللون مكتوب عليها «الحذاء الأحمر ذو الكعب العالي». وفي تلك العلبة هاتف محمول قديم، هاتف بخط مسبق الدفع اشتريته منذ سنوات ثم تركته هنا ريثما أحتاج إليه. لم أستخدمه منذ زمن بعيد، لكني في حاجة إليه الآن. سوف أكون صادقة. سأجعل كل شيء مكشوفاً، مرئياً. لا أكاذيب بعد الآن، ولا اختباء بعد الآن. حان الوقت لكي يواجه الأب مسؤولياته.

أجلس على السرير وأشغّل الهاتف راجية ألا تكون بطاريته فارغة. تضيء الشاشة فأحس بالإثارة تسري في دمي، تدوّخني، تجعلني أحس بشيء يشبه الغثيان، وتجعلني أحلّق عالياً كأنني ثملة. لقد بدأت أشعر بالمتعة... متعة انتظار ما سيحدث عندما أكشف عن كل شيء، عندما أواجهه ـ أواجههم جميعاً بما نحن عليه في الحقيقة، وإلى أين نحن متجهون. مع نهاية هذا اليوم، سيعرف كل واحد موقعه.

أطلب رقمه. ومثلما توقعت، ينتقل الهاتف مباشرة إلى البريد الصوتي. أغلق الخط، ثم أكتب إليه رسالة: *يجب أن أتحدث معك. هذا أمر مستعجل. اتصل بي.* ثم أجلس في مكاني وأنتظر.

أنظر إلى قائمة المكالمات. استخدمت هذا الهاتف آخر مرة في شهر نيسان. مكالمات كثيرة، كلها من غير إجابة... أواخر آذار/ مارس أوائل نيسان/ أبريل. اتصلت، واتصلت، واتصلت، واتصلت، لكنه تجاهلني بل إنه لم يستجب حتى لتهديداتي: سأذهب إلى بيتك، وسأتكلم مع زوجتك. لكن، رغم ذلك، أظن أنه سيصغي إليَّ الآن. سوف أجعله يصغي إليَّ الآن.

عندما بدأنا هذا كله، كان الأمر مجرد لعبة. كان مجرد تسلية. كنت أراه من وقت لآخر. كان قد زار معرضي الفني قبل ذلك، وابتسم لي وغازلني. كان ذلك أمراً لا ضرر فيه. رجال كثيرون كانوا يأتون إلى المعرض، فيبتسمون ويغازلون. لكني أغلقت المعرض بعد ذلك. وصرت هنا في البيت طيلة الوقت، ضجِرة، غير مستقرة. أردت شيئاً آخر، شيئاً مختلفاً. وعند ذلك صادفته في الشارع ذات يوم، وكان سكوت غائباً، فبدأنا الحديث ثم دعوته إلى فنجان قهوة. نظر إلي عند ذلك بطريقة أدركت منها بالضبط ما كان يدور في ذهنه... وهكذا حدث الأمر. ثم حدث مرة أخرى؛ ولم أكن أقصد أبداً أن يؤدي ذلك بنا إلى مكان ما... لم أرِدْ أن يؤدي بنا إلى مكان ما. كل ما في الأمر هو أنني وجدت متعة في الإحساس بأنني مرغوبة. إنني أحب الإحساس بالسيطرة. كان الأمر بسيطاً إلى هذه الدرجة، كان حماقة إلى هذه الدرجة. ما كنت أريده أن يترك زوجته. رغبت فقط أن يريد تركها... رغبتُ أن يريدني أنا إلى تلك الدرجة.

لا أذكر متى بدأت أصدّق أن الأمر يمكن أن يكون أكثر من ذلك، أن العلاقة بيننا يجب أن تكون أكثر من ذلك، وأننا يناسب كل منا الآخر. لكني أحسست، لحظة بدأت التفكير بهذه الطريقة، أنه بدأ يبتعد عني.

توقفت رسائله؛ وكف عن الإجابة على مكالماتي؛ وأنا... لم أتلقَّ في حياتي كلها صَدّاً بهذا الشكل... أبداً. كرهت ذلك. وقتها اختلف الأمر، صار شيئاً آخر: صار وسواساً. أستطيع رؤية ذلك الآن. فكرت في النهاية أنني أستطيع أن أتجاوز هذا كله... مع شيء من الألم، لكن من غير أذى حقيقي. لكن الأمر ما عاد بتلك البساطة.

لا يزال سكوت واقفاً عند الباب. لا أستطيع سماعه. لكني أحس به. أدخل الحَمام وأطلب الرقم من جديد. أسمع البريد الصوتي فأغلق الخط، ثم أطلب الرقم من جديد، ثم أطلبه من جديد. أترك له رسالة مسجَّلة، هامسة: «عليك أن ترد على اتصالي وإلا فسوف آتي إلى بيتك. أعني ما أقول هذه المرة. يجب أن أتحدث معك. لا تستطيع تجاهلي».

أظل واقفة في الحمّام بعض الوقت. الهاتف على حافة المغسلة. أريده أن يرن. تظل الشاشة رمادية فارغة، معاندة، أمشّط شعري، وأنظف أسناني، وأضع بعض مساحيق التجميل. لون وجهي يعود إلى طبيعته. لا تزال عيناي محمرَّتين، ولا تزال حنجرتي تؤلمني، لكني أبدو على ما يرام. أبدأ العَدّ. إذا لم يرن الهاتف قبل أن أصل إلى الخمسين فسوف أذهب إليه وأقرع بابه. لكن الهاتف لا يرن.

أضع الهاتف في جيب الجينز، ثم أمضي سريعاً عبر الغرفة وأفتح الباب. أجد سكوت جالساً على الأرض، محتضناً ركبتيه بذراعيه، منكّساً رأسه. لا يرفع رأسه لينظر إليّ، فأتجاوزه وأبدأ الجري إلى الأسفل وأنفاسي عالقة في حلقي. أخشى أن يمسك بي من الخلف، وأن يدفعني. أسمعه ينهض واقفاً ويناديني: «ميغان! أين أنت ذاهبة؟ هل أنت ذاهبة إليه؟».

أستدير عندما أبلغ أسفل السلم: «إنه غير موجود، هل فهمت؟ الأمر انتهى».

«انتظري من فضلك يا ميغان. لا تذهبي، أرجوك». لا أريد سماع توسّله، ولا أريد الإصغاء إلى ذلك النحيب في صوته. لا أريد سماع رثاء

الذات في صوته... ليس عندما تؤلمني حنجرتي حتى الآن كأن أحداً صبَّ حمضاً فيها.

أقول بصوت جاف: «لا تلحق بي. إذا لحقت بي فلن أعود ثانية. هل تفهمني؟ إذا استدرت ووجدتك خلفي، فستكون تلك آخر مرة ترى وجهي».

أستطيع سماعه هاتفاً باسمي عندما صفقت الباب من خلفي.

أنتظر بضع لحظات في الخارج، على الرصيف، لأتأكد من أنه لم يلحق بي. ثم أمشي، مسرعة في البداية، ثم أبطأ، ثم أبطأ، مجتازة شارع بلنهايم. أصل إلى الرقم 23. وعندها أفقد أعصابي. لست مستعدة لهذا المشهد بعد. إنني في حاجة إلى دقيقة واحدة حتى أستجمع شتات نفسي. إنني في حاجة إلى بضع دقائق. أتابع السير مجتازة ذلك البيت، وأجتاز النفق والمحطة. أظل ماشية حتى أبلغ الحديقة، ثم أطلب رقمه من جديد.

أقول له إنني في الحديقة، وإنني أنتظره هناك. أقول له إنه إذا لم يأتِ فقد قضي الأمر... إنني آتية إلى بيته. أقول له إنها فرصته الأخيرة.

إنه مساء لطيف. الساعة بعد السابعة بقليل؛ لكن الجَوّ لا يزال دافئاً، والضياء لا يزال موجوداً. لا تزال مجموعة من الأطفال تلعب على الأراجيح. يقف أهاليهم جانباً، يتحدثون متحمِّسين. يبدو هذا كله أنيساً، طبيعياً... وبينما أنظر إليهم يأتيني إحساس مزعج... يأتيني ما يقول لي إننا، سكوت وأنا، لن نجلب طفلتنا لتلعب هنا. أنظر فلا أستطيع رؤيتنا هنا، سعيدَيْن هانئَيْن مثل هؤلاء الناس. ليس الآن. ليس بعد ما فعلت.

كنت مقتنعة كل الاقتناع هذا الصباح بأن جعل كل شيء مكشوفاً هو السبيل الأمثل. ليس السبيل الأمثل فحسب، بل السبيل الوحيد. لا كذب بعد الآن، لا اختباء بعد الآن. ثم، بعد ذلك، عندما آلمني، لم يجعلني ذلك إلا واثقة أكثر. وأما الآن... وأنا جالسة هنا وحدي، الآن بعد أن لم يعد سكوت غاضباً، بل محطَّم القلب، لست أظن أبداً أن ما فعلته كان صحيحاً.

لم أكن قوية، بل متهوّرة. لا يمكن معرفة الضرر الذي سبّبه تهوّري.

لعل الشجاعة التي تلزمني لا علاقة لها بقول الحقيقة، بل لعلها تقتضي أن أذهب. ليس الأمر عدم ارتياح فحسب، ليس قلقاً فحسب ـ إنه أكثر من ذلك. من أجلها ومن أجلي... هذا هو وقت الذهاب، وقت الابتعاد عنهما معاً، وقت الابتعاد عن الأمر كله. لعل الهرب والاختباء هو ما يتعيَّن علي فعله.

أنهض واقفة وأمشي، أدور حول الحديقة مرة واحدة. يريد نصفي أن يرن الهاتف، ويخاف نصفي الآخر رنينه. لكني أجد نفسي مسرورةً آخر الأمر عندما يظل الهاتف صامتاً. سأعتبر هذا إشارة. أنطلق في طريقة العودة... إلى البيت.

رأيته عندما عبرت المحطة. رأيته سائراً مسرعاً، خارجاً من النفق بخطوات واسعة. رأيت كتفيه متهدّلتَين وقبضتيه مشدودتَيْن. وقبل أن أتمكن من منع نفسي... أناديه.

يستدير ليواجهني: «ميغان! ماذا أنت...». في وجهه غضب عارم؛ لكنه يشير لي بالاقتراب.

وعندما أصير قريبة منه يقول لي: «هيا! لا نستطيع التحدث في هذا المكان. السيارة واقفة هناك».

«أريد فقط أن...».

يقول بحدَّة: «لا نستطيع التكلم هنا. هيا بنا!». يشدّني من يدي، ثم يقول بشيء من اللطف: «سنذهب بالسيارة إلى مكان هادئ... هل اتفقنا؟ سنذهب إلى مكان هادئ نستطيع الحديث فيه».

عندما أصعد إلى السيارة، ألتفت لأنظر من فوق كتفي... إلى الخلف... من حيث جاء. النفق مظلم؛ لكني أحس أنني أستطيع رؤية شخص هناك، في الظل، شخص ينظر إلينا.

ريتشل

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

بعد الظهر

تستدير آنّا على عقبيها عندما تراه، ثم تدخل البيت. قلبي يخفق عنيفاً، يضرب أضلعي. أتبعها حذرةً، ثم أتوقف عند الباب المنزلق. إنهما متعانقان في الداخل. ذراعاه تلفّانها والطفلة بينهما. رأس آنّا منكَّس، وكتفاها مرتعشان. فمه على قمة رأسها، لكن عينيه مسلطتان عليّ.

يسأل، وظل ابتسامة على شفتيه: «ماذا يجري إذاً؟ إن رؤيتكما هنا، أيتها السيدتان، تتهامسان في الحديقة، لم تكن بالشيء الذي توقعت رؤيته عند وصولي إلى البيت». نبرة صوته خفيفة، مَرِحة. لكنه لا يخدعني. لا يستطيع خداعي بعد الآن. أفتح فمي لأتكلم، لكني لا أجد كلمات أقولها. لا أعرف من أين أبدأ.

«ريتشل! هل ستخبرينني عمّا يجري؟». يفلت آنّا من بين ذراعيه ثم يخطو خطوة واحدة صوبي. أتراجع خطوة فيبدأ بالضحك.

«ماذا بك، بحق الله؟ هل أنت ثملة؟» لكني أستطيع أن أرى في عينيه أنه يسألني هذا السؤال وهو مدرك أنني صاحية. وأنا واثقة من أنه يفضِّل رؤيتي ثملة الآن. تنزلق يدي في الجيب الخلفي لبنطلون الجينز ـ هاتفي هناك ـ صلب، جاهز، مطمئن. أتمنى فقط لو أنني اتصلت في

تلك اللحظة. سواء صدَّقتني الشرطة أم لم تصدقني عندما أقول لهم إنني موجودة مع آنّا وطفلتها، فسوف تأتي بالتأكيد.

لا تفصل توم عني الآن إلا خطوات قليلة ـ هو واقف عند الباب من الداخل، وأنا واقفة خارجه.

«لقد رأيتك»... أقولها أخيراً فتغمرني الفرحة، فرحة عابرة لكنها واضحة، تغمرني عندما أقول تلك الكلمات جهاراً... «تعتقد أنني لا أستطيع تذكّر أي شيء، لكنني أتذكّر. لقد رأيتك. تركتني هناك بعد أن ضربتني في النفق...».

يبدأ الضحك، لكني أستطيع أن أرى الأمر الآن... أعجب كيف لم أكن قادرة على رؤيته بهذه السهولة من قبل. هنالك ذعر في عينيه. يلتفت سريعاً صوب آنّا، لكن عينيها لا تقابلان نظرته.

«عن أي شيء تتحدثين؟».

«في النفق. ليلة اختفاء ميغان هيبويل...».

يقول ملوّحاً بيده صوبي: «أوه، كلام فارغ! لم أضربك. أنت التي سقطت». يمد يده إلى يد آنّا ويجذبها أقرب إليه. «حبيبتي... أهذا هو سبب انزعاجك؟ لا تستمعي إليها! إن ما تقوله كلام فارغ تماماً. لم أضربها. لم أرفع يدي عليها في حياتي كلها. ليس الأمر هكذا». يلفّ ذراعه حول كتفَيْ آنّا ويشدها إليه. «هيا الآن! ألم أخبرك عنها؟ إنها لا تعرف ما يحدث حولها عندما تشرب. وهي تختلق أغرب الـ...».

«صعدْتَ إلى السيارة معها. رأيتكما تذهبان». لا يزال مبتسماً، لكن ابتسامته لم تعُد ابتسامة مقنعة. لست أدري إن كنت أتخيل هذا، لكنه يبدو لي أكثر شحوباً الآن. يرفع يده عن آنّا، يتركها مرة أخرى. تجلس إلى الطاولة مديرة ظهرها إلى زوجها. طفلتها غير مستقرة في حضنها.

يمسح توم بيده على فمه ثم يستند إلى طاولة المطبخ طاوياً ذراعيه على صدره: «تقولين إنك رأيتني أصعد السيارة مع من؟».

«مع ميغان».

يبدأ الضحك من جديد. ضحكة مزمجرة عالية قسرية مصطنعة: «أوه، لا بأس! عندما تحدثنا عن هذا الأمر آخر مرة، قلت لي إنك شاهدتني أصعد السيارة مع آنا. والآن تقولين إنها ميغان، أليس كذلك؟ مع من سأصعد إلى السيارة في المرة القادمة؟ مع الليدي ديانا؟».

ترفع آنا رأسها وتنظر إليّ. أستطيع أن أرى الشك والأمل متصارعَيْن في تعبير وجهها. تسألني: «ألستِ واثقة؟».

يركع توم إلى جانبها: «ليست واثقة طبعاً! إنها تختلق هذا كله ـ تفعل هذا طيلة الوقت. أرجوك يا حبيبتي. لماذا لا تصعدين إلى الأعلى قليلاً... موافقة؟ سوف أنهي الأمر مع ريتشل. وهذه المرة...» يلقي نظرة سريعة صوبي... أعدك بأنني سأحرص على ألّا تزعجنا بعد الآن إطلاقاً».

آنا مترددة. أرى هذا ـ أراه في نظرتها إليه باحثة عن الحقيقة في وجهه، في عينيه المثبتتين على عينيها. أناديها محاولة استعادة انتباهها: «آنا! أنت تعرفين. تعرفين أنه يكذب. تعرفين أنه كان يضاجعها».

تمر لحظة لا يقول أحد فيها شيئاً. تنتقل نظرات آنا من توم إليّ، ثم إليه من جديد. تفتح فمها لتقول شيئاً، لكنها لا تقول شيئاً.

«آنا! ماذا تقصدين بهذا؟ لم يكن هنالك شيء بيني وبين ميغان هيبويل».

تقول له بصوت منخفض غير مسموع تقريباً: «لقد وجدت هاتفها يا توم. لذلك، أرجوك، لا تفعل هذا! لا تكذب! فقط، لا تكذب عليّ».

بدأت الطفلة تئن وتصرخ في حضن أمها. يأخذها توم، بلطف

شديد، من بين ذراعي آنّا. يمشي بها عبر الغرفة حتى يصل إلى النافذة، يهدهد ابنته ويهزّها هذه الناحية وتلك متمتماً لها طيلة الوقت. لا أستطيع سماع ما يقول. رأس آنّا منكس، ودموعها تقطر من ذقنها فوق طاولة المطبخ.

يقول توم وهو يستدير ليواجهنا... زال من صوته كل أثر للضحك: «أين هو؟ أين الهاتف يا آنّا. هل أعطيتها الهاتف؟»... يقول هذا وهو يدير رأسه ناحيتي: «هل الهاتف معك؟».

أقول له: «لا أعرف شيئاً عن الهاتف». أقول هذا متمنّية لو أن آنّا ذكرت هذا الأمر من قبل.

يتجاهلني توم. «آنّا! هل أعطيتها الهاتف؟».

تهز آنّا رأسها. «أين هو؟»

تقول: «رميته بعيداً. رميته خلف السياج، عند سكة القطار».

«فتاة جيدة. فتاة جيدة». يبدو شارد الذهن وهو يقول هذه الكلمات. إنه يحاول أن يفهم الوضع... يحاول أن يقرر كيفية تحركه بعد هذا. يلتفت صوبي ثم يشيح بنظره بعيداً عني. وللحظة واحدة، تبدو عليه ملامح شخص مهزوم.

يستدير إلى آنّا، ويقول لها: «كنت في غاية التعب طيلة الوقت. لم تكوني مهتمة أبداً. كان كل شيء يدور من حول الطفلة. أليس هذا صحيحاً؟ كان الأمر كله بسببك أنت، أليس كذلك؟ كله بسببك». هكذا هو. استعاد زمام الموقف من جديد. راح يحاول إضحاك ابنته، يدغدغ بطنها فيجعلها تبتسم... «وكانت ميغان شديدة... لن... طيب... لقد كانت موجودة، متاحة».

تابع يقول: «انتهى الأمر في بيتها أول مرة. لكنها كانت فزِعة من إمكانية أن يكتشف سكوت ما حدث. وهكذا بدأنا نلتقي في فندق

سوان. كان ذلك، نعم، أنت تذكرين كيف يكون ذلك، ألا تذكرين يا آنّا؟ ألا تذكرين كيف كنا في البداية عندما كنا نذهب إلى ذلك البيت في شارع غرانهام؟ أنت تفهمين». يلتفت من فوق كتفه ناظراً إليّ غامزاً بعينه... «كنا نلتقي هناك، أنا وآنّا، في تلك الأيام الطيبة».

ينقل ابنته من ذراع إلى أخرى ويدعها تستريح على كتفه. «تظنين أنني شخص قاسٍ؛ لكنني لست كذلك. إنني أقول الحقيقة. هذا ما تريدين، أليس كذلك يا آنّا؟ طلبت مني ألا أكذب».

لا ترفع آنّا رأسها، ولا تنظر إليه. يداها قابضتان على حافة الطاولة، وجسدها متصلّب كله.

يتنهّد توم بصوت مرتفع: «يريحني أن أقول الصدق». إنه يتحدث معي... ينظر إليَّ مباشرة... «لا فكرة عندك أبداً كم يمكن أن يكون الأمر مرهقاً عندما يحاول المرء التكيف مع أشخاص مثلك. ثم... تباً... لقد حاولت. حاولت كثيراً أن أساعدك. حاولت مساعدتكما أنتما الاثنتين. إنكما... كلتاكما... أقصد... أحببتكما، أحببتكما فعلاً، لكنكما تكونان أحيانًا ضعيفتين إلى حدٍّ لا يصدَّق».

تقول آنّا رافعة نفسها عن الطاولة: «اللعنة عليك يا توم! لا تحشرني معها. لا تعتبرني مثلها». أنظر إليها وأدرك كم هما متناسبان، آنّا وتوم. إنها تناسبه أكثر مني كثيراً لأن هذا ما يثير قلقها: لا يثير قلقها أن زوجها كاذب، وأنه قاتل، بل إنه يقارنها بي!

يمضي توم إليها ويخاطبها مسترضياً: «إنني آسف يا حبيبتي. كان هذا وضعاً غير منصف بالنسبة لي». تدفعه عنها فينظر صوبي ويقول: «لقد فعلت ما بوسعي، وأنت تعرفين هذا. كنت زوجاً طيباً لك يا راتش. تحملتك كثيراً. اكتئابك وشربك. تحمّلت هذا كله زمناً طويلاً قبل أن أرفع الراية البيضاء».

قلت: «لقد كذبت عليّ»، ففوجئ واستدار لينظر إليّ... «كنت تقول

لي إنني مخطئة في كل شيء. جعلتني أصدّق أن لا قيمة لي. جلست تنظر إليّ وأنا أعاني. إنك...».

يرفع كتفَيْه: «هل تدركين كم صرت مضجِرة يا ريتشل؟ وكم صرت بشعة؟ أكثر حزناً من أن تستطيعي النهوض من السرير في الصباح. وأكثر تَعَباً من أن تستطيعي الاستحمام أو غسل شعرك الملعون! يا إلهي! لا عجّب أبداً في أنني فقدتُ صبري، أليس كذلك؟ لا عجب أبداً في أنني وجدت نفسي مضطرّاً إلى البحث عن طرق أخرى لأروّح عن نفسي. ليس لكِ إلا أن تلومي نفسك وحدها».

يتحول تعبير وجهه من الازدراء إلى الاهتمام عندما يستدير مخاطباً زوجته: «آنّا! كان الأمر مختلفاً معك. أقسم على هذا. ذلك الأمر مع ميغان... لقد كان مجرد شيء من اللهو، لا أكثر. هذا ما كان مقصوداً منه. أعترف بأنني لم أتصرّف تصرفاً حسناً؛ لكنني كنت في حاجة إلى شيء من الترويح عن نفسي. هذا كل ما في الأمر. لم أكن أعتزم الاستمرار. لم يكن ذلك ليشوّش على حياتنا، على أسرتنا. يجب أن تفهمي ذلك».

«أنت...» تحاول آنّا أن تقول شيئاً، لكنها لا تستطيع نطق الكلمات.

يضع توم يده على كتفها ويضغط قليلاً: «ماذا يا حبيبتي؟».

تقول بصعوبة: «لقد أتيت بها حتى تعتني بطفلتنا. هل كنت تضاجعها عندما كانت تعمل هنا؟ ... عندما كانت تعتني بطفلتنا؟» يبعد يده عنها... صار وجهه تجسيداً للندم والخجل: «كان هذا فظيعاً. لقد ظننت... ظننت أنه سيكون... صدقاً... لا أعرف ماذا ظننت. لا أعرف كيف فكرت. لست واثقاً من أنني كنت أفكر أصلاً. كان شيئاً خاطئاً. لقد فعلت شيئاً خاطئاً إلى حد مخيف». ثم يتغير القناع من جديد ـ يفتح عينيه الواسعتين، برئيتين، ويخاطبها متوسلاً: «لم أكن أعرف عنها شيئاً في ذلك الوقت يا آنّا. يجب أن تصدّقي أنني لم أكن أعرف حقيقتها. لم

أكن أعرف شيئاً عن الطفلة التي قتلتها. لو عرفت ذلك لما سمحت لها أبداً بأن تعتني بابنتنا. عليك أن تصدّقي هذا».

ومن غير إنذار، تقفز آنّا واقفة على قدميها دافعة كرسيها إلى الخلف. ينقلب الكرسي ويسقط على أرض المطبخ. فيوقظ صوته الطفلة. تقول آنّا مادة ذراعيها: «أعطني إياها». يتراجع توم قليلاً... «الآن يا توم، أعطني إياها الآن. هيا أعطني إياها». لكنه لا يعطيها الطفلة. يسير مبتعداً عنها وهو يهزّ الطفلة في حضنه، هامساً لها من جديد، محاولاً جعلها تعود إلى النوم. تبدأ آنّا بالصراخ عند ذلك. تكرر في البداية... أعطني إياها، أعطني إياها... لكن صوتها يصبح بعد ذلك عويلاً لا يمكن تمييزه، عويل غَضَبٍ وحزن ومعاناة. تصرخ الطفلة أيضاً. يتجاهل توم آنّا، يحاول تهدئة ابنته. يصير عليَّ أنا أن أحاول تهدئة آنّا، أسحبها جانباً وأكلّمها بصوت خافت مستعجل.

«عليك أن تهدئي يا آنّا. ألا تفهمين ما أقول؟ يجب أن تهدئي. أريدك أن تتحدثي معه، أن تلهيه لحظة ريثما أتصل بالشرطة. هل تفهمين ما أقول؟».

تهزّ رأسها ـ إنها تهتز كلها. تمسك بيدي فتنغرس أظافرها في لحمي: «كيف استطاع أن يفعل هذا؟».

«آنّا! استمعي إليّ. عليك إشغاله لحظة».

تنظر إليَّ أخيراً، تنظر إليَّ حقاً، وتهز رأسها قائلة: «لا بأس».

«عليكِ فقط... لا أعرف. حاولي جعله يبتعد عن هذا الباب. حاولي إشغاله قليلاً». تمضي آنّا إلى داخل المطبخ. أستنشق نَفَساً عميقاً ثم أستدير وأبتعد خطوات قليلة عن الباب المنزلق. لا أبتعد كثيراً. أصل إلى حافة المرج فقط. أستدير لأنظر خلفي. لا يزالان في المطبخ. أمشي خطوات قليلة أخرى. الريح في اشتداد الآن: الحرارة على وشك الزوال. أرى طيوراً في السماء، تحوم وتنقضّ صوب الأرض؛ وأشم رائحة مطر قادم. أحب هذه الرائحة.

أدخل يدي في جيبي الخلفي فأخرج الهاتف. أحاول بيدين مرتجفتين لكنني أفشل في فتح قفل لوحة المفاتيح أول مرة، ثاني مرة ـ أنجح في المرة الثالثة. أفكر لحظة في الاتصال بالمحقّقة رايلي، في الاتصال بشخص يعرفني. أبحث في قائمة المكالمات لكني لا أستطيع العثور على رقمها. أكف عن المحاولة ـ أطلب الرقم 999. وعند التسعة الثانية أحسّ بقدمه تصدم أسفل ظهري فأطير متدحرجة فوق العشب. انقطعت أنفاسي. يفلت الهاتف من قبضتي. أراه ممسكاً به قبل أن أتمكن من النهوض على ركبتَيّ، قبل أن أتمكن من التنفس.

«والآن. والآن يا راتش»... يقول هذا ممسكاً بذراعي. يشدني من غير جهد فيجعلني أقف على قدمَيّ... «دعينا نكفّ عن فعل أي شيء غبي».

يقودني فيعيدني إلى المطبخ. لا أقاومه لأنني أعرف أن القتال غير مفيد الآن. لن أستطيع الإفلات منه هنا. يرمي بي عبر الباب الزجاجي المنزلق، ثم يغلقه من خلفنا ويقفله. يلقي بالمفاتيح على طاولة المطبخ. آنّا واقفة هناك. تبتسم لي ابتسامة صغيرة فأتساءل عند ذلك إن كانت أخبرته بأنني أحاول الاتصال بالشرطة.

تبدأ آنّا بإعداد العشاء لطفلتها. وتضع الركوة على النار لتصنع لنا شاياً، نحن الثلاثة. وفي صورة الواقع العجيبة هذه، أحس أنني صرت قادرة على أن أقول لهما، بكل تهذيب، تصبحان على خير، وأن أجتاز الغرفة وأخرج إلى أمان الشارع. هذا شديد الإغراء. أسير في الواقع بضع خطوات في ذلك الاتجاه. لكن توم يعترض طريقي. يضع يده على كتفي. ثم يمر بأصابعه على حنجرتي... مع ضغط خفيف فقط.

«ماذا أفعل بك يا راتش؟».

ميغان

السبت، 13 تموز/ يوليو 2013

في المساء

لم ألاحظ وجود دم على يده قبل صعودنا إلى السيارة.

قلت له: «لقد جرحت نفسك». لم يجبني. شد كفّيه بقوة على مقود السيارة حتى بدت مفاصلهما بيضاء.

قلت: «توم! يجب أن أتحدث معك». أحاول الكلام بنبرة تصالحية. أحاول أن أكون كبيرة ناضجة عندما أطرح الأمر. لكنني أظن أن الوقت قد تأخَّر على هذا.

«يؤسفني أن أزعجك. لكن، بحق الله! لقد قاطعتني تماماً. وأنت...».

يقول بصوت ناعم: «لا بأس، لا بأس. لم أقاطعك... إنني غاضب من شيء آخر. الأمر غير متعلّق بكِ أنتِ». استدار صوبي محاولاً الابتسام لي، لكن من غير أن ينجح في ذلك. يقول لي: «إنها مشكلات مع زوجتي السابقة. تعرفين كيف الأمر».

أسأله: «ماذا أصاب يدك؟».

يقول من جديد: «مشكلات مع زوجتي السابقة». تظهر نبرة قبيحة في صوته. يقود السيارة ونحن صامتين طيلة الطريق حتى غابة كورلي.

ندخل موقف السيارات، ثم نسير فيه حتى نهايته. كنا في هذا المكان من قبل. لا يرتاد أشخاص كثيرون هذا المكان في المساءات ـ بعض المراهقين أحياناً ومعهم علب البيرة؛ هذا كل ما يمكن أن يكون. أما الليلة فإننا وحيدان هنا.

يوقف توم محرك السيارة ويستدير صوبي: «الآن... ما الأمر الذي تريدين التحدث عنه؟». لا أزال أحس غضباً في صوته، لكنه مختبئ... خامد الآن؛ لم يعد يغلي. لكني، بعد ما حدث معي اليوم، لا أجد نفسي مرتاحة بأن أكون في مكان مغلق مع رجلٍ غاضب. هذا ما جعلني أقترح عليه أن نتمشى قليلاً. يفتح عينيه مستغرباً ويطلق زفرة ثقيلة، لكنه يوافق.

لا يزال الجو دافئاً. هنالك سحابات من البعوض الطائر تحت الأشجار. تتسرَّب أشعة الشمس عبر الأوراق فتغسل ذلك الممر بضياء غريب، ضياء غير أرضي. ومن فوق رأسَيْنا، تتصايح طيور العقعق غاضبة.

نمشي مسافة قليلة من غير كلام. أنا في المقدمة، وتوم متأخر عني بضع خطوات. أحاول التفكير في شيء أقوله. أحاول التفكير في كيفية التعبير عما أريد قوله. لا أريد أن تسوء الأمور أكثر من هذا. لا أزال أذكّر نفسي بأنني أحاول أن أفعل الشيء الصحيح.

أتوقف عن السير وأستدير فأواجهه ـ إنه واقف على مقرُبةٍ شديدة مني.

يضع يديه على ردفَيَّ. يسألني: «هنا؟ أهذا ما تريدين؟» يبدو عليه الضجر.

أقول متراجعة إلى الخلف، مبتعدة عنه: «لا، ليس هذا».

يبدأ الطريق انحداراً خفيفاً عند هذه النقطة. أبطئ خطواتي. لكنه يساير سرعتي: «ماذا إذاً؟».

صمت ثقيل. لا تزال حنجرتي تؤلمني: «إنني حامل».

لا ردّ فعل على الإطلاق ـ وجهه خالٍ من التعبير تماماً. كأنني أخبره برغبتي في الذهاب إلى متجر سينزبري في طريق عودتنا، أو كأني أتحدّث عن موعدٍ مع طبيب الأسنان.

يقول أخيراً: «أهنئك».

نفَسٌ عميق آخر: «توم... أقول لك هذا لأن... نعم... لأنه هناك احتمالٌ أن يكون الطفل طفلك أنت».

يحدِّق فيّ بضع لحظات، ثم يضحك: «أوه! كم أنا محظوظ! إذن، ماذا؟ هل تريدين أن نهرب معاً، نحن الثلاثة، أنت وأنا والطفل؟ أين تريدين أن نذهب مثلاً؟ إلى إسبانيا؟».

«فكّرت في أنك يجب أن تعرف، لأن...».

«عليكِ بالإجهاض. ما أريد قوله هو... إذا كان الطفل طفل زوجك، فافعلي ما تريدين. أما إذا كان طفلي أنا، فعليك أن تتخلصي منه. أنا جادّ في هذا. علينا ألا نكون حمقاوَيْن في هذا الشأن. لا أريد طفلاً آخر». يمرّر أصابعه على خدّي... «إنني آسف؛ لكنني لا أظن أنك تصلحين لأن تكوني أمّاً، ألست محقّاً في هذا يا ميغان؟».

«يمكنك أن تعتبر نفسك على علاقة بالأمر بالقدر الذي تريد...».

يقول بنبرة حادة وهو يدير ظهره لي ويبدأ السير عائداً نحو السيارة: «هل سمعتِ ما قلته لك الآن؟ ستكونين أمّاً فظيعة يا ميغان. فقط عليك أن تتخلَّصي منه».

أمضي خلفه، أسير بخطوات سريعة أول الأمر، ثم أعدو. وعندما أقترب منه أضربه في ظهره. أصرخ عليه، وأزعق، وأحاول خدش وجهه الكريه المعتَدّ بنفسه. أما هو فيضحك ويدفعني بعيداً عنه بكل سهولة. أبدأ بقول أسوأ الكلمات التي أستطيع تخيلها. أهين رجولته، وزوجته المملّة، وطفلته القبيحة.

لا أعرف سبب غضبي هذا كله... فماذا كنت أتوقع؟ ربما توقّعت غضباً، أو قلقاً، أو انزعاجاً. لكني لم أتوقع هذا. بل إن هذا ليس حتى رفضاً... إنه ينفض يده من كل شيء. لا يريد مني إلا أن أذهب ـ أنا وطفلتي. لذلك أقول له، أزعق قائلةً له: *لن أبتعد. سأجعلك تدفع ثمن هذا. حتى آخر يوم من حياتك الملعونة، ستظل تدفع ثمن هذا.*

يكفّ عن الضحك.

إنه قادم صوبي. أرى في يده شيئاً.

لقد سقطت. لا بد أنني انزلقت. لا بد أن رأسي اصطدم بشيء ما. أظن أنني موشكة على الإغماء. كل شيء أحمر. لا أستطيع فهم هذا.

واحد للأسى، اثنان للفرحة، ثلاثة لفتاة. ثلاثة لفتاة. سأبقى عند الثلاثة؛ لا أستطيع المضيّ أكثر من هذا. أصوات تملأ رأسي، وفمي مليء دماً. ثلاثة لفتاة. أستطيع سماع طيور العقعق، إنها تضحك، تسخَرُ مني، قوقأة صاخبة. إنه فأل، فأل سيىء. أستطيع رؤيته الآن، أسود في ضياء الشمس. لا أقصد الطيور، بل هو شيء آخر. هنالك شخص قادم. شخص يكلمني. *انظري الآن! انظري الآن إلى ما أجبرْتني على فعله!*

ريتشل

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

بعد الظهر

جلسنا في غرفة المعيشة.... جلسنا على هيئة مثلث صغير: توم على الأريكة، الزوج المخلِص، الأب المتفاني واضعاً ابنته في حضنه، وزوجته إلى جانبه، ثم الزوجة السابقة قبالتهما ترتشف شايها. شيء في غاية التمدن! إنني جالسة على الكنبة الجلدية التي اشتريناها من متجر هيل بُعيد زواجنا ـ كانت أول قطعة أثاث نشتريها بعد زواجنا: جلد ناعم بلون الزبدة الضارب إلى البني... كنبة فاخرة، غالية الثمن. أتذكر مقدار الإثارة عندما أوصلوها إلى البيت. أتذكر كيف كنت أتكوّر فيها فأحس أنني آمنة سعيدة... أفكر في أن هذا ما ينبغي أن يكون الزواج عليه: أمان، ودفء، وراحة.

توم يراقبني. حاجباه معقودان. إنه يفكر في ما يفعله... يفكر كيف يتعامل مع الأمر. ليس قلقاً في ما يخص آنّا؛ أستطيع أن أرى هذا. أنا هي مشكلته.

يقول فجأة: «كانت تشبهك قليلاً». يميل إلى الخلف في جلسته على تلك الأريكة. وينقل ابنته إلى وضع أكثر راحة في حضنه: «في الحقيقة، كانت تشبهك ولم تكن تشبهك. كان لديها ذلك الشيء... كانت فوضوية، هل تفهمين؟ لا أستطيع مقاومة هذا». يبتسم لي... «الفارس في درعه اللامعة... أنا».

أقول بصوت هادئ: «لست فارس أحد».

«آه يا راتش... لا تكوني هكذا. ألا تذكرين؟ كنتِ حزينة دائماً... لأن بابا مات، ولأنك تريدين أن يأتي أحد إلى البيت... أن يأتي أحد حتى يحبك، ألا تذكرين؟ أعطيتك هذا كله. جعلتك تشعرين بالأمان. لكنك قررت تخريب ذلك كله. لا تستطيعين لوْمي على هذا».

«أستطيع لومك على أشياء كثيرة يا توم».

يهزّ إصبعه قائلاً: «لا! لا! لا حاجة بنا إلى إعادة كتابة التاريخ. كنت طيباً معك. أحياناً، لا بأس. أحياناً كنت تجبرينني على بعض التصرفات. لكن كنت طيباً معك. لقد اعتنيت بكِ». يقول هذا الكلام لنفسه. عند ذلك فقط، أدرك حقيقة الأمر: إنه يكذب على نفسه مثلما يكذب عليّ. إنه يصدق هذا. يصدق حقاً أنه كان طيباً معي.

وفجأة، تبدأ الطفلة بالصراخ بصوت مرتفع. تقف آنّا على قدميها مستعجلة.

تقول: «يجب أن أغيّر حفاضاتها».

«ليس الآن».

«لقد بللت نفسها يا توم. إنها في حاجة إلى تغيير. لا تكن قاسياً». يلقي عليها نظرة حادة. لكنه يناولها الطفلة الباكية. أحاول التقاط نظرة عينيها، لكنها تتحاشى النظر إليّ. يصعد قلبي إلى حلقي عندما أراها تستدير وتهمّ بالصعود إلى أعلى، لكنه يعود إلى مكانه بالسرعة نفسها لأن توم يهبّ واقفاً ويضع يده على ذراعها. يقول لها: «افعلي ذلك هنا. تستطيعين أن تفعلي ذلك هنا». تمضي آنّا إلى طاولة المطبخ وتبدأ تغيير حفاضات الطفلة على تلك الطاولة. تملأ رائحة خرائها الغرفة. رائحة مقزّزة.

أسأله: «هل ستخبرنا بالسبب؟». تتوقف آنّا عما تفعله، ثم تنظر إلينا. الغرفة ساكنة، هادئة، إلا من صوت الطفلة.

يهز توم رأسه كأنه لا يصدق نفسه: «كانت قادرة على أن تكون مثلك

تماماً يا راتش. لم تكن لتترك الأمور تسير بشكل طبيعي. لم تكن لتعرف متى تتوقّف. كانت فقط... لم تكن تريد الإصغاء إليّ. هل تذكرين كيف كنت تجادلينني دائماً، كيف كنت تريدين أن تكون الكلمة الأخيرة لك دائماً؟ ميغان كانت مثلكِ. لم تكن لتصغي أبداً».

يتململ في جلسته، ثم ينحني إلى الأمام واضعاً مرفقيه على ركبتيه كما لو أنه يقصّ عليَّ حكاية: «عندما بدأنا ذلك، كان الأمر متعة فحسب، مضاجعة فقط. جعلتني أعتقد بأنها لا تريد غير هذا. لكنها غيرت رأيتها بعد ذلك. لست أعرف السبب. كنت أراها في كل مكان، تلك الفتاة. إما أن يكون يومها مع سكوت سيئاً، أو أن تكون ضجِرة... يكفي هذا لأن يجعلها تبدأ الحديث عن ذهابنا معاً نحن الاثنين، عن البدء من جديد، عن ترك آنّا وإيفي. وكأنني يمكن أن أتركهما! أما إذا لم أكن موجوداً، جاهزاً عندما تريدني، فإنها تغضب وتتصل بالبيت، وتهدّدني، وتقول لي إنها ستأتي، وإنها ستخبر آنّا بقصتنا».

«لكن ذلك توقف فجأة. ارتحت كثيراً. ظننت أنها تمكنت في النهاية من استيعاب الموقف وفهم أنني ما عدت مهتمّاً بها. لكنها اتصلت من جديد ذلك السبت قائلة إنها تريد الكلام معي، وإن لديها شيئاً مهماً تخبرني به. تجاهلتها فبدأت التهديد من جديد ـ قالت إنها ستأتي إلى البيت... هذه الأشياء. لم أقلق كثيراً في البداية لأن آنّا كانت تعتزم الخروج. هل تذكرين يا حبيبتي؟ كنتِ تعتزمين الذهاب لتناول العشاء مع الفتيات؛ وكنت سأظل هنا لأرعى طفلتنا. قلت في نفسي قد لا يكون سيئاً ـ ستأتي فأنهي المسألة معها. سأجعلها تفهم. لكنك جئت يا ريتشل فخربت كل شيء».

يرتد مستنداً إلى ظهر الأريكة فارداً ساقَيه أمامه... الرجل الضخم، يملأ الحيّز كله... «كانت غلطتك أنت. الأمر كله كان غلطتك أنت يا ريتشل. لم تذهب آنّا لتناول العشاء مع صديقاتها. عادت بعد خمس

دقائق فقط. عادت منزعجة غاضبة لأنكِ كنت هناك في الخارج، ثملة كالمعتاد، تسيرين مترنّحة مع شخص ما قرب المحطة. خشيت آنّا أن تكوني قادمة إلى البيت. لقد قلقت على إيفي».

«وهكذا، بدلاً من تسوية الأمر مع ميغان، كنت مضطراً إلى الخروج للتخلّص منكِ». تلتوي شفتاه... «يا إلهي! ... كيف كانت حالتك! كان شكلك فظيعاً. رائحة النبيذ تفوح منكِ... حاولتِ تقبيلي، هل تذكرين هذا؟». تظاهر بأنه على وشك التقيؤ. ثم بدأ يضحك. ضحكت آنّا أيضاً. لا أفهم إن كانت تجد هذا مضحكاً حقاً أم أنها تحاول استرضاءه فقط.

«كان عليَّ جعلكِ تفهمين أنني لا أريد أن تقتربي مني بعد ذلك، لا أريد أن تقتربي منا. وهكذا عدت بك إلى ذلك النفق حتى لا يكون مظهرك فضيحة في الشارع. قلت لك أن تبتعدي عنا. لكنك بدأت الصراخ والتذمّر فصفعتك حتى أجعلك تخرسين. لكن صراخك وتذمرك ازدادا». إنه يتكلم شادّاً على أسنانه. أستطيع رؤية عضلات وجهه متوترة. «انزعجت كثيراً. لم أكن أريد منكما إلا أن تتركانا وحدنا، أن تبتعدا عنا... أنت وميغان. إن لديّ أسرة. وحياة طيبة هنا». يلتفت صوب آنّا التي كانت تحاول إجلاس الطفلة في كرسيها. كان وجهها خالياً من التعبير تماماً... «لقد كوّنت حياة طيبة لنفسي، رغماً عنك، ورغماً عن ميغان، رغماً عن كل شيء».

«جاءت ميغان بعد أن رأيتك. كانت ماضية في اتجاه شارع بلينهايم. ولم أكن أستطيع تركها تذهب إلى بيتنا. لم أكن أستطيع تركها تذهب للحديث مع آنّا. قلت لها إن علينا أن نذهب إلى مكان ما لنتكلم. كنت أعني ذلك حقاً. لم أكن أريد أن أفعل شيئاً آخر. وهكذا، صعدنا إلى السيارة وذهبنا إلى كورلي، إلى الغابة. كنا نذهب إلى ذلك المكان أحياناً إذا لم نحجز غرفة في الفندق. كنا نفعلها في السيارة».

من موضع جلوسي على الكنبة، رأيت آنّا تنتفض مجفلة.

«عليك أن تصدِّقيني يا آنّا. لم أكن أريد أن تسير الأمور مثلما سارت». ينظر توم إليها ثم يشيح بوجهه عنها ثم ينظر في راحتَيْ يديه... «بدأت تتحدث عن الطفل ـ ما كانت تعرف إن كان الطفل طفلي أو طفله هو. أرادت أن يكون كل شيء علنياً. وقالت إن لا مشكلة لديها في أن أرى الطفل إذا كان طفلي. لكن كنت أقول لها إنني لست مهتماً بالطفل... لا علاقة له بي». يهز رأسه... «انزعجَتْ كثيراً، غضبت... لكن عندما تغضب ميغان... إنها ليست مثل ريتشل. لا بكاء ولا أنين... إنها تزعق، وتشتم، وتقول أشياء قبيحة... تقول إنها ستذهب إلى آنّا، وإنني لا أستطيع تجاهلها، وإن طفلها لن يقع ضحية الإهمال... يا إلهي... لم تكن تريد أن تخرس. لذلك... لا أدري... أردت إيقافها فقط. التقطت حجراً عن الأرض...» ـ ينظر إلى يده اليمنى كما لو أنه يرى الحجر فيها الآن ـ «ولم أفعل إلّا...» يغمض عينيه ويطلق زفرة عميقة... «كانت ضربة واحدة فقط، لكنها كانت قد...» يستنشق نفساً عميقاً ثم يزفر ببطء... «لم أكن أقصد هذا. أردت إيقافها فقط. كانت تنزف كثيراً. كانت تصرخ... تصدر أصواتاً مخيفة. حاولَت أن تزحف مبتعدة عني. لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. كان علي إنهاء الأمر».

غربت الشمس. صارت الغرفة مظلمة. إنها هادئة، إلّا من صوت تنفّس توم... تنفس متقطّع ضحل. لا أصوات في الشارع. لا أستطيع تذكر آخر مرة سمعت فيها صوت القطار.

يقول: «وضعتها في صندوق السيارة. ثم قدت السيارة ودخلت في الغابة قليلاً، خرجت عن الطريق. لم يكن في ذلك المكان أحد. كان عليَّ أن أحفر...». ازداد تنفسه صعوبة... وتسارعًا... «كان عليَّ أن أحفر بيدي العاريتين. وكنت خائفاً». يرفع رأسه فينظر إليّ. بؤبؤا عينيه متسعان... «كنت أخشى أن يأتي أحد. كان ذلك مؤلماً. تكسرت أظافري في التراب. استغرق ذلك زمناً طويلاً. وكان يجب أن أتوقّف لأتصل بآنّا وأقول لها إنني في الخارج أبحث عنك».

يسعل قليلاً، ثم يتابع: «كانت الأرض طرية في الحقيقة، لكنني لم أستطع الحفر عميقاً مثلما أردت. خشيت أن يأتي أحد. وظننت أن فرصة يمكن أن تسنح لي فأعود بعد ذلك... بعد أن تهدأ الأمور. ظننت أنني سأكون قادراً على نقلها، ووضعها في مكان ما... في مكان أفضل. لكن هطول الأمطار بدأ بعد ذلك. ولم تسنح لي تلك الفرصة».

يرفع رأسه وينظر إليّ عابساً: «كنت شبه واثق من أن الشرطة سوف تشك في سكوت. أخبرتني ميغان أنه كان لديه هاجس تجاه عَبَثِها هنا وهناك. قالت لي إنه كان يقرأ رسائلها الإلكترونية ويتجسّس عليها. قلت في نفسي... نعم... كنت أعتزم وضع هاتفها في بيته... في وقت ما... لست أدري. فكرت في الذهاب إليه لشرب زجاجة بيرة، أو شيء من هذا القبيل... بادرة ودّية بين جارين. لست أدري. لم تكن لديّ خطة. لم أفكّر في الأمر كله كما يجب. لم يكن ذلك أمراً فعلته عن سابق تخطيط وتصور. كان مجرد حادث فظيع».

لكن هيئته تتغير من جديد. يبدو ذلك مثل غيوم تعبر السماء... ظلمة الآن، ثم نور. ينهض واقفاً ويسير في المطبخ بخطوات بطيئة... إلى حيث تجلس آنّا قرب الطاولة، تطعم إيفي. يقبّل قمة رأسها، ثم يرفع ابنته من كرسيها.

تقول آنّا محتجة: «توم...».

يبتسم لزوجته ويقول: «لا بأس، لا بأس! أريد احتضانها فقط. أليس كذلك يا حبيبتي؟». يمضي إلى البراد حاملاً ابنته على ذراعه، ويأخذ زجاجة بيرة. ينظر إلي عند ذلك: «هل تريدين واحدة؟».

أهز رأسي.

«لا! أظن من الأفضل ألّا تشربي».

لا أكاد أسمعه الآن. إنني أحسب حركتي... أقدّر إن كنت أستطيع الوصول إلى باب البيت من مكاني هذا قبل أن يستطيع أن يمسك بي.

إذا كان الباب غير مقفل، فإنني أظن أنني أستطيع. أما إذا كان قد أقفله، فسوف أقع في ورطة. أستجمع قواي ثم أجري. أصل إلى ردهة البيت ـ تكاد يدي تمسك مقبض الباب عندما أشعر باصطدام الزجاجة برأسي من الخلف. انفجار من الألم... انفجار أبيض أمام عيني. أهوي على ركبتَيّ. تتغلغل أصابعه في شعري. يجرني من شعري فيعيدني إلى غرفة الجلوس، وهناك يتركني. إنه واقف فوقي، فاتحاً ساقيه، قدم إلى جانب ردفي من هذه الجهة، وقدم إلى جانب الردف الأخرى. ابنته لا تزال في ذراعه. لكن آنّا واقفة إلى جانبه تحاول أن تشدها إليها.

«إعطني إياها يا توم من فضلك! سوف تؤذيها. أعطني إياها من فضلك».

يناول آنّا طفلتها الباكية.

أستطيع سماع صوت توم يتكلم، لكنني أحسه بعيداً جداً... أو كأنني أسمعه عبر الماء. أستطيع تمييز الكلمات، لكنني لا أعرف علاقتها بي... علاقتها بما يحدث لي. يحدث كل شيء بشكل غريب.

يقول: «اصعدي إلى الأعلى! ادخلي غرفة النوم وأغلقي الباب خلفك. لا تتصلي بأحد، هل فهمت؟ إنني أعني ما أقول يا آنّا. إياك أن تتصلي بأحد. ليس في وجود إيفي هنا. لا نريد أن تسوء الأمور». لا تنظر آنّا إليّ. تحمل الطفلة، تضمّها إلى صدرها، ثم تخطو من فوقي مبتعدة، مسرعة.

ينحني توم فوقي، ويضع يده في حزام بنطلوني، ثم يجرني على الأرض... إلى المطبخ. أرفس برجلي، أحاول أن أتمسك بشيء ما، لكنني لا أستطيع. لا أستطيع الرؤية جيداً ـ الدموع تحرق عيني، وكل شيء مشوّش. ألم فظيع كلما اصطدم رأسي بالأرض. أحس بموجة من الغثيان تجتاحني. ألم حار، أبيض عندما أحس شيئاً يضرب صدغي. ثم... لا شيء.

آنّا

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في المساء

إنها على أرض المطبخ. إنها تنزف، لكني لا أظن ذلك شيئاً خطيراً. لم ينتهِ منها بعد. لست أعرف حقاً ما يجعله ينتظر. أظن أن الأمر ليس سهلاً عليه. لقد أحبها... ذات مرة.

كنت في الأعلى... كنت أضع إيفي في الفراش، وكنت أقول في نفسي إن هذا ما أردته حقاً، أليس كذلك؟ سوف تذهب ريتشل أخيراً، مرة وإلى الأبد، ولن تعود أبداً. هذا ما كنت أحلم بحدوثه. نعم... ليس هذا بالضبط... أمر واضح. لكنني أردت ذهابها. كنت أحلم بحياة من غير ريتشل. والآن، أستطيع أن أحصل على تلك الحياة. سنكون نحن الثلاثة فقط. أنا وتوم وإيفي، مثلما ينبغي أن يكون.

تركت نفسي لحظة، لحظة واحدة. أستمتع بهذه الخيالات. لكنني نظرت إلى ابنتي النائمة فأدركت حقيقة ذلك... هذه مجرد خيالات. قبّلت إصبعي ولمست بها شفتيها الرائعتين، وأدركت أننا لن نكون آمنين أبداً. لن أكون آمنة أبداً لأنني أعرف... ولن يكون قادراً على الثقة بي. ثم... من يستطيع القول إن ميغان أخرى لن تأتي؟ أو ـ أسوأ من ذلك ـ آنّا أخرى، واحدة مثلي... من جديد؟

عدت إلى الأسفل فوجدته جالساً إلى طاولة المطبخ يشرب زجاجة

بيرة. لم أستطع رؤيتها أول الأمر، لكني لمحت قدمها، فظننت في البداية أنها انتهت. لكنه قال إنها حية.

قال لي: «ضربة صغيرة فقط». لن يكون قادراً على اعتبارها حادثة.

وهكذا، جلسنا منتظرين. أحضرت لنفسي بيرة أيضاً، وشربنا معاً. قال لي إنه آسف كثيراً لما حدث مع ميغان، لتلك العلاقة بينهما. قبّلني، وقال لي إنه سيعوّضني، وقال إننا سنكون على خير ما يرام، وإن كل شيء سيكون جيداً.

«سوف ننتقل من هنا، مثلما كنت راغبة دائماً. سنذهب إلى أي مكان تريدين... إلى أيِ مكان». سألني إن كنت قادرة على مسامحته فقلت له إنني قادرة، مع مرور الوقت؛ وقد صدَّقني. أظن أنه صدقني.

لقد بدأت العاصفة، تماماً مثلما قالوا. يهدر الرعد فيوقظها، يجعلها تصحو. إنها تتحرك على الأرض. تصدر أصواتاً.

يقول لي: «عليك أن تذهبي. اصعدي إلى الأعلى». أقبّله على شفتيه، ثم أتركه. لكني لا أعود إلى الأعلى. أرفع سماعة الهاتف في الردهة، وأجلس أسفل السلم، وأصغي حاملة السماعة في يدي... أنتظر اللحظة المناسبة. أستطيع سماعه يكلمَّها بصوت منخفض ناعم. ثم أسمع صوتها. أظنها تبكي.

ريتشل

الأحد، 18 آب/ أغسطس 2013

في المساء

إنني أسمع شيئاً... صوت خفيض. أرى التماع الضوء فأدرك أنه المطر... إنه ينهمر. ظلام في الخارج. هنالك عاصفة. هنالك برق. لا أذكر متى حل الظلام. يجعلني الألم الذي في رأسي أعود إلى نفسي. ينتابني الذعر. أحس بقلبي يصعد إلى حنجرتي. إنني على الأرض. إنني على أرض المطبخ. وبصعوبة، أتمكن من رفع رأسي ثم أنهض قليلاً مستندة إلى مرفقي. أراه جالساً إلى طاولة المطبخ ناظراً إلى العاصفة في الخارج. زجاجة البيرة بين يديه.

يسألني عندما يراني أرفع رأسي: «ماذا أفعل بك يا راتش؟ إنني جالس هنا منذ... منذ قرابة نصف ساعة الآن... جالس أسأل نفسي ذلك السؤال. ماذا يجب أن أفعل بك؟ ماذا تتيحين لي من خيارات». يأخذ جرعة كبيرة من زجاجته ثم ينظر إليَّ مفكّراً. أرفع نفسي قليلاً فأجلس مسندة ظهري إلى خزائن المطبخ. رأسي يدور، يسبح؛ وفمي يفيض لعاباً. أحس أنني موشكة على التقيؤ. أعض على شفتي وأغرس أظافري في راحتيْ يدَيّ. عليَّ أن أخرج نفسي من هذا الدوار. لا أستطيع أن أكون ضعيفة الآن. لا أستطيع الاعتماد على أحد غيري. أعرف هذا. لن تتصل آنا بالشرطة. لن تغامر بسلامة ابنتها من أجلي.

يقول توم: «عليك أن تعترفي بالأمر. أنت التي جلبت هذا لنفسك. فكري فيها: لو أنك تركتنا وحدنا، لما وصلت إلى هذا الوضع. وأنا لم أكن لأصل إلى هذا الوضع أيضاً. لم يكن أحد منا ليصل إليه. لو لم تكوني هناك في تلك الليلة، ولو لم تعُد آنا مسرعة إلى البيت بعد أن رأتك في المحطة، فلعلي كنت قادراً على ترتيب الأمور مع ميغان. لم أكن لأجد نفسي... محشوراً إلى هذه الدرجة. ما كنت لأفقد أعصابي. ما كان يمكن أن ألحق الأذى بها. ما كان يمكن أن يحدث شيء مما حدث».

أحسّ نشيجاً يتراكم في حلقي، لكنني أبتلعه. هذا ما يفعله دائماً ـ هذا ما يفعله دائماً. إنه فنّان في هذا... يجعلني أحس أن الذنب ذنبي أنا. يجعلني أحس أنني من غير قيمة.

ينهي بيرته ويُدحْرج الزجاجة الفارغة على الطاولة. وبهزّة حزينة من رأسه، ينهض واقفاً ثم يأتي إلي مادّاً يديه. يقول لي: «هيا الآن! أمسكي بيدي! هيا يا راتش! تعالي إليّ!».

أتركه يشدّني علّي أقف على قدمي. ظهري مستند إلى طاولة المطبخ. وهو واقف أمامي، قبالتي... وسَطه يضغط على وسَطي. يرفع يده إلى وجهي، ويمسح الدموع عن خدي بإبهامه: «ماذا أفعل بك يا راتش؟ ماذا تظنين أنني سأفعل بك؟».

أقول له محاولة الابتسام: «ليس عليك أن تفعل شيئاً. تعرف أنني أحبك. لا زلت أحبك. تعرف أنني لن أخبر أحداً. لا أستطيع أن أفعل هذا بك».

يبتسم ـ تلك الابتسامة الواسعة المتألقة التي كانت تجعلني أذوب في مكاني. أما أنا فأبدأ البكاء. لا أستطيع تصديق هذا، لا أستطيع تصديق أننا وصلنا إلى هنا. لا أستطيع تصديق أن أعظم سعادة عرفتها في حياتي كلها ـ حياتي معه ـ كانت وهماً.

يتركني أبكي بعض الوقت. لكن... لا بد أنني أُضْجره لأن تلك الابتسامة المدوّخة تختفي وتظهر تكشيرة على شفتيه.

يقول: «هيا يا راتش... يكفي هذا! كفّي عن التباكي». يتراجع قليلاً ويمسك ملء يده من المناديل الورقية... من العلبة التي على الطاولة. يقول لي: «نظّفي أنفك». فأنفّذ ما قيل لي.

إنه ينظر إليّ؛ وتعابير وجهه تنطق بالازدراء. يقول لي: «في تلك الليلة، عندما ذهبت إلى البحيرة كنت تظنين أن لديك فرصة، أليس كذلك؟»... يبدأ بالضحك... «هكذا ظننت، ألم تظني ذلك؟ كنت ترفعين رأسك ناظرة إليَّ بعينين غائبتين، متوسلتين... كنت أستطيع مضاجعتك عند ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ كنتِ في غاية السهولة... في متناول يدي». أعضّ بقوة على شفتي. يقترب مني مرة أخرى: «كنت تشبهين واحداً من تلك الكلاب التي لا يريدها أحد، الكلاب التي أسيئت معاملتها طيلة حياتها. يستطيع المرء أن يركل كلباً منها، ثم يركله من جديد، لكنه يظل يعود إليه زاحفاً هازّاً ذيله... متوسّلاً. يأمل أن يكون الأمر مختلفاً هذه المرة. يأمل أنه يمكن أن يفعل الشيء الصحيح هذه المرة فيحظى بالحب. أنت من هذا النوع، ألست كذلك يا راتش؟ أنت كلبة». يدس يده حول خصري، ويضع فمه على فمي. أترك لسانه ينزلق بين شفتي، وأضغط وسطي على وسطه. أحس به يتصلّب.

لست أدري إن كان كل شيء لا يزال في مكانه مثلما كان عندما عشت هنا. لست أدري إن كانت آنّا قد أعادت ترتيب الخزائن. إن كانت قد وضعت السباغيتي في علبة مختلفة. أو نقلت ميزان المطبخ من الخزانة السفلية اليسرى إلى الخزانة السفلية اليمنى. لست أدري. لكنني آمل فقط. أدسّ يدي في الدرج الذي خلفي راجية ألا تكون آنّا قد نقلت محتوياته.

أقول له عندما تنتهي القبلة: «هل تعرف؟ قد تكون محقاً في هذا». أرفع وجهي إلى وجهه: «ربما... لو لم آتي إلى شارع بلنهايم رود تلك

الليلة، لربما كانت ميغان حية إلى الآن». يهز رأسه. تقع يدي على شيء مألوف. أبتسم، ثم أميل صوْبه أقرب، فأقرب... أحيط خصره بيدي اليسرى. أهمس في أذنه: «لكن، صدقاً... بما أنك أنت الذي حطّم جمجمتها... هل تعتقد أنني مسؤولة عن ذلك؟».

يشيح بوجهه عني. وعند ذلك، أندفع إلى الأمام، أضع ثقلي كله لدفْعه عني فيفقد توازنه ويصطدم بطاولة المطبخ ثم يتعثر فيسقط. أرفع قدمي فأهوي بها على قدمه بأشد ما استطعت. وبينما انطوى جسده على نفسه ألماً، أمسك بشعره عند مؤخر رأسه وأجذبه صوبي ثم أضربه بركبتي على وجهه. يصرخ، وأحس أن الغضروف في ركبتي قد تحطم. أدفع به إلى الأرض، وألتقط المفاتيح عن الطاولة، ثم أخرج إلى الحديقة قبل أن يستطيع النهوض.

أنطلق نحو السياج، لكنني أنزلق في الوحل. فأسقط. يصبح فوقي قبل أن أبلغ السياج... يجرّني إلى الخلف... يجرني من شعري... تُطْبق مخالبه على وجهي... ويبصق اللعنات مع الدم ـ *أيتها الغبية... عاهرة غبية... لماذا لا تستطيعين الابتعاد عنا؟ لماذا لا تستطيعين أن تتركيني وشأني؟* أفلح في الابتعاد عنه من جديد، لكن لا مكان أذهب إليه. لن أستطيع العودة إلى البيت للخروج من الباب الأمامي، ولا أستطيع الوصول إلى السياج لأقفز من فوقه. أصيح، لكن لن يكون صوتي أعلى من صوت المطر والرعد، ومن صوت القطار المقترب. أركضحتى نهاية الحديقة... أركض إلى الأسفل، نحو سكة القطار. لا مخرج من هنا. أقف في تلك النقطة، النقطة نفسها التي وقفت فيها قبل سنة أو أكثر حاملة طفلته بين ذراعَيّ. أدير ظهري إلى السياج وأنظر إليه مقترباً منِّي، عازماً. أراه يمسح فمه بذراعه ويبصق دماً على الأرض. أحس اهتزاز سكة القطار يصل إلى السياج من خلفي فيهتز معه ـ صار القطار فوقنا تقريباً، صوته صريخ هائل. شفتاه تتحركان. يقول لي شيئاً. لكنني لا

أستطيع سماعه. أنظر إليه مقترباً. أنظر إليه ولا أتحرك إلى أن يصبح فوقي تقريباً. وعندها أنطلق مثل نابض. أغرس اللولب في عنقه، اللولب الحاد، لولب أداة فتح الزجاجات.

تتسع عيناه، ويسقط من غير صوت. يرفع يديه إلى رقبته. عيناه معلقتان بعينَيّ. يبدو كأنه يصرخ. أنظر إليه حتى أصبح غير قادرة على النظر. أدير ظهري. ومع مرور القطار، أستطيع رؤية وجوه في النوافذ المضاءة المتألقة... رؤوس منكبّة على كتب وهواتف... مسافرون آمنون دافئون ذاهبون إلى بيوتهم.

الثلاثاء، 10 أيلول/ يوليو 2013

في الصباح

يمكنك أن تحس بهذا: إنه مثل طنين المصابيح الكهربائية... ذلك التغير في الجو عندما يتوقف القطار عند الإشارة الحمراء. لست الوحيدة التي أنظر الآن. لا أظن أنني كنت الوحيدة في يوم من الأيام. أظن أن كل الناس يفعلون هذا ـ ينظرون إلى البيوت التي تمرّ بهم ـ لكن كلاً منا يراها بعين مختلفة. نراها مختلفة... كلنا. أما الآن، فالجميع يرى الشيء نفسه. يمكنك أحياناً سماع الناس يتحدثون عن ذلك.

«هناك، إنه ذلك البيت. لا، لا، ذلك البيت، إلى اليسار ـ هناك. البيت الذي فيه زهور عند السياج. هناك حدث الأمر».

البيتان ذاتهما خاويان: الرقم 15 والرقم 23. لكنهما لا يبدوان خاويين، مصاريع النوافذ الخارجية مرفوعة، والأبواب مفتوحة. لكنني أعرف الآن أن سبب ذلك هو أنهما معروضان للبيع. إنهما مطروحان في السوق الآن رغم أن من الممكن أن يمر زمن غير قليل قبل توفر مشترٍ جادّ لأي منهما. أتخيل سماسرة العقارات مصطحبين في تلك الغرف

أشخاصاً أكثرهم أشبه بالغيلان، فضوليين توّاقين إلى رؤية ذلك عن قرب... إلى رؤية المكان الذي سقط فيه وشربت الأرض دمه.

يؤلمني أن أفكر فيهم متجولين في البيت... في بيتي أنا، حيث كان لديّ أمل ذات يوم. أحاول ألا أفكر في ما حدث بعد ذلك. أحاول ألا أفكر في تلك الليلة. أحاول... لكني أفشل.

جلسنا جنباً إلى جنب، غارقتَيْن في دمه. جلسنا على الأريكة، أنا وآنا. زوجتان تنتظران وصول الإسعاف. لقد اتصلت بهم آنا. اتصلت بالشرطة أيضاً. قامت بكل شيء. اهتمت بالتفاصيل كلها. وصل عناصر الإسعاف، لكن الوقت كان متأخراً بالنسبة لتوم. وفي أعقابهم جاءت دورية الشرطة، ثم جاء المحققان غاسغيل ورايلي. أصابتهما دهشة بالغة عند رؤيتنا معاً. طرحا أسئلة لكني لم أستطع فهم كلماتهما. كنت لا أكاد أستطيع الحركة، ولا التنفس. لكن آنا تكلمت... هادئة واثقة.

قالت لهما: «كان هذا دفاعاً عن النفس. رأيت كل شيء. رأيت كل شيء من النافذة. هاجمها بأداة فتح الزجاجات. كان يريد قتلها. لم يكن أمامها خيار آخر. لقد حاولت...» كانت تلك المرة الأولى التي تتلعثم فيها، المرة الأولى التي أراها تبكي... «حاولت إيقاف النزف، لكنني لم أستطع، لم أستطع».

أحضر أحد رجال الشرطة الصغيرة إيفي التي ظلت، بأعجوبة، نائمة خلال ما حدث كله. ثم أخذونا جميعاً إلى قسم الشرطة. وضعوني في غرفة وآنا في غرفة أخرى. ثم طرحوا مزيداً من الأسئلة التي ما عدت قادرة على تذكرها. حاولت كثيراً أن أجيب على أسئلتهم. أن أركز. حاولت تكوين كلمات، لكن عبثاً. قلت لهم إنه هاجمني، إنه ضربني بالزجاجة. وقلت إنه هاجمني بعد ذلك بأداة فتح الزجاجات. أخبرتهم بأنني تمكنت من انتزاع ذلك السلاح منه. وبأنني استخدمته دفاعاً عن نفسي. فحصوني. نظروا إلى الجرح في رأسي، ونظروا إلى يدي، وإلى أظافري.

قالت رايلي متشكّكة: «ليست جروحك شديدة الشبه بجروح من يدافع عن نفسه». خرجا وتركاني هناك مع شرطي في ملابس رسمية ـ إنه ذلك الشرطي نفسه الذي جاء إلى شقة كاثي في آشبري منذ عمر مضى... حب الشباب ـ ظل واقفاً عند الباب متجنّباً النظر في عينَيّ. لكن رايلي جاءت لاحقاً. قالت لي: «لقد أكدت السيدة واتسون روايتك. تستطيعين الذهاب الآن». لم تستطع مقابلة نظراتي أيضاً. اصطحبني شرطيٌّ آخر في ملابس رسمية فأخذني إلى المستشفى حيث عالجوا الجرح في رأسي.

كان هنالك كلام كثير عن توم في الصحف. اكتشفت أنه لم يخدم في الجيش قط. حاول دخول الجيش، لكنهم رفضوه مرتين. وأما قصته عن أبيه فكانت كذبة أيضاً: قلَبَ القصة رأساً على عقب. لقد أخذ مدخرات والديه، ثم خسرها كلها. سامحاه، لكنه قطع كل صلة له بهما عندما رفض والده رهن بيته حتى يستطيع إقراضه مزيداً من المال. كان يكذب طيلة الوقت، في كل شيء. حتى عندما لم يكن محتاجاً إلى الكذب، وحتى عندما لم يكن للكذب أي معنى.

تذكرت تماماً كيف حدّثني سكوت عن ميغان قائلاً: *لم أعرف حتى أي شخص كانت*؛ فشعرت بمثل ما شعر به تماماً. كانت حياة توم كلها مبنية على الأكاذيب ـ أكاذيب وأنصاف حقائق يقولها حتى يجعل نفسه يبدو أفضل، أو أقوى، أو أكثر جاذبية مما كان. وقد صدَّقتُها كلها، قبلتُها كلها. آنّا فعلت ذلك أيضاً. لقد أحببناه. أسأل نفسي إن كنا سنحب النسخة الأضعف، النسخة الحقيقية ذات العيوب، النسخة غير الملمَّعة. أظن أنني كنت سأحب تلك النسخة. كنت سأصفح عن أخطائه ونقاط ضعفه فقد اقترفت أخطاء كثيرة، أنا أيضاً.

في المساء

أنا في فندق في بلدة صغيرة على ساحل نورفولك. وغداً، سأتابع

سيْري نحو الشمال. قد أصل إلى أدنبرة... ربما أذهب أبعد من ذلك. لم أقرّر بعد. لا أريد إلا أن أتأكد من أن مسافة كبيرة قد صارت ورائي. لديّ بعض المال. كانت أمي كريمة حقاً عندما اكتشفت كل ما مَرَّ بي. ليس عليَّ أن أقلق من تلك الناحية. لا يزال أمامي وقت للقلق.

استأجرت سيارة اليوم بعد الظهر، ثم قدتها إلى هولكام. هناك كنيسة قرب القرية تماماً دفن رماد ميغان فيها إلى جانب عظام ابنتها ليبي. قرأت هذا في الصحف. جرى شيء من الجدل حول ذلك الدفن نتيجة دور ميغان المفترَض في وفاة الطفلة. لكنهم سمحوا بالدفن آخر الأمر. يبدو لي ذلك عملاً صحيحاً. لقد نالت عقاباً كافياً مهما يكن ما فعلته.

بدأ هطول المطر عند وصولي إلى ذلك المكان. لم أرَ أحداً فيه. لكنني أوقفت السيارة وتجولت في المقبرة. وجدت قبرها في الزاوية القصوى شبه مختبئ تحت صفّ من أشجار التنوب. لا يمكن أن يعثر المرء على ذلك القبر إلا إذا كان يعرف أن عليه البحث. لم تحمل شاهدة القبر إلا اسمها وتاريخ ميلادها ووفاتها، لا ذكرى من محب، ولا من زوج، ولا من ابنة أو أم. أما شاهدة قبر الطفلة فحملت كلمة واحدة «ليبي». صار لها الآن قبر على الأقل؛ لم تعد وحيدة قرب سكة القطار.

اشتدّ المطر. وعندما عدت مجتازة باحة الكنيسة، رأيت رجلاً واقفاً ببابها. تخيلت لحظة أنه سكوت. أصابني الذعر، ومسحت المطر عن عيني ثم نظرت من جديد فرأيت أن الواقف بالباب كاهن. رفع يده لي بالتحية.

عدت إلى السيارة نصف راكضة وقد داهمني خوف لا موجب له. كنت أفكر في عنف لقائي الأخير مع سكوت، وفي حالته آخر الأمر، متوحشاً، مهووساً، على حافة الجنون. لن يجد راحة بعد الآن. كيف يمكن أن يجد راحة؟ أفكر في هذا، ثم أفكر كيف كانا معاً، كيف كان هذان الشخصان معاً، كيف كنت أتخيلهما. فأحسست بوطأة الفقدان. إنني أحس فداحة فقْدهما أيضاً.

بعثت برسالة إلكترونية إلى سكوت اعتذرت فيها عن الأكاذيب التي قلتها له. وددت أن أعتذر أيضاً لأنني لم أعرف شيئاً عن توم... وكان يجب أن أعرف. لو كنت منتبهةً خلال تلك السنين كلها، فهل كنت سأعرف؟ قد لا أجد راحة... أنا أيضاً.

لم يأتني رد على رسالتي. ولم أتوقّع ردّاً.

أعدت السيارة، ثم مضيت إلى الفندق فحجزت غرفة. ذهبت لأمشي في الخارج، حتى الميناء، حتى أمنع نفسي من التفكير في روعة الجلوس في كنبة جِلدٍ في البار الدافئ خافت الإنارة مع كأس من النبيذ في يدي.

أستطيع أن أتخيل تماماً كم سيكون لذيذاً ذلك الإحساس عندما أبلغ نصف كأسي الأولى. وحتى أُبعد هذا عني بدأت أعد الأيام منذ توقفي عن الشرب: عشرون يوماً. بل واحد وعشرون يوماً إذا حسبت هذا اليوم أيضاً. ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال: فترة صحوي الأطول منذ سنوات.

كانت كاثي ـ هذا غريب ـ هي من قدَّم لي آخر كأس من الشراب. عندما أوصلتني الشرطة إلى البيت... شديدة الشحوب، ملطخة بالدم... وأخبرتها بما حدث، أتت بزجاجة من ويسكي جاك دانييلز من غرفتها، وصبَّت كأساً كبيرة لكل منا. ما كانت قادرة على التوقف عن البكاء. كانت تقول إنها آسفة كثيراً... كأن الذنب ذنبها هي. شربت الويسكي ثم تقيأت على الفور. ولم ألمس قطرة شراب بعد ذلك. لكن هذا لا يعني أنني غير راغبة في الشراب.

عندما بلغت الميناء، استدرت يساراً ومشيت حول حافته حتى وصلت إلى الشاطئ الذي أستطيع السير عليه ـ لو كنت أريد ذلك ـ حتى أعود إلى هولكام: كاد الظلام يخيم الآن. وكان الجو بارداً قرب الماء، لكنني واصلت السير. أريد أن أمشي حتى أتعب، حتى أشعر بالإرهاق،

حتى يبلغ تعبي حداً يمنعني من التفكير. ربما أصير قادرة على النوم عند ذلك.

الشاطئ مهجور. صار البرد شديداً. شددت على فكّي حتى أمنع أسناني من الاصطكاك. سرت سريعاً فوق الحصى، ومررت بأكواخ الشاطئ التي تبدو شديدة الجمال في ضوء النهار، لكنها مخيفة الآن... كل واحد منها مكمن محتمل. تدب الحياة في تلك الأكواخ عندما تعصف الريح وتطقطق ألواحها الخشبية. يصطدم واحدها بالآخر. وتحت صوت البحر، يسمع المرء حركة وهمهمة: «شخص آتٍ، أو شيء آتٍ، يقترب ويقترب».

استدرت عائدة. رحت أركض.

أعرف أن لا شيء هناك، لا شيء مخيفًا. لكن هذا لا يستطيع وقف الذعر المتصاعد من معدتي إلى صدري وإلى حنجرتي. ركضتُ بأسرع ما استطعت. لم أتوقف حتى بلغت الميناء، حتى صرت تحت أضواء الشارع الساطعة.

وعندما صرت في غرفتي، جلست على السرير. جلست على يدَيّ حتى أوقف ارتعاشهما. فتحت البراد الصغير وأخذت زجاجة ماء وكيساً من البذور المحمَّصة. تركت النبيذ وزجاجات الجن الصغيرة رغم أنها قادرة على مساعدتي في النوم، رغم أنها ستجعلني أنزلق إلى نيسان/ أبريل دافئ مريح. تركتها رغم أنها ستجعلني أنسى، لوهلة فقط، تلك النظرة على وجهه عندما استدرت لأراه يموت.

لقد مرَّ القطار. سمعت صوتاً من خلفي، ورأيت آنّا خارجة من البيت. سارت مسرعة صوْبنا. وعندما صارت إلى جانبه خرّت على ركبتيها ووضعت يديها على رقبته.

كانت على وجهه نظرة صدمة، نظرة ألم. أردت أن أقول لها: *لا فائدة؛ لن تستطيعي مساعدته الآن*. لكني أدركت عند ذلك أنها ما كانت

تحاول وقف النزيف. كانت تتأكد. كانت تدير أداة فتح الزجاجات حتى تدخل أكثر، حتى تدخل أكثر وأكثر، ممزِّقة حنجرته. وكانت خلال ذلك كله تكلمه بصوت خفيض خفيض. لم أستطع سماع كلماتها.

رأيتها آخر مرة في قسم الشرطة عندما أخذونا لتسجيل إفاداتنا. قادوها إلى غرفة، وقادوني إلى غرفة أخرى. لكنها لمستْ ذراعي قبل أن تذهب. قالت لي: «اهتمي بنفسك يا ريتشل». كان في طريقة قولها تلك الكلمات شيئاً جعلني أحسّها إنذاراً. إننا مرتبطتان معاً، مرتبطتان إلى الأبد عبر تلك القصص التي قلناها: لم يكن لي خيار غير طعْنه في رقبته؛ وحاولت آنّا إنقاذه.

دخلت سريري، وأطفأت النور. لن أستطيع النوم، لكن لا بدّ من المحاولة. أظن أن الكوابيس ستتوقف آخر الأمر، سأكف عن إعادتها في رأسي مرة بعد مرة بعد مرة. أما الآن، الآن تحديداً، فأنا أعرف أن ليلة طويلة تنتظرني. ويجب أن أنهض باكراً صباح الغد حتى ألحق بقطاري.

شكر وتنويه

ساعدني أشخاص كثيرون في كتابة هذا الكتاب. لكن أحداً منهم لم يكن صاحب فضل أكثر من وكيلة النشر ليزي كريمر، ليزي الرائعة الحكيمة. وأيضاً، شكر كبير لهارييت غول وأليس هوي وإيما جاميسون وتشيارا ناتالوسي، وإلى كل شخص في مؤسسة ديفيد هيام، إضافة إلى تايم نيلسن وستيلا غياتراكو.

وامتناني الكبير أيضاً للمحرَرَيْن اللامعَيْن على جانبَيْ الأطلسي: سارا آدمز، وسارا ماكغراث، وميتا برولوفوست. أشكر أيضاً أليسون بارو، وكيتي لوفتوس، وبيل سكوت كير، وهيلين إدوارز، وكيت سامانو، والفريق الرائع لدى مؤسسة ترانسوورلد ـ كثيرون جداً، لا أستطيع ذكر أسمائهم جميعاً.

أشكر كيت نيل، وجيمي ويلدينغ، وأمي، وأبي، وريك على كل ما قدَّموه من مساندة وتشجيع.

وأخيراً، أوجِّه شكري إلى من ينطلقون إلى أعمالهم كل يوم في لندن؛ أولئك الذين مَدّوني بشرارة الإلهام الصغيرة تلك.



تصميم الغلاف نجاح طاهر

بولا هوكينز

مثلما يفعل قطارها، تندفع هذه القصة، ولا يملك القارئ إلا أن يواصل تقليب الصفحات صفحة بعد أخرى - بوسطن غلوب.

تفوق متعة رواية فتاة القطار وأسلوبها السردي أي كتاب آخر منذ رواية "فتاة مفقودة"....وهي جديرة بأن تجتذب جمهوراً ضخماً مسحوراً من القرّاء - نيويورك تايمز.

ما من شيء يجعلك مدمناً عليه أكثر من رواية "فتاة القطار"- فانيتي فير.

رواية نفسية مشوّقة. رواية ستغير إلى الأبد نظرتك إلى حياة الآخرين.

رواية تجبرك على قراءتها... تغمر انفعالات القارئ ومشاعره... مثل روائع هيتشكوك... عمل شديد الإثارة.

تأخذ ريتشل قطارها نفسه كل صباح. وهي تسير على تلك السكة كل يوم. تمر سريعاً بسلسلة من بيوت الضواحي اللطيفة. يتوقف القطار عند تلك الإشارة الضوئية فتنظر، كل يوم، إلى رجل وامرأة يتناولان إفطارهما على الشرفة. صارت تحسّ أنها تعرفهما، وأسمتهما "جس" و"جيسون". صارت ترى حياتهما كاملة، حياة غير بعيدة عن حياة خسرتها منذ وقت قريب.

ثم ترى ما يصدمها. مرّت دقيقة واحدة قبل أن يتحرك القطار لكنها كانت كافية. تغيّر كل شيء الآن. لم تستطع ريتشل كتم ما رأته فأخبرت الشرطة وصارت مرتبطة بما سيحدث بعد ذلك ارتباطاً لا فكاك منه مثلما صارت مرتبطة بحيوات كل من لهم علاقة بالأمر.

ISBN 978-977-6483-47-7



توزيع: دار التنوير

